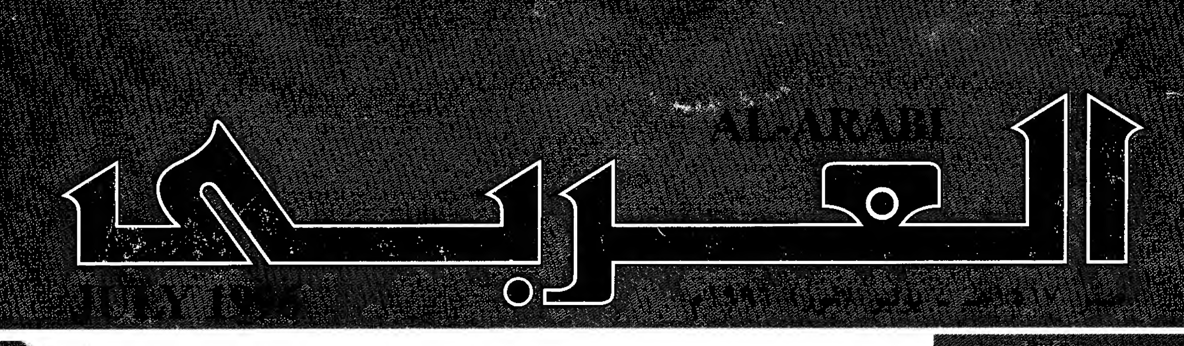




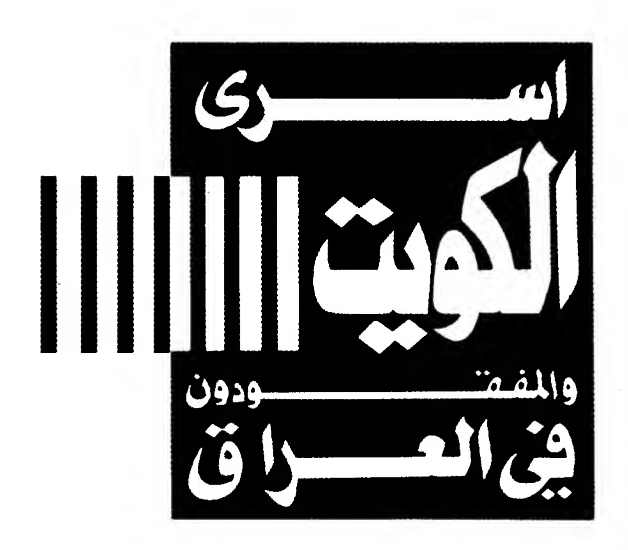

# كمبوديا
## هبة المطر.. شجن البشر

باقة جديدة من القصص العالمية

التقدم الأسي: الطريق لعبور التخلف

هل يكتفي الخليج ذاتيا من الدواء؟

# عديدون هم أسرى الحرب والمفقودون من الكويت في سجون العراق




## ألم يحن الوقت لإطلاق سراحهم؟

اللجنة الوطنية لشؤون الأسرى والمفقودين




**مجلة ثقافية مصورة**
**تصدر شهرياً عن وزارة الإعلام بدولة الكويت**
**للوطن العربي ولكل قارىء للعربية في العالم**

رأس تحريرها:
د. أحمد زكي
(١٩٥٨ - ١٩٧٥)
أحمد بهاء الدين
(١٩٧٦ - ١٩٨٢)

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي
Editor - in - Chief: Dr. Mohammad Al-Rumaihi
مدير التحرير
أنور الياسين
Managing Editor: Anwar Al - Yaseen

**العدد ٤٥٢ يوليو ١٩٩٦م**

عنوان المجلة
العربي
ص . ب : ٧٤٨ - الصفاة -
الكويت - الرمز البريدي: 13008
مبنى وزارة الإعلام رقم (٢) شارع
الصحافة - الشويخ
تلفون: ٤٨٤٥١٣٤ - ٤٨٤٤١٦٤
- ٤٨٤٧٥٨٢
فاكس التحرير: ٤٨٤٢٢٥١
المراسلات باسم رئيس التحرير

الاشتراكات

قسم الاشتراكات - مجلة العربي - وزارة الإعلام
ص . ب : ٧٤٨ الصفاة - الكويت - الرمز البريدي 13008
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية أو شيك
بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام طبقا لما يلي:
الوطن العربي ٨ د.ك أو ٣٠ دولارا، باقي دول العالم ١٠ د.ك أو ٤٠ دولاراً
SUBSCRIPTION: ALL COUNTRIES 40 $ OR THE EQUIVALENT

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الإعلانات تلفون: ٤٨١١١٦٦
فاكس الإعلان والتوزيع: ٤٨١١٢٢٥

**AL-ARABI**

**A Cultural Monthly Arabic Magazine in Colour Published by: Ministry of Information - State of Kuwait.**
**Issue No. 452 July 1996.**
**P.O.Box: 748**
**Al Safat Kuwait.**
**Tel: 4845134 - 4844164 - 4847582 -**
**Fax.: 4842251**


| البلد | السعر | البلد | السعر |
|---|---|---|---|
| الكويت | ٥٠٠ فلس | سلطنة عمان | ٥٠٠ بيسة |
| الأردن | ٥٠٠ فلس | لبنان | ٣٠٠٠ ليرة |
| البحرين | ٥٠٠ فلس | النمسا | ٣٠ شلنا |
| مصر | ١,٢٥ جنيه | سوريا | ٣٠ ليرة |
| السودان | ١٠٠ جنيه | الإمارات | ٧ دراهم |
| موريتانيا | ١٢٠ أوقية | المغرب | ١٠ دراهم |
| إيطاليا | ٤٠٠ ليرة | ليبيا | ٥٠٠ درهم |
| تونس | دينار واحد | بريطانيا | ٢٥٠ باوند |
| الجزائر | ٦٠ دينارا | فرنسا | ٢٥ فرنكا |
| السعودية | ٧ ريالات | أمريكا | ٣ دولارات |
| اليمن | ٧٠ ريالا | ألمانيا | ٤,٢٥ مارك |
| قطر | ٧ ريالات | كندا | ٤,٢٥ دولار كندي |

طبع بمطبعة حكومة الكويت




رسالة الشهر

# إسرائيل و دماء أطفال «قانا»

.. رئيس التحرير

عندما كنت أكتب الأحرف الأولى من رسالتي هذه كانت بوارج العدو الصهيوني لا تنفك تقصف الخط الساحلي الذي يصل الجنوب اللبناني ببيروت وجميع المناطق اللبنانية.

وكان الشعب في لبنان بجميع طوائفه ومذاهبه يقف دقيقة صمت على أرواح الشهداء المدنيين الذين سقطوا في بلدتي «قانا» و«النبطية» بمجزرتين اقشعرت لهما الأبدان، وذرفت من أجلهما الدموع، ليس فقط في لبنان بل في جميع أرجاء المعمورة.. فالعدوان الإسرائيلي الغاشم يأتي في فترة حاسمة من مباحثات السلام مع سوريا ولبنان، ليبرهن للعالم كله عن مدى الإرهاب الصهيوني بكل أبعاده من قتل وتنكيل وحرق وتهجير. فمن منا لم ير أشلاء الضحايا وقد تطايرت في كل مكان ومن منا لم يشاهد الدمار والحزن باديا على كل إنسان؟! ومن منا أيضا لم ير آلاف المواطنين وقد هجّروا من أراضيهم وقد تركوا خلفهم كل ما يملكون؟! كل ذلك كان جليا أمام جميع الناظرين.. وكل هذا حدث في بلد يستعد للسلام فراح أبناؤه يأخذون طريقهم في البناء وإصلاح ما دمرته الحرب السابقة، لكن ومع ذلك.. عاد الغدر الصهيوني يمتد إلى لبنان مرة أخرى، وها هي البربرية الإسرائيلية تستبيحه جوا وبحرا وبرا وتنفذ من جديد أبشع الجرائم والمجازر وكأنه لم يكفها ما فعلته في دير ياسين وفي صبرا وشاتيلا وصولا إلى مجزرة الحرم الإبراهيمي العام ١٩٩٤.

من ذلك كله ندلف ولو بالشيء القليل إلى حديثكم الشهري في العدد (٤٤٩) أبريل ١٩٩٦م والموسوم تحت عنوان «مرة أخرى وليست أخيرة: نحن وإسرائيل حالة اللاحرب واللاسلم.. ثقافيا».. وقد طالعت مقالكم هذا باهتمام بالغ وسررت كثيرا بهذا المقال الرائع لما تضمنه من دعوة لمعرفة عدونا وسبر أغواره بعيدا عن الرفض العاطفي الأهوج، وأكثر ما ميّز حديثكم أنه تزامن مع فترة الاعتداءات الإسرائيلية على لبنان.. فها هو التطبيع السياسي الذي ننشده ينسف عن بكرة أبيه.. وها هي إسرائيل تثور مجددا، وبكل قوتها كي تفرض الشروط التي تريدها دون ممانعة من أحد.

مروان الكردي
صيدا ـ لبنان

## .. ونقول

قبل مجزرة قانا وبعدها، ظللنا في هذه المجلة نؤكد أن الصراع العربي - الإسرائيلي، ليس عسكريا فقط، ولن ينتهي بانتهاء الحرب بين الجيوش.

ومن هذا المنطلق كان إيماننا عميقا بضرورة فهم عقلية العدو، والاطلاع الواعي على كل ما يصدر عنه. بعيدا عن تلك الحساسية التي سادت نظرتنا تجاهه وعطلت من إمكانات مواجهته بعلم واقتدار، فيما تقوم مراكز الأبحاث لديه بدراسة كل التفاصيل في تاريخنا وحاضرنا ووضع التصورات لمستقبلنا أيضا.

إن نزع هذا الغطاء عن أعيننا، بات ضرورة، بعد أن كشفت مجزرة «قانا» الوجه الإسرائيلي البشع الذي سيظل هكذا، حتى ولو ظل يتشدق بما يسميه السلام طويلا، إنه صراع حضاري أولا وأخيرا. فلنستعد له بعقول قادرة على مواجهة التحدي.

«العربي»

# الإسلام وتحريم التصوير



.. أخي الأعز الدكتور
محمد الرميحي المحترم
تحية طيبة ..

قرأت عدد مايو ١٩٩٦ من مجلة «العربي» الغراء، وشكرا لتفضلكم بنشر دراستي عن «الإسلام وتحريم التصوير» وما أرى ضرورة التنبيه إليه في الأعداد القادمة، خشية أن أحمل أنا مسئولية الخطأ.. فصورة «قافلة الجمال» المنشورة مع المقال هي حقا من أعمال يحيى بن محمود الواسطي، إلا أنها ليست من «العقد الفريد» بل من «مقامات الحريري»، وكان الواسطي قد رسم كل صور المقامات.

معذرة لهذا الطلب..
ودمتم مشكورين.

أخوكم
بلند الحيدري

# عبد العزيز حسين.. وداعاً



نعت الكويت في التاسع من يونيو الماضي واحداً من رجالاتها ورجالات الأمة العربية الذين أثروا مسيرة الثقافة فيها فكراً وعملاً وتأصيلا. رحل عنا عبد العزيز حسين المعلم والرائد بعد أن ترك في الذاكرة العربية أثراً لا يمحى. لقد سكن جسد المعلم عن عمر يناهز السادسة والسبعين قضى معظمه في العمل العام، حيث لعب دوراً أساسياً في تأسيس الأجهزة الحديثة لدولة الكويت في مجالات السياسة والثقافة والتعليم. ولا توجد مؤسسة من المؤسسات الثقافية التي تفخر بها الكويت إلا وتحمل بعضاً من بصماته. شغل المعلم الفقيد العديد من المناصب المهمة، فقد كان مديراً للمعارف وأول سفير للكويت في مصر ومندوبا دائما لها لدى الجامعة العربية ثم عين وزيراً لشئون مجلس الوزراء ثم مستشاراً لسمو أمير البلاد من عام ١٩٨٥ حتى وفاته. وإلى جانب هذا تولى العديد من المناصب الدولية، فقد كان عضو المجلس التنفيذي لليونسكو عام ١٩٨٤، وعضو مجلس إدارة الصندوق العربي لتعزيز الثقافة عام ١٩٨٨. وفي كل هذه المناصب كان مثالا للرائد الذي يضيف ويبدع الشيء الكثير. وقد ساعده على هذا انفتاحه الفكري وسعة اطلاعه فأضاف لكل المناصب التي تولاها بعضا من قبس روحه وإبداع عقله. رحم الله الفقيد وجزاه خيرا عما قدمه لأمته.

# التجربة اليابانية والواقع العربي

.. رئيس التحرير

تحية لمجلتكم الغراء «العربي» التي تعد بحق إسهاما متميزا نحو مستقبل مشرق آمل أن يكون وشيكا. طالعت في عدد مارس ١٩٩٦ عرضا لكتاب «التجربة اليابانية.. وبناء الدولة في جنوب شرق آسيا» بقلم د. شوقي جلال. وأعتقد أن هذا الكتاب قد فجر جرحا غائرا لأمتنا، التي تحاول أن تستجمع طاقاتها لتلاحق ركب المستقبل، متوهمة أنها تسير في الطريق الصحيح. فإذا بها تجد نفسها تغوص في مستنقع الجهل والتخلف. وأتفق مع الكاتب - الذي اتخذ الصين نموذجا للدولة النامية - أننا تقاعسنا عن أداء واجبنا نحو وطننا، وقد قنعنا بموقف المتفرج المبهور بكل ما حوله، وأضعنا عقودا.. بل قرونا من عمر أمتنا بكاء على أطلال ماضيها التليد وتغاضينا عن سلبياتنا كمجتمع برغم أنها العامل الأهم في نهوض الأمم. أتمنى لو ترجم هذا الكتاب للعربية، لأننا في أمس الحاجة إليه.

خالد محمد كمون
إدكو - البحيرة - مصر

# البؤس الجميل

.. رئيس التحرير

أنا من قراء مجلة «العربي» وأحرص على شراء نسختي في مطلع كل شهر، لما تحتويه هذه المجلة الفريدة من غذاء للعقل في جميع المجالات، وما تقدمه لنا من أعمال أدبية راقية. وشهادة حق أن هذه المجلة عزيزة على قلوبنا جميعا، وهذا يرجع إلى أن إدارتها وكتّابها يحترمون العقل العربي والقارىء العربي ويضعونه في مكانه المناسب.

وقد قرأت في عدد أبريل ١٩٩٦ في باب «واحة العربي» مقالا للأستاذ محمد مستجاب بعنوان «البؤس الجميل» شرح لنا فيه حالة البؤس التي قد تصيب الأفراد بغض النظر عن اختلاف اختصاصاتهم وميولهم، وعدّد لنا مشاهير الشخصيات التي أصيبت ببؤس في مراحل حياتها المختلفة من سياسيين وشعراء وفنانين. وقد أثار هذا المقال شعورا بمدى الحاجة إلى معرفة الكثير عن مشاهير الأمة الذين أثروا في الحياة العربية وتأثروا بها. ونحن - الشباب - نود أن نعرف قدرا ليس بالقليل عن الشخصيات العربية الشهيرة السياسية والعلمية والأدبية والفنية، فمن حقهم علينا أن نعرفهم، ونحن ذلك الجيل الذي لا يعلم الكثير عنهم، ومن حقنا أن نعرف الكثير عن رجالنا الذين يستحقون كل الشكر. ولذلك أقترح أن تخصص العربي صفحتين أو ثلاثا في كل عدد لإلقاء الضوء على شخصية عربية شهيرة.

ماهر مريد البدراوي
أسيوط - مصر

# فيتنام وانتصار الأسطورة



.. رئيس التحرير

شدني استطلاع الدكتور محمد المخزنجي عن فيتنام المنشور في عدد أبريل ١٩٩٦، خاصة تساؤله عندما تناول هزيمة الجنود الأمريكيين على يد الفيتناميين «كيف ينتصر هؤلاء المتحركون بالمسطرة على هؤلاء المتحركين بالأسطورة، إنها مواجهة محسومة لصالح من يعتقد أن روحه تخرج لتنتقل إلى أخ آخر. إنسان، أو حيوان، أو طير، وما الموت إلا ولادة جديدة، بينما الآخر يعتقد ببؤس أنه ميت بموته».

لقد أثار الاستطلاع لدي خواطر كثيرة عن المقاومة البوسنية للصرب، وكذلك الشيشانية للروس، وتذكرت قول أحد الجنود مستغربا كيف يواجه المسلمون المدافع ورصاصات الرشاشات دون خوف أو جزع، إنهم يواجهونها بثبات، فبعد موتهم ترتسم على وجوههم ابتسامة. ويتساءل: «إننا نقتلهم، فكيف يبتسمون بعد قتلهم؟» والإجابة التي لا يعرفها ذلك الجندي هي أن السبب يتمثل في إيمانهم بأن الله موجود وأنهم سيموتون شهداء في سبيل الله.

أحمد عبد المغني
طنطا - مصر

# آخر بلاد العروبة

.. رئيس التحرير

تعتبر مجلة «العربي» رائدة المجلات الثقافية في الوطن العربي بل هي لؤلؤة على جبين الثقافة العربية، لما تحمله من إبداع أصيل وفكر إنساني متجدد ورؤية ثاقبة في تناول الأمور وما تسطره فيها أقلام كوكبة لامعة من أقطاب الفكر والأدب في الوطن العربي. وأروع ما في «العربي» هو استطلاعها الشهري بعنوان (العربي عيونك على العالم) فهذا الباب هو جواز مرور إلى مختلف بقاع العالم القاصية والدانية، فهي تنقل العالم بين يدي القارىء بالحدث والصورة. وأخيرا يبقى السؤال الكبير الذي من حقنا على مجلتنا العزيزة «العربي» أن نطرحه عليها وهو: انضمت جزر القمر أخيرا إلى جامعة الدول العربية والكثير من القراء العرب لا يعرف شيئا عن هذا البلد الذي يتشبث بالعروبة والإسلام في أقاصي الأرض. فهل تتكرم مجلة «العربي» بإجراء استطلاع شامل بالصور عن جزر القمر آخر بلاد العروبة والإسلام جنوبا؟ وخاصة أن البلد يتمتع بإمكانات سياحية ممتازة، فهل تحقق لنا مجلتنا العزيزة هذه الأمنية كما عودتنا دائما؟.

أحمد كرود عبد الحفيظ
طرابلس الغرب - ليبيا

المحرر:

**سبق للعربي أن نشرت استطلاعا عن «جزر القمر عرب في أرخبيل البراكين والعطور» بعدد ديسمبر ١٩٩٤، كما أن هناك استطلاعا آخر سينشر الشهر القادم عن جزر القمر أيضا.**

# صوت بوسنوي

.. رئيس التحرير

أبعث بشكري الوافر إلى مجلة «العربي» والعاملين بها لقضاياها المهمة، التي تدافع فيها عن العرب والمسلمين في كل مكان، وبخاصة دفاعها الحاسم عن قضيتي قضية شعب البوسنة والهرسك المسلم، الذي يباد في حرب دموية من صنع أعداء الحياة مجرمي الصرب ومن وراءهم - فأنا يا سيدي فتاة من البوسنة هربت أنا وأسرتي في العام الماضي حيث تزوجت أختي من شاب مصري عريق الأصل، وعشنا في كنف أسرته الطيبة أنا وأختاي ووالداي العجوزان حيث وجدنا القيم والشهامة التي يتميز بها الشعب المصري، وحيث إنني أدرس في جامعة سوهاج فإنني أناشد ذوي الهمة والشهامة من القراء أن يوافوني بالفائض من حاجتهم من أعداد «العربي» من العدد ١ وحتى ٤٤٠ والمجلات العربية التي كنت محرومة منها تماما منذ فترة مع استعدادي الكامل لدفع ثمنها وثمن البريد.

ودمتم لنا خير عون.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

**فاطمة عبد الرشيد إيزافيتش**

مصر - سوهاج

البلينا - صيدلية عماد

**د. ممدوح محمود محمد**

ومنه إلى **فاطمة إيزافيتش**

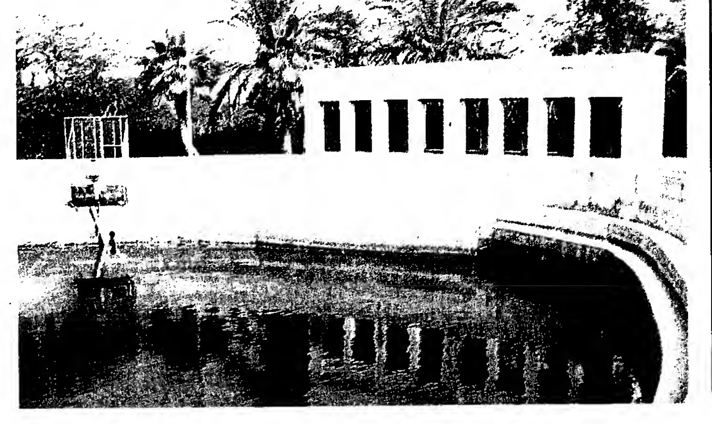
# أصالة وتاريخ البحرين

.. رئيس التحرير

أعجبت بالاستطلاع الذي ورد في عدد أبريل ١٩٩٦م عن البحرين، فقد تناول هذا الاستطلاع تراث البحرين العريق وتقاليده التي ظلت باقية برغم مرور الزمن ولم تتأثر بمتقلبات العصر الحالية، حيث الأحياء القديمة مازالت قائمة، كما أن الكثير من سكان البحرين مازالوا متمسكين بهذه الأحياء التي تمثل تراثهم وأصالتهم. وأحب أن أضيف إلى ما ورد في مجلتكم الغراء ما يلي: بخصوص الجمعيات الموجودة في البحرين فلديها الكثير، ومنها الاجتماعية، والخيرية، والثقافية، ومن هذه الجمعيات، جمعية أوال النسائية تأسست عام ١٩٦٩م؛ جمعية الرفاع الثقافية الخيرية تأسست عام ١٩٧٠م؛ جمعية النساء الدولية تأسست عام ١٩٧٤م وغيرها كثير. وبخصوص جفاف مياه عين عذارى فإنه يحزننا جفاف هذه العين، التي ارتبط اسمها باسم البحرين، كما أنها ظلت رمزا للبحرين منذ ظهرت، ولكن الاستهلاك الزائد للمياه الجوفية هو الذي أدى إلى جفاف العين، ويصل الجفاف في بعض الأحيان إلى قاع عين عذارى. ومن العيون المهددة بالجفاف في البحرين وزيادة نسبة الملوحة فيها عين «الخضرة» في عالي، وعين «السبيّد» في توبلي، وعين «بشة» في الكورة، والعين الكبرى في سند، والعين الصغرى في سند، وعين «دباسة» في النويدرات، وعين «السفاحية» في جزيرة النبيه صالح، وعين «الشيخ» في جزيرة النبيه صالح، وعين «الرحى» في جزيرة سترة، وعين «أم الشعوم» في المنامة، وعين «الجنّ» في كرّانة.

**نضال محمد جمال**

مدينة عيسى - البحرين



## إيقاعات سريعة

الأصدقاء: بدر الحايلي (حائل/ السعودية)، حامد إسماعيل (برج العرب/ مصر)، عبدالله مادجوي (داكار/ السنغال)، أبو بكر عثمان (الخرطوم/ السودان)، رشوان مشالي (قنا/ مصر)، عاتكة مشوح (دمشق/ سوريا)، عبداللطيف فؤاد (المنصورة/ مصر)، محمد برقان (ولاية غليزان/ الجزائر)، محمود القمحاوي (طنطا/ مصر)، غزال إبراهيم (المدية/ الجزائر)، عمار الكيومي (ولاية الخابورة/ عمان)، إياد القتاوي (عكار/ لبنان)، إدريس عبدالله (أم درمان/ السودان)، أشرف حجاج (بني سويف/ مصر)، جوانا حرفوش (حلب/ سوريا)، إبراهيم الغامدي (الظهران/ السعودية)، سليماني الزهراء (ولاية تيبازة/ الجزائر)، حسن مرواني (الداخلية/ سلطنة عمان)، هشام الدمراوي (مطوبس/ مصر)، عصام الغزاوي (الخبر/ السعودية)، دهشان دهشان (الإسماعيلية/ مصر)، عدي السعدي (رفحاء/ السعودية)، عباس الساعدي (طرابلس/ ليبيا)، مروان دينا (حماة/ سوريا)، نضال القاسم (الحسا/ الأردن)، منتصر الزعبي (دبي/ الإمارات)، أحمد السعيدي (تارودانت/ المغرب)، محمد قرقد (مصراتة/ ليبيا).

وصلتنا رسائلكم، واقتراحاتكم، ومحاولاتكم في الشعر والقصة القصيرة والخاطرة.

شكرا على الثقة وأهلا بكم وسهلا.

## وتريات

### الفتى.. وورده الماء

هي وردة أولى
وتنفلت الحدائق
من ميادين الغبار
ومن أراضي الوقت
هي وردة
ومعي فراشات مسومة
ومعي طيور الموج
تدفعني إليها
يا أيها المائي
ها جسدي يعري نفسه
ويدلني عني
فأي غزالة في البر
تصطاد الفتى
والفتى..
في حفلة الغابات
منفرد..
بأعشاب القصيدة
هي وردة للاحتمال
من ذا سيدفع باللآلىء
أن تحاصر وردتي وتغيب..
في الأغوار
في ديمومة الوجه الطفولي
كنا وكان البحر
منشغلا بأوردة البعيد
فالماء يقبل، أي مطعون
بزهرة صيفه، بأريجها البحري
هل حدجتها عن فيافي الروح
أغنية الغزالة؟
وأقنعتها زهرة الصبار
أن تنمو على وجه
الفتى

أحمد دياب
الوادي الجديد - مصر

# المحتـــويـــات

## فــــكـــــر



## عـــلـــــوم



## آداب

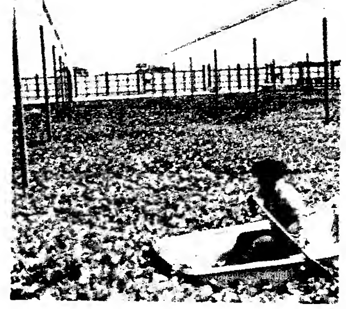


**الغلاف**




**كمبوديا: هبة المطر شجن البشر**

**ص ١٤٠**



**زمن الثورة الزرقاء**

# المحتويات



## فنون



## استطلاعات



## منتدى العربي



## مكتبة العربي





ص١٤٨ قصص عالمية



ص١١٨ قلب شجاع وصناعة الأفلام الأوسكارية





ص١٤٤ إزاحة غبار الأساطير

# المحتـــويــــات

## البيـت





ص١٦٠

## أبواب ثابتة :



مكاتب العربي

الكويت - مبنى وزارة الإعلام رقم ٢ شارع الصحافة - الشويخ. ص. ب: ٧٤٨ - الصفاة - الرمز البريدي ١٣٠٠٨ هاتف ٤٨٤٥١٣٤ - ٤٨٤٤١٦٤ - ٤٨٤٧٥٨٢ - فاكس التحرير: ٤٨٤٢٢٥١

جمهورية مصر العربية: ١٠٦ شارع قصر العيني - مبنى كايرو سنتر الطابق الخامس - القاهرة - فاكس: ٣٥٥٤٩٠٦ هاتف - ٣٥٦٢٨٢٢ - ٣٥٤٦٨٦٩

المملكة العربية السعودية: جدة، ص. ب ٤٥٥٦. رمز بريدي ٢١٤١٢

الجمهورية العربية السورية: دمشق، ص. ب ٣٣٣٠، تلكس ٤١٩١٧٢، هاتف: ٣٣٣١٠٧٩، فاكس: ٣٣٣٧٥٦٠

الجمهورية الجزائرية: ص. ب ١٤٤ المحطة الجزائر - هاتف: ٦٩٣٣٩٣ - فاكس: ٦٩١٨٤٧

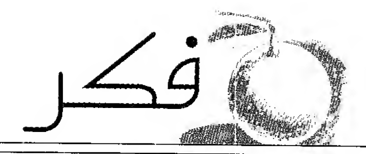
## عزيزي القارىء

# استطلاعاتنا والإنترنت

عزيزي القارىء . .

بعد أقل من سنتين ونصف السنة ستكمل «العربي» عقدها الرابع، وسيكون من أبرز ملامحها في هذه السنوات الأربعين أنها غطت العالم باستطلاعاتها، تحقيقا لوعد قديم قطعته على نفسها بأن تكون عيون قرائها على العالم. وباتت كلمة «استطلاع» عنوانا على ما تميزت به العربي طوال عمرها المديد، تلك التحقيقات المصورة التي تكوّن عند جمعها واكتمالها أكبر موسوعة لأدب الرحلات، بل التحقيقات الثقافية الشاملة المصورة، استطاعت أن تقدمها أي مطبوعة عربية على الإطلاق، وحتى الآن. ولا نبالغ إذ نقول إن كلمة «استطلاع» التي بات الكثير من وسائل الإعلام والمطبوعات العربية يعنون بها مادته عن الرحلات والسفر، صارت تُحيل قارئها وسامعها، مباشرة، إلى «العربي» وكأنها مصدر الكلمة أكثر من المعاجم. لعل ذلك يبدو رضا عن الذات، لكن الحقيقة أنه عزاء ذات لا ترضى عن نفسها، لأن طموحها ومسئوليتها يكبران مع سنها. فاستطلاعاتنا التي تُقدم لقارئها صافية قدر الإمكان، وبدرجات تتفاوت تفاوت الناس والأماكن، تخفي وراءها متاعب ومخاطر وجهدا لا تقل جميعها عن قدر المتعة الذاتية التي يمكن أن يحسها أعضاء أسرة العربي حيثما ذهبوا. وأقل هذا الجهد هو ما يتعلق بالتحضير لمهمة السفر. فابتداء من حصر الأهداف، ثم اقتراحها، ثم إقرارها، وأخيرا إرسالها لوزارة الإعلام لتحويلها إلى إمكانية عملية. . هذه الفترة تقتضي من أفراد أي بعثة للمجل، إلى أي ركن من أركان العالم، أن يتقصوه عبر طائفة واسعة من المعلومات، في المراجع، والمطبوعات العربية والعالمية، بل في الأطالس الجغرافية، وخرائط الطقس، ومراجع السفارات - إن وجدت - وشركات الطيران والسفر. وكثيرا ما يجد المحرر المسئول عن إعداد «التصور الأولي» للمهمة الذي يجب أن يقدم في اجتماع أسرة التحرير ويحصل على موافقة رئيس التحرير وإقرار بقية أعضاء الأسرة. . يجد نفسه عاجزا عن توفير مادة معلوماتية موثقة عن البلد المستهدف بالاستطلاع، برغم القناعة بأهمية هذا البلد أو ذاك. ولقد حدث ذلك في أعقاب تحديد «كمبوديا» كمشروع استطلاع، فلا سفارة لهذا البلد في الكويت ولا أي من البلاد العربية، ولا سفارة لأي من البلاد العربية في هذا البلد، ثم إن الحرب الأهلية الدامية التي استطالت لربع قرن من الزمان عزلت هذا البلد عن العالم، والمرجع الوحيد الذي أمكن توفيره محليا كان أقدم من أن يُعتد به. وهنا لجأ المحرر إلى مسئول شبكة الإنترنت في المجلة، وأمام الكمبيوتر راح المحرر ومشغّل الشبكة يدخلان في هذا العالم المعلوماتي، ويبحران، و«الإبحار» هو مصطلح رمزي للتعامل مع قنوات هذه الشبكة الهائلة، لكنه تعبير واقعي أيضا، فكأن المتعامل مع الشبكة يركب زورقا سريعا ويتنقل في قنوات يؤدي بعضها إلى بعض حتى يصيب المبحر هدفه ويرسو للحصول عليه وامتلاكه بإعطاء إشارة الموافقة وأمر الطبع. عبر هذا الإبحار كان السفر قبل السفر، كمية هائلة من المعلومات الحديثة عن كمبوديا تم توفيرها: طرق الوصول، شروط الحصول على التأشيرة، المناخ، المخاطر، الطعام، الفنادق، الانتقال، المواقع، التاريخ، السياسة، آخر الأنباء، أحدث الجرائد. بل إنه أمكن التحادث مع زوار عادوا للتو من كمبوديا، وأصحاب تجارب في السفر إلى هذا البلد، وهاربين منه، وعائدين إليه. وصار العسير يسيرا، وتم تقديم المشروع ليحصل على الموافقة ويكون السفر. ودخلت شبكة المعلومات في متن استطلاعات العربي، وتوالى الإبحار، وسيظل يتوالى، على أمل أن يغطي مُجمل استطلاعاتنا كل أركان العالم في سنتها الأربعين. . بإذن الله.

**«المحرر»**



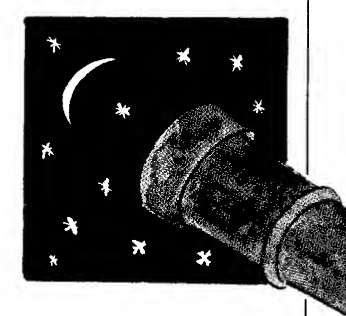

## حديث الشهر

بقلم الدكتور محمد الرميحي

# مسافرون إلى رمال العرب

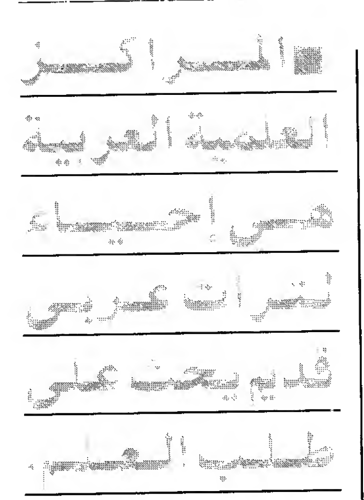
## رحالة الغرب هل رأوا أهل الخليج على حقيقتهم؟

في الأسبوع الأول من أبريل الماضي عقدت في مدينة دبي العاصمة الثقافية والتجارية لدولة الإمارات العربية المتحدة ندوة علمية دعي إليها أكثر من خمسين باحثا وباحثة لدراسة موضوع مهم هو كتابات الرحالة والمبعوثين حول منطقة الخليج عبر العصور. والداعي لهذه الندوة الكبيرة والمهمة هو مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، وهو مركز أهلي علمي قام بإنشائه لوجه العلم والبحث وجه من وجوه أهل الخير في دبي وقام بالمساعدة العلمية في هذه الندوة جامعة الإمارات العربية المتحدة بالعين والمجمع الثقافي في أبو ظبي.



وأنا أكتب هنا لسببين، أولهما: أن هذه الندوة العلمية بما حوته من أبحاث ومناقشات علمية تستحق التنويه والتذكير. وثانيهما: أن المركز الداعي لهذه الندوة التي جرى الإعداد لها عامين كاملين هو مركز أهلي علمي، يدل كبقية المراكز العلمية الأهلية العديدة في دول الخليج العربي على اهتمام من أعطاهم الله المال بالعلم وأهله، وهو إحياء حميد لتراث إسلامي وعربي عظيم، كل ما نرجوه هو أن يتسع هذا الاهتمام ويتعاظم في عصر هو بلا جدال عصر العلم

## كانت رمال العرب هدفا دائما للرحالة والمغامرين والأفاقين. فماذا كانوا يبغون من السعي على هذه الرمال؟!




والمعرفة والاتصال وانتقال المعلومات. وكان الغرض من الندوة التي قدم فيها أكثر من ثلاثين بحثا هو دراسة واسعة لأعمال المبشرين والمبعوثين الأوربيين إلى المنطقة العربية بوجه العموم وإلى منطقة الخليج على وجه الخصوص، وعلى هامش الموضوع العام هذا كان لا بد من تقديم بحوث علمية تتناول إما تاريخيا أو جغرافيا هوامش هذا الموضوع المهم، ولأن أعمال هذه الندوة التاريخية والمهمة سوف تصدر في كتاب لاحق فإنني هنا أقدم للقارىء - فقط - أبرز القضايا - من وجهة نظري - التي طرحت في هذه الندوة وأهم القضايا التي نوقشت.

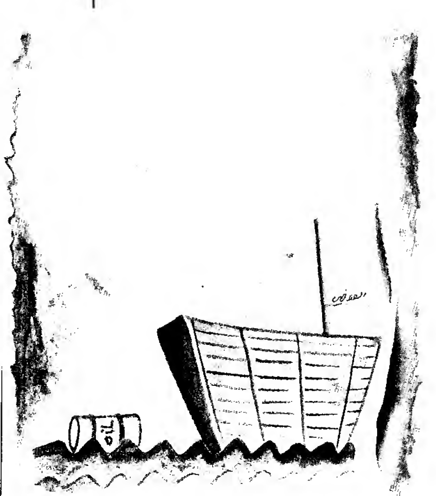
كان السؤال الأول هو ما مدى دقة المعلومات والتحليلات والآراء التي أوردها الرحالة والمبشرون الغربيون عن العرب في كتاباتهم المتتالية التي ازدهرت وتكشفت في القرن التاسع عشر، وما مدى دقة ووضوح نقلهم للحقائق، وهل تأثرت هذه الكتابات بالقيم والمواقف والثقافة والبيئة التي عاشوها، وبالدوافع التي جعلتهم يتحملون مشاق السفر والترحال، وماذا نأخذ منها اليوم وننتقي وماذا نترك ونتجاوز؟ هذا السؤال الطويل والمعقد لم يكتسب كل هذه الأبعاد من فراغ، فالعديد من هذه الكتابات الاستشراقية كانت دائما تحت وطأة اتجاهين أساسيين: إما أنها تسعى لتزوير الحقائق عن عمد لتناسب وجهات نظر كتابها من المستشرقين، أو أنها قد أعطت تفسيرات لظواهر شاهدوها يشوبها الغموض وعدم الفهم بسبب اختلاف المرجعية الثقافية لهؤلاء المستشرقين. وهناك العديد من هذه الكتابات قامت بسرد الوقائع والحقائق بأسلوب ركيك وملتبس في بعض الأحيان لأن من كتبها كانت تنقصه الخبرة في الكتابة والبحث بينما مال آخرون إلى المبالغة أو تكرار المعلومات أو الاستعارة أحدهم من الآخر دون إسناد لما استعاره إلى مصدره الأصلي، لذلك كله فقد ترك هؤلاء المستشرقون والرحالة والمبشرون كتابات كثيرة حول بلادنا العربية وحول الخليج ومجتمعاته الغثاء فيها كثير والأصيل نادر، ولأن هناك نقصا حادا في التوثيق المحلي فقد شب جيل كامل من طلابنا ومثقفينا على تلك الكتابات، بعضهم فحصها وحاول غربلتها وبعضهم أخذها على علاتها، وحتى لو كان ما تم رصده حقيقة في وقته فإن ما يشكل حدثا أو حقيقة أو تفسيرا لظاهرة تاريخية هو أمر أصبح اليوم معروفا بأنه مرتبط بالزمان والمكان والظروف الثقافية. لذلك كله فلا بد من الحرص الشديد في الغربلة والدراسة والمقارنة بالمصادر المحلية، إن وجدت، أو تحكيم العقل والإحساس العام في كل ما تركه لنا هؤلاء الكتاب عن بلادنا. ولنا من تاريخنا عبرة، فنحن اليوم عندما نقرأ النصوص التي تركها لنا الرحالة العرب والمسلمون من القرون الوسطى نجد أنهم قد استعانوا بالعديد من الأدوات الثقافية والمعرفية التي انحدرت إليهم من الحضارات الأخرى. فقد استعاروا التقاليد الهندية المبكرة المتعلقة

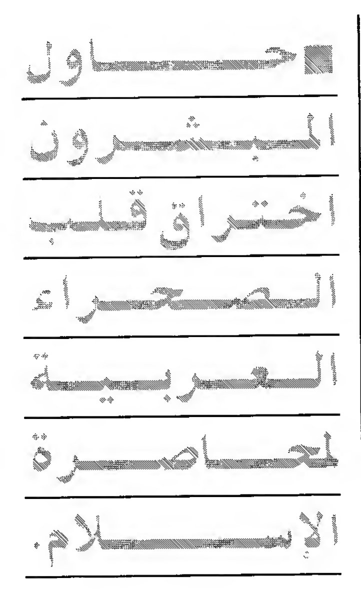
**العديد من كتابات المستشرقين كانت تسعى لتزوير الحقائق أو للتفسيرات المغلوطة.**

بالجغرافيا والفلك، وكذلك بدا تأثرهم بالمنهج اليوناني في البحث القائم على التجربة وكذلك التأثير الفارسي بالجغرافيا الوصفية والخرائطية (الجغرافيا الرياضية)، وأكثر هذه الكتابات قد أخذ بالتقسيم اليوناني والفارسي للأرض إلى سبع مناطق. وبحلول القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي - بدأت مؤشرات التدهور في علم الجغرافيا حيث فقدت المؤلفات الإسلامية المنهج العلمي النقدي الذي ميزها ومكنها من الإضافة العلمية، ومالت إلى النقل والتكرار دون معرفة ملموسة ومباشرة، لذلك فإن بعض المؤلفات امتلأت بالخرافات وما أطلق عليه البعض (جغرافيا الوهم) حين حسبوا أن بعض أماكن الحكايات الشعبية لها وجود على الخرائط وقد احتاج هذا الأمر إلى جهود علمية مضنية بعد ذلك للتفريق والفصل بين ما هو واقعي وما هو متخيل. حدث نفس هذا الشيء للرحالة الغربيين، وإن امتلك بعضهم بعض أصول المنهج الصحيح، لذا فإن النظر إلى أعمالهم اليوم ومقارنتها بالمصادر المحلية المتوافرة أو إعمال العقل في مناقشتها يكشف عن أن بها الكثير الذي يمكن أن يؤخذ عليها سهوا أو عمدا.

وهناك أهداف أربعة وراء هذه الموجات المتتالية من هؤلاء المستشرقين إلى البلاد العربية والخليج، لعل أولها هو الدين، فقد كان لوجود القدس ومكة والمدينة المنورة وكلها أماكن دينية هي الهدف الأساسي لمحاولة معرفة الدين الآخر (الإسلام) وإن أمكن محاصرته، وقد شكل الرحيل إلى الأصقاع النائية بحد ذاته موضوعا دائما في الثقافة الغربية، فما بالك إذا كان هذا الرحيل من أجل السعي إلى إقامة المملكة الثانية «القدس الجديدة»، في أرض الميعاد! فقد اعتقد البوريتانيون وأصحاب النزعة التطهرية التي شهدت انتشارا واسعا في الغرب في أثناء العصور الوسطى بتأثير إعادة الاكتشاف البروتستانتي للعهد القديم، وأصبحت إعادة بناء القدس لبعضهم هوساً يشكل الهدف المطلق للحياة التي يخوض المسيحي غمارها، وتمثل المفهوم الغربي للرحيل إلى الأصقاع البعيدة من أجل إصلاح أمر الأمم الأخرى وإنقاذ أرواحها الضالة، وقد كانت الروح التبشيرية على الدوام تحتل مكانة مركزية في الأيديولوجيا المسيحية.

وقد اكتسب التبشير قوة دفع كبيرة خلال القرن التاسع عشر وتنافست عشرات من المنظمات التبشيرية التي تنتمي إلى الكنيسة (لإنقاذ الأرواح الضائعة) وأخذ المبشرون يشقون طريقهم إلى المنطقة فتركزوا أولا في المدن الساحلية ثم حاولوا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الاندفاع إلى قلب الجزيرة العربية، وكانت الاستراتيجية المرسومة هنا هي محاصرة قلب الإسلام والاندفاع إلى مركزه الأول، ولقد بدا هذا الهدف واضحا بعد أن سقطت القدس مباشرة في أيدي الصليبيين حين حاول رينارد دي شتالو فارس الصليب عام ١١٨٠ أن يصل إلى المدينة المنورة ويهدم قبر الرسول الكريم. ولكنه في حقيقة أمره كان يريد أن يسرق الكنوز التي تقول






الأساطير وقتها إنها مدفونة حول قبر النبي، وقد جهز رجاله المتحمسين من القراصنة وهبطوا بالسفن على ساحل البحر الأحمر. ولكنهم وجدوا القبائل العربية في انتظارهم، فقد تجمعوا من كل فجاج الصحراء ومعظمهم عزل من أي شيء، إلا إيمانهم، ولكنهم خاضوا معاركهم ضد فرسان الصليب ببسالة حتى قتلوا الفارس رينارد وسيق بقية أتباعه من اللصوص إلى «منى» حيث قتلوا جميعا.

كانت التجارة هي الدافع الثاني لجولات المستشرقين والمبعوثين والمبشرين والرحالة، فقد كانت فكرة إيجاد أسواق جديدة للصناعات الصاعدة في أوربا التي بدأت بالتراكم تدفع بالتجار إلى تكليف كتّاب ومغامرين للبحث عن أسواق جديدة، وكثيرا ما كان هؤلاء المبعوثون والرحالة هم في حقيقتهم وكلاء لأنواع من المنتجات أو البيوت التجارية.

وكان الدافع الثالث هو الاستعمار الذي حول الأسواق الجديدة في هذه البلدان من أماكن للتجارة إلى مناطق تابعة خاضعة للاستنزاف، ولعل أقدم هؤلاء الرحالة الذين يدخلون في مصاف الجواسيس هو «دمنجو باديا بالبياكو» الذي تنكر في زي أمير مراكشي قديم ودخل مكة والمدينة وكتب عنهما تقريرا مفصلا قدمه إلى نابليون بونابرت الذي لم يستطع أن يبعد العالم الإسلامي عن مخيلته بعد فشل حملته على مصر.

أما الدافع الرابع والأخير فهو النفط، وقصة الرحالة والمبشرين مع النفط قصة لها خصوصيتها في الخليج حيث تحول المغامرون إلى صيادي امتيازات للتنقيب عن النفط، سواء كان ذلك إبان النزع الأخير للدولة العثمانية وما تعتقد أنه من ممتلكاتها في الشرق أو بعد الحرب العالمية الأولى عندما اتضحت أشكال الدول والإمارات المستقلة.

أسباب أربعة جعلت من كتابات هؤلاء القادمين من خلف البحار حول المجتمعات العربية بعامة والمجتمعات في الخليج بخاصة ذات أهمية كبيرة في الغرب، وقليلها كان جادا وموضوعيا ـ كما قلنا ـ وأغلبها اختلط فيه المنهج العلمي بالرغبات الذاتية والأحكام الشخصية. ومع ذلك كله فإن هذه الكتابات تعد اليوم مصدرا لابد من الاطلاع عليه، وفهمه بعد تمحيصه، ولكن بعضه يقدم معلومات ووجهات نظر غير متوافرة في أماكن أخرى.



## محاولة للتعرف عن قرب

بعد عامين من اليوم أي في سنة ١٩٩٨ سوف تحل ذكرى تاريخ مميز بالنسبة لعلاقة الشرق العربي مع أوربا وهي مرور قرنين من الزمن على حملة نابليون بونابرت على مصر التي اعتبرها

## الدين والتجارة والاستعمار والسقوط.. دوافع أربعة خلف مغامري الصحراء

العديد من المؤرخين والكتاب العرب نقطة الاحتكاك المباشر في العصر الوسيط بين العالم العربي وأوربا، ولأن من الصعب فصل الخليج العربي عن مجريات ما يحدث في الشرق بعامة وللمسلمين أيضا، كما أن من الصعب فصل الأطماع الغربية في القدس عن الأطماع الممكنة في مكة المكرمة، فإن حملة نابليون بونابرت على مصر هي رمز ذلك المنعطف الذي أفاق فيه الشرق الإسلامي بعد الغفوة العثمانية الطويلة على الإدراك الواقعي لمدى تعاظم الهيمنة الغربية.

لقد هزت التكنولوجيا الغربية الصاعدة - وخاصة الجانب العسكري منها - هزت الشرق بعنف وكشفت عن مدى ضعفه وتخلفه، وقد انعكست آثار هذه الحملة أيضا على العالم العربي والإسلامي فبدأ رحلة المعرفة لاكتشاف منابع هذه التكنولوجيا التي هزمته في أوربا. لقد حملت السفن التي كونت أسطول نابليون بونابرت بالإضافة إلى الجنود والخيول والمدافع وبعض الغانيات أكثر من مائة وخمسين باحثا كانت مهمتهم الأساسية إنجاز مسح شامل لمصر في كل المجالات. وبعد أن ظهر هذا المسح للتداول عرف أنه تمتع بمنهجية معقولة وشمل الجيولوجيا والأنهار والمعادن والآثار والأخلاق وعادات السكان، فكان مؤلف «وصف مصر» الدقيق والواقع في أربعة وعشرين مجلدا.

لقد تحول الاهتمام بالشرق العربي إلى صورة أشبه بالحمى. كان من هؤلاء الرحالة لصوص وأفاقون ومقامرون وباحثون عن المجد وعلماء وقساوسة وجواسيس محترفون. كانت تتفاعل داخلهم مشاعر تختلط فيها النظرة الرومانسية في اكتشاف عالم الصحراء البكر بالدوافع الاستعمارية والتحدي الديني. ولكنهم اكتشفوا أن الرحلة إلى الصحراء لم تكن مجرد تجربة في عمرهم ولكنها كانت تجربة عمرهم. فقد تشكلت المصائر فوق ذرات الرمال وكانت الفضيلة الكبرى التي قدموها - برغم كل الخطايا التي ذكرناها - أنهم قدموا للمرة الأولى صورة للشرق تستند إلى واقع الرؤية، لا خرافة التصور كما استمدها الغرب دوما من حكايات الليالي العربية وهو الاسم الغربي لكتاب «ألف ليلة وليلة».

رحلة طويلة تبدأ من مغامرة الفارس رينارد الحمقاء.. إلى العبد «بابيت» الذي اختطف وهو صغير بواسطة قراصنة الجزائر واعتنق الإسلام وجاء إلى مكة حاجا، ثم ارتد عندما عاد إلى الغرب وكتب أول كتبه عن مكة والمدينة من الداخل. ثم كارسان نيهبور الذي أرسله ملك الدنمارك ضمن بعثة علمية لدراسة الأماكن التي دارت فيها أحداث الكتاب المقدس على الواقع. ومات أفراد البعثة كلهم إلا نيهبور الذي عاش في جدة وتعود ارتداء الملابس العربية وأكل الخبز الجاف ورسم كل ما كان يقابله من جبال ووديان وصخور وعاش بقية عمره يحاول أن ينشر أعمال رفاقه من الموتى، وقدم للغرب - ربما للمرة الأولى - صورة شبه موضوعية

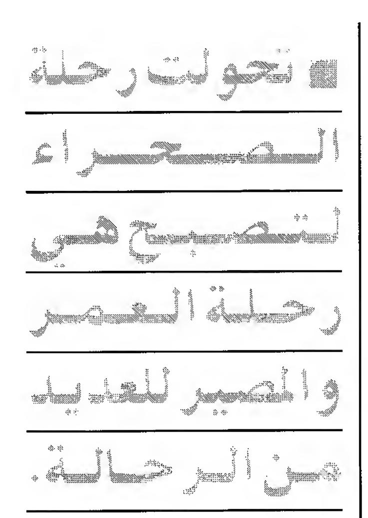
للصحراء العربية وقال قولته المشهورة «لو كان هناك أناس في العالم يحملون كل هذا التاريخ البالغ في القدم مع تلك البساطة العظيمة فإن هؤلاء هم العرب . . »ولكن الصحراء العربية لم تشاهد أحدا يوازي جون لودفيج بورخارت برغم أن هدفه لم يكن الوصول إليها . فذلك المكتشف الإنجليزي ذو الأصل السويسري كان يحلم باكتشاف منابع النيل ، وقد كانت هناك حمى تجتاح أوربا في هذا الوقت لاستكمال الأشياء الناقصة على الخريطة بالنسبة لهذا النهر العظيم . لذا تعلم العربية في جامعة كمبردج لمدة أربع سنوات قبل أن يقنع أعضاء الجمعية الجغرافية بأن أفضل طريقة للوصول إلى منابع النيل هي مصاحبة قوافل الحج العائدة من مكة إلى تومبوكتو عبر الصحراء الكبرى . . وسافر من إنجلترا إلى مالطا ثم إلى مكة متخفيا .

لقد أجاد التنكر حتى أن قاضي مكة نفسه لم يستطع الشك فيه وعقد صداقات حقيقية مع أبناء قبيلة «عنيزة» وجال معهم في كل مكان واستطاع اكتشاف صحراء العرب حتى حدود الفرات . ويبدو أن بورخارت قد نسي هدفه الأساسي فقد وجه همه إلى دخول مكة واكتسب لقب «الحاج» ولم يكتب له أن يعود مع أي قافلة أو يعرف الطريق إلى تومبوكتو .

ولكن الرحالة الذي لا يهدأ كان ريتشارد فرانسيس بيراتون . فعلى كثرة الكتب التي نشرت عن جزيرة العرب ومنطقة الخليج لم يتمتع أي واحد منها بشهرة الكتاب الذي كتبه عن رحلته إلى هذه المنطقة لدرجة أن هذا الكتاب قد طبع أكثر من عشر مرات قبل وفاته . . إنها أرض «عشقي الأول» كما أطلق عليها . لقد ساعدته موهبته الفذة في تعلم اللغات على ان يكون رحالة مثاليا ، فقد كان يتكلم ٢٩ لغة و١٢ لهجة وتنكر على هيئة تاجر فارسي ودرس الإسلام في الأزهر واشترى ثياب الإحرام واستأجر جملا وخادما هنديا ورحل مع قافلة الحج ، ودخل إلى مكة بل وقبل الحجر الأسود أيضا كما يقول في كتابه وعندما عاد إلى إنجلترا محملا بكم هائل من المعلومات عن هذه المنطقة أنعم عليه بلقب «فارس» وعندما توفي عام ١٨٩٠ احتفلت زوجته بذكراه بأن أقامت له مقبرة على شكل خيمة .

ولا تنتهي سلسلة هؤلاء الرحالة الذين جابوا هذه الصحراء ولا تنتهي قصصهم من لورانس وفليبي اللذين جاءا وفق أهداف سياسية تريد الإمبراطورية البريطانية تحقيقها ، إلى فرانك هولمز الباحث عن النفط ، إلى المعتمد البريطاني جون ولتون الذي كان يتظاهر بمحاربة الرقيق بينما كان يسعى في الحقيقة لدعم الوجود البريطاني . كل واحد كان يحمل مصلحة ما وكل واحد حدد تحركاته خلف هذه المصلحة ولكنهم في النهاية خاضوا فوق هذه الأرض تجربة لم يكتب لهم أن ينسوها أبدا .

ولم تكن محاولة التعرف عن قرب أحادية في القرن التاسع عشر بل كانت متبادلة ، فبجانب المصري المعروف رفاعة رافع الطهطاوي الذي أتاح له محمد علي السفر إلى باريس ليكون «إماما» للبعثة العلمية المصرية . ولكن شدة ذكائه لم توقفه عند هذا الدور حيث انفعل بالحضارة الفرنسية فدون العديد من الملاحظات حول باريس وعادات الفرنسيين حتى أنه ترجم الدستور الفرنسي لعله يقنع المستبد الشرقي بوضع ميثاق بينه وبين الرعية .





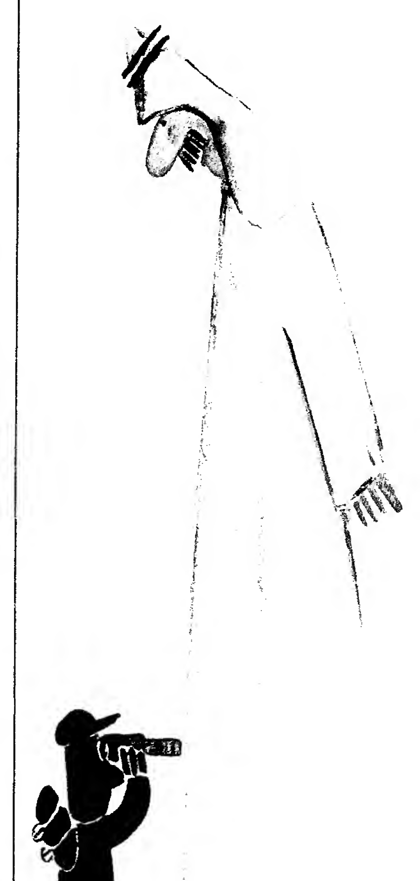

نجد أن التاريخ لم يكد - إلا لماما - يذكر مبعوث العاهل المغربي مولاي عبد الرحمن، الذي حكم ما بين ١٨٢٢-١٨٥٩، الذي سير السفير المغربي محمد الصفار، للقيام ببعثة إلى فرنسا في عامي ٤٥-١٨٤٦، التي كانت قد غزت الجزائر المجاورة في سنة ١٨٣٠، وأدرك العاهل المغربي أن فرنسا لن تكف عن التدخل المباشر في شئون دول شمال إفريقيا وطموحاتها في التوسع على حساب الآخرين. وكان مولاي عبد الرحمن يدرك أن الجهل بالعدو هو أكبر عدو لذا طلب من الصفار تزويده بصورة كيفية معيشة الفرنسيين وما هم عليه من حياة وتعامل، وكانت النتيجة صورة مدهشة وملاحظات دقيقة عن حياة وأخلاق الفرنسيين في أربعينيات القرن الماضي، عن السفر بالقطارات وأعداد الصحف وانتشارها والمنتديات الحديثة التي يلتقي فيها الرجال والنساء من ذوي السمعة الطيبة للحديث في الشئون العامة، وقد صدر هذا العمل باللغة العربية في الرباط أخيرا.

■ طبع كتاب «بيراتون» عن العرب عشر مرات قبل موته.

## التبشير والمبشرون

ولكن كتابات المبشرين عن الشرق العربي والخليج العربي بعد ذلك تميل في مجملها لعدم الدقة في التحليل، فهي تعتمد على ذكر بعض الوقائع، ولكن بصورة محددة عن العربي المسلم بطريقة تعزز الانطباع السائد في العقل الغربي عن العادات والسلوك التي يفرضها هذا «الدين البدائي»! - كما كانوا يصفون الإسلام - فقد كان لدى الغرب تراكم من الكتابات عن الشرق على مدى قرنين من الزمان أي منذ تاريخ الحروب الصليبية التي حفلت بالخرافات والمبالغات استمرت من القرن السابع حتى الثالث عشر. ولكن القرن التاسع عشر الذي نشطت فيه البعثات التبشيرية وكتابات المبشرين مثّل حدا فاصلا في الاهتمام الغربي بالشرق، فالإمبراطورية العثمانية التي شكلت خطرا على قلب أوربا بدأت في الضعف والتفكك، وظهرت القوى الأوربية في أجزاء العالم العربي حاملة شكل الاستعمار الجديد. بل وظهرت على الساحة قوى أخرى لم تكن لها أطماعها الاستعمارية - أي التوسع في الأرض - ولكن بالتأكيد لها أطماعها الاقتصادية - أي التوسع في استثمار عائد هذه الأرض - كالولايات المتحدة التي حاولت جاهدة إزاحة الاستعمار التقليدي من طريقها.

وعلى صعيد آخر راح الحماس الديني التبشيري يغدو قوة كبرى في الحياة الأوربية وخاصة الأمريكية فوصلت الأنشطة التبشيرية إلى ذروتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت كتابات الرحالة والمبشرين في أوربا والولايات المتحدة أجناسا أدبية مختلفة ومتفاوتة القوة، إن نظرنا إليها بمنطقنا اليوم، وموجهة بشكل عام، إلا أنها تركت انطباعا لدى قرائها وأثرت في رسم صورة زائفة عن العربي والمسلم بينما لم يكن هناك مقوم واحد أو سمات غالبة وقطعية في هذه الكتابات، إلا أن النمطية كانت واضحة بل وتسللت هذه الصورة حتى إلى الكتب الأدبية والأفلام السينمائية، فالعربي المسلم «متعصب ضيق الأفق غارق في الظلام والجهل لديه نزعة طغيانية، لا يمكن الركون إلى كلمته، وهو خارج عن حياة المدينة قريب إلى التوحش غدار يمكن أن يقتل إنسانا آخر لأسباب تافهة على رأسها



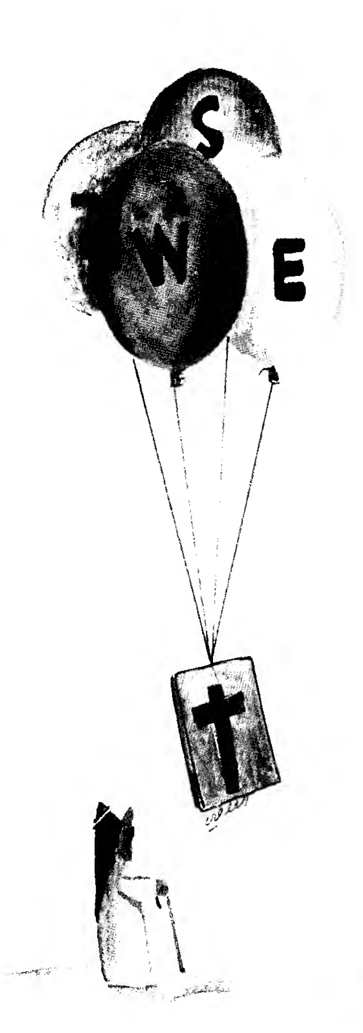
الحصول على ما لديه من مال أو متاع، شره للنساء، لا يكتفي بزوجاته برغم كثرتهن. ولكن يضيف إليهن أيضا الجواري والإماء»! وقد خاض بعض المستشرقين في أصول العقيدة الإسلامية وحاولوا تفسيرها حسب الصورة التي يرغبون فيها. كما اختلطت هذه الصور بصور أخرى أقل عدوانية وأقل تهديدا، وهي صور نبتت من النظرة الرومانسية التي تخاطب خيال الغربي حول الصحراء ومشاهد ألف ليلة وليلة الساحرة، وحيث عدم الانضباط المطلق، وقد ركز المبشرون في كتاباتهم حول أحوال المجتمع الخليجي في هذا الوقت سواء كان في مدن الساحل التي يعمل أهلها بالغوص وشيء من الزراعة، أو قبائل الداخل المتنقلة، ولقد ظهرت هذه الكتابات في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين، حيث أسست هذه البعثات التبشيرية مواقع لها على طول امتداد ساحل الخليج من البصرة إلى مسقط بناء على فكرة «تطويق مهد الرسالة المحمدية» ومع أن هذه البعثات التبشيرية قد قدمت بعض الخدمات الطبية والتعليمية فإنها فشلت فشلاً ذريعاً في التبشير نفسه برغم فقر ومحدودية الوعي لدى السكان. وفي عمان توجد حكاية مشهورة عن ذلك الطبيب الأمريكي الذي أقام في مسقط لمدة عشرين عاما لم ينجح فيها في تحويل أحد إلى المسيحية إلا الممرض الذي كان يعمل عنده وأطلق عليه الناس «خميس النصراني» ولم يلبث أن ترك المسيحية فور أن مات هذا الطبيب. وعندما قدم كاتب عربي مسيحي معروف هو أمين الريحاني إلى المنطقة وطاف بها من أقصاها إلى أقصاها، لم يجد ما ينصح به هؤلاء المبشرين في كتابه المعروف «ملوك العرب» الذي وصف فيه رحلته في عشرينيات هذا القرن إلا القول (إنني أنصح هؤلاء المبشرين بالاكتفاء بالتطبيب والتعليم وترك التبشير، فهؤلاء البدو لن يتركوا دينهم مهما قدم لهم من إغراءات..).

وما تركه المبشرون في الخليج من كتابات لم يصل بعضها للقارىء العربي فقد ترجم القليل منها وبقي الآخر بلغته الأصلية، وقد قام بعض الشباب العربي في الخليج بدراسة ظاهرة التبشير علمياً في الجامعات الغربية عن طريق تقديم الأطروحات، وترجمت بعض أعمال المبشرين وهي في الغالب لا تخرج عن الوصف غير الدقيق والاستعجال في الوصول إلى نتائج دون بينة، ولقد حصلت شخصياً على مذكرات طبيب ومبشر عاش في البحرين والكويت معظم سني النصف الأول من القرن العشرين كان قد أودعها إحدى المكتبات في جامعة «أكسفورد» فوجدت أن كتاباته انطباعية، اضطررت عند ترجمتها لوضع العديد من الإشارات والتصحيحات في الهوامش، وقد نشرت المذكرات بعنوان «الكويت قبل النفط.. مذكرات الدكتور ميلر» في الستينيات.

## التقارير السرية البريطانية

من سوء الطالع أن الخليج العربي أصبح حكراً على البريطانيين خاصة بحلول القرن التاسع عشر، لذلك فإن السلطات البريطانية كانت تقف حجر عثرة أمام أي باحث أوربي غير إنجليزي ولا تسمح له بالطواف والتفقد حتى من باب العلم اعتقاداً منها – وهو قد يكون صحيحا ـ بأن وراء كل

■ مثلما عرفنا الغرب حاولنا تعرفه، فهل نجحنا في ذلك؟



**صورة زائفة عن العربي والمسلم مازالت - مع الأسف - سائدة حتى الآن**

رحالة أوربي هدفا تجاريا واستعماريا، فقد كانوا أدرى بمقاصد بعضهم البعض خاصة إبان احتدام الصراع على المستعمرات. ولكن سوء الطالع العلمي أننا في الوقت الذي حصلنا فيه على كتابات متنوعة من أطراف مختلفة للمناطق العربية لم تسد إلا وجهة النظر البريطانية في الكتابة عن الخليج، ولعل أهم وثيقة قدمها البريطانيون هي العمل الموسوعي الذي قام بتجميعه «ج. ج لوريمر» وهو موسوعة من أربعة عشر جزءاً سبعة منها وصفت بأنها تاريخية وسبعة أخرى وصفت بأنها جغرافية، ولقد كان هذا العمل في بدايته وثيقة محدودة التوزيع طبع لأول مرة في بداية القرن العشرين، وكان يمثل مجموع الكتابات السرية المبكرة عن المنطقة، وقد خص كل بلد من الخليج على حدة، فكتب عن سكانها ونشاطهم وقراها وقبائلها وملخصا لتاريخها، ولقد ظهرت هذه الموسوعة إلى العلن في السبعينيات وقام بترجمتها إلى العربية ديوان حاكم قطر الذي وزعها توزيعاً محدوداً. تشكل عملية الوصف التي أنجزها «لوريمر» عملاً مرجعياً في المجال الجغرافي مدعما بالوقائع التاريخية للأحداث الماضية وهو يوفر معلومات شبه دقيقة للهويات القبلية وولائها ونشاط السكان الاقتصادي، لأنه اعتمد في بنيته الأساسية على تقارير سابقة مكتوبة من قبل المقيمين السياسيين البريطانيين والمبعوثين. برغم هذا فإن هذه التقارير لا تخلو من الهوى والبحث عن المصلحة. بجانب التقارير السياسية فإن هناك مصدرا آخر ملهما للأوضاع في الخليج العربي يمكن استقاؤه من التقارير التي كانت تكتب لصالح الشركات النفطية التي حصلت على امتيازات البحث والتنقيب وأصبح لازماً أن تتعرف الواقع الاقتصادي والسياسي للأرض التي تبحث فيها. وقد حجبت هذه التقارير عن ناظري الرأي العام لفترة قبل أن تظهر هذه الأيام في صورة مذكرات لرجال النفط، وقد انصبت هذه التقارير والمذكرات على ما دار في الأحاديث الشخصية مع القيادات المحلية، كما أنها ركزت إلى حد كبير على وصف المناطق الحدودية المختلف عليها لأهميتها في استخراج النفط. وعند قراءة هذه المواد المتوافرة علناً اليوم ومنها مذكرات خاصة يستطيع المتابع أن يتعرف شبكة المناورات والخداع اللذين اتصفت بهما المصالح النفطية، ومن الخطأ الكبير الاعتماد عليها اليوم كلياً لتحديد مستقبل العلاقات السياسية.

## الصورة اليوم

إذا ضربنا صفحاً عن كتابات الرحالة والمبشرين والمبعوثين في القرن الماضي على أنها كانت لأغراض محددة لا يستطيع المراقب اليوم إلا أن يلاحظ أن الكتابات الغربية المعاصرة ما زالت تحوي الكثير من التشويش الساذج أو المتعمد، وتشوبها

■ دليل الخليج اعتمد في أساسه على التقارير السرية المبكرة عن المنطقة.

ـ كسابقاتها ـ المبالغات أو إساءة التفسير. وحتى بعد انفتاح هذه المنطقة وتدفق الكثير من أبنائها للعمل أو الدراسة في الخارج، فقد كان العقل الغربي في مواجهة هذا التدفق هو أسير تلك التصورات السابقة وامتلأت الدراسات والقصص الأدبية بكتابات هي مزيج من التهكم والحسد. ولكن هل تحولت هذه الصورة المشوهة بالقدر الكافي؟! لقد اشترى بعض العرب القصور الكلاسيكية في الريف البريطاني وانخرطوا في الشوارع والمحلات الكبرى في أوربا وأصبح من المستحيل مقارنة صورة الأعرابي ذي الثوب القصير بالرجل الفاره المتحدث بطلاقة بلغة التاج البريطاني، لقد قضت هذه الصورة على حلم أساسي شغف به الغربيون عن العربي «الرذيل» أو العربي الرومانسي، هذا الشغف قد تحول إلى ماض بعد أن تدخل المال العربي مع مؤسسات الاستثمار المتعددة الجنسيات، وتنقل رجال الأعمال العرب على متن الطائرات الخاصة، وطافت سياراتهم الثمينة شوارع العواصم الأوربية، وتحول العرب إلى غرباء يثيرون الحيرة في معظم الأوقات والحسد في بعضها. لقد نظرت الكتابات الجديدة والسيارة التي التقطها القارىء الغربي بسرعة إلى العرب ـ خاصة أهل الخليج ـ على أنهم قلة من البدو ذوي الثراء الفاحش والذين لا جذور ثقافية لهم، فكان الخليج هو النفط لاغير. وإن كانت الكتابات مجاملة فعرب الخليج هم مربو خيول مهتمون بسباقات الهجن وطيور الصيد. ونستطيع أن نعرض كتباً عديدة عن الحريم وطقوس الحياة اليومية الموسومة بالبذخ والاسترخاء، لقد تغيرت كتابات الرحالة المحدثين من الرومانسية القديمة إلى النقد المبطن والملاحظات السريعة ومتابعة الفضائح المالية وغيرها. وبقي الأمر حتى الآن متاهة بين كتابات عديدة أقلها عدوانية هي الكتابات الرومانسية التي تقع بين وصف ماض غير دقيق ووصف حال معاصر مشوه. خلال الثمانينيات زاد الاهتمام بالخليج العربي خاصة بتأثيره في العالم الغربي وفي الجوار العربي ومال بعض الكتاب إلى رفض التصورات الماضية المغرقة في الرومانسية أو المغرقة في العداء والسعي إلى الوصول إلى الحقائق، وقد أسفر ذلك عن كتابات متوازنة مثل كتاب «جون بولك» «كشف النقاب عن الخليج» (١٩٨٤) وصدرت كتابات عن السعودية والكويت والإمارات وعمان يستطيع المرء أن يرى فيها التوازن والإتقان العلمي. ولكن تبقى حصيلة كل هذا أن هذه البقعة من الأرض حتى قبل اكتشاف النفط كانت تحت العين الأوربية الفاحصة. لقد أدركوا أن هذه الأرض التي أعطتهم الدين والتاريخ لا يمكن معاملتها مثل أي بقعة أخرى من العالم. ولكنهم صارعوها لسنوات طويلة. صارعوها كي يستأصلوا دينها أولا ثم ليغنموا ثرواتها ثانيا، لذلك فقد أحبوها ذلك الحب القاسي المليء بالشراهة بدلاً من عشق التفهم والتواصل. وكما قلنا فإن هذه الأرض في حاجة إلى من يعشقها أولاً حتى يراها بشكل جيد، وقد فعل ذلك القليلون وفشل الكثيرون.






# أسئلة..

شـــعـــــر:
نزيه أبـو عـفـش

كيف لي أن أواسي الحياةْ؟
كيف لي أن أردَّ إليها الورود التي أذْبَلَتها المحنْ؟
كيف أرفو ثقوب سماواتها وهي تشحب شيئا فشيئا
فيُكسبها الخوفُ لونَ بياض الكفن؟!
كيف لي أن أميل إليها بقلبي وأحرس أنقاضها
إذ يُغير عليها الجنونُ
وتغفل عنها قلوبُ الرعاة؟
كيف لي، وأنا واحد أحد،
أن أضيء حطام المراثي
وأُنهض تحت الرفات الرفاتْ!..
كيفَ يمكن لي أن أُؤذّن في من يموت
الحياة... الحياة..؟
كيف لي أن أفسر هذا الأنين
ثم أجرؤ أن أدّعي
أن هذا الغبار الذي يتلألأ في أعين الميتين
ومضة من حياة؟!..
كيف لي
- وأنا أتفقد أشلاء نفسي فلا أتعرفها
وأنقّبُ في الهاويات لأحصي هشيم دمي ورنين عظامي -
كيف لي أن أسوّغ بطلان هذا اليقين
ثم يمكن ألا أرى
- وأنا راسخ في ظلامي -
أن هذا الجنون
وهو يعلو ويعلو
ليس أكثر من عُدة لاحتمال جنون الحياة؟...
كيف يا سائلي
كيف يا قاتلي
كيف يا سيدي وإلهي
كيف لي، وأنا أتتبع أطوار هذي الحياة
أن أصدق أن الرصاص الذي يصرع العاشقين
هفوة.. لا خطيئة؟.
كيف لي أن أؤكد للقاتلين
أن خلف الدريئة
أعينا لا يراها الرماة؟..
كيف لي، بعد هذا وهذا،
أن أُكذب صيحة قلبي: «الحياة...
وهي تذبلُ في تيه أعمارنا
وصمةٌ في ضمير الطغاة..»؟!..





فكر

# صدام الحضارات

## ارتباك الخائفين وصلابة القادرين

بقلم: الدكتور مسعود ضاهر*

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي السابق والكتلة الاشتراكية التي ارتبطت به، حفلت الساحة الأيديولوجية على المستوى الكوني بنشاط فكري ذي طابع أيديولوجي محموم لإثبات «موت الاشتراكية والشيوعية» و«الانتصار النهائي للرأسمالية العالمية».

ولا يتسع المجال لإبراز مئات المقولات التي رافقت هذا النشاط الأيديولوجي والكتب الكثيرة التي صدرت في هذا المجال إبان السنوات القليلة الماضية. لذلك سنكتفي هنا بالإشارة إلى مقولة مفكر أمريكي من أصل ياباني هو فرنسيس فوكوياما في كتابه «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» الذي ترجم عن الإنجليزية إلى عدد كبير من اللغات الحية، وتعرض لانتقادات قاسية حتى دخل في عالم النسيان. ونشير كذلك إلى المفكر الأمريكي الآخر صامويل هانتنجتون في مقالته التي صدرت في مجلة Foreign Affairs في ربيع ١٩٩٣ تحت عنوان «صدام الحضارات» وأثارت ردود فعل حادة في عدد ديسمبر من المجلة نفسها لعام ١٩٩٣ مع رد المؤلف على منتقديه.

ليست مصادفة أن تكون الولايات المتحدة التي باتت الزعيم الوحيد للنظام العالمي الجديد في العقد الأخير حتى القرن العشرين، مصدر هذه المقولات الأيديولوجية التي تحاول أولاها أن توقف التاريخ عند انتصار النظام الأمريكي الراهن على نظيره النظام السوفييتي السابق، في حين تحاول الثانية القفز على مقولة «أرنولد توينبي» العلمية المعروفة حول «التحدي والاستجابة» في مجال تفاعل الحضارات. إن قراءة متأنية لمقالة «صدام الحضارات» تؤكد أن الأفكار الجديدة التي حاولت الترويج لها تنطلق من مقولة فوكوياما غير العلمية حول نهاية التاريخ.

### انقسامات ثقافية

يقول الباحث في مطلع مقالته: «تدخل السياسات العالمية مرحلة جديدة لم يتردد المثقفون إزاءها في تقديم رؤى لما ستكون عليه نهاية التاريخ. وعودة النزاعات التقليدية بين الدول/ الأمم، وانهيار الدول/ الأمم من جراء الدوافع المتعارضة للنزعة القبلية والنزعة العالمية». وهو يرى تبعا لذلك: أن المصدر الأساسي للنزاعات في هذا العالم الجديد لن يكون مصدرا أيديولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأول. فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية، والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدرا ثقافيا.. وسيسيطر الصدام بين الحضارات على السياسات الدولية، ذلك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل. وسيكون النزاع بين الحضارات هو المرحلة الأخيرة في

* مؤرخ لبناني.

**الحضارات لا تتصادم فيما بينها بل تتفاعل، والذي يقوم بالصدام هو الأنظمة السياسية أو الاقتصادية التي تحاول الدفاع بشراسة عن مصالحها الخاصة.**

تطور النزاع في العالم الحديث.

هكذا يستعير هانتنجتون كامل سمات المنهج الأيديولوجي الذي طبقه فوكوياما في «نهاية التاريخ». فقد استند إلى الأيديولوجيا لنفي العلم في اختيار عنوان مقالته.

وأبدل الصراع الاقتصادي الاجتماعي على أرض الواقع بهدف التسلط والغلبة بصراع أيديولوجي على مستوى صراع الأفكار أو الثقافات. وجعل الحدود الفاصلة بين سيطرة الشركات العملاقة التي تسيطر على العالم حدودا ثقافية لا حدود مصالح اقتصادية. وجعل النزاع بين الحضارات المرحلة الأخيرة في التاريخ الحديث، وهي شبيهة بمرحلة الإنسان الأخير عند فوكوياما.

بعبارة موجزة يمكن القول إن هاتين المقولتين حول نهاية التاريخ وصدام الحضارات لا يمكن أن تحظيا بأي احترام نظري يجعلهما قابلتين للنقاش لو لم يعبرا عن أهداف سياسية أيديولوجية ذات ارتباط وثيق بالسيطرة الأمريكية الراهنة على العالم.

## ارتباك الخائفين

يرى هانتنجتون: «إن الحرب العالمية القادمة، إن حدثت ستكون حربا بين الحضارات». فهو إذن لم يجزم بحدوث حرب عالمية ثالثة ولا بحتمية الصدام بين الحضارات. وفي رده على منتقديه طرح مسألة تفكك الولايات المتحدة الأمريكية نفسها وإمكان نزع الطابع الغربي عنها دون نزع الطابع الأمريكي الذي ميزها وسيظل سمة أساسية لديمقراطيتها ذات الجذور الأوربية. ويؤكد أن حضارة عالمية شاملة في العقود القادمة لا يمكن أن تكون إلا نتاج سلطة عالمية شاملة. ونفى عن نفسه تبنيه لمقولة نهاية التاريخ حين أكد: «أن التاريخ لم ينته، والعالم ليس واحدا، والحضارات توحد الجنس البشري وتقسمه وسيستعين على كل حضارة أن تتعلم التعايش مع الحضارات الأخرى».

أما عن مصير الصراع العربي - الصهيوني فيؤكد هانتنجتون استمراره بأشكال أخرى غير الحروب العسكرية. «وفي حين أن النزاع بين اليهود والعرب قد يمكن تطويقه، فإنه سيظل مستمرا».

هذه الإيضاحات التي رافقت الردود الحادة ضد مقولة «صدام الحضارات» أفقدت مقالة هانتنجتون الزخم الأيديولوجي الذي انطلقت منه، فعاد إلى أحضان مقولة توينبي المعروفة عن «التحدي والاستجابة أو الرد على التحدي» في مجال دراسة الحضارات. فالحضارات لا تهزم



لأنها لا تحارب ولا تتصادم بل تتفاعل. لقد أحسن مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق صنعا حين ترجم مقالة «صدام الحضارات» والردود التي انهالت عليها، ثم اتبعها بعدة مقالات تبرز وجهات نظر مفكرين عرب وإيرانيين، وصدرت جميعها في كتاب عام ١٩٩٥م. لكن اللافت للنظر في الردود العربية والإيرانية، وفي تقديم الكتاب بالذات، أن هذه الردود تشدد على الجانب الأيديولوجي فقط لمقولة هانتنجتون، وترى فيها قرارا سياسيا أمريكيا لتعميم المبادىء الديمقراطية والليبرالية الغربية على ما كان يسمى سابقا بالعالم الثالث، وأن تعميم تلك المبادىء بالقوة سيثير بالضرورة ردود فعل سلبية، نظرا لما ينطوي عليه ذلك التعميم القسري من نزعة إمبريالية جديدة. وأن المقصود في نشر هذه النزعة القديمة ـ الجديدة هو الترابط الإسلامي ـ الآسيوي الذي تشكل للوقوف في وجه المصالح والقيم الغربية.

وبما أن الغالبية الساحقة من الدول العربية اختارت طريق التفاوض مع إسرائيل تحت إشراف مباشر من الولايات المتحدة الأمريكية، فإن مقدم الكتاب يرى أن السياسة الأمريكية تخطط لضرب إيران بالدرجة الأولى بهدف احتوائها. لذلك يقول: «إن الإدارة الأمريكية فرضت عملية التسوية السلمية على العرب وإسرائيل بعدما صارت تعتبر أن «الخطر الرئيسي» على مصالحها الاستراتيجية في المنطقة مصدره إيران التي تطبق عليها وحدها سياسة الاحتواء، باعتبار أنه لم يعد لدى العراق ما يستدعي الاحتواء».

لكن مقولة «صدام الحضارات» لا تقف عند حدود دولة إسلامية بعينها وهذا ما أكده هانتنجتون بقوله: «إن للإسلام حدودا دامية». وبالتالي، ليس من الحكمة في شيء اختصار هذه المقولة بموقف سياسي قابل للتبدل في أية لحظة. ويرى باحث عربي آخر أن هذه المقولة هي «رد الفكر الغربي الآن على «أصوليات» دينية يدعوها هانتنجتون بكثير من التسرع والخفة «حضارات». و«أن العرب والمسلمين اليوم لا ينتجون وسائل الحضارة الإنسانية الحديثة ولا علومها ولا فلسفتها. وأما العودة إلى معالم الحضارة الإسلامية إبان ازدهارها فهي عودة إلى التاريخ واسترجاع لذاكرة أو دراسة لمرحلة.. إن الشعوب الإسلامية تبحث عن مشروع حضاري جديد لا يمكن للإسلام إلا أن يكون في قلبه، ولا يمكن للمعطيات الحضارية إلا أن تكون مادة اقتباس وتوليف وهضم له».

لقد حدد هانتنجتون في مقالته وجود سبع أو ثماني حضارات قادرة على التفاعل في المستقبل مفردا لليابان مكانة خاصة. «وفي ما عدا اليابان، فإن الغرب لا يواجه أي تحد اقتصادي، وهو يهيمن على المؤسسات السياسية والأمنية والدولية، ويهيمن مع اليابان على المؤسسات الاقتصادية الدولية، وتتم تسوية القضايا السياسية والأمنية العالمية بطريقة فاعلة بواسطة مجلس إدارة مكون من الولايات المتحدة وألمانيا واليابان». ثم يضيف في مكان آخر: «لقد أقامت اليابان لنفسها وضعا فريدا كعضو منتسب إلى الغرب، فهي في الغرب في بعض النواحي، لكن من الواضح أنها ليست من الغرب في أبعاد مهمة».

لا شك أن اليابان دولة عصرية استفادت إلى الحدود القصوى من الحضارة الغربية دون عقد ومركبات نقص، لكنها حافظت على أصالتها وتراثها، إذ عرفت كيف تميز بين الحداثة Modernization والتغريب Westernization فتبنت كل المقولات التي تدفع بالمجتمع الياباني من مجتمع تقليدي إلى مجتمع عصري، دون أن تسقط في فخ التقليد ونسخ تجارب الغرب أي التغريب.

وقد اعترف هانتنجتون لليابانيين بهذه القدرة على استيعاب حضارة الغرب دون أن يتحولوا إلى غربيين، وذلك على قاعدة الشعار المشهور الذي رفعه الإمبراطور المصلح ميجي Meiji في القرن التاسع عشر: «الحقوا بالغرب وتجاوزوه». لذا نجحت اليابان وحدها حيث فشل الآخرون، كما يقول هانتنجتون: «فالحضارة الغربية غربية وحديثة في آن معا. وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تصبح حديثة من دون أن تكون غربية، لكن اليابان فقط هي التي نجحت في هذا المسعى، وستواصل الحضارات غير الغربية محاولة الحصول على الثروة والتكنولوجيا والمهارات والآلات

والأسلحة التي تشكل جزءا من الحداثة، كما ستحاول التوفيق بين هذه الحداثة وثقافتها وقيمها التقليدية». لكن الباحث هنا يخلط عمدا بين الحضارات والقوى الاجتماعية المسيطرة. فليست الحضارات هي التي تسعى وراء الثروة والتكنولوجيا المسماة بالغربية بل القوى السائدة على امتداد العالم باعتبار أن الغرب شكل موقعا متقدما لأنماط من الإنتاج وعلاقات الإنتاج والتكنولوجيا يمكن الاستفادة منها.

وغني عن التوكيد أن نموذج اليابان لم يعد فريدا في مجال الاستفادة من علوم الغرب وتقنيته مع المحافظة على القيم الحضارية السابقة، فقد انخرطت في النموذج التحديثي دول عدة في جنوب شرق آسيا منها كوريا الجنوبية، وتايوان، وسنغافورة، وأندونيسيا. أما الصين فتعمل على تطوير قدراتها الذاتية انطلاقا من تجربتها الاشتراكية المستمرة التي أدخلت عليها تعديلات أساسية لتصبح أكثر قدرة على حماية الصين من المؤثرات السلبية الدولية الناجمة عن غياب الاتحاد السوفييتي والكتلة الاشتراكية السابقة.

نشير هنا إلى أن الباحث الأمريكي المعروف دافيد هيتشكوك، أصدر كتابا مهما في أواخر عام ١٩٩٥ لمناقشة مدى تأثير مقولة «صدام الحضارات» في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في جنوب شرق آسيا والصين.

بدأ هيتشكوك دراسته باقتباس لأرنولد توينبي عن مقالة بعنوان «العالم والغرب The World and The West»، وخلاصتها: «.. أنها لأخوة مثالية تلك التي تنهي صراع الثقافات».

لقد ناقش الباحث أكثر من مائة شخصية ثقافية في دول جنوب شرق آسيا، ومنها الصين، واليابان، وماليزيا، وسنغافورة، والفليبين، وأندونيسيا، وكوريا، وتايوان وغيرها. وقد تمحور النقاش حول مصداقية مقولة «صدام الحضارات»، التي يتفق فيها الباحث مع مطلقها في بعض الجوانب ويختلف في جوانب أخرى.

ولا يتسع المجال لإبراز المقولات الأساسية لتلك الردود لأنها تحتاج إلى دراسة مطولة. لكنها شددت على أن «زمن آسيا هو على طريق البروز على المستوى الكوني». فقيم الآسيويين الاجتماعية والأخلاقية والسلوكية والفلسفية والدينية لا تقل أهمية عن قيم الحضارة الغربية إن لم تتفوق عليها في جوانب عدة. وأن التحديث ليس تغريبا، وإذا كان هناك من صدام بين الحضارات ـ كما يدعي هانتنجتون ـ فإن الآسيويين سيلتفون حول حضاراتهم القديمة، وسيعملون بكل قواهم على تحويل «آسيا للآسيويين». وينتهي الباحث إلى القول إن مقولة «صدام الحضارات» تضر كثيرا بالمصالح الأمريكية بشكل خاص، والغربية بشكل عام في جميع بلدان جنوب وشرق آسيا التي تعيش مرحلة نهوض اقتصادي عارم في مواجهة الأزمات المتلاحقة التي تعصف بالاقتصاد الأمريكي.

## بعض الملاحظات الختامية

لا شك أن مقولة «صدام الحضارات» لم تكن جديدة من حيث المضمون لأنها تستعير مقولة أرنولد توينبي عن «التحدي والاستجابة» لتطلقها من جديد بأسلوب أيديولوجي فج ينبع من وهم الانتصار في الحرب الباردة وزوال الاتحاد السوفييتي السابق، ونشر روح الإحباط لدى الشعوب المذعورة بأن التاريخ شارف على نهايته بإعلان الولايات المتحدة قائدة منفردة للعالم، وإعلان الديمقراطية الليبرالية الغربية التي بشر بها هيجل بالفلسفة الوحيدة القابلة للحياة بعد انهيار منافستها التي عرفت عن نفسها باسم الاشتراكية العلمية.

نتيجة لذلك سارعت فئات



واسعة من المثقفين، خاصة في البلدان النامية، إلى إعلان توبتها عن الاشتراكية، والمشاركة بحماس في عملية دفنها التي تتم يوميا على صفحات الصحف والمجلات، وعبر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وإمعانا في إظهار البراءة من تهمة الاشتراكية انخرط بعض تلك الفئات، خاصة من المثقفين العرب، في التيارات الأصولية الدينية والمذهبية على قاعدة أن المعركة القادمة ستكون حتما صداما بين الحضارات فعليهم بالتالي أن يعززوا مواقعهم في التيارات الدينية ويعززوا تلك التيارات بمثقفين عفويين - على طريقة غرامشي - قادرين على معرفة ما يرسم في معسكر الخصم من مخططات للنيل من الحضارة العربية الإسلامية من جهة، وعلى رسم مشروع تحديثي توليفي جديد يكون الإسلام في قلبه لكنه يستمد غذاءه الثقافي من حضارات الغرب وغير الغرب، من جهة أخرى.

بعبارة أخرى، لقد أعطت مقولة هانتنجتون غير العلمية عن «صدام الحضارات» مفعولها الإيجابي في جميع البلدان الخائفة على تراثها وحضارتها من التحديات المستقبلية التي لم تستطع حتى الآن أن تجد لها مشروعا تحديثيا قابلا للحياة رغم مرور أكثر من قرنين من الزمن على بداية التحدي الحضاري الذي مثلته حملة نابليون بونابرت على مصر. واللافت للنظر أن الكثير من المقولات الثقافية السائدة الآن في الوطن العربي هي أقل جذرية وعلمية من بعض المقولات التي أطلقها جيل الرواد من النهضويين العرب لمواجهة تحدي الحضارة الغربية.

بالمقابل، فهم المثقفون اليابانيون وغيرهم من الداعين إلى الرد على التحدي الغربي بالأسلوب عينه أن كل مجتمع قادر على تحديث نفسه بنفسه إذا توافرت له القيادة الصالحة والإمكانات المادية. وأن التطور البطيء وغير القابل للارتداد هو الأسلوب الأفضل في مواجهة تحديات الغرب. فالتحديث عملية ذاتية تنبع من ضرورات التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي والإداري نفسها. وهي ضرورات تفرض الاستفادة من النماذج المتوافرة في العالم دون نسخها أو تقليدها. لأن التقليد يتنفي مع الحداثة أولا ويقود إلى التغريب ثانيا، وقابل للارتداد في أي لحظة ثالثا، ويقود إلى تدمير الأصالة أو الذات بدل أن يحملها رابعا.

إن مقارنة ما أحدثته مقولة «صدام الحضارات» في العالم الإسلامي، خاصة العربي، من جهة، وفي جنوب شرق آسيا من جهة أخرى تؤكد بالملموس أن اليابانيين والصينيين والكوريين قد عرفوا كيف يردون على الأيديولوجية بالعلم، أي بالإيغال في عملية التحديث الذاتي وليس التغريب، وذلك على قاعدة اللحاق بالغرب أولا لتجاوزه ثانيا. في حين أن تلك المقولة أحدثت ذعرا في العالم العربي والإسلامي فانهالت عليها الردود العاطفية والأيديولوجية التي تفند بطلانها، وتظهر زيفها، وهي زائفة أصلا لأنها غير علمية. فقد أثبت باحثون غربيون عدم جدية مقولة «صدام الحضارات»، وتراجع عنها صاحبها في العدد اللاحق من المجلة نفسها، التي أصدر فيها مقالته الأولى وذلك بعد ثلاثة أشهر فقط. والسبب في ذلك ليس الرفض الأيديولوجي لها كما ظهر في دول العالم الثالث، بل الدعوات التي ظهرت في الدول المتطورة في جنوب شرق آسيا، وعلى لسان قادة سياسيين ومفكرين بارزين وهي توصي بضرورة تطبيق شعار «آسيا للآسيويين»، و«الحضارة الآسيوية في مواجهة الحضارة الغربية»، و«آسيا أولا». وهي دعوات تضرب المصالح الأمريكية في الصميم في تلك المنطقة التي تسعى اليابان إلى تحويلها إلى منطقة تحتل فيها المصالح اليابانية دورا بارزا، وذلك على حساب المصالح الأمريكية والأوربية.

وعلى عكس الكلام الأيديولوجي الذي لا تحميه قوى اجتماعية وسياسية ذات مصداقية على أرض الواقع كما هو الحال في الدول العربية والإسلامية، فإن دعوات القادة السياسيين والمثقفين الوطنيين في جنوب شرق آسيا ذات مصداقية كبيرة ولها فاعلية تهديد المصالح الأمريكية مباشرة. فاضطر هانتنجتون، كما أخطر فوكوياما من قبله، إلى سحب مقولته الأيديولوجية من التداول في مواجهة القوى القادرة على التحدي، لتبقى فاعلة في البلدان التي تكثر من الكلام تعبيرا عن النقص الهائل في الأفعال.

# AL-ARABI العربي

اقــــرأ
في عـدد
أغسطـس
١٩٩٦م

■ العربي تقتحم آفاقاً جديدة كما عودت قارئها دائما:

■ الـتـشـــرد

يواجه اللاجئين السياسيين في بريطانيا استطلاع: نديم ناصر

■ إعادة اكتشـاف
جزر الـقـمـر
الاسـتـطـلاع:
أنور الـيـاسـين





■ وتـــواجـــه:
يوسف الشاروني
وأحمد هاشم الشريف

■ وتقدم محاورها الفكرية:

- ■ الـ C.N.N وحرب الخليج ............ أحمد حافظ إبراهيم
- ■ برلمان المثقفين.. ضرورة ............ البشير بن سلامة
- ■ الجمال بدلا من البقر ............ سيف الدين الأتاسي
- ■ محمية كويتية منمنمة ............ ليلى سيد موسى
- ■ حرائق الكويت بريشة فنانة أمريكية ............ أحمد خضر
- ■ التراث القصصي في الأدب العربي ............ د. عبد الواحد علام
- ■ شكسبير مازال على الشاشة ............ محمد رضا

وتـفـتـح صفحاتها لأهم كتاب العربية:

د. محمد الرميحي - د. جابر عصفور - د. يحيى الجمل - د. محيي الدين صبحي - د. عمر الفاروق - فريد أبو سعدة - محمد سليمان - سعد شعبان - نعمات البحيري - د. أحمد تايح - د. ريم حمامي - حسين بن حميدة - علي سليمان - د. شوقي جلال.




# الإدارة بالمعرفة التكنولوجيا تقود العالم

## بقلم: الدكتور عبد الرحمن توفيق

أذهل نمو إنترنت السريع خلال الأعوام القليلة الماضية - حيث يوجد هناك نحو ٤٠ مليون مستخدم - الجميع بمن فيهم الأكثر تفاؤلا أو حماسا لها. فقد أضيف ما يزيد على ٣٠ مليون كمبيوتر مضيف جديد إلى إنترنت في عام ١٩٩٥م. كما يوجد في الوقت الحالي نحو (٥) ملايين كمبيوتر مضيف على الإنترنت. إنه من الصعب تخمين عدد المستخدمين لهذه الملايين الخمسة من الكمبيوترات المضيفة إلا أن العدد المتوقع هو نحو ٣٠ مليون مستخدم، ولنا أن نتخيل كيف سيكون شكل العالم خلال السنوات الخمس القادمة وكيف سيتبدل شكل التقارير وحجمها ونوع المعلومات الواردة منها، وإلى أي مدى سيتم اختصار الزمن، وإلى أي حد سيصبح من الضروري لمستخدمي الإنترنت أن يعرفوا أن المركز التدريبي أو المكتب الإقليمي للشركة لا يتعدى جهاز كمبيوتر مع موديوم موجود في غرفة نومك، فمبدأ العمل من البيت يجد متنفسا في الطاقات الكامنة في الإنترنت. فهذه الشبكة المؤلفة من بلايين محطات الكمبيوتر المشبكة بالهاتف توفر إمكانات هائلة في مجالس التسويق والعلاقات العامة والاتصالات (الرخيصة) والإعلان. والشبكة العالمية World Wide Web (W.W.W) تتيح لأي شخص أو شركة إنشاء صفحة خاصة به أو بها تحوي صورا ونصوصا وحتى ملفات صوتية لتقديم لمحات عن مجال أعمالها أو مواضيع مختلفة عديدة. إن استخدام المدربين أو مراكز التدريب لهذه الميزات سيمكنها من توفير تكاليف الإعلان في الجرائد والمجلات عن برامجها أو توفير حملات البريد الموجهة إلى مديري التدريب والتنمية البشرية، فضلا عن استفادة المهتمين بالتدريب من فيض المعلومات المفيدة المتوافرة عن برامج التدريب، والأفلام، والمؤتمرات، وخبراء التدريب العالميين، أضف إلى ذلك توفير خدمة الاتصال بالبريد الإلكتروني مع العملاء والموردين، وكذلك إمكان المشاركة بالعديد من مجموعات المناقشة في إنترنت في توسيع أفق المشترك من نواح عديدة قد نشعر معها بعدم حاجته إلى الانتقال إلى المدرب أو قاعة التدريب أو المؤتمر.

### الاتصالات الدولية المحمولة يدويا

الهاتف العالمي وهو نتيجة إنفاق ١١ مليار دولار سيشكل ثورة جديدة في عالم الهواتف المتنقلة. من خلال هذا النظام سيتم تبادل المحادثات الهاتفية عبر القارات والمحيطات بواسطة العديد من الأنظمة والشبكات المختلفة، ذات نقاوة كاملة بالإضافة إلى مميزات تبادل البيانات والمعلومات.

هناك الآن خمسة مشاريع عالمية تسابق الزمن كي تنقل هذه الحقيقة للمجتمع العالمي، وفي سبيل بناء البنية التحتية الفضائية ستقوم هذه الشركات بإطلاق ما يزيد على ١٠٠٠ قمر صناعي في قدرات مختلفة الارتفاع بحلول عام ٢٠١٠، وباكتمال هذه المشاريع لن تبقى الاتصالات العالمية حبيسة المشاريع، ولن تبقى كذلك حبيسة السياسات المحلية.

**أمام شبكة الإنترنت والهواتف النقالة والأجهزة متعددة الوظائف سوف تصل الإدارة إلى تحديات جديدة عليها أن تواجهها من الآن.**

وإن كانت التكلفة ستمثل عنصرا مهما في اقتناء المعلومات من عدمها، فإن استخدام الكمبيوترات الشخصية والتقدم التكنولوجي المذهل سيمكن من الوصول إلى شبكات الإنترنت أو غيرها من الشبكات أو الفيديو والرسوم ثلاثية الأبعاد وبأسعار موازية لأسعار الكمبيوتر الشخصي. بل إن إعادة صياغة الأشكال الفنية المتعارف عليها لأجهزة الكمبيوتر الشخصي المكتبية تتيح التوصل إلى ما يطلق عليه التراكمبيوترنج Ultra Computering المتضمنة للعديد من القدرات التي تساعد على زيادة الإنتاجية والمنافسة وتخفيض التكاليف، بل إنه بالإمكان الآن إنتاج فيلم تدريبي بالكامل دون تدخل العنصر البشري أو قلم الرصاص أو الفرشاة في إعداد كل ما يتعلق بالفيلم باستخدام محطات عمل جديدة من نوع Spark شبيه بتلك التي تستخدمها شركة والت ديزني في إنتاج أفلامها الجديدة.

الشركات التي ستستثمر في تقنيات حفظ الوثائق وإدارة سير العمل ومسح الوثائق ضوئيا ستحقق مكاسب حقيقية مثل تخفيض الوقت اللازم للعميل للاستجابة بنسبة ٨٠٪ وزيادة الإنتاجية بنسبة ٥٠٪ وضمان أن تكون كل عملياتها ومنتجاتها ملبية لشروط الجودة العالمية المطلوبة من قبل العملاء والجهات الحكومية.

إن الدافع وراء الأخذ بهذه الأدوات هو ازدياد حجم الورق المستهلك في المكاتب خلال الأعوام السابقة بنسبة ٦٠٠٪، برغم تنبؤات قديمة بأن تسهم تقنية الأعمال والمعلومات في تحقيق حلم المكتب اللاورقي. بل إن الدراسات تشير في ذلك إلى أن العاملين في الوقت الحاضر يمضون أكثر من ٦٠٪ من وقتهم في التعامل مع أوراق مطبوعة الأمر الذي يكلف بعض المؤسسات أكثر من مليار دولار سنويا بسبب ضياع وقت الموظفين في البحث عن الأوراق ونقلها.

## الأجهزة متعددة الوظائف

يعتقد الخبراء في مجال التجهيزات المكتبية الحديثة أن الأجهزة متعددة الوظائف في سوق المكاتب الصغيرة (أو البيوت) ستلاقي نجاحا كبيرا بسبب انخفاض أسعارها، وبسبب توفيرها للمساحة المكتبية.

ويعتبر تقرير شركة بي إيه كونسلتنج أن

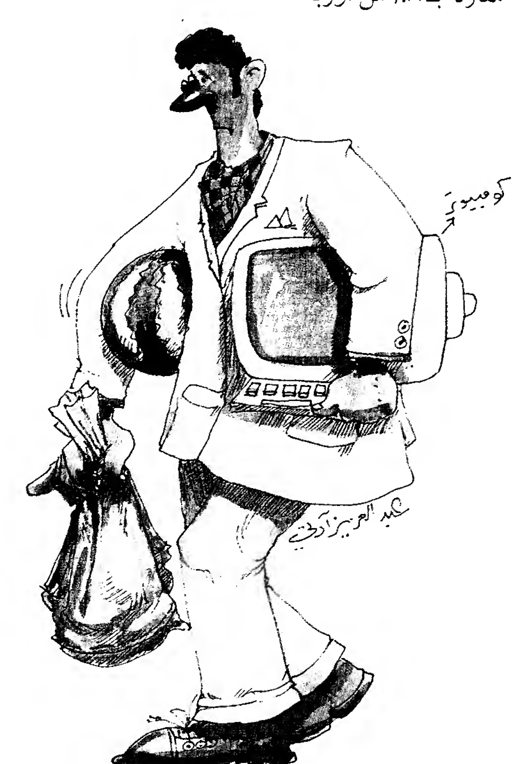


وستسود قيم جديدة للعمل والحياة مثل :

العمل عن بُعد : تتوقع حملة (أيها الأمريكيون . . اعملوا من «داخل بيوتكم المدعومة») - من قبل الحكومة الأمريكية - أن يبدأ أكثر من مليون أمريكي العمل هذاالعام بعيدين عن مكاتبهم فيما بات يعرف بأسلوب : العمل عن بُعد . .

وسينضم هذا المليون إلى الملايين التسعة الآخرين من العاملين الذين تحولوا إلى العمل من داخل بيوتهم مستخدمين أجهزة الكمبيوتر والموديوم (وهي الأجهزة التي تسمح بنقل بيانات الكمبيوتر إلى خطوط التليفونات العادية) .

وتهدف هذه الحملة التي بدأت في العام الماضي ١٩٩٥م إلى إقناع العالم بجدوى وميزات العمل خارج المكتب التقليدي باستخدام التقنية الحديثة واستبدال مكاتب الأعمال التقليدية بالمنزل . وبرغم عدم توافر معنى دقيق (للعمل عن بُعد) بسبب اختلاف مدة الوقت المنقضي في العمل من داخل البيت ونوع التقنية والأجهزة المستخدمة في الولايات المتحدة فإنه يعمل أكثر من : ١٣٪ من حجم العمالة الكلي في كثير من الأحيان داخل المنزل مقارنة بـ ٨٪ من أوربا




وتعرف (الأيتو) مركز مراقبة تقنية المعلومات الأوربية (العامل عن بُعد) بذلك الذي يعمل لمدة يوم إلى خمسة أيام داخل بيته خلال ساعات العمل الاعتيادية ، وبناء على هذا التعريف يوجد في أمريكا حاليا : ٦٥٠ ألف مكتب يستخدم طريقة العمل عن بُعد مقارنة بـ ٤١٠ آلاف مكتب في أوربا .

وتكمن فوائد العمل عن بُعد في تخفيض قيمة العقارات ، وزيادة الإنتاجية ورفع الروح المعنوية ، وتحليل صراعات العمل ، واستثمار أفضل للوقت ، بالإضافة إلى تخفيض تكلفة الوقود والنقل والاستهلاك . ويتوقع المحللون أن تتزايد أعداد العاملين عن بُعد بنسبة ٣٪ سنويا .

لذلك يصبح من الضروري إحداث تغييرات جوهرية في نظم العمل والإدارة وفي طبيعة الدورات التدريبية اللازمة لدعم المهارات المتعددة من ناحية ، ولتقليل حدة المشاكل المحتملة من ناحية أخرى . وعلى كل الأحوال سيظل السؤال المطروح هو : كيف سيكون شكل التدريب؟

وأين موقعه في المستقبل القريب مادام العمل والإدارة أصبحا بالفعل عن بُعد؟

وكيف يمكن للتدريب أن يتم عن قُرب؟

وسيظل العمل أو التدريب عن بُعد ينتشر ببطء إلى أن يدخل العالم أجمع عصر المعلومات الجديد ، الذي ربما يجعل أناس المستقبل يتعجبون من أننا (أسلافهم) كنا نستيقظ صباح كل يوم نرتدي فيه البدلات ونقطع المسافات البعيدة للذهاب إلى أعمالنا أو يسافر المدربون ويقطعون مئات الأميال أو الآلاف منها لإلقاء محاضرة داخل قاعة مغلقة ، ليس بها سوى جهاز كمبيوتر على أكثر تقدير ، بل سيذهلهم هذا العدد الهائل من الطلاب داخل قاعات الجامعةوهذا المشهد التقليدي للسبورة والطباشير والميكرفون السلكي .

## القرصنة الفكرية

عندما نسمع كلمة قرصنة تعود بنا الذاكرة إلى مرحلة بعيدة من التاريخ ، حيث تقوم بعض السفن برفع علم أسود رسمت عليه جمجمة وعظمتان متقاطعتان ، إضافة إلى مجموعة من الأشرار يرتدون ملابس رثة ، تنبعث

منها رائحة كريهة، يهاجمون السفن الأخرى للاستيلاء عليها وعلى ما تحمله. إن القراصنة الذين نتحدث عنهم لا يمتون إلى أولئك الرجال بصلة سوى أنهم يسرقون برامج الكمبيوتر المطورة حديثا ويعملون على نسخها أو فك رموزها، ومن ثم ترويجها دون إذن أو حق بما يحدث خسائر كبرى للشركات المطورة للبرامج على شكل مبيعات غير محققة ويجعلها تحجم عن الاستثمار في المناطق التي لا توجد فيها القوانين الصارمة التي تمنع القرصنة بأنواعها والتي تحد من إمكان توفير الخدمات المتعلقة بعمليات ما بعد البيع. وفيما يتعلق بالمستخدمين للبرامج المقرصنة فإنهم قد يكونون الطرف الأكثر تضررا نتيجة غياب الدعم أو الحصول على النسخ الجديدة نظير مبلغ زهيد نسبيا أو الإضرار المباشر بأجهزتهم والبيانات الموجودة عليها.

وتشير أرقام القرصنة في العالم إلى الحقائق التالية:

(١) إن نسبة القرصنة في فرنسا تصل إلى ٦٦٪ من مجمل المبيعات. وفي بريطانيا ٤٩٪، وفي أمريكا ٣٥٪.

(٢) تتجاوز نسبة القرصنة في دول شرق آسيا ودول الشرق الأوسط نسبة ٩٠٪.

(٣) قدرت الخسائر الناجمة عن القرصنة في ١١ دولة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بحدود ٦٦٦ مليون دولار في عام ١٩٩٤م.

وفيما يلي بيان بحجم الخسائر من مجمل المبيعات:

مصر ١, ٨٤ مليون دولار بنسبة ٩٣٪

السعودية ٣, ٨٢ مليون دولار بنسبة ٩٠٪

الإمارات ٤, ٥٤ مليون دولار بنسبة ٩٩٪

الكويت ٤, ٢٥ مليون دولار بنسبة ٩٨٪

وهنا تتضح مدى الحاجة إلى وضع قوانين أو أساليب للحماية من القرصنة، هذه الأساليب التي يجب أن تتنوع تباعا لاختلاف أساليب قرصنة برامج الكمبيوتر وتنوعها. بالإضافة إلى تطوير مسألة حماية حقوق الملكية الفكرية في العالم أجمع بإنشاء الاتحادات الدولية أو العالمية، مثل اتحاد منتجي برامج الكمبيوتر الذي تأسس في عام ١٩٨٨م من قبل ٦ شركات أمريكية مطورة للبرامج منها مايكروسوف نوفيل، ولوتس.

كيف سيتغير شكل القيم السائدة في بيئة العمل في ضوء هذه التغيرات التكنولوجية المهمة؟، ومتى سيصبح للتدريب اتحاد لمنتجي البرامج التدريبية الإدارية، يحمي حقوق المدربين؟، ويحمي كذلك المتدربين من المواد التدريبية الفاسدة أو المسروقة؟ أو حاملة فيروسات الغش والخداع لبعض المدربين الهواة من جماعة القرصنة التدريبية؟ أسئلة عديدة باتت في مضمونها هي الأهم.

والأجدى عند الإجابة عليها من العديد من قضايا التدريب التي سئم الفرد من ترديدها أو حتى ترديد الإجابة عنها.

## بيئة تدريب الغد

إن قراءة المتغيرات المشاهدة ومحاولة تفسير مدى تأثيرها في سير العمل وطبيعة العلاقات بين المدخلات المؤثرة في العملية الإنتاجية، أو الخدمية أيا كان نوعها.. يساعدنا على التوصل إلى قراءة طبيعة التغيير التي من المتوقع أن تحدث في معطيات العمل الإداري بصفة عامة والتدريبي بصفة خاصة. ونستعرض هنا عددا من الملامح التي أفرزتها هذه التغيرات والتي ستشكل خصائص السلوك المهني للمدرب أو التدريب بالمستقبل القريب.

وتتلخص هذه الملامح فيما يلي:

(١) **سرعة الاستجابة**: لكل ما يدور في عالم التكنولوجيا والمعلومات، وينعكس ذلك في سرعة اتخاذ القرارات، وإمكان تبديل وتعديل المسارات الاستراتيجية للشركات، وتطوير نظم وأساليب العمل، وتطوير وتحديث المواد التدريبية وأساليب التدريب، وسرعة الاستشفاء من أي أزمة أو مشكلة إدارية.

(٢) **التباين المتكامل**: تنوع المعارف والمهارات وتباينها بما يخدم الأداء الكلي للمدرب، فلن يكون هناك المدير المسيطر وحيد الرؤية، وسيختفي المدرب الملقن أو المقدم بل يلزم الأمر الاعتماد على المدرب المتكامل القادر على تقديم التدريب (مصمم مادة - إنتاج أفلام - إنتاج برامج حاسب آلي - إنتاج معينات - تقديم البرامج)، والبحث عن المدير المرئي متعدد المهارات والرؤى، سريع الاستجابة للمتغيرات المحيطة به، مبادر ومبدع ومتطور.

(٣) **النقل**: نحن نعيش حالة مستمرة من تبدل عملية النقل أو ما يمكن أن نطلق عليه التحرك العكسي، فبدلا من أن ننتقل إلى ما نريد سينتقل إلينا أو بالأحرى ينقل إليها ما نريد أو تنقل إلينا ما نريد، وبدلا من الانتقال إلى

مراكز المعلومات ستنقلها إلينا. وبدلا من الانتقال إلى العمل سننقل العمل إلى منازلنا، وأيضا بدلا من الانتقال إلى مراكز التدريب سننقل المدرب إلى مواقعنا. هذه العملية من النقل تستلزم عملية نقل مماثلة في أسلوب التفكير وأسلوب الحياة وأساليب التدريب.

(٤) **الذاتية والاعتمادية**: يمكن لكل منا أن يصمم مكان أو موقع التدريب بما يتلاءم مع مهاراته وقدراته وإمكاناته المالية. سيحكمه في ذلك القدرة على الاستيعاب والقدرة على تسويق الذات Self Marketing وفي نفس الوقت لن يستطيع المرء أن يعمل منعزلا عما يدور حوله مهما كانت كفاءته وبراعته وسينهار جدران السرية والحرفية الكاذبة لبعض المدربين على مد أيديهم لصغار مبرمجي الحاسب أو أخصائيي شبكات إنترنت، أو مصممي المكاتب الحديثة أو مهندسي الوسائل الإيضاحية المتعددة الأغراض Multi Media. وسيلتقي كبار المديرين حول صانعي التكنولوجيا يطلبون عونهم، وتلقي العلم والمعرفة على أيديهم.

(٥) **المرونة**: إن التمسك بالمرونة هو الشيء الوحيد الذي يمكن التمسك به، حيث الإصرار على الالتزام بأمر آخر سيصيب المرء بالتقادم السريع. والانفتاح على الآخرين، والمبادرة، والاطلاع على ما يدور بعالم التكنولوجيا والمعلومات، والاستماع إلى الأخصائيين كل في مجاله، وتبديل وتنويع المنتج أو الخدمة، وتنويع أساليب التقديم والعرض. كل هذه الخصائص ستصبح أمرا طبيعيا، بل أمرا لازما للتعايش مع عالم اليوم.

(٦) **تعويم الولاء**: انتقل الولاء وتغير معناه خلال مراحل عديدة من الزمن، واستقر عند ما نطلق عليه الولاء التنظيمي أو ولاء الفرد لمؤسسته. سيختلف معنى الولاء مع اختلاف بيئة العمل، العمل عن بُعد، والعمل لأكثر من جهة، والاستعانة والاستفادة بجميع الموردين والتعامل مع جميع العملاء بلا حدود، سيصبح الولاء عاما أو عائما بلا حدود وبلا ملامح وبلا هوية. الولاء الوحيد هو للذات وللنمو وللمرونة وللتكنولوجيا والمعلومة وفوق كل شيء للمعرفة.

(٧) **حق المعرفة**: إن التقدم التكنولوجي المذهل الذي يشهده العالم سيوفر قدرا مهما من المعرفة المباشرة التي يمكن التزود بها من مصادرها الأولية دون قيود للغة أو الجنس أو الخبرة أو الجنسية. سيصبح من حق الجميع أن يعرف Right To Know ومن حق الجميع أن يناقش ومن حق الجميع أن يتعلم ويتدرب. وستحل محلها سلطة المعرفة وسيرفع شعار (الإدارة بالمعرفة من يعرف يدر).

(٨) **معنى الأداء**: تغير معنى الأداء سيصبح أمرا حتميا من حيث مضمونه، وتطويره، وقياسه. سنحتاج إليه حتى نعيد تعريف معنى كلمة أداء، وكذلك ستسقط نماذج تقارير الكفاية السنوية التي تكتظ بمتطلبات شاغل الوظيفة أو بمواصفاته كالحزم، والتعاون، والابتكار، وحُسن المظهر، الخبرة العملية وغيرها من معايير قياس الكفاءة. سنحتاج إلى معايير أخرى مختلفة تماما، ولربما يصبح تقييم الأداء لا داعي له بالمرة في وسط هذا التحرك السريع والمرونة الفائقة، وسيكتفى عندئذ بمتغيرات رئيسية حاكمة للأداء، أهمها الكمية والدقة، وسرعة الاستجابة، والتطوير المستمر في العمل، والعملية والأدوات.

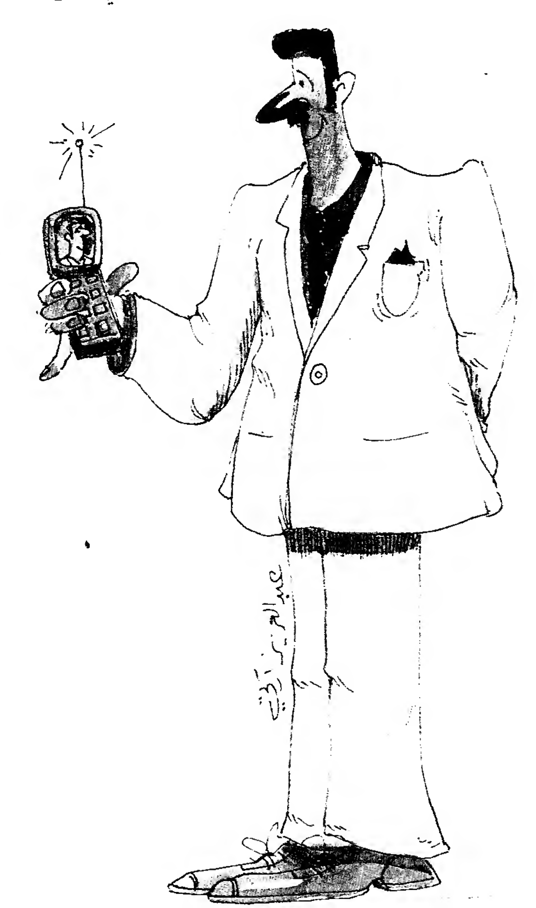
إن الجينات الإدارية التي كانت مسئولة خلال فترة زمنية سابقة عن إنتاج أنماط قيادية وعملية لها سمات وخصائص معينة، ستتغير وسيصبح من الممكن بالمستقبل أن نتدخل في جينات الإدارة لتكوين قيادات ومديرين ذوي فعالية وكفاءة مستمرة، تماما كما نجحت البشرية في تفسير سلوك بعض الجينات، ودخل العالم مرحلة الهندسة الوراثية، وعندئذ سيتأكد القول إن الإنسان حصاد معارفه.

(٩) **حرية الاختيار**: حق تقرير المصير كان شعارا سياسيا تطالب به الشعوب، وتعتبره هدفا قوميا عزيزا يسعى الأبطال إلى تحقيقه. وحرية الاختيار باتت حقيقة مسلمة لكل العاملين والمديرين، فالتنوع الهائل في عالم الأجهزة والتكنولوجيا والبدائل الواسعة المتاحة أمام كل مدير توقعه في شبكة عنكبوتية معقدة مليئة بالخيارات والبدائل التي يمكنه أن يختار منها حسب احتياجاته وطبقا لمستوى طموحاته.

(١٠) **التلمذة الفكرية**: كثيرا كنا ومازلنا نسمع عن التلمذة الصناعية، هذا الأسلوب التقليدي الذي ينقل به قدامى الصناع المهرة خبراتهم إلى حديثي الالتحاق بالعمل من صغار الفنيين عديمي الخبرة. معتمدين في ذلك

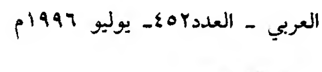
على التدريب المباشر Coaching أو التدريب على رأس العمل On-Job. Training بجميع أشكاله. أما الآن فبالإضافة إلى التعلم المباشر المتبع في التلمذة الصناعية أصبحنا نعيش الآن التعليم عن بُعد Distance Learning ونحيي مرحلة من التلمذة الفكرية التي تكاد تعدل حالة الذهن State Of Mind من مرحلة التلقي إلى مرحلة المبادرة والإبداع ومن مرحلة الهندسة إلى مرحلة الهندسة العكسية Reverse Engineering ومن مرحلة العمليات إلى مرحلة إعادة هندسة العمليات.

**(١١) نحن بدلا من أنتم وهم:** المستهلك أو العميل أو طالب الخدمة اصطلاح تعودنا أن ننظر إليه باعتباره الهدف النهائي من الإنتاج أو الخدمات، واعتبرنا أن رضاءه التام غاية يجب إدراكها، وسقط القول إن رضاء الناس غاية لا تدرك، تلك المقولة التقليدية التي يمكن أن



تتسع لتشمل كل حالات الخلل في أداء الخدمات أو المعيب في جميع أشكال المنتجات. هذا ما تعودناه شكلا ومضمونا. هل ستتغير هذه العلاقة في ظل حالة (النقل) التي يواجهها العقل البشري الآن من انتقال المنتج إلى المستهلك إلى نقل المنتج إلي المستهلك أو استدعائه آليا؟ وكيف سيكون شكل العلاقة؟ وما حدود الرضاء التام التي نتحدث عنها الآن؟ Customer Total Satisfaction. نعم سيتغير كل ذلك بعد ما أصبح المستهلك شريكا في العملية الإنتاجية والخدمية. بل إن بعض الصناعات نقلت عناصر أداء الخدمة إلى المستهلك نفسه، حتى أصبح هو نفسه جزءا من عملية أداء الخدمة وأحد عناصر قياس تميزها، تماما كما حدث في عالم الفنادق بعدما نقلت الفنادق خدمة الرسائل والاستقبال إلى النزلاء من خلال أجهزة التليفون المسجلة لرسائله أو البطاقات البلاستيكية المثقبة التي يستخدمها كبديل للمفاتيح التقليدية. بل إن حساب الضيف صار يظهر على شاشة التلفزيون بغرفته فلم يعد بحاجة إلى أن يدقق في فاتورة حسابه الشخصي وهو يستعد لمغادرة الفندق.

**(١٢) المعايشة الحقيقية: Virtual Reality** تُعد المحاكاة من بين أهم أساليب التدريب الفني والمهاري، وفيها يتم التدريب من خلال أجهزة تماثل الواقع في تصوراتها وتحركاتها واستجاباتها الآلية. ويستخدم هذا النوع من التدريب في الحالات التي يصبح التدريب العملي عليها متعذرا وعسيرا، كما في حالات التدريب على الطيران. على سبيل المثال لا الحصر: أن التكنولوجيا العصرية المتقدمة صورت من صور المحاكاة إلى حد المعايشة الحقيقية من خلال برمجة تمكن المتدرب من معايشة الواقع تماما بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وانعكس ذلك على لعب الأطفال وغرف الجراحة، وشكلت الصور ثلاثية الأبعاد بعدا مهما لمعايشة كل ما يدور حولنا من خلال حزمة من الأسلاك ومجموعة من النبضات التي تمكننا من التعلم من خلال معايشة حقيقية لما يدور حولنا دون أن ننتقل إليها. وصار للجراح أن يجري عملية جراحية كاملة عن بعد باستخدام القفازات الإلكترونية وبالاستعانة بالإنسان الآلي الذي دخل مرحلة منافسة شديدة للعبقرية البشرية التي كانت السبب وراء ظهوره.







# كمبوديا

## هبة المطر
## شجن البشر

استطلاع:
الدكتور محمد المخزنجي
تصوير:
طالب الحسيني



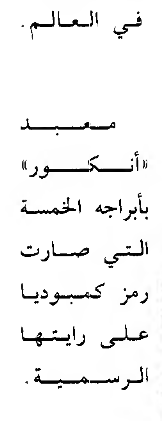
**على المسارب الخطرة في حقول الألغام التي تمتد من الحدود إلى الحدود مشينا.. تفيأنا ظلال الأشجار الاستوائية العملاقة، وصدمتنا حفر المقابر الجماعية وأبراج الجماجم. شدهتنا ملحمية آثار «أنكور» المذهلة، وانتشينا ببهاء خيوط الحرير الملونة بين أنامل الصبايا الجميلات الفقيرات. إنها كمبوديا، قلب الهند الصينية التي تشبه خارطتها شكل القلب، وهو قلب مترع بالجمال.. وبالآلام.**

«تويوك هانومان» فنان شاب مقطوع الذراعين. صادفته في العاصمة «بنوم بنه» وأنا أجول بين حوانيت المصنوعات اليدوية، المحيطة بالمتحف الوطني ذي اللون القرمزي العميق بين خضرة النباتات الاستوائية السخية. «تويوك» في نحو الخامسة والعشرين (وإن كان هؤلاء الكمبوديون يبدون دائما أصغر من أعمارهم الحقيقية لفرط نحافتهم وسواد شعورهم التي لا يدركها الشيب إلا متأخراً)، بدا لي بملامحه نموذجاً من عرق «الخمير» الذي يشكل ٩٠٪ من مجمل سكان كمبوديا البالغ عددهم تبعاً لآخر تقدير للسكان تم منذ ثلاث سنوات ٩,٣ مليون نسمة، فهو أكثر سمرة وأطول قليلاً من سكان الجوار ـ الفيتناميين والتايلانديين، شعره الغزير الأسود لامع وأجعد، وملامحه دقيقة كالماليزيين والأندونيسيين الذين يرجح عودة جذور الخمير إليهم، وهم يدينون بالبوذية «الثيرافادا» أو «الهينايانا» التي تعتبر مدرسة الجنوب البوذية وهي أكثر محافظة والتصاقاً بجذور البوذية في سنواتها الأولى ومفاهيمها الهندية. تويوك، وكأنه يجسد صورة الخمير، كان يرتدي زيهم التقليدي المسمى «سامبوت» وهو رداء بين السروال والفوطة ـ التي يرتديها الكمبوديون أيضا وتسمى «سارجون» ـ من قطن «مشجر»، وفوقه قميص طويل. وعلى الرأس «شال» بمربعات منمنمة حمراء وبيضاء يسمونه «كرامار» يستخدمه الرجال والنساء، وله وظائف بلا حصر، فهو غطاء للرأس يحمي من حرارة الشمس، ومنشفة للعرق، وحزام لربط السارجون على الخصر، وأرجوحة لحمل الطفل، و«بقجه» لجمع الثمار من الشجر، وغير ذلك كثير، ولن ترى كمبودياً أو كمبودية إلا بصحبة «الكرامار».

## أربعة وجوه لبنوم بنه

في دكان «تويوك» وأمام مدخله كانت تنتصب عدة تماثيل من الأسمنت المخلوط بالرمل وأحدها لم يجف بعد، ولم يكتمل تشكيله. سألته عمن نحت هذه التماثيل؟ فأجاب بإنجليزية مرتبكة: «أنا أعمل» وكان يقصد بالطبع أنه هو من نحتها. وفي برهة الدهشة التي تولتني أفلتت مني نظرة إلى يديه المقطوعتين، يمناهما من منتصف الساعد ويسراهما من أعلى المرفق. وتقبل تويوك نظرتي ببساطة وذهب وأحضر يداً صناعية من خزانة بظهر دكانه، كان يتأبطها، ثم وضعها على منضدة أمامي ومال عليها يثبتها ويدخل في تجويف ساعدها بقايا ساعده الأيمن، ورفع يده الصناعية هذه أمام وجهي وكانت أصابعها مضمومة على ماسورة قصيرة تخرج منها «دُفرة»





حديقة «أنكور» أكبر مدينة دينية أثرية في العالم.

معبد «أنكور» بأبراجه الخمسة التي صارت رمز كمبوديا على رايتها الرسمية.

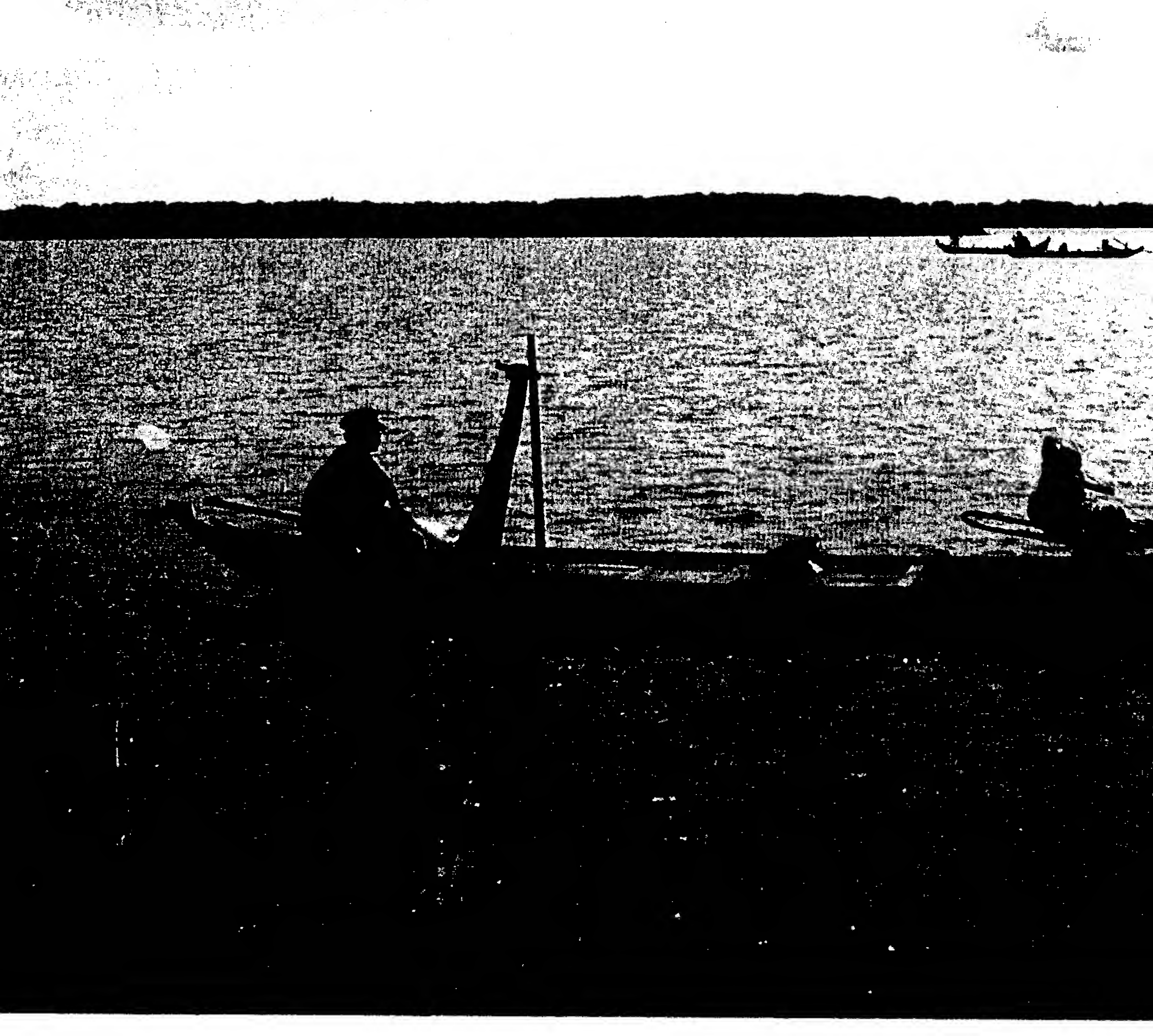




سلال، وتماثيل، وضحكة بريئة برغم الفقر والمجهول.

ـ من أدوات الحفر ـ وراح يريني كيف يعمل بها في سَحيل وجه التمثال الذي لم يجف بعد. كان يعمل وفقاً لصورة ثبتها على يد التمثال. سألته عن الصورة، فأجاب: «من أنكور»، واستطعت أن أفهم من لغته الإنجليزية المهشمة أن الصورة لتمثال من تماثيل «أسباراه» وهي تعد «ربة الجمال» في حضارة الخمير التي تألقت في عهد مملكة أنكور «من سنة ٨٠٠ إلى سنة ١٥٩٤م»، وأن نماذجها يشتد الطلب عليها من السياح الذين بدأوا في التدفق على كمبوديا منذ ثلاث سنوات فقط، أي منذ الوصول إلى حالة السلام النسبية في هذا البلد الذي اكتوى طوال ربع قرن بحرب أهلية عمياء البصر والبصيرة والقلب، خلفت آلاف آلاف الضحايا ونهراً من الآلام مازال يتجدد. تويوك نفسه كان واحدا من ضحايا هذه الفترة، فقد انفجر فيه لغم من ملايين الألغام التي بعثرتها سنوات العمى والدم في كمبوديا. . رفع يده الصناعية المثبتة فيها «دفرة» النحت، وقال لي: «لولاها لقتلت نفسي. لقد صنعتها لي هيئة إغاثة أوربية بعد أن فكرت جدياً في الانتحار. لكنها أعادت لي الأمل».

كم عدد الذين فكروا ويفكرون في الانتحار في هذا البلد المنكوب؟!. وكم منهم ستنقذه قدم أو يد صناعية تقدمها له هذه الهيئة الإنسانية أو تلك؟ السؤال مرير. والإجابة غائمة. ففي كمبوديا يقدر المختصون عدد



الميكونج العظيم.. نهر باتساع بحر!

الألغام المنتشرة بطول وعرض الأرض الكمبودية كنهـا بنحو ١٤ مليون لغم، بمعدل أكثر من لغم لكل واحد من السكان، ويقدر أن كل رابع إنسان كمبودي تـلـحـق بـه إصابة من جراء انفجار لغم، وغالباً ما تكون الإصابة قاتلة نظراً لتدني الخدمات الطبية في كمبوديا عموما وفي القرى خاصة، إضافة للفقر الشديد في الريف، حيث يمنع العوز أهل المصاب من نقله إلى المدينة للعلاج لأنهم في غالب الأحوال لا يمتلكون أجرة نقل المصاب إلى المدينة.. مجرد أجرة النقل!

إنها مأساة حية، ظلت تطبع بصمتها المؤلمة على كل صور الجمال الحاصر والغابر التي فاجأتنا بها كمبوديا، البلد الذي يمتلك جدارة حقيقية لأن يكون مكاناً ساحراً وهنيئاً. فما من مكان قصدناه إلا وجدنا على أبوابه وبين حناياه وطواياه مبتوري الأطراف هؤلاء.. أطفالاً، ويافعين، ومسنين، ذكوراً، وإناثاً.

ودعت أمل وألم الفنان «تويوك»، ومضيت في جولتي الأولى في العاصمة «بنوم بنه» التي تسمى «ذات الوجوه الأربعة» لإطلالها على ملتقى ثلاثة أنهار وبحيرة. إنها قطعة جميلة أهملت أسوأ الإهمال، لكن لا يزال يتجلى فيها تناسق العمارة الخفيضة والشوارع الواسعة المحفوفة بالأشجار ـ كالبوليفارات الفرنسية، وثمة نافورات هنا وهناك، ونصب تذكارية للحرية باللون

القرمزي، وفي شوارعها تجري عشرة آلاف عربة دراجة «نسيكلو» إضافة للسيارات والدراجات النارية «الاسكوتر» التي تتناثر محطات بنزينها على الأرصفة: مناصد صغيرة تحمل وقود هذه الدراجات معبأ في زجاجات المياه الغازية، والتموين بالزجاجة!

صعدنا تلة في قلب العاصمة يتسنمها أشهر معابدها البوذية القديمة، ويسمى «وات بنوم». ويحكى أن امرأة ثرية من نساء الخمير وجدت بعد أحد الفيضانات المدمرة شجرة على ضفة نهر الميكونج وعلى أغصانها تتألق أربعة تماثيل لبوذا، فبنت المعبد على نفقتها الخاصة تكريساً للمعجزة، وتعويذة ضد غرق المدينة في الفيضان. ولا يزال المعبد هو أعلى قمم المدينة التي لم يعد يغرقها الفيضان. وفي أركانه لا يزال الأهالي يقدمون الفاكهة ويوقدون الشموع.. لمجد بوذا. فيأكل الرهبان الأناناس والموز في اليوم التالي «إذ لا يأكل الراهب بعد الظهر»، ونأكل مع زوار المكان شرائح المانجو الوافرة التي تبيعها النساء والصبايا في ظلال الأشجار المحيطة بالمعبد. وتصيبنا حلاوة المانجو الاستوائية بالعطش فلا نشرب إلا ونحن في رحاب معبد آخر.. إنه المعبد الفضي، وهو لصيق بالقصر الملكي، وكان موقوفاً على الأسرة المالكة وحاشيتها إذ تتبرك وتتعبد وتحتفل، ففي شرق آسيا يختلط دائماً الحاكم بالمقدس. لكن هذا التضييق تخففت منه أخيراً بنوم بنه، ففتحت المعبد الفضي للجمهور وللسياح. وهو مدينة دينية كاملة تتناثر في رحابها صروح وأبراج تغطيها نقوش زخرفية بديعة من الحجر الرملي الرمادي توحي لمن لا يدقق أو يقترب بأنها زخارف محفورة في الرخام. وفي المبنى الرئيسي الذي لا يسمح لأحد بصعوده إلا حافيا.. تغطي أرضه خمسة آلاف «بلاطة» من الفضة الخالصة، وفي الصدر ينهض تمثال لبوذا من الذهب الخالص وزنه ٩٠ كيلو جراماً، ترصعه تسعة آلاف وخمسمائة ماسة! فلماذا لم ينهب «الخمير الحمر» ذلك وهم ملحدون؟.. سؤال اعتراضي تعلق بخاطري وأنا أمشي حافياً على أرض الفضة الخالصة. وظل معلقاً بهذا الخاطر بعد أن ارتديت حذائي ومشيت على الأسفلت والأسمنت والتراب باتجاه القصر الملكي حيث عاد الأمير سيهانوك ليتوج من جديد ملكا للبلاد.

وإن قيل إنه ملك رمز وليس سلطة حقيقية، برغم أن مسماه الرسمي طويل جدا ومهيب جداً، فهو «جلالة برياه بات سامديش برياه نوردوم سيهانوك فارمان ملك كمبوديا».

إن سيهانوك الذي كان عائداً لتوه من رحلة علاج في الصين، إذ يعاني من سرطان البروستاتا في مراحله المتأخرة، كان داخل القصر، رمزاً تنطفىء شموعه رويداً رويدا في الواقع المعيش، لكنه يتوهج في تاريخ بلده، بل في تاريخ الهند الصينية كلها.. ملكا من نوع خاص، عندما انقلب عليه ابن عمه والعسكريون لم يبحث عن ملاذ إلا في الصين الشيوعية. رحت أطل على قصره وأنا أعتلي منصة ملكية تشرف على النهر العظيم من جهة وتطل على الحدائق الملكية من الجهة الأخرى، ويحيط بها صخب المستجمين والمتسولين والبائعين على الشاطىء.. بائعو العصافير المشوية. وشرائح المانجو، وأطباق الأرز، وحساء السمك المتبل، وزهور اللوتس مغلقة البراعم، وشموع البركة البوذية. جعلت قصر سيهانوك ورائي، ونهر الميكونج أمامي، والكمبوديون على الضفاف، ورحت أتطلع إلى رحابة الماء الذي كنت على موعد معه في رحلة نهرية طويلة.

## نهر المطر

هبطنا إلى مرسى الزوارق الممتد كلسان خشبي من حديقة فندق «كمبوديان» وكانت هناك سفينة ركاب سنغافورية بيضاء كبيرة ترسو كفندق وملهى ليلي. فالنموذج التايلاندي للسياحة يمارس نفوذه على الهند الصينية كلها. ومن المرسى انتقلنا إلى زورق بمحرك «ديزل» يسع ثلاثين راكباً غير الطاقم. لكن الفوج الذي ضمته الرحلة لم يزد على خمسة عشر شخصاً من التايوانيين، أي الصينيين. والصينيون- بالمناسبة- عنصر بشري يحسب له ألف حساب في شرق آسيا، فهم ملوك التجارة والصناعة أينما كانوا، سواء كأقليات كما في ماليزيا وتايلاند وكمبوديا، أو كأغلبية في هونج كونج وسنغافورة وتايوان. إنهم نشطون وعمليون وجامعو أموال مهرة، وأكثر صخباً عندما يخرجون عن إطار الانضباط المعروف في وطنهم الأم- الصين الشعبية



ولقد بدأ رفاق رحلتنا صخبهم ففزعت، وخشيت إن استمروا أن يفسدوا عليّ متعة التأمل في هذا الإبحار النهري الطويل والجميل. وعند أول سانحة تذرعت لإيقاف الزورق عن الانطلاق بعدم وجود «مرشد» يتحدث الإنجليزية، إذ إن المرشد الموجود في الزورق كان لايتحدث إلا الصينية، بينما دفعت وزميلي مثلما دفع التايوانيون. وهددت بالنزول وتقديم شكوى من صحفي، للملك شخصيا، ولرئيسي الوزراء - إذ إن كمبوديا بها رئيسان للوزارة - لو أهدر حقي.

ولقد أفلحت الخطة، فقد تعطل الزورق عن الإقلاع حتى استجابت إدارة الشركة المسيرة للرحلة لنداءات المشرف - عبر جهاز الهاتف اللاسلكي - ووفرت مرشداً إضافياً يتحدث الإنجليزية. لم أكن في حاجة حقيقية إلى هذا المرشد، ولا غيره في أي رحلة آسيوية أو إفريقية، فهؤلاء عادة - وخاصة الآسيويين - يتحدثون الإنجليزية بلكنة تستعصي على الإدراك، وهم لا يقولون شيئا يتجاوز ما تقوله أفقر الكتب السياحية. لكن الهدف الأساسي لثورتي تحقق، فقد صمت التايوانيون تماماً والتزموا حدود التحادث معاً همساً، أو بأصوات خفيضة، إذ أدركوا أن معهم عنصرا مناوئا، وأن لضوضاء بهجتهم أو خفتهم حدوداً تنتهي عند حدود «الآخرين».

انطلق الزورق بلا صخب - إلا صوت المحرك عند الإقلاع - في رحاب النهر الذي يدعونه «الميكونج العظيم». وكان المرشد المتكلم

محطة بنزين كاملة للدراجات النارية.. على الرصيف.



أكواخ الفقراء مهيأة للطفو والرحيل مع الفيضان.

بالإنجليزية يميل على أذني ليحدثني عما آراه، فألتقط شيئا من لغته، وتضيع أشياء. إنه - أي المرشد - شاب رقيق الجسم دقيق الملامح، اسمه «كمبكساو» فقد أمه وأباه في أيام حكم «بول بوت» الرهيبة، فقد كان الأب رجل أعمال صغيرا، وكانت الأم مدرسة. وكان نظام «الخمير الحمر» بقيادة «بول بوت» يتبنى مقولة أن كمبوديا تدهورت وضاعت بسبب الاستعمار ولا سبيل لاستعادتها إلا بالقضاء على كل أثر لهذا الاستعمار وذيوله المحليين، والعودة بالبلد إلى المجتمع الزراعي الأول. ولهذه الغاية تم القضاء في أربع سنوات على أكثر من مليون إنسان اعتبروا أعداء للثورة، وعلى رأسهم كان الاقتصاديون والأطباء والفنانون والعلماء والمعلمون ورجال الدين.

الميكونج نهر عظيم بحق، وهو عاشر أكبر أنهار الدنيا من حيث طاقة الامتلاء، طوله ٤١٨٦ كيلو متراً ويصل عرضه في بعض المواضع إلى أكثر من خمسة كيلو مترات. ينبع من هضبة التبت في جنوب الصين ويهبط باتجاه لاوس ثم يدخل كمبوديا منحدراً على سلسلة من المهابط تكون مجموعة من الشلالات الفاتنة. وفي قلب كمبوديا ينبسط مجراه، ويغدو صالحاً للملاحة نهرية تستوعب سفناً ضخمة كالتي تجوب أعالي البحار، وبعد ٥٠٧ كيلو مترات من مسيرته في الأرض الكمبودية يتفرع جنوب العاصمة «بنوم بنه» إلى فرعين تترامى بينهما دلتا عرضها ٣٢٠ كيلو متراً، ثم تُختتم رحلة النهر بتفرعات جديدة قبل أن ينتهي إلى مصبه في بحر الصين الجنوبي شرقي السواحل الفيتنامية. لكن الميكونج في جزئه

طابور المهنئات بالعرس، والهدايا ٣٦ نوعاً من الفواكه والحلوى.


بعد ربع قرن من الآلام.. لايزال الفرح ممكناً.

الكمبودي - غير أجزائه الأخرى كلها - يدين بمعظم عافيته لجبروت المطر الاستوائي الذي ينصب انصباباً في كمبوديا، ولستة أشهر كاملة، ودائماً بعد الظهر! فثمة بحيرة هائلة في كمبوديا تسمى «تونل ساب» أي البحيرة العظيمة، كانت في غابر الزمان مجرد رافد يمتلىء بمياه الأمطار التي تذهب إلى البحر، لكن باتساع وارتفاع ضفاف الدلتا التي يرسبها نهر الميكونج تحولت «تونل ساب» إلى بحيرة داخلية تربطها بالنهر العظيم قناة وسيعة طولها ٨٠ كيلو متراً تشكل نهراً يسمى «نهر التونل ساب»، وفي الموسم الجاف (وهو ليس جافاً أبداً بل قليل الأمطار وحسب)، الذي يمتد من نوفمبر إلى مارس، تغطي البحيرة زهاء ٢٦٠ كيلومتراً مربعاً، ولا يتعدى عمق الماء فيها متراً ونصف المتر. أما في الفترة من مايو

إلى أكتوبر، التي تهب فيها الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية المطيرة، فإن البحيرة تفيض وتتسع لتغطي مساحة ١٩٩٤ كيلو متراً مربعا، ويرتفع منسوب المياه فيها إلى أكثر من ١٢ متراً، ومن ثم تندفع المياه في نهر «التونل ساب» عكس اتجاهه الأصلي لتملأ مجرى الميكونج ذاته. وبعد انقطاع الرياح الموسمية وانحسار المطر يكون الحصاد عظيماً، فالمحصول السمكي في البحيرة يصبح أغزر محصول لأسماك المياه العذبة على وجه الأرض، ويقدر بمليون رطل من الأسماك في كل ميل من أميال البحيرة، أي ٤٢٠ ألف كيلو جرام في كل ٢,٦ كيلو متر مربع.

هذه الأرقام أضحت محسوسة لديّ، بينما كان الزورق يبحر في عرض الميكونج الزاخر والوافر والقوي برغم أن الرحلة كانت على مشارف نهاية الموسم الجاف.

لقد دخلنا في نقطة ملتقى فرعي الميكونج، وبدا أننا في بحر وليس نهراً. وصارت الضفاف التي نراها مجرد حدود لجزر تتناثر في مياه الحوض العظيم. جزر بكر لا يربطها ببعضها ولا باليابسة القريبة منها أي جسور لهذا ظلت عذراء، عذرية واضحة للعين تتبدى في كثافة الخضرة التي تطل من بين فُرجها البيوت الصغيرة، وتشرئب بالكاد بين هامات أشجارها الوارفة سقوف المعابد البوذية. وكلما اقتربنا من الضفاف كنا نشاهد الأطفال يرطبون أجسادهم العارية سابحين ولاعبين في مياه النهر ومعهم الجواميس التي تبرد أجسامها وتطفىء عطشها، بل ثمة أفيال كانت تستحم أيضا في مياه الميكونج. ولم تكف عن الظهور زوارق صيادي الأسماك والمراكب التي تعمل كوسيلة مواصلات وحيدة بين الجزر والحضر، وفي لحظة من لحظات انسيابنا فوق مياه النهر لمحت أكواخاً خشبية على مقربة تنهض على أوتاد أمام إحدى الجزر وتصعد على مدرج شاطئها حتى تغوص في الخضرة الكثيفة، وفي غمرة الخضرة لمحت بناء صغيراً أبيض ناصعاً، فلم أصدق ما أراه، واستعرت من زميلي طالب آلة تصويره وعدسة «الزووم» لأسددها نحو ما أرى. وكان ما أراه حقيقيا..

## الشام.. المسلمون

كان المسجد الأبيض الصغير يعلن عن وجود المسلمين في هذه الجزيرة، وكانت البيوت الخشبية - الأكواخ - المهيأة للطفو والرحيل عندما يجيء الفيضان - تعلن عن شدة فقر المسلمين في هذه البلاد. والمسلمون في كمبوديا مختلف على عددهم ففيما قال لي إمام المسجد الكبير في بنوم بنه إن عددهم ٧٠٠ ألف، قال أحد المراجع إنهم ٢٥٠ ألفا، بينما يذهب قول ثالث إلى التوسط فيقول إنهم ٥٠٠ ألف. وترجع جذور المسلمين الكمبوديين الذين يطلق عليهم «شام» أو «تشام» - ولا علاقة لهم بشامنا العربية - إلى حضارة عظيمة سادت في شرق آسيا لأكثر من ألف عام وكونت مملكة الشامبا التي كانت تعبيرا عن التأثيرات الهندية في هذه المنطقة، وظلت هذه المملكة مزدهرة حتى هُزمت في فيتنام في القرن الخامس عشر بعد حروب طاحنة مع الخمير من ناحية، والصينيين من ناحية أخرى. ويقال إن الإسلام وصل إلى هذه الأصقاع عبر التجار المسلمين، وأن سبيل الهداية كان شرف هؤلاء التجار وصدق كلمتهم وأمانتهم. ولقد اعتاد المسلمون الشام على سكنى الجزر المتناثرة على امتداد حوض نهر الميكونج شرق وشمال العاصمة وفي منطقة الحدود الفيتنامية، وهم أقرب إلى الماليزيين ويرتدون مثلهم ومثل الأندونيسيين ورجال الخمير تلك الفوطة التي تلف حول الوسط وتسمى «سارجون» بينما ترتدي النساء ملابس صافية ويحطن رؤوسهن بالشيلان. ولا يكاد المسلم الكمبودي من الشام يخلع عن رأسه الطاقية البيضاء. ولقد ظلت الأعمال التقليدية للشام هي التجارة في الأغنام، والصيد، وبناء القوارب. بينما تشتهر نسوتهم بالبراعة في نسج القطن والحرير. ويتردد أن المسلمين الكمبوديين كانوا من أكثر الفئات التي اضطهدها نظام بول بوت. وإمام المسجد الكبير نفسه كان معتقلاً لمدة أربع سنوات في عهد بول بوت وأجبر على ترك الإمامة والعمل الجماعي في إحدى المزارع الجماعية تحت شروط أقرب إلى الموت. وهو لا يزال يرتعد حين يتذكر هذه الفترة، وعندما حاولت أن أحصل منه على تفاصيل لذكرياته لم يتكلم برغم أنه يجيد العربية التي تعلمها في الأزهر، فقلت له: «ألا تزال خائفا يا شيخ..؟» «فقال: نعم.. فمن يدري ماذا يحدث غداً».

المسلمون في كمبوديا أكبر الأقليات، فهم لعنصر



شوارع وسيعة تظللها الأشجار (بوليفارات) في العاصمة

برج الجماجم في منطقة «حقول القتل» ذكرى السنوات المريرة

الثاني بعد الخمير، ويزيد عددهم على العناصر الأخرى التي تشكل التركيب السكاني الكمبودي، فهم أكثر عدداً من الفيتناميين، ومن الصينيين ومن أبناء القبائل ساكنة التلال. وبالرغم من أن المسلمين أكثر مدنية من أبناء التلال الذين مازالوا في حالة فطرية بدائية ومنقطعين عن العالم. فإن المسلمين ومجتمعاتهم أشد فقراً وتخلفاً من الصينيين الأكثر غنى والمسيطرين على التجارة، والفيتناميين الأكثر تأهيلاً مهنيا. هذه الحالة من الفقر والتخلف جعلتني أبحث عن أوجه نشاط الهيئات الإسلامية العربية في كمبوديا، وقد علمت أن هناك عدة هيئات عرفت منها جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية، وهيئة الإغاثة الإسلامية السعودية، وجامعة أم القرى. وفيما تقوم جمعية إحياء التراث بدور الكفالة للأيتام والفقراء،

وتسعف هيئة الإغاثة بمساعداتها العاجلة نوائب الفيضان واحتياجات الأعياد، تركز جمعية أم القرى على نشر الوعي الديني. هذا جميل كله، لكن هناك عناصر غائبة في أداء هذه الهيئات التي لا تنسق بينها برغم شرف المهمة المشتركة التي تقوم بها. وإذا كان لي أن أقترح شيئا عليها مجتمعة، أو عليها فرادى، فإنني أقول: نعم بناء المساجد مهمة جليلة خاصة وقد دمرت الحرب الأهلية وحقد الخمير الحمر ومن لف لفهم ثلاثة آلاف مسجد كانت تعم أرجاء كمبوديا لم يعد منها غير ثلاثة عشر مسجداً. والمسجد الكبير نفسه كان الخمير الحمر قد أغلقوه وباعوه ليصير ملهى ليلياً، ولم يستعده المسلمون إلا بعد تدخل عربي إسلامي ومناشدة للملك نوردوم سيهانوك استجاب لها وضغط لإعادة المسجد إلى المسلمين.

بناء المساجد مهم، لكن الإسلام الذي انتشر في جنوب شرق آسيا عن طريق حسن معاملة التجار المسلمين لأبناء هذه البلاد وصدق كلمتهم وطيب أخلاقهم، مما جعلهم يثقون في دين هؤلاء التجار ويبحثون عنه ويعتنقونه. هذه المعاملة الدنيوية الحسنة التي أدت إلى نصرة الدين إيماناً واعتقاداً، تجعلني وقد رأيت بؤس حال المسلمين في كمبوديا أقترح شيئاً دنيويا طيباً، ملموساً، يأخذ بعون المسلمين هناك، بل يقدم عونه إلى غير المسلمين أيضا (أليس للمسلم في كل كبد رطبة أجر؟). تحديدا اقترح أن يكون العون في مجال الخدمات الصحية، مستشفى مسلم، بأطباء مسلمين أكفاء، يغيث البشر حيثما تألموا وأينما جرحوا، والألم كبير والجرح أكبر. فعلى سبيل المثال تشكل حوادث الألغام صعقات قاتلة للبشر، خاصة الفقراء منهم، والقرويون على وجه التحديد. فانفجار لغم في رب أسرة يحيل أسرته إلى أدقع الفقر في دقائق عندما تنتهي الحادثة بموته أو إعاقته.

وثمة ٣٠٠ حالة وفاة من انفجار الألغام كل شهر. وتقول الإحصاءات إن واحداً من كل ٢٥٠ إنساناً هو من مبتوري الأطراف. وثمة وكالات إغاثة وهيئات تبشيرية وغير تبشيرية عربية تركز على هذا الجانب، والإعلام يلهج بذكر محاسن هؤلاء الذين يقدمون مصانع الأطراف الصناعية - برغم بدائيتها - ويقدمون



معجزة الشجر والحجر.. أين منها تدني البشر؟!

مع الأطراف دروس التأهيل المهني وإعادة التأهيل النفسي، ويحمدون ويشكرون، بل لا أستبعد أن يتجه نحو كنائسهم ومعابدهم المتعبون. فهل على طريقتها الأبدة المؤبدة ستظل تفكر الهيئات الخيرية الإسلامية؟

وإلى من يريد أن يعرف مدى أهمية عون صحي يقدم للمسلمين، وغير المسلمين إن أمكن، في هذه البلاد، أذكر هذه الأرقام: متوسط عمر الفرد الكمبودي ٤٩,٧ عاماً. ومعدل موت الرضع ١٢٠ من كل ألف، ويعيش طفل واحد من كل خمسة حتى يبلغ سنة من العمر، و ٢٥ من كل ١٠٠٠ أم يمتن في أثناء الولادة.

لقد زرت مؤسسة كفالة الأيتام المسلمين التي أنشأتها جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية ودعيت لإلقاء كلمة فحدثت الصغار الشام عن «الدين المعاملة»، وحدثتهم عن أن لهم إخوة وآباء وأمهات وأعماما وأخوالا وأقارب مسلمين في هذا العالم الواسع، ووعدتهم بأن أحمل نداءهم إلى من أستطيع من الأهل (وهأنذا أفعل عبر هذه السطور) وختمت كلمتي بتحية السلام عليكم، ففوجئت بهدير ثلاثمائة صوت معا: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

ثم كان عليّ أن أشق طريقي بصعوبة وسط حشد المسلمين الصغار الذين كانوا ينهالون عليّ محاولين السلام يداً بيد. كأنهم يريدون أن يتيقنوا باللمس أن هناك ـ حقيقة ـ مسلمين آخرين في هذا العالم.

وكان عليّ أن أعجل، برغم أنني كنت امتلئ بالرغبة في الجلوس والبكاء، والبقاء بين هؤلاء الأيتام الذين أذابت ضلوعي ووشائج قلبي نظرات عيونهم المحرومة. كان عليّ أن أعجل، فالمكان مقطوع. وحوادث السطو المسلح قائمة، وكان هناك حراس بالرشاشات على دراجات نارية يتبعون سيارتنا حتى نصل إلى بر الأمان، بعد عدة كيلو مترات، قرب المطار!!



مسجد العاصمة وإمامه.. وذكريات قمع لا تنسى.

## لغة الأيادي.. طعم التوابل

تجاوز قاربنا المبحر في حوض الميكونج العريض قرية المسلمين في الجزيرة وبعد نصف ساعة من الإبحار اقتربنا من جزيرة أكبر تحمل اسم «الميكونج» ذاته، ووجدنا المرسى المظلل والدرج الصاعد على صفة الجزيرة العالية، وهناك كانت في انتظارنا الأفيال ترفع خراطيمها محيية، ثم إنها ـ أي الأفيال ـ وقد كانت في عمر الصبا، لا يتجاوز عمر الواحد منها عشر سنوات، أخذت تصطف في قطارين على الجانبين صانعة من تقاطع التقاء خراطيمها المرفوعة قوساً نمر تحته لنعبر بوابة هذه الجزيرة التي حولها بعض المستثمرين الفرنسيين إلى قبلة سياحية بقليل من المنشآت الخشبية الأنيقة، وبعض اللمسات التنسيقية للأزهار. أما الأشجار والنباتات والحيوانات والطيور فقد تركت على حالها. والفرنسيون أقلية محدودة جداً في كمبوديا يقدر عددهم بآلاف لا تزيد على عدد أصابع اليدين، ومع ذلك يشكلون مركز ثقل ثقافياً يستمد عافيته من سطوة الأيام التي كانت فيها كمبوديا محمية فرنسية برغبة ملكها «نوردوم» الذي وقع موافقة على الحماية عام ١٨٦٣ ليتقي بذلك شر الغزو من جارتيه الأقوى، فيتنام وتايلاند، ولتصير كمبوديا بعد ذلك إحدى بلدان «اتحاد الصين الهندية» التي كان يسيطر على مقاليد الأمور فيها جنرال فرنسي مقيم في هانوي حتى قويت شوكة اليابان وأصبحت في عام ١٩٤٠ شريكا في الهيمنة على كمبوديا بينما بسطت تايلاند نفوذها على مقاطعتي سيم ريب (التي تضم مدينة أنكور التراثية إحدى عجائب الدنيا، والتي قدر لنا زيارتها فيما بعد). وبعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية عادت فرنسا إلى مطلق السيطرة على كمبوديا مع بقاء المقاطعات الشمالية الغربية منها تحت نفوذ مملكة تايلاند. وفي عام ١٩٥٣ ومع صعود الشعور بالكبرياء الوطني أعلن الأمير «نوردوم سيهانوك» (الذي توج ملكا على كمبوديا عام ١٩٤١) استقلال بلاده عن فرنسا التي ظلت حتى عام ١٩٥٤ تعتبرها إحدى «مستعمراتها الآسيوية». ذلك النفوذ الفرنسي الذي هيمن على كمبوديا لأكثر من ٩٠ عاما، انحسر تاركاً نكهة فرنسية يمكن تذوقها حتى الآن في شوارع العاصمة الوسيعة المظللة بالأشجار (البوليفارات) وطبق أوراك الضفادع الذي اندمج بالمطبخ الأرستقراطي الكمبودي. والخبز الفرنسي الذي يباع في أكياس نايلون على الأرصفة

المغبرة، واللغة الفرنسية التي مازالت اللغة الأجنبية الأولى (بعد لغة «الخمير» الرسمية التي تكتب بحروف مدورة تسمى «مول»)

كل هذه البقايا مازالت تشي بالتأثير الفرنسي. والجزيرة التي هبطنا عليها بعد الإبحار الطويل في نهر الميكونج كانت حافتها ممسوسة بطابع المستعمرين الفرنسيين، لكن وراء الحافة كان الطابع الكمبودي يجتاح هذا النمس الفرنسي الخفيف بكثافة وعرامة.

طفنا بأرجاء الجزيرة العذراء، تلك الغابة الاستوائية المؤنقة، أكلنا ثمار المانجو التي التقطناها من الأغصان القريبة، وروينا عطشنا من ماء ثمار جوز الهند الطازجة التي فتحت لنا فيها امرأة صغيرة فتية بضربات محكمة من ساطور، نوافذ ندلي فيها أنابيب الامتصاص. ثم خلعنا أحذيتنا ونحن نصعد إلى مطعم من طابقين من الخشب المورنش بلون بني عميق شديد النظافة مرصع بأصص الأزهار والنباتات الاستوائية وتحوطه أشجار الجزيرة ويُرى النهر من كل جهاته الأربع المفتوحة وكما في مطاعم الأسواق الشعبية الكمبودية يلعب الأرز دوره الرئيسي، وكلمة «سي باي» التي تعني بالكمبودية «أكل» تعني كذلك «أكل الأرز»، ولقد رأيت تلك المطاعم الشعبية في الأسواق، والمطعم كله لا تتجاوز مساحته مترين في مترين بما في ذلك منصة الطعام، وكل شيء صغير وسريع، ويأتي الزبون فيغترف كمية من الأرز في طبقه، ثم يمر على أطباق صغيرة بها مقليات منمنمة من قطع السمك أو الدجاج أو اللحم ومرقات عديدة أشهرها في كمبوديا مرقة السمك بالتوابل المسماة «توك ترا»، ويضيف إلى الأرز من هذا الطبق أو ذاك ويجلس على مقعد صغير ليشغل مكاناً صغيرا ويأكل بالعصى بسرعة ويحاسب ثم ينصرف أو يكرر طبقه إذا كان جائعاً، ويمكنه أن يلتقط ليحلي بعض شرائح المانجو أو البطيخ، لكن الحلو المفضل هو نوع من عجينة الأرز والسكر وجوز الهند ملفوفة في أوراق موز قديمة بنية وتسمى هذه الحلوى «شوبج روت» يلتهمونها بتلذذ وإن كنت لم أستطع إلا تذوقها، بينما استحال عليّ أن أقترب من أطعمة أخرى غريبة مثل بيض البط المشوي وهو موشك على الفقس ويسمونه «بوبج تي كو» وهو من الأطباق الفاخرة في كمبوديا. أما الفستق الشعبي هناك فهو نوع من الريزان السود يوجد بكثرة في الأشجار الوارفة ويكاد يصم بضوضائه آذان من يمر تحت أشجاره. هذه الريزان (التي تشبه الخنافس الطنانة) يسلقونها ويحمصونها ويقزقزونها بسعادة لم أستطع فهمها أبدا

مائدتنا في مطعم الجزيرة الخشبي لم تكن شعبية بالطبع، بل خليط من المطبخ الكمبودي المعتدل والأرستقراطي مع لمسات فرنسية. وهو مثقل بالتوابل، وغني بأسماك النهر والبحيرة العذبة. فأخذت طبقاً من كباب السمك النهري المتبل بالعسل والبهار والمشوي على الفحم، كان لذيذا، ثم شربت شايا واستلقيت على جزء من دائر خشبي يحيط بجوانب المكان المفتوحة، وهو مخصص لمن يحب إغفاءة بعد الطعام. لقد كانت إحدى أهنأ لحظات السلام التي تذوقتها في عمري. أن أتمدد وفوقي أغصان الشجر والنخيل الاستوائي وتحتي الخضرة وعلى مرمى بصري يمضي نهر الميكونج العظيم. ولا صوت إلا شدو العصافير وحفيف أوراق الشجر. ياالله كم هو متاح السلام والشبع والهناءة في هذا البلد البكر الذي حرم طويلا من طعم السلام وتصور جوعا وشقي طوال تاريخه، خاصة زمن الحرب التي يقال إنها «أهلية»، برغم أنه لا توجد حرب أهلية خالصة أبداً، والتي استمرت قرابة ربع قرن. منذ انقلاب العسكريين على سيهانوك بدعم أمريكي، ثم هزيمة العسكريين أمام شيوعيي «الخمير الحمر»، وهزيمة «الخمير الحمر» واختفاء قائدهم الرهيب - اللغز «بول بوت» أمام الفيتناميين الذين غزوا كمبوديا، ثم انسحبوا، وحتى تكوين حكومة ائتلافية وعودة الأمير سيهانوك

لم يدركني النعاس، كأنني كنت أخشى أن أنام وأترك هذه اللحظات من الجمال والسلام والرضا في جزيرة الميكونج. ثم قرعوا جرساً نحاسياً رقيقاً، فنهضت مع الآخرين لنشهد حفل الغناء والرقص في مسرح الجزيرة الخشبي والمبني على هيئة كوخ كمبودي كبير محاط بالأزهار

كانت فرقة الرقص بالجزيرة من صبايا صغيرات وفتيان، أرديتهم من الحرير الملون ويؤدون رقصات ذات



حرير بين أنامل الرقيقات الفقيرات.

طابع تعبيري بطيء وأنيق، لكن خلف البطء الموقع تختفي أعمق المعاني في أصغر تحركات الأجساد الخفيفة الرقيقة. فلغة الأيادي عنصر مهم من عناصر الرقص الكمبودي، الراجعة جذوره إلى فجر حضارة الخمير. فالأصبع المشير إلى السماء يعني: اليوم، والأذرع المتقاطعة على الصدر تعني «إنني لفي غاية السعادة». أما عندما تكون الذراع اليسرى مفرودة وممدودة وراء الراقص واليد اليمنى مرفوعة أمام الصدر بينما ثلاثة أصابع منها مرفوعة والسبابة تلامس الإبهام فهذا يشير إلى «ناجا» الأفعى متعددة الرءوس التي ترمز إلى روح الكمبوديين الصور الحكمية. أما وضع اليدين إحداهما إلى أعلى فهذه تشير إلى الموت بينما اتجاه الأخرى إلى أسفل يشير إلى الحياة، وتبديل اليدين وضعيهما أربع مرات بسرعة فإنه يشير إلى مراحل الحياة الأربع عموماً، وبينها حياة الإنسان، كما في التعاليم البوذية: الميلاد، والسعي، والمرض، والموت. هذا الرقص الجميل الحيي الرافل في صفاء ألوان الحرير يغدو متعة روحية حقيقية لمن يفك رموزه. ولقد حاولت فعرفت شيئا وجهلت أشياء، فالإشارات كثيرة وغزيرة. فهذا الرقص المسمى «أبسارا» يعود بجذوره إلى فجر حضارة الخمير التي تبلورت في مملكتهم في القرن الثامن، وهم بذلك اسبق من التايلانديين الذين تأخروا عنهم

خمسمائة سنة، ولم ينشئوا فنهم إلا بعد غزوهم لكمبوديا وتوقيفهم لراقصي الأبسارا ونقلهم إلى تايلاند لينشروا هذا الفن هناك.

## رهافة الحرير، جلافة الحديد

دورة واسعة أخرى في العاصمة ومن حولها. ويتصادف أن تتقابل عتامة صدأ الحديد مع إشراق ألوان الحرير في هذه الدورة. ففي سوق «ثماي» بقلب «بنوم بنه» كان محل ناسجة الحرير «برانج سن» الشابة يبدو كماسة تأتلق بالألوان من الأرض إلى السقف حيث تتراص لفات قطع الحرير.. لامعة بهيجة، دقيقة، «ولكل لون معناه» كما تخبرنا «برانج»، ففي التقاليد الكمبودية لشعب الخمير يقولون إن من يحترم تناسب الألوان والأيام يجد السعادة والنجاح، فالأحمر ليوم الأحد، والأصفر الداكن للاثنين، والبنفسجي للثلاثاء، والأخضر صدأ النحاس للأربعاء، والأخضر الفاتح للخميس، والأزرق الغامق للجمعة، أما السبت فيناسبه الكحلي.

كانت «برانج» الشابة الضحوك تحادثنا وهي توشي ثوباً من الحرير بخيوط ذهبية وفضية برهافة ومهارة. وضاحكتها سائلاً: «عندما تولدين من جديد هل تحبين أن تكوني دودة قز؟»، فردت بسعادة «نعم نعم». إن إجابتها جادة، فهي بوذية تؤمن بدورة التناسخ وميلاد الروح في كائن جديد بعد الوفاة البشرية، واختيارها لدودة القز منطقي منطق الأسطورة الكمبودية التي تقول إن حكيما عاد إلى بيته فوجد زوجته الجميلة تغزل خيوطا للحرير تخرج من فمها الرقيق الجميل لتصنع «ناموسية» من الحرير تقي من لسع البعوض. فوقف يراقبها حتى انتبهت إلى وجوده وخجلت من إكتشافه لسرها حتى أنها ماتت من شدة الخجل، وبعد موتها ولدت روحها في كائن جديد: دودة حرير. أما زوجها فقد قتل نفسه ندماً على إخجال زوجته الجميلة حتى الموت، وبعد موته ولدت روحه في بعوضة. لهذا تغطي أشجار التوت بشباك من حرير تقي دود القز من لسع البعوض وهي ترعى على الأوراق الخضراء.

ألوان حقيقية، وأسطورية، كانت تضج بها كمبوديا حتى ذلك اليوم الرمادي من العام ١٩٧٥. ففي السابع عشر من أبريل من ذلك العام سقطت بنوم بنه في يد الفصيل الأقوى من الشيوعيين الكمبوديين المسمى «الخمير الحمر». وقد كانوا «ماويين» يعلون من شأن طبقة الفلاحين، ويؤمنون بأن كمبوديا تردت بسبب الاستعمار ولا سبيل إلى استعادتها لرفعتها إلا بالعودة إلى الجذور ونبذ أي أثر استعماري، أي العودة إلى المجتمع الزراعي، وتحولت هذه الفكرة القابلة للنقاش إلى إحدى أعجب وأعتم فترات المجازر والمذابح في عمر الشعوب. فتحت قيادة شخصية غامضة تحمل اسماً سريا هو «بول بوت» تم القضاء على كل الألوان، غير اللون الطيني، بكل ما يعنيه ذلك اللون حرفياً ورمزيا. ففي غضون أيام تم تفريغ العاصمة من كل المتعلمين والفنانين والمثقفين، قتل من قتل، وسجن من سجن، ودفع الباقون إلى العمل في مزارع جماعية بشعة، حيث العمل من الفجر إلى الليل، والطعام وجبة واحدة، واللباس لا لون له إلا اللون الطيني.. فقد أرغم الجميع على صبغ ملابسهم كلها بغليها مع لحاء الشجر، ثم دحرجتها في الطين لتكتسب في النهاية لوناً طينياً كئيباً ساد كمبوديا كلها طوال فترة حكم الخمير الحمر التي امتدت حتى ٧ يناير ١٩٧٩ عندما غزت القوات الفيتنامية كمبوديا ودحرت قوات «بول بوت» التي انسحبت فلولها إلى منطقة قرب الحدود التايلاندية لا تزال تتحكم فيها برغم اختفاء الرجل اللغز «بول بوت» وتبعثر الخمير الحمر واستسلام الكثيرين منهم للسلطة الجديدة التي عاد بها سيهانوك ملكاً مع اثنين من رؤساء الوزارة، أحدهما من العائلة المالكة والآخر من المعارضة، في حكومة ائتلافية بعد انتخابات ١٩٩٣ التي جرت تحت إشراف الأمم المتحدة.

أقل من ثلاث سنوات حكم فيها الخمير الحمر كمبوديا، فقضوا على أكثر من مليون إنسان - معظمهم من المتعلمين - وزرعوا الأرض بأربعة عشر مليون لغم ليحموا مواقعهم، وأظلمت كمبوديا وأقحلت برغم شعار العودة إلى الزراعة وكانت المجاعات والمجازر.

ثمة من يقول إن في الأمر مبالغة، وأن كل الشرور التي تنسب اليوم للخمير الحمر إنما شارك فيها آخرون منهم الأمريكيون الذين قضت غاراتهم على نحو نصف مليون إنسان عندما استجاب نيكسون لنصيحة مستشاره كيسنجر بتوسيع مجال الحرب الفيتنامية لتشمل خطوط إمداد

ربع قرن من الحروب بزعم التقدم.. ولكن؟!

الفيت كونج في كمبوديا وراحت القاذفات الأمريكيـة آنذاك تحرق بقنابلها الأرض الكمبودية كما كانت تفـعـل في فيتنام.

ليكن أن هناك مساهمين آخرين في إحراق كمبوديا، لكن حريق الخمير الحمر المرير لا يمكن إنكاره. لقد كانوا مثالاً صارخاً على تحول أصحاب مزاعم احتكار الحقيقة والرأي الواحد إلى جزارين جهلة وسفلة. وهي ظاهـرة سنجدها في كل ما يماثل ذلك سواء كانت الحقيقة المزعومة تعزى للسماء أو للأرض، وسواء كانت الرؤية أحـاديـة الجانب دينية أو دنيوية. لقد اقشعر بدني وامتلأت عروقي غضباً كتيماً وأنا أزور موضعين للموت والخراب أحدهما في قلب بنوم بنه، والثاني على مبعدة ٣٠ كيلو متراً منها. ففي معتقل «تول سلنج» الذي تحول إلى متحف للرعب الذي كان سائدا على زمن «بول بوت» رأيت كيف تحولت مدرسة «تول سقاي» العليا، المحوطة بأشجار التين وحوز



الهند والمانجو والمفعمة بخضرة الحدائق، إلى سجن قوى الأمن رقم ٢١ «SS 21» . سجن رهيب شهدت زنزاناته تعذيب عشرات الآلاف من البشر الذين كان يقضي منهم عام ١٩٧٧ قرابة مائة قتيل في اليوم الواحد. تفقدت المشنقة وروافع السلخ والعصر وأدوات التحريق والتغريق وصناديق التعذيب بلدغ الأفاعي والعقارب وأجهزة الصعق بالكهرباء وآلاف الصور للمعتقلين - إذ كان الجلادون منظمين ودقيقين في عمل أرشيف كامل لضحاياهم على اعتبار أنه ملف «أعداء الثورة». أطفال، ونساء، وشيوخ، آلاف من الصور البشرية الحزينة التي تكسر القلب. فظاعة بلا حدود، وحديد صديء قميء. فالقسوة منحطة كأدواتها، ولا تحتاج إلى ابتكار ولا دقة ولا نظافة.. عصي حديدية عجراء وسخة، وقيود غليظة ركيكة، وصناديق لا مهارة في صنعها، وصواعق مهملة الأسلاك. نفس القذارة والغلظة والركاكة التي رأيتها من قبل في معتقلات أخرى. تباً لانتهاك حرية وحرمة الإنسان وحياته مهما كانت الذرائع. كنت أهتف مغلولاً ومموراً في داخلي. وتعالى هتاف غضبي الداخلي في موقع آخر على مبعدة ٣٠ كيلو متراً من العاصمة. بعد أن سرنا على دروب حذرة بين حقول غامرة الخضرة مبثوثة بالألغام. وفي ظلال الشجر الاستوائي الثري البديع وصلنا إلى حقول الموت في ناحية «شويونج إك». درت مسحوق القلب حول البرج الذي بني حديثا ليضم على أرفف ترتفع عشرين متراً أكثر من ثمانية آلاف جمجمة من رفات الضحايا الذين اكتشفت هياكلهم ومزق ثيابهم في ١٢٩ مقبرة جماعية اكتشفت في المكان وتركت منها ٤٣ مقبرة دون أن تمس. مشيت أدور وأعود إلى الدوران ذاهلاً بين حفر كستها خضرة عشب رهيف كألحان الأسى. وهزتني حتى الأعماق مزق الملابس التي كان يرتديها الضحايا وقد تهتكت وحالت ألوانها. كانت هذه لبشر انتقوها ببهجة أو أهديت إليهم من أمهات أو حبيبات أو أزواج أو عشاق، مزق من نفوس بشرية استباحتها نفوس أخرى لبشر كالوحوش.



القصر الملكي عاد إليه الأمير سيهانوك وعاد اللون البرتقالي لرهبان البوذية.

وعدت صامتاً لم أنبس بحرف حتى وصلنا إلى العاصمة، ولم يبرحني الصمت الأليم حتى طارت بنا طائرة صغيرة في صباح باكر.. عالياً وبعيداً.

## أنكور.. الكنز المغدور

بعد ثلاثة أرباع الساعة وصلت بنا طائرة الخطوط الجوية الملكية الكمبودية إلى مطار «سيم ريب». ولم نضيع وقتا.. انطلقنا من المطار مباشرة إلى هدفنا. اجتزنا شوارع مدينة سيم ريب الصغيرة الغارقة في الخضرة، ثم بدأنا نوغل في أحراش الغابة الاستوائية حتى أطلت علينا عظمة الحجر من بين الشجر. إنها أنكور. مدينة أثرية تمتد على مساحة ٢٠٠ كيلو متر مربع وتعد إحدى عجائب الدنيا القديمة التي مازالت على قيد الحياة. مدينة معابد ظلت تخفيها الغابة الاستوائية حتى وقع عليها بصر عالم طبيعة فرنسي هو «هنري موهوت» عام ١٨٥٩ فأذاع خبرها في العالم لتتحول إلى قبلة سياحية لأثرياء ذلك الزمان وتجاره ولصوصه الغربيين والمحليين أيضاً، وحتى زمننا. ففي المطعم الذي تناولنا فيه عشاءنا مال علينا

مرافقنا «ماني» وقال بهمس: «هل تذكرون تلك النقوش الجدارية الجميلة في معبدي بايون وأنكور.. هذا المطعم وحديقته جاءا من ثمن نصف متر مربع سرقه المالك من هذه النقوش وباعه في تايلاند». ولم يكن صاحب المطعم وحده هو الذي فعل ذلك. فقد قرأت أن آثار أنكور ظلت مستباحة للناهبين حتى أدرجتها اليونسكو في قائمة التراث العالمي الذي يخص البشرية جمعاء عام ١٩٩٢. ومن أشهر لصوص آثار أنكور الكاتب الفرنسي العالمي أندريه مالرو - ولكم أحزنني ذلك وأسقطه من نظري بعد حب كبير - فقد كان يعمل تاجراً للأعمال الفنية في فترة من حياته، وفي عام ١٩٢٣ زار كمبوديا وانتزع، بل سرق، تمثالاً صغيرا من الحجر الرملي الوردي من معبد بانتيه بأنكور، ويقال إنه قبض عليه في بنوم بنه، لذلك السبب وصودر التمثال الذي لم يعد إلى مكانه في معبد بانتيه إلا بعد سبعين عاما.. أي عام ١٩٩٣.

إنها كنز مغدور حقاً، وأثر حضارة تكالبت عليها كل غوائل الدنيا.. من أطماع البشر حتى وحشية الغابة. فالبقايا الهائلة العظيمة التي رأيناها، تنمو عليها الآن الطحالب السوداء والخضراء، وتسكن فيها الخفافيش وتفسخ صروحها الجذور الهوائية لأشجار التين العملاقة. أما الألغام التي بثها الخمير الحمر في أرجاء المكان، فقد قام مختصون من قوات الأمم المتحدة بتطهيرها إلى درجة تكفي لزيارتها دون مخاطرة بالخروج عن الدروب المحددة للزيارة. وفي هذه الدروب بين جبروت الحجر والشجر سرنا يومين كاملين دون أن نتمكن من رؤية كل شيء. رأينا التاريخ منقوشاً في رسوم على لوحة جدارية من الحجر الرملي طولها كيلو متران ومساحتها ١٣٠٠ متر مربع وعبرنا على الطريق المرصوف بالحجارة فوق قناطر الخندق المائي المحيط بأنكور وات إلى حيث يشمخ النصب الجنائزي للملك جايا فارمان المؤسس. صعدنا درجاً وتسنمنا أبراجاً، تهنا في دهاليز لا نهاية لها، وتوقفنا طويلاً أمام الوجوه العملاقة المطلة من الحجر تحكي جميعها في صمت تاريخ تلك الحضارة المنهوبة. ففي عام ٨٠٢ نصب جايا فارمان الثاني ملك الخمير نفسه إمبراطوراً عالمياً في أنكور. ولابد أنه كان محقاً في بعض من جنون عظمته تلك بدليل ما بقي من أنكور. التي ورثها عنه عام ٨٨٩ الإمبراطور ياسو فارمان وشيد «الباراي» حول المدينة، وهو خندق على شكل حوض يحيط بأربعة أضلاع المدينة طول كل ضلع ٧ كيلو مترات وعرضه كيلو متران، وكان يهدف إلى اصطياد المياه الهابطة من التلال في موسم الأمطار الاستوائية الغزيرة فيعمل على الحماية من غارات الأعداء ويكون خزانا للماء اللازم للزراعة واحتياجات السكان في هذه المدينة التي كانت تنتج في ذلك الزمان السعيد محصولين من الأرز سنوياً مجموعهما ١٥٠ ألف طن لتغذية سكان هذه المدينة الدينية، التي كان يقوم على خدمتها ٩٥ ألف إنسان. ومن الغريب أن البشر لم يكن مسموحاً لهم بسكنى الحجر فالحجر للآلهة وتجسيداً لهيئاتهم أي تماثيلهم، أما البشر من الخدم حتى الملوك، فلهم أكواخ خشبية تنهض على أوتاد كالأكواخ التي مازالت موجودة على حواف البحيرة وشواطىء الأنهار في كمبوديا حتى الآن، وإن كانت أكواخ أنكور القديمة قد تلاشت بفعل الرطوبة والأمطار والحشرات. لقد كانت مدينة دينية وإمبراطورية لمملكة الخمير التي بلغت من القوة حد أنها كانت تشمل تايلاند الحالية ولاوس وأجزاء من بورما وماليزيا وفيتنام. لكن الأيام دارت دورتها وجاء السياميون (التايلانديون) لهزيمة الخمير في القرن ١٤ واحتلوا أنكور عام ١٣٥١ ونهبوها ورحلوا أهلها إلى بلادهم كعبيد. أقفرت أنكور، ثم راحت أحراش الغابة الاستوائية تخفيها شيئاً فشيئاً حتى أعادت اكتشافها عيون الغربيين واللصوص المحليين وغير المحليين. ولم يستثنها وباء الحرب الأهلية من بعض طلقاته وآلاف ألغامه.

لقد أجهدتنا سيرا وصعودا وهبوطاً مدينة الأطلال العظيمة هذه. وفي داخل معبد حجري صغير يسمى معبد «رنين الصدر» رحت أختبر أسطورة سمعنها تقول إن من يركن ظهره على حائط داخل هذا المعبد ويدق بيده على صدره فإنه يسمع للدقات رنينا تردده الجدران ومع هذا الرنين ينجاب أي حزن أو ضيق تختزنه الصدور فتكون الراحة..

لقد دققت على فخذي فلم أسمع رنينا. ودققت على كتفي فلم أسمع رنينا. ودققت على صدري فأدهشني رنين حقيقي تردده وترجعه الجدران، فعاودت الدق على صدري مغمضاً عيني لأستريح.. أستريح.. وفي عذوبة الراحة كنت أتساءل: يارب.. الدنيا التي خلقتها عذبة وبهية.. فلماذا يشقيها ويشقى فيها البشر؟!

فكر

# المراصد الفلكية

## في العالم الإسلامي

بقلم: عبد الرزاق البصير

هذا عنوان سفر ألفه العالم التركي الدكتور آيدين صاييلي باللغة الإنجليزية، وقد لقي إقبالا من المهتمين بالحضارة الإسلامية، وقد رأت مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ترجمته إلى اللغة العربية، فكلفت الدكتور عبدالله العمر وهو أستاذ في علم الفلسفة بجامعة الكويت، تخرج في جامعة هارفارد الأمريكية وهي من أشهر الجامعات الأمريكية، فقام هذا الأستاذ مشمرا عن ساعد الجد بترجمة هذا الكتاب، وقد راجع هذه الترجمة الدكتور عبد الحميد صبرة، وهو أستاذ كرسي في جامعة هارفارد، وقد استغرقت ترجمة هذا الكتاب سبعة أعوام.

وكان المترجم يراجع الدكتور عبد الحميد صبرة في بعض ما يرد في هذا الكتاب من معلومات أو آراء لتكون الترجمة متكاملة. ولست في حاجة إلى القول إن علم الفلك علم جاف لا ينسجم معه إلا من كانت له هواية فيه، لكن صاحبنا المترجم وجد في نفسه ميلا قويا إلى هذا الكتاب، فأقبل على ترجمته كل الإقبال. ذلك أنه وجد مؤلف الكتاب أمينا منصفا لعلماء المسلمين، وكدليل على ذلك نقف عند هذه الفقرة التي جاءت في مقدمة المؤلف يقول: «يبدو أن تراث الإسلام في العصر الوسيط كان غنيا - على وجه الخصوص - بنشأة بعض مؤسسات مهمة للعلم والمعرفة، وهي تشكل جزءا متمما لمجتمعنا الحديث ولحضارتنا، ويبدو أن الدور الذي قام به إسلام العصر الوسيط في نشأة هذه المؤسسات وتطورها كان عظيما، وهذه المؤسسات هي البيمارستان (أي المستشفى) والمدرسة والمرصد والمكتبة العامة». ويرجع المؤلف هذا الخصب في الاهتمام بعلم الفلك إلى ظهور الدين الإسلامي، لأن الإسلام يطلب من معظم معتنقيه أن يهتموا بأهلة الشهور لما لها من علاقة بحج بيت الله الحرام وصيام شهر رمضان. كما أن القرآن الكريم يوضح أن للقمر منازل مقدرة، يتنقل فيها من يوم إلى يوم وهذا يعني أن المسلمين لا بد أن تكون لهم علاقة تختلف قوة وضعفا حسب شغف الأفراد بهذا العلم، لكنهم على أي حال يحاولون أن يتعلموا كل ما له علاقة بعلم الأفلاك. ولعلهم قد أدركوا أن للقمر بصورة خاصة علاقة بنماء الزرع.

ويؤكد المؤلف في هذه المقدمة أن المدرسة التي تعطي الشهادة لم توجد إلا عند علماء المسلمين، ولم توجد عند اليونان الذين اهتموا بعلم الفلك، وأن هذا النهج التعليمي كان نهجا إسلاميا، والحق أن وجود المرصد معبر عن الحضارة الإسلامية. وهذا الإنصاف والتجرد من المؤلف هو من أكبر العوامل التي دفعت الأستاذ المترجم إلى بذل جهده في ترجمة هذا الكتاب، وأنت حين تقرأ مسيرة حياة الدكتور صاييلي، تثبت لك

**لم يشهد علم الفلك تطورا مثلما حدث له مع النهضة العربية حتى ليمكن القول إن المرصد هو عنوان الحضارة الإسلامية.**

مشاركته في عدد كبير من المؤتمرات العلمية المنعقدة في برشلونة ومدريد وطوكيو وباريس والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها كثير.

وفي هذا توضيح واستبانة لمكانة الدكتور العلمية.

## جدوى علم الفلك

وحين يبدأ المؤلف في حديثه عن المراصد الفلكية في الإسلام يوضح لقرائه أن جدلا واسعا حدث بين علماء المسلمين حول جدوى علم الفلك، فهل في تعليمه نفع للذين ينفقون أوقاتهم في الحصول عليه أو لا؟، قال بعضهم إن في تعليم علم الفلك تعزيزا لتفهم الإنسان للدين، فإن كل شيء يأتي عن علم، يكون ثابتا فيه كثير من النفع، وعلى كل حال فإن ما أبرزه علم الفلك من فهم عجائب صنع الله كان هو الحاسم في دفع العلماء إلى هذا العلم. ويبدو أن هناك خلطا في زمن صنع الأرصاد الفلكية، ولكن أكثرها تأكدا هو أنها رصدت في أيام الخليفة المأمون، وإن كان هناك من يقول إنها رصدت في دمشق قبل هذا الخليفة، ولكن حركة في علم الفلك كانت تجري من الشام قبل الحركة العلمية في أيام المأمون.

وكان ليحيي بن أكثم قاضي المأمون شغف بعلم الفلك، وربما كان من جملة الذين ذهبوا إلى مدينة سنجار، وقد اختيرت هذه المدينة لارتفاعها، لأنها كانت تقع في جانب جبل هناك، ونعني بها موقع الجزيرة، ومدينة سنجار والجزيرة تقعان بين الشام والعراق من الشمال، وهما مكانان معروفان لدى الفلكيين والجغرافيين القدامى، ولقد أسهم في صنع الأرصاد الفلكية أشخاص لا يعرف الناس عنهم إلا أن لهم مكانة في عالم الأدب مثل أبو الفضل بن العميد وقابوس وشمكير وعمر الخيام وأبي إسحاق الصابيء، هؤلاء الأشخاص أثروا المكتبة العربية بما لهم من نشاط أدبي معروف، وقد شاركوا كلهم في صنع الأرصاد الفلكية، وهذا كله يدل على أن معظم المثقفين المسلمين في تلك الحقبة يأخذون من كل علم بطرف، وكثيرا ما تكون لهم القدرة على إغناء الأطراف العلمية والأدبية والفلسفية والرياضيات والجبر والهندسة، وما إلى دلك من مختلف العلوم بخلاف الكثير من أهل هذا العصر. فإن معظم المتخصصين لا يكادون يعرفون شيئا إلا فيما تخصصوا فيه من العلوم، وقد




غلاف الكتاب

يكون أصحاب الاتجاه الحديث من المتخصصين أكثر قدرة على العطاء في تخصصهم من المثقفين السابقين، لكننا نلاحظ أيضا أن بعض المثقفين المعاصرين يكونون قادرين على الإبداع في أكثر من جانب، كما نجد ذلك في علي محمود طه من حيث إنه شاعر مبدع ومهندس قدير، ويقال مثل ذلك في كثيرين كابن سينا من أن له مكانة في عالم الطب والفلسفة، ولكن تبين أن له يدا في صنع الأرصاد الفلكية أيضا، كما أن الدينوري أحمد بن داود معروف بأنه عالم في الهندسة والنبات، صاحب التصانيف الكثيرة، ومن أشهر كتبه الأخبار الطوال في التاريخ. يقول عنه الدكتور صايلي مؤلف هذا الكتاب إنه ممن ساهم في صنع الأرصاد الفلكية، ومن المعروف أن جميع المؤرخين قد أسهموا في ذم الحاكم بأمر الله لأنه اتخذ إجراءات مخالفة للعقل والمنطق، ولكنه مع ذلك اتخذ ابن يونس أحد العلماء نديما له، وقد طلب منه أن يصنع مرصدا فلكيا على جبل المقطم، كما أن المؤلف قد أشار بصورة موجزة إلى ما قام به بنو موسى في أيام المأمون من مساهمة كبيرة في صنع الأرصاد الفلكية.

## مرصد المراغة

ويبدو أن المؤرخين المتخصصين في الحديث عن هذه الخطوة الحضارية لم يتحدثوا مفصلا لتكون الصورة واضحة، فنرى المؤلف ينقل عن المؤرخين إشارات موجزة لا توضح كيفية صنع المرصد فهو ينقل على سبيل المثال ما قاله ابن الأثير في حوادث سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٤ ـ ١٠٧٥م) وفيها جمع نظام الملك والسلطان ملكشاه جماعة من أعيان المنجمين، وجعلوا النيروز أول نقطة من الحمل، وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت، وصار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم، وفيها أيضا عُمل الرصد للسلطان ملكشاه، واجتمع جماعة من أعيان المنجمين في عمله منهم: عمر بن إبراهيم الخيامي، وأبو المظفر الاسفزاري وهو الأسفرائيني عند أبي الفدا، وميمون بن النجيب الواسطي وغيرهم، وأُنفق عليه من الأموال شيء عظيم، وبقي المرصد دائرا إلى أن مات السلطان سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فبطل بعد موته.

هذه عينة من نقول المؤلف من كتب الذين أرخوا لصنع المراصد الفلكية وهي لا تبين لنا بصورة دقيقة كيفية صنع المراصد من حيث الكبر والصغر والأدوات التي تستعمل والمدة التي استغرقتها، ومعظم ما نقله المؤلف الدكتور صايلي يأتي على هذه الشاكلة إلا حين يأتي إلى مرصد المراغة فإنك تجد فيه حديثا مفصلا يشفي الغليل، ذلك أن هذا المرصد يمثل من جهة السمات الرئيسية والجوهرية قمة تطور هذه المؤسسة في الإسلام في رأي المؤلف ص ٢٧٧، ومما يدعو إلى الفخر أن هذا المرصد العظيم أنشىء نشأة إسلامية دون أن يعتمد على الصين أو غيرها من الأمم الأجنبية، والغريب أن هذا المرصد قد أنشىء إبان ضعف الصلات الثقافية بين العالم الإسلامي والغرب إلى حد كبير في نهاية فترة الترجمات التي تمت من اللغة العربية إلى اللاتينية.

ويرى المؤلف أن مرصد المراغة أهم مرصد بني في تلك الحقبة وقد بدأ بناء هذا المرصد في شهر جمادى الأولى من عام ٦٥٧هـ أي في أبريل ـ مايو سنة ١٢٥٩م، ويقع مرصد المراغة على تل في ضاحية مدينة المراغة في إيران ويمتد هذا التل في طوله بحذاء منتصف النهار، ولهذا التل قمة مسطحة طولها نحو ٤٠٠ متر وعرضها نحو ١٥٠ مترا، ويتم رفع الماء إلى تل المرصد عن طريق آلات خاصة وسواق، وقد بنيت لهذا المرصد قبة ومكتبة للرصد فيها أكثر من ٤٠٠ ألف مجلد، وهو بذلك قد أصبح مرجعا للعلماء والباحثين في شتى المعارف الإسلامية، وهناك فتحة في أعلى القبة تنفذ منها أشعة الشمس، والخيال الحادث عن ذلك يعين على قياس حركة الشمس البطيئة بالدرجات والدقائق، وبهذه الوسيلة يمكن أيضا تحديد زاوية ارتفاع الشمس عبر الفصول المختلفة وأوقات النهار المتعددة.

ولما كان الإنفاق باهظا على هذا المرصد العظيم مما جعل هولاكو، وهو الحاكم المطلق، يرى أن لا داعي لكل هذا الإنفاق فقد تساءل ذلك الحاكم عن المنفعة التي ترجى من هذا المرصد، فما كان من نصير الدين الطوسي، وهو عالم معروف مشهور بالفلسفة والشجاعة الأدبية، ما كان من هذا العالم إلا أن قام بفعل مؤثر مجمله أن الطوالع تقول إن شيئا ما سيحدث لهولاكو، وأن الإنفاق على هذا المرصد ربما يكون فيه نجاة وتحذير له، في خبر طويل لا يسع المقام ذكره بالتفصيل «ص ٢٨٤» وبذلك نجا هذا المرصد العظيم من التلف، ولقد أصبح لهذا المرصد مكانة مرموقة جعلت حكام المغول يرون أنه من الأفضل لملكهم أن يغدقوا عليه ويعينوا له مديرين ليستمر المرصد في عطائه الذي يمكنهم من رؤية الطالع، ولقد طال عمر هذا المرصد إلى سنة ١٣٣٦م، أي أن عمره كان حوالي ٧٧ سنة، ويتردد المؤلف في تحديد عمر هذا المرصد بسبب ما جاء من اختلاف في روايات المؤرخين الذين ذكروا عمر هذا المرصد.

ولقد أطلت الوقوف عند هذا الإنجاز الحضاري لأنه من أعظم المنجزات الفلكية في القرن الثالث عشر للميلاد الموافق للقرن السابع الهجري، وعلى كل حال فإن هذا السفر البالغة صفحاته سبعمائة صفحة يتحدث بالتفصيل عن المراصد الفلكية في الإسلام من بداية القرن الثالث للهجرة حتى نهاية القرن الثامن للهجرة، وكان بحث المؤلف دقيقا مستفيضا يدل على أنه قد بذل فيه جهودا عظيمة.

## مستشرق منصف

ويقتضي منا الإنصاف أن نشير إلى الترجمة المطولة للدكتور آيدين صاييلي مؤلف هذا الكتاب التي كتبها الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي، فقد ألم كاتب الترجمة بحياة الدكتور آيدين إلماما ممتازا، حيث ذكر كل صغيرة وكبيرة مما يخص مكانة الدكتور آيدين ونشاطه في تاريخ العلوم ومشاركاته في كثير من المؤتمرات العلمية التي عقدت في الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا وطهران كما أشار كاتب الترجمة إلى ما يتمتع به الدكتور آيدين من حدة ذكاء عجيبة. اتضحت في أول امتحان في آخر صفوف المرحلة الثانوية، ويتبين في هذه الترجمة ما يتصف به الدكتور آيدين من ميل قوي إلى التعريف بعلماء الإسلام أمثال ثابت بن قرة والخوارزمي وابن سينا، ولعل الكتاب الذي حاولنا عرضه في هذه المقالة أنصع دليل على انصاف الدكتور آيدين لعلماء المسلمين، ولقد أحسن الدكتور عبدالله العمر مترجم الكتاب حيث أضاف هذه الترجمة المفصلة لمؤلف الكتاب في مقدمة الكتاب. ولا بد لي من أن أبين بعض ما بذله المترجم من جهد في نقله هذا الكتاب من الإنجليزية إلى العربية ويكفي أن نعرف أنه أنفق سبعة أعوام ليخرج الكتاب على هذه الصورة اللائقة وما أكثر ما ينفق كان الساعات الطوال مهاتفا الدكتور عبد الحميد صبرة في أمريكا يستفسر منه عن بعض ما يغمض من الأمور، حيث تقرر أن يكون الدكتور صبرة مراجعا للكتاب، وكان يرسل ما يترجم إلى العربية من ملازم الكتاب إلى مراجعه الدكتور عبد الحميد صبرة وهو أستاذ كرسي في جامعة هارفارد، وقد رجع الدكتور عبدالله العمر مترجم الكتاب إلى ٣٧١ مصدرا على وجه التقريب، لأن المترجم أراد أن يقف على مصادر المؤلف، إذ إن المؤلف كثيرا ما يأخذ المعنى من المصادر العربية والإسلامية، وكان المترجم يحب أن يتأكد من صحة نقل المؤلف وفهمه للمعنى، وهو أمر مرهق حقا، خاصة إذا علمنا أن مترجم الكتاب أستاذ في جامعة الكويت، يحرص أشد الحرص على أن يكون تدريسه لطلابه في الجامعة تدريسا متقنا، وكان من الأساتذة الذين يجتمعون بطلابهم ليرى ما يصعب عليهم في دروسهم. على أن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي لم تطلب من الدكور عبدالله العمر ترجمة هذا الكتاب إلا لتأكدها أن صاحبنا حريص كل الحرص على تأدية واجبه على خير وجه، ولكم أغنت مؤسسة الكويت للتقدم العلمي الثقافة العربية بما تصدره من كتب مؤلفة ومترجمة في شتى أنواع الثقافة.




# الوشم: من التراث إلى الحداثة

## رسوم عتيقة على الجلد

بقلم: الدكتور أحمد عبد المنعم عربود

الوشم - تقليديا - هو رسوم أو نقوش أو زخارف تنقش على الجلد، في أماكن مختلفة بقصد الزينة، أو لأسباب نفسية أو تقاليد اجتماعية حسب طبيعة الموشوم.

والوشم عريق في القدم، فلقد مارسه الإنسان في أماكن مختلفة من العالم، وكان مرتبطا بطقوس دينية أو لعلاقته بالخصوبة أو كشعيرة من شعائر الزواج. ولعله قد كتب له البقاء والانتعاش في الحضارة الغربية المعاصرة، فعلى الرغم من التفاوت في ممارسته بين الطبقات المختلفة ومن وقت لآخر فإنه يمارس في معظم مدن بريطانيا وبصورة شائعة في سني المراهقة بين الجنسين، وغالبا ما يمارس كرمز للإنتماء أو الانضواء في عضوية عصابة أو جماعة معينة ذات تفكير شاذ!! كما شاع أيضا في بريطانيا بين أفراد القوات المسلحة.

ولقد أثبتت الدراسات النفسية الحديثة أن نسبة كبيرة من الذين يستوشمون يعانون انفعالات غير ناضجة، وأمزجة متقلبة، ونسبة كبيرة منهم مصابون بالشذوذ الجنسي!!

والصورة الغالبة في ضحايا الوشم أنهم في مقتبل العمر ويتطابقون في تصرفاتهم وصفاتهم كقطيع متماثل.

وفي بحث أجري على عدد من نزلاء مستشفيات الأمراض العقلية والمصحات النفسية تبين أن ١٥٪ منهم كانوا موشومين. وكذلك أثبتت الدراسات أن نسبة كبيرة من المترددين على عيادات الأمراض التناسلية كانوا في معسكرات الاعتقال في أثناء الحرب العالمية الثانية وكانوا موشومين بواسطة سجّانهم لأسباب جنسية!

ولا ننسى أن معظم محترفي رياضة المصارعة الحرة، والذين يظهرون على شاشات التلفاز هم من الموشومين وينطبق عليهم كثير من الصفات النفسية المذكورة سلفا، وكذلك تصرفاتهم الغريبة الشاذة الخارجة عن النمط الإنساني السوي.

والوشم يكون مقصودا ومختارا من الشخص الموشوم، والذي يختار شكلا معينا أو تصميما بعينه، مدفوعا أو مساقا بدوافع نفسية كامنة في اللاشعور.

### اضطراري.. واختياري

قد يتعرض الإنسان للوشم اضطرارا وبصورة خارجة عن إرادته وذلك إذا تعرض لحادث مروري أو في بعض

## موضوع قديم لمسته يد الطب الحديث فتحول إلى صيحة تجميلية معاصرة، وها هنا مقالتان تكمل إحداهما الأخرى.

الأعمال المهنية، أو إذا أصيب بطلق ناري من مسافة قريبة.

والوشم ببساطة يتم عن طريق إدخال صبغيات مادة معينة - طبيعية كانت أم كيميائية - إلى أدمة الجلد Dermis في صورة نقوش أو زينة، أو عند احتكاك الجلد بالأسفلت وصدأ الدراجات في الحوادث يتعرض للوشم نتيجة نفاذ بعض المواد الغريبة من خلال الخدوش الحادثة أو تلوث الجروح بزيوت وصدأ تلك الآلة المستخدمة في الحادث.

وعند دخول هذه المواد الغريبة أو جزئيات المادة الصبغية إلى خلايا الأدمة (وهي ثاني طبقة سطحية في الجلد) تتدافع خلايا بلعمية كبيرة Macrophages لاحتواء هذه المواد الغريبة والتهامها بداية للتخلص منها، ولكنها سرعان ما تموت تاركة ومخلفة وراءها هذه المواد لتستقر بصورة شبه خاملة في أنسجة الجلد وبصورة دائمة.

وحين التعرض لطلق ناري من مسافة قريبة فإن حبيبات الكربون ونواتج احتراق البارود تخترق الجلد محدثة وشما معروفا في مثل تلك الظروف، وهو ذو أهمية خاصة لدى أطباء الطب الشرعي والنيابة بصفة خاصة.

يستخدم الواشم المتمرس إبرة كهربائية خاصة لإدخال حبيبات أو جزئيات المادة المستخدمة في الوشم إلى الأدمة، وذلك بعد طلاء طبقة رقيقة من تلك المادة على سطح الجلد المراد وشمه، وقد يستخدم أي سن حاد لإدخال «السناج» أو الحبر الهندي إلى الجلد في الموشوم الذي يتقبل ذلك العمل بارتياح، مع ما قد يسببه من آلام في أثناء هذا العمل، وليس ضروريا أن يعطي لون المادة الموشومة في الجلد نفس لونها الطبيعي قبل الوشم، فهناك تغيرات تطرأ على المادة الصبغية بعد احتوائها بخلايا الجلد، وتبدو من خلال خلاياه بلون آخر مخالف للونها الأصلي.

فمثلا يعطي «الكربون» أو «السناج» الأسود لونا



صورة لجهاز الوشم الحديث مع مجموعة ألوان متنوعة.

يتفاوت بين الأزرق والأسود. بينما يعطي «سلفيد الزئبقيق» والأصباغ النباتية المستخرجة من الخضراوات اللون الأحمر. بينما تعطي «ألمنيونات الكوبالت» اللون الأزرق الفاتح، ويعطي «أكسيد الكروم» اللون الأخضر، و«سلفيد الكادميوم» يعطي اللون الأصفر، بينما تعطي أكاسيد الحديد اللون البني.

ولا شك أن الوشم بهذه الطريقة المذكورة يشكل مشكلة طبية كبيرة. فعلاوة على التشويه الحادث الذي يمثل مشكلة جراحية إذا أريد التخلص منه واستئصاله في عيادة جراحة التجميل، فإن هناك مضاعفات خطيرة وكثيرة قد تنجم نتيجة دخول مواد غريبة - كتلك المستخدمة في الوشم - إلى أنسجة الجلد أو بسبب الآلة المستخدمة في الوشم كالإبر والآلات الحادة وغيرها.

ومن أهم تلك المضاعفات الالتهابات الصديدية الحادة مثل: الحُمرة والغنغرينا الجلدية التي قد تصل إلى موت الجزء الموشوم وسقوطه. ومن الشائع في الوشم أنه قد يتسبب في الإصابة بأمراض الزهري والدرن، والذي غالبا ما ينتقل من الواشم المصاب بالمرض أو نتيجة استخدام آلات ملوثة بدماء موشومين

سلفا مصابين بتلك الأمراض. وكذلك الالتهاب الكبدي الوبائي والعديد من الفيروسات الخطيرة، والجذام وجدري البقر، والسنط بأنواعه الذي قد يحدث بصورة وبائية مخيفة. ولا يخفى علينا أهم تلك الأمراض في عصرنا هذا وهو مرض «نقص المناعة المكتسبة» أو الـ (AIDS) وبخاصة إذا علمنا أن نسبة كبيرة من الموشومين هم من المصابين بالشذوذ الجنسي كما أسلفنا.

وقد يتسبب الوشم في إظهار مرض جلدي عادي بصورة أكثر وضوحا وأشد تمركزا في مكان الوشم دون غيره من بقية الجلد مثل مرض الحزاز الجلدي المنسطح (Lichen Planus) أو الصدفية أو الزئبة الحمراء أو الأورام السحامينية (Melanomas). وكذلك كثير من الأورام المعروفة.

هذا وقد يحدث فرط تحسس من نوع الصبغة المستخدمة في مكان الوشم أو قد يشمل الجسم كله في صورة «إكزيما» جلدية أو التهاب جلدي مقشر منتشر (Exfoliative Dermatitis)، وقد يصاب مكان الوشم للتورم والالتهاب الشديد فور تعرضه للضوء وذلك لأسباب غير معروفة.

## التخلص منه جراحيا

يستأثر الوشم بنصيب كبير في جراحات التجميل، وذلك إذا أريد إزالته والتخلص منه. ويمكن ذلك بطرق متعددة أهمها: الاستئصال الجراحي على مراحل، أو باستخدام رقعة جلدية تنقل من أي مكان مناسب من الجسم، أو إزالة النقوش باستخدام صنفرة خاصة بجراحة التجميل لإزالة الطبقة الجلدية المحتوية للوشم ويترك الجلد لتكوين خلايا جديدة خالية من الوشم.

ومن التقنيات الحديثة استخدام أشعة «الليزر» في إزالة الوشم ولكنه قد يتسبب في تليف الجلد وربما أحدث نُدبا تبدو بصورة مقلقة.

ولقد استخدمت كذلك الموجات «دون الحمراء» التي تحدث تخثرا للجلد في مكان الوشم.



خط وشم حول الشفتين.

وقد يستخدم الكشط الجراحي مستخدمين في ذلك جهاز التقطيع الطبقي للجلد (Keratotome) الذي يعطي نتائج طيبة. كما يمكن استخدام بعض الكيماويات الطبية في إزالة الوشم ولكن بواسطة المتخصصين، ولعلاج فرط التحسس تستخدم مركبات الكورتيزون الموضعية أو بالحقن العام.

وأخيرا، بعيدا عن الوشم الذي ذكرناه والذي يمارسه العامة، فإنه تجدر الإشارة لنوع آخر من الوشم المستخدم في الطب وبالتخصيص في جراحات التجميل الذي يمارسه أطباء ذوو خبرة خاصة وبتقنية علمية متقدمة، وفيها تستخدم أصباغ خاصة معقمة وغاية في الدقة وذلك لمضاهاة لون الجلد الأصلي في مناطق مختلفة.

# تلوين مجهري للجسد

بقلم: الدكتور محمد أكرم خوجة

ليس التلوين المجهري الحديث إلا تطويرا عصريا، أنيقا ومعقما لعملية الوشم Tattoing.

وفي الأصل تم اشتقاق التسمية الغربية من الكلمة البولينيزية التي تعني «الطرق» أو «الضرب» المستخدم في تنفيذ الوشم سابقا.

إلا أن التلوين المجهري يعتمد على غمس مواد صباغية ذوات ألوان مختلفة تحت الجلد أو الأنسجة الحية لإعطائها لونا ثابتا لا يتأثر بالعوامل الجوية التي تم حقن الأصبغة فيها، توخيا لغايات تجميلية أو تزيينية.

ومن الجدير بالذكر هنا أن التاريخ المدعم بالدلائل والثبوتيات القاطعة بدأ في مومياء فرعونية يزيد عمرها على «٤٠٠٠» سنة، حيث شوهدت فيها خطوط زرقاء اللون تغطي الساعدين والساقين وحتى البطن. كما اكتشفت آثار الوشم بغزارة واضحة خصوصا لدى سلالات العائلة التاسعة ولا سيما عند النساء. وتشير الدلائل إلى أن الوشم انتقل من مهده في مصر إلى حوض البحر المتوسط وشبه الجزيرة العربية أولا لينتشر في سائر أنحاء قارة آسيا حتى وصل إلى الصين ومنها إلى فورموزا (تايوان الحالية) والفلبين في حوالي «١١٠٠» قبل الميلاد.

فقد لجأت بعض القبائل العربية إلى وشم كل من الجبهة والخدود لدى الفتيات المقبلات على الزواج، ومن ثم إزالته بعد الزواج باستخدام مواد خاصة مثل الصابون والكلس.

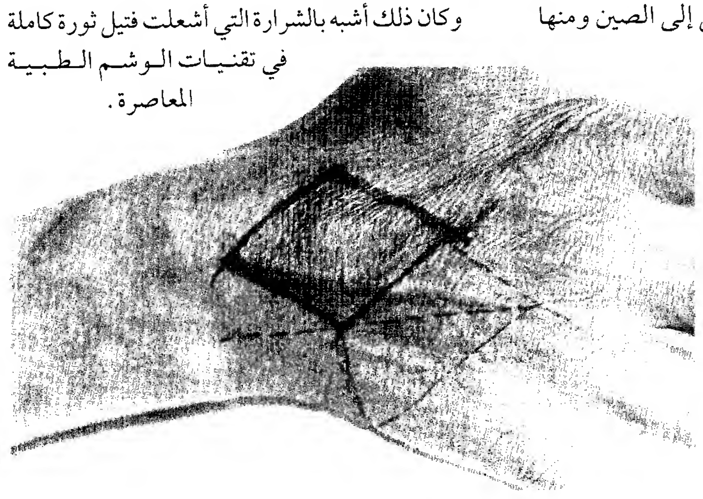
وفي شرقي الهند كانت تقاليد الزواج تقتضي وشم أشكال متماثلة لدى الزوج والزوجة معا.

كما نظر الإسكيمو إلى الوشم على أنه أفضل الوسائل التزيينية لتعزيز جمال الفتيات.

كما تربع الوشم على مكانة رفيعة حينما اقترن تطبيقه ببعض العائلات الملكية، حيث يذكر وشم ذراع أمير ويلز على هيئة صليب القدس Cross OfJermsalem وذلك في عام ١٨٦٢م، ومن ثم سريان العدوى إلى ابنه جورج وحتى والدته: كليرانس. وكان الوشم منقطا على هيئة تنين يعلو الذراع. أما القيصر الروسي نيقولا فقد طلب وشم جسمه في عام ١٨٩١ من الفنان الياباني الشهير هوري تشيو Hori Chiyae وحرص هذا الطابع الارستقراطي على انتقال الوشم إلى كبار العائلات المميزة.

أما تنوع الوشم من ناحية الألوان فبدأ بالظهور في الولايات المتحدة الأمريكية منذ مطلع القرن التاسع عشر، حيث شرعت سيدات المجتمع الراقي في أمريكا - بدءا من عام ١٨٣٠ - بإجراء وشم حمرة دائمة على الخدود وكذلك وشم دائم للحواجب، إضافة إلى «أحمر شفايف» لا يمكن إزالته.

وكان ذلك أشبه بالشرارة التي أشعلت فتيل ثورة كاملة في تقنيات الوشم الطبية المعاصرة.



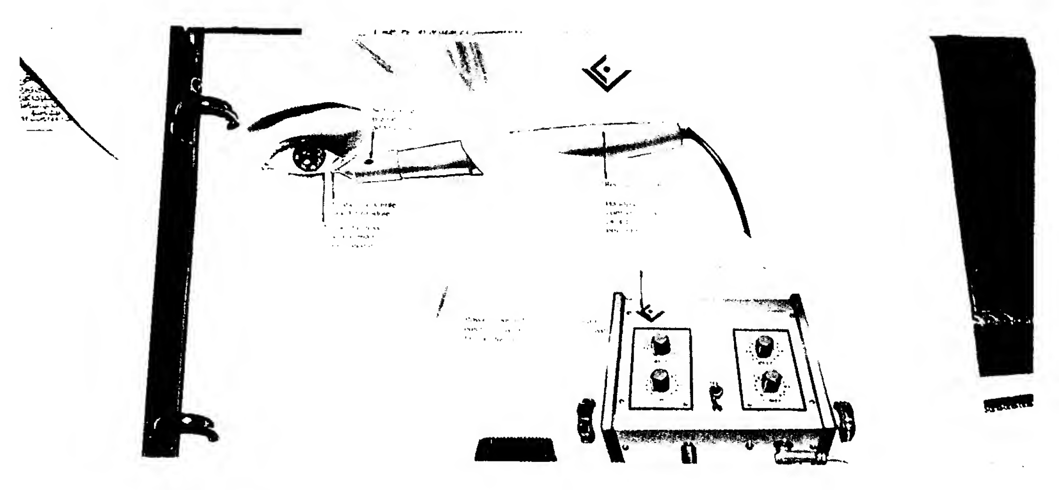
تخطيط لعمل جراحة تجميلية لاستئصال الوشم.

ومنذ عام ١٨٧٥ انطلقت حملة هدفت إلى تطوير أجهزة التلوين المعتمدة على الحقول الكهربائية أولا، ومن ثم كهربائية - مغناطيسية متناوبة سهلة الاستعمال، وغير مؤلمة، تسمح بوشم مساحات كبيرة من الرسومات خلال دقائق قليلة. ورافق ذلك استحصال أصبغة طبية تمخض عند دراستها لسنوات طويلة التوصية المتبعة حاليا بحذافيرها بتحضير كل لون ضمن زجاجة معقمة يحتضنها غلاف بلاستيكي محكم الإغلاق على شاكلة مشابهة لحفظ الأدوية فائقة التعقيم (مثل المحاقن)، وبأن

الذي يتمكن من وشم لون مختلف عن لون أخيه، مما يسمح باستخدام أكثر من لون في اللحظة ذاتها دون الاضطرار إلى تغيير المسبار أو استبدال اللون في الجلسة ذاتها، وبالتالي المخاطرة بتعريض المريض للتلوث وعواقبه الوخيمة.

## استخدامات مذهلة

بغض النظر عن الاستخدامات المعروفة للوشم في الرسم على مختلف أنحاء الجسم فإن الوشم الطبي التجميلي يحرص في الكثير من الحالات على إخفاء



الطريقة الحديثة في رسم خط الكحلة الدائم باستخدام جهاز التلوين المجهري الدائم.

تستخدم كل عبوة فور فتحها لشخص وحيد ولجلسة واحدة لا تتعداها.

كما تستعين الأجهزة الحديثة بمسبار خاص في داخله إبرة طبية، حيث يقدر المرء على تغيير الإبرة أو استبدال المسبار بكامله، مما يسمح بالارتقاء بعملية الوشم إلى أرقى مستويات النظافة والتعقيم - إن تمت وفق الشروط الطبية الصارمة.

ولتحقيق ذلك وتحاشيا لنقل الجراثيم بملامسة الجهاز في أثناء العمل يتم تشغيل جميع الأجهزة الحديثة والتحكم بها بواسطة القدم، توخيا للنظافة ولإبقاء اليدين حرتين في أثناء إجراء الوشم الدقيق.

كما أن أغلب الأجهزة الحديثة مضاعف الوظيفة: فهو يحتضن جهازين في آن واحد لكل منهما مسباره الخاص،

التشوهات أو تغطيتها تغطية تجميلية لا تخلو من اللمسة الفنية المميزة.

ولا يتسع المقام هنا للإسهاب في عرض جميع مواهب الوشم الطبي، لذا سأكتفي بإيراد بعض الأمثلة التي تبرز فوائده الجمة:

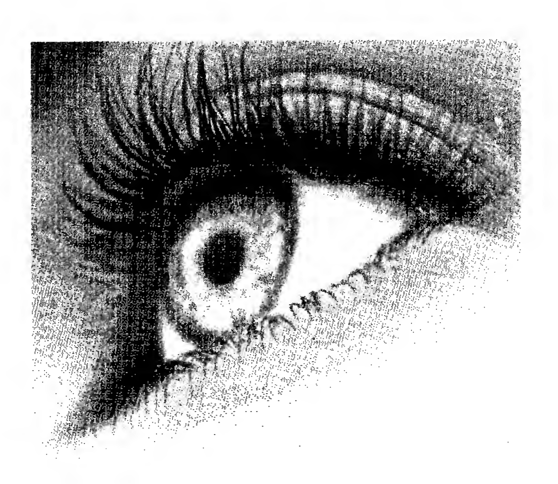
## تلوين العين

يمكن تلوين العين المنعدمة الرؤية نتيجة تشكل بياضة على القرنية نجمت عن التهاب أو جرح. ولتحقيق ذلك يجرى قياس دقيق لقطر الحدقة **Pupil** للعين السليمة، ومن ثم إجراء التلوين المجهري باللون الأسود على مركز (وسط) البياضة في العين المنكوبة، وأخيرا تلوين المنطقة المحيطة بهذه الحدقة باللون المناسب والمطابق تماما للون

العين السليمة، بحيث يتعذر اكتشاف أي اختلاف أو فارق بينهما.

وسبق لي أن قمت بنفسي بالتصدي للعديد من هذه الحالات، التي جعلت المرضى غاية في السعادة حينما رأى كل منهم بأم عينه أن عينه المنكوبة لا تبدو مطابقة لعينه السليمة مطابقة كاملة من حيث اللون والمظهر فحسب، بل تدور وتتحرك حركة طبيعية أيضا، إلى حد دفع أحد المرضى إلى التساؤل مدهوشا:

«دكتور، أي عين كانت مصابة: اليمنى أم اليسرى؟»



وشم العين.

وهذه النتيجة الباهرة تختلف اختلافا جذريا عن حالة وضع قشرة بلاستيكية مرسومة ARTIFICIAL EYE SHELL والتي تبقى العين فيها جامدة بلا حراك.

## تلوين الحاجب

يفقد بعض الناس حواجبهم بسبب مرض أو حرق أو نتيجة البرص، مما يضطر بعض السيدات إلى إعادة رسمها بالقلم في كل يوم تطلع فيه الشمس. لكن الأجهزة الحديثة أراحت السيدات من إرهاق هذا العبء اليومي المتكرر بإجراء الوشم اللازم بصورة فنية جميلة، وباللون المطلوب الذي يناسب لون الشعر، مما يعيد إلى السيدة شعورها بالارتياح والثقة بأن هذا الحاجب أبدي لن يزول مطلقا، ويختلف اختلافا ملموسا عن الرسم اليدوي الذي كان العديد من مريضاتي يضطررن إلى تجديده بعد غسل الوجه أو التعرق الشديد، مما كان يسبب لهن إحراجا اجتماعيا ولا سيما في حفلات الخطبة والأعراس في فصل الصيف.

## تلوين ما بين الأهداب

تشكو بعض الفتيات من قلة عدد الأهداب مما يسبب لهن حالة من الاكتئاب وضعف الثقة الاجتماعية تؤدي بهن إلى حب العزلة والانطواء. إلا أن في مقدور التلوين المجهري تقديم بعض اللمسات التجميلية على حافة الجفن بين منبت الأهداب مما يعزز لون الأهداب الطبيعي ويعطي المظهر التجميلي المطلوب والثابت دون التخوف من زواله بعد أول استحمام.

## خط كحلة دائم

ترغب بعض السيدات بتزيين عيونهن بخط كحلة دائم ليرتحن من تكرار رسمه مرة بعد أخرى. وبرزت هذه الرغبة أولا لدى النساء العاملات في الغرب، ذلك لأن المرأة العاملة ليس لديها المتسع الكافي من الوقت لإجراء رسم خط الكحلة يوميا قبل ذهابها إلى عملها، إضافة إلى عدم رغبتها في إضاعة فترات الاستراحة القصيرة أصلا لتعزيز رسمه خلال ساعات الدوام الرسمي أو في المناسبات الاجتماعية عموما، كما أن بعضهن يقف أمام المرآة مدة طويلة لرسمه رسما جميلا، ويحبذن إجراءه مرة وحيدة من قبل المختص بالوشم. وهنا بإمكان التلوين المجهري الدقيق رسم هذا الخط بشكل جميل ودائم مما يمنح السيدات الثقة بالنفس والراحة معا.

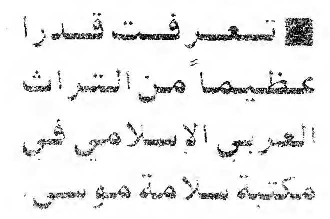
## إخفاء الندبات

تم في بعض الدول المتقدمة صناعيا إجراء التلوين المجهري الدائم للندبات المتخلفة عن العمليات الجراحية، خصوصا بعد عمليات سرطان الثدي أو شق البطن، حيث تترك وراءها ندبات بيضاء غير محببة، يختلف لونها عن لون الجلد المحيط بها. وهنا فإنه بإمكان الأجهزة الحديثة مزج اللون المطلوب بالضبط وإجراء الوشم أو التلوين المجهري على طول خط الندبة أو خط شق العملية الجراحية. والذي يأخذ اللون الأبيض عادة، فيصبح بالنتيجة مماثلا للون الجلد الأصلي.





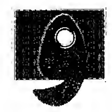

# الدكتور غالي شكري




أصيب الدكتور غالي شكري منذ فترة بعارض صحي، فتصاعدت من كل اركان الضمير الثقافي العربي صيحات الفزع. فليس ذلك العقل اللامع مما يمكن تعويضه. خاصة في هذه الفترة الحرجة من عمر المأزق الثقافي العربي. فالرجل - سواء اختلفت أو اتفقت معه - هو أحد المحاورين البارعين واللامعين في ساحة الفكر العربي في زماننا. بل هو صاحب منظومة تكوّن مشروعاً فكرياً ونقدياً لا شك فيه. وقضيته المركزية هي قضية النهضة، المرادفة - حين تطبيقها - لإقامة المجتمع المدني والدولة الوطنية الحديثة بكل التحديات والانتكاسات التي واجهتها هذه النهضة على مدى قرنين.

ثمة وحدة ونسق مضيء يؤكد ذلك في أعماله الفكرية: (أقنعة الإرهاب، والبحث عن علمانية جديدة، والنهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، وديكتاتورية التخلف





# عبد الرحمن أبو عوف

العربي). أما جهوده النقدية فيتألق فيها ذلك الارتباط العضوي الحتمي بين آليات قراءة وتأويل النص الأدبي وإدراك جوهر رؤيته في ضوء بنيته الجمالية وأسلوبيته التعبيرية، وبين جدل الصراع الاجتماعي والتاريخي المنبثق عن تفاعلات وتناقضات ذلك النص. وفي كل مساهماته ظل سعي الدكتور غالي شكري موجها نحو إعمال العقل لاكتشاف الظواهر وامتحان الفروض دون قصدية مسبقة أو يقين يغلق أبواب الاجتهاد. لقد تعافى الدكتور غالي شكري من وعكته الصحية وعاد إلى الساحة بقلمه البارع. و«العربي» إذ تتمنى له تمام الشفاء ودوام العافية، يسعدها أن يلتقي قراءها عبر هذه المواجهة التي أدارها معه في القاهرة الناقد المصري عبد الرحمن أبو عوف وهو معروف بإسهاماته النقدية في مجال القصة والرواية، وقد كتب العديد من الدراسات عن نجيب محفوظ ويوسف إدريس ويتابع التطورات العربية الجديدة في مجال الكتابة.

*** تشكل مساهماتك الفكرية والنقدية محاولة تأسيس مشروع أيديولوجي نقدي نضالي يدور حول هم تأسيس سيسيولوجيا الثقافة العربية، فلنتحدث عن المؤثرات الفكرية في تكوينك؟**

- كانت الكتابات المصرية والعربية رافدا مهما في تكوين أفكاري، وكذلك كانت هناك روافد غربية، من أهم هذه الروافد كان كتاب (الرواية والشعب) لرالف فوكس، وكتاب (الماركسية والشعر) لجورج طومسون، وثلاثة كتب لكريستوفر كودويل هي (دراسات في ثقافة تحتضر) و(دراسات جديدة في ثقافات محتضرة)، و(الوهم والواقع).

وكان لويس عوض على وجه التحديد هو الذي أعطاني هذه الكتب الثلاثة بالإضافة لكتاب لأحد النقاد الإنجليز عن (كريستوفر كودويل) عنوانه (وظيفة الأدب) وكان الناقد الذي احتل حيزا كبيرا من تفكيري هو (ديموند وليمز) وقتها بعد (تري إيجلتون)، كذلك كان للمترجمات الروسية والفرنسية إلى العربية فضل كبير في هذا التكوين وخاصة كتابا فرنسيا نقله إلى العربية محمد مفيد الشوباشي لجوتيه، وما كانت تنشره دار التقدم، وموسكو من بعض المطبوعات في الإنجليزية لناقد مهم هو - برميلوف الذي قرأت له كتابين أحدهما عن تشيخوف والآخر عن دوستويفسكي، ولقد نقل الكتاب الأول إلى العربية عبد القادر القط، ثم كانت هناك مجلات شهرية وأخرى فصلية كمجلة الأدب السوفييتي، والمجلة المجرية، وبالطبع كان لسوريا ولبنان فضل في ترجمة العديد من الكتب النظرية والتطبيقية سواء في النقد الأدبي أو في الفلسفة وعلم الجمال، وعن هذه العواصم قرأت لأول مرة عن أفكار لينين، ويلنجانوف، وبعض الشذرات لماركس وانجلز حول الأدب والفن.

وفي الأدب كانت النصوص الإبداعية هي التي تشبعني وتلبي الكثير من احتياجاتي التي استجابت لها نماذج فذة في الرواية والشعر خصوصا. ثم دعني أقل لك إن الماركسية لم تكن وحدها التي شكلت كياني الفكري أو النقدي فقد هداني لويس عوض أيضا إلى مؤلفات ضخمة بالغة الأهمية والاستثناء تؤرخ للنقد الأدبي العالمي والإنجليزي على وجه التحديد، ولعلها المرة الأولى التي أقول فيها إنني كنت تلميذا مباشرا للويس عوض في معهد خاص أقامه في الزمالك لتحضير الطلاب للالتحاق بالجامعات الإنجليزية، تلك فترة كان يفكر فيها جديا في اعتزال العمل العام، وفي هذا المعهد مع آخرين قرأت معه شكسبير كاملا، ودرست المجلدات الأربعة في تاريخ النقد الحديث لرينيه ويلك، صاحب الكتاب المشهور عن نظرية الأدب بالاشتراك مع أوستن، كذلك درست المجلدين اللذين وضعهما (اونكنز) مؤرخ النقد الإنجليزي الشهير، وكان لويس عوض يعلمنا بواسطة النصوص، مراحل تطور النقد الأدبي في العالم من اليونان إلى ماتيو ارنولد وكوليردج وت. إس إليوت، وفهمنا كل ذلك فهما مغايرا للفهم الذي كان قد انتشر في كتابات رشاد رشدي.

أما الذي علمني ودربني على العودة إلى النصوص الأصلية في معظم ما قرأت فقد كان سلامة موسى بشكل مباشر وشكري عياد بطريق غير مباشر.

وسوف تدهش للمقارنة التالية، فإن القدر اليسير الذي علمني إياه في السابعة من عمري الشيخ حافظ ولا أتذكر بقية اسمه في المدرسة الإنجليزية التي تتلمذت فيها في طفولتي وصباي، وكان المدرس المصري الوحيد، وكذلك القدر اليسير الذي تعلمته من أستاذي محمد الفيشاوي في مرحلة تالية من الأدب العربي لا يقارن بالقدر العظيم من كتب التراث العربي والإسلامي الذي تلقيته من مكتبة سلامة موسى الخاصة، هذه المكتبة الباهرة التي كان يصر على أن أقرأ فيها النصوص الكاملة، للجاحظ والغزالي وابن رشد والطبري... إلخ.



هذا هو التأثير الأول لسلامة موسى في تكويني، إنه عودني على قراءة النصوص الصعبة في التراث، أما أفكاره عن الاشتراكية والعلم والتصنيع وحرية المرأة فقد ساهمت بالطبع في تنشيطي الذهني وتكويني العقلي، وخصوصا الجانب النفسي، من هذا التكوين، أي أن الأمر لم يكن بالنسبة لعلاقتي بسلامة موسى مجرد معلومات جديدة عن فرويد، وأدلر، ويونج وتولستوي ونيتشه وشو وويلز، وإنما كيفية تحويل هذه المعلومات إلى خبرة حية ومزاج عقلي، وربما كان من المفيد هنا أن أشير إلى طفولتي حيث لم يكن في بيتنا حينما بدأت الوعي الطفولي كتاب واحد غير الكتاب المقدس.

## أصدقاء الطفولة

*** ولكن عشق اللغة والأدب يتسرب دائماً إلى النفس في مرحلة الطفولة المبكرة.. كيف تلقيت سحر الكلمات الأولى وهل كان للثقافة الإسلامية تأثير في ذلك الأمر؟**

ـ لذلك فإنني مدين للأبد إلى المدرسة الإنجليزية في مدينة منوف التي ألحقني بها أبي أنا وإخوتي، وقد زاملت فيها منذ الصغر الطالب الكسول والمحب للأوراق البيضاء يسرقها منا ويشخبط فيها كيفما شاء في أثناء الحصص وفي الفسحة وفي كل مكان والذي كان اسمه «جورج عبد المسيح بشاي» والذي عرفه العالم فيما بعد بـ «جورج البهجوري» كذلك زاملت المخرج الفنان ألفريد ميخائيل الذي عرف فيما بعد أنه أحد أكبر فناني العرائس. في هذه المدرسة تعلمت وعشقت الأدب والثقافة بشكل عام، وذهب الشيخ حافظ في أحد الأيام إلى أبي ليقول له إنني أريد أن أعطي ابنك درساً خصوصياً في اللغة العربية، فانزعج أبي انزعاجا شديدا ظنا منه أنني ضعيف في هذه المادة، ولكن الشيخ حافظ فاجأه بأنني على قدر من النضج في تلقي اللغة العربية، وهو يريد أن يستثمر ذلك في تقويتي، وسمح أبي لي بالذهاب إلى بيت الشيخ حافظ، فدرست القرآن على يديه قراءة وتدوينا، وحفظته تماما عن ظهر قلب، وكنت لا أزال في السابعة من عمري، لم أكن أفهم بطبيعة الحال الكثير من المعاني، ولكن شيئا فشيئا وبهذه الرعاية المتحمسة لتربيتي اللغوية، أمكن أن أدرس معه أيضا كتابا يسمى المنتخب العربي، وكان يدرس هذا الكتاب في ذلك الوقت للمدارس الثانوية، ولكنه أصر على أن أدرسه وأحفظ الكثير من نصوصه الصعبة. من حسن حظي آنذاك.. في تلك المرحلة أنني صادقت صبيا من عمري في مدرسة المساعي المشكورة، وهي المدرسة التي كان يأتي تلامذتها في المناسبات الوطنية ليلقوا بالطوب على المدرسة الإنجليزية ليخرجوا منها فننضم إلى المظاهرات التي يقودونها، وذات يوم طلب مني صديقي التلميذ الصغير أن آتي معه لأخطب في مدرسته بمناسبة مولد النبي، وكانت هذه المرة الأولى التي أتصور فيها نفسي خطيبا، وما اتذكره أن كلامي وحماسي لقي استحسانا جاء من التلاميذ والأساتذة، وتوطدت علاقة الصداقة بيني وبين هذا التلميذ الذي كان أحد جيراننا يعيش مع عائلته بالقرب منا، وبالطبع كان هذا الصديق أقدر مني في اللغة العربية والتاريخ، تاريخ مصر بالذات وكل المواد التي كنا محرومين منها في المدرسة الإنجليزية، وكان يأتي بكتبه فأقرؤها معه، ويحرضني على ترجمة بعض القصص الإنجليزية ويصوب لي أخطاء اللغة ويشرح لي كل ما يغمض علي، كان تلميذا غاية في الهدوء والرصانة وأكبر من سنه، وحين دخل الجامعة بعد نجاحه في التوجيهية دخل قسم الفلسفة، فظلت علاقتنا الوطيدة مستمرة، حيث كان يحضر لي المؤلفات والمحاضرات في الصيف وكنت أستذكرها منه تماما، وكان هذا التلميذ أيضا هو أول من أعطاني كتابا في الإنجليزية عن الاشتراكية، وهو الآن الكاتب الشهير «مكرم محمد أحمد» رئيس مجلس إدارة دار الهلال.

وفي ذلك الوقت البعيد أيضا، كان والد الدكتور لبيب شقير الذي عرفناه رئيسا للبرلمان في الفترة الناصرية، صاحب مكتبة في الشارع الرئيسي من مدينة منوف وعلى باب هذه المكتبة، تعرفت أيضا صبيا في مثل عمري، شديد الحياء، ولكنه صاحب تأثير مهم

في حياتي، لأنه كان تلميذا مدمنا للقراءة في جميع ميادين المعرفة وفوق سطح بيته في إحدي قرى المنوفية، قرأت معه كل أعداد مجلة الرسالة، والثقافة، وكل شعر محمود حسن إسماعيل وكتب مصطفي صادق الرافعي، وكتبا أخرى لا أذكرها تدور حول أسرار اللغة العربية، وقد ارتبط هذا التلميذ الذي يأتي إلى منوف يوميا ليتلقى العلم في إحدى مدارسها الأميرية بأسرتي ارتباطا شخصيا عميقا، حتى أصبح واحدا منا، وقد أطلعني ذات يوم على شيء يشبه الشعر المنثور عنوانه (مع ولدي في مهده) وشيء آخر عنوانه «أنشودة السلام» فتجرأت وكتبت تعليقا على ما كتب ورشحته في هذا التعليق لنيل جائزة نوبل، وقد عرفت مصر والعالم العربي هذا الصديق القديم باسم محمد عفيفي مطر، وبين الشيخ حافظ والأستاذ محمود الفيشاوي الذي فاجأني منذ أشهر أنه على قيد الحياة، ويتابعني فخورا ومعتزا، وبين مكرم محمد أحمد، ومحمد عفيفي مطر، تنبهت بوحي منهم جميعاً وتحريض مستمر إلى أني استطيع أن أكتب شيئا، وأتذكر أنني في تلك المرحلة كتبت أشعاراً وقصصا كثيرة، ولكن أول ما نشر لي على الإطلاق، هو مقال بعنوان (أين دجال الفكر؟) نشرته لي مجلة تصدر في كفر الزيات في سبتمبر ١٩٥٢ ولم يكن مضى على قيام الثورة أكثر من ثلاثة أشهر، أما أول ما نشر لي في مجلة كبيرة وقاهرية فقد كان تعليقا على أول قصيدة ينشرها شخص من تلا، عنوانها (بكاء للأبد) إنها أول قصيدة لأحمد عبد المعطي حجازي، وهو أول مقال نقدي ينشر في عددين متتاليين من مجلة الرسالة الجديدة عام ١٩٥٤ ومن الثقافة الفلسفية والتاريخ عشقت إلى حد الوله النقد الأدبي، كنت أقرؤه وخاصة النقد الإنجليزي بمتعة كبيرة، وفي الأعمال النقدية الكبيرة وجدتني أمام أعمال فنية بكل معاني الفن، فكتبت دراسة اعتبرتها نقطة تحول في محاولاتي للكتابة،

كانت هذه الدراسة عن رواية (زقاق المدق) لنجيب محفوظ، وظللت أكتب الشعر والقصة القصيرة حتى عام ١٩٥٦، حيث اتخذت قرارا بالانتحار الفني فتوقفت عن كتابة هذه الأشكال والألوان الشعرية والقصصية، بل والتمثيلية إلى أن زارني المرحوم غسان كنفاني، بعد ثماني سنوات، ربما، فأخذها ونشر معظمها في مجلة «الحرية» التي كان يرأس تحريرها في بيروت، ولكني بالفعل توقفت عن هذا النوع من الإنتاج الأدبي، وكثيرا ما أعاني الكبت المتعمد لأفكار فنية عديدة، ولم أعد إلى ممارسة ما تسمونه الإبداع، هذا المصطلح الذي أنفر منه كثيرا إلا في نص كتبته في أوائل الثمانينيات، ووقع عليه النشر دون إذن باسم رواية هي (مواويل الليلة الكبيرة) وإن كنت لا أزال اعتبره نصا فقط ولا أتحمس لإطلاق صفة الرواية عليه.

## منهج سسيولوجيا المعرفة

*** هل كانت دراسات المرحلة الأولى عن سلامة موسى ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم حتى قضايا الانتماء والجنس هي إرهاصات لما تبلور بعد ذلك في كتاب «النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث» عن تشكل منهج علم اجتماع المعرفة أو سسيولوجيا الثقافة؟**

- لا أستطيع أن أقول بطبيعة الحال إن سسيولوجية المعرفة بمناهجها المختلفة كانت أمامي حين شرعت في الكتابة عن سلامة موسى أو عن المنتمي لنجيب محفوظ أو قضية الجنس في الأدب أواخر الخمسينيات، وإن ظهرت هذه المؤلفات عام ١٩٦٢ لأنني كنت معتقلا منذ عام ١٩٦٠. وكنت قد كتبت في نفس العام دراستي «الواقعية الاشتراكية في النقد العربي الحديث»، وأعتقد أنها كانت دراسة مبكرة غاية التبكير في نقد الماركسية الذادانوفية التي سادت في نقدنا المصري والعربي، وقد كنت في السجن عندما نشرت هذه الدراسة في عدد يناير ١٩٦١ من مجلة الآداب اللبنانية، وعلق عليها في العدد



التالي الكاتب السوري شاكر مصطفى في باب (قرأت العدد الماضي) قائلا إنه بإزاء خطوط لنظرية جديدة في النقد الأدبي، وأعتقد أنه قد بالغ في هذا الوصف، ولكن البحث على أية حال كان شيئا مختلفا عن النقد السائد بمدرسته الفن للفن والواقعية الاشتراكية. ومن العلوم الإنسانية التي عنيت بها في صباي عناية فائقة كانت الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وقد ذكرت لك أن زميلي مكرم محمد أحمد كان يدرس هذه المواد في الجامعة، حيث التحق بقسم الفلسفة، وفي الصيف من كل عام يأتي بكتبه ومراجعه ومحاضراته التي أستذكرها جيدا، ثم يقدم لي أوراق الأسئلة في امتحانات كل عام، وكنت أحقق في هذه الدراسة الحرة نجاحا واضحا لشغفي الشديد بهذه المواد الثلاث، هكذا تستطيع أن تضيف إلى البنية المنهجية الأساسية، الماركسية انشغالا راسخا بالأدب الإنجليزي والفلسفة والاجتماع وعلم النفس، هذه العجينة هيأت لي فيما بعد انجذابا إلى دراسة علم اجتماع المعرفة، حتى ذهبت إلى فرنسا ـ وخاصة علم الاجتماع الثقافي ـ لأن علم اجتماع المعرفة هو الأم الشرعية لمجموعة من العلوم الاجتماعية الأخرى التي تبحث عن البنيات الذهنية والآليات الفكرية الجديدة، وعنه انبثق علم الاجتماع الثقافي وعلم اجتماع اللغة وعلم اجتماع الأديان وعلم اجتماع الأدب وغيرها. وكان البروفيسور (جاك بيرك) عام ١٩٦٩ في زيارته لمصر قد ألح على ضرورة استكمال دراساتي المنهجية للحصول على الدكتوراة، واقترح أن أبدأ منذ البداية كطالب وليس كأديب معروف، ومن ثم فقد سجل اسمي في المعهد العالي للدراسات الاجتماعية، وهو جامعة كبرى لا تقل عن السوربون، وكان يتولى فيها قسم الدراسات الخاصة بالعالم الإسلامي، وهو قسم لا يعنى فحسب بالتاريخ أو الجغرافيا، وإنما هو في الأساس قسم للدراسات السسيولوجية، وكان لابد لي من أن أتوجه شخصيا إلى باريس، لمعرفة المواد التي سأدرسها واختيار الموضوع تحت إشراف «جاك بيرك» ومعاونيه من الأساتذة المتخصصين، وقد اخترت موضوعا للدبلوم هو علاقة التجديد في الرواية العربية بهزيمة ٦٧، وبدأت أدرس كل ما يتصل بعلم اجتماع المعرفة وعلم الاجتماع الثقافي، وخصوصا لوسيان جولدمان الذي كانت زوجته ولاتزال (السيدة آن جولدمان) تعمل في هذه الجامعة، ولكن في علم اجتماع السينما، كذلك (رولان بارت) الذي لم يكن يدرس في هذه الجامعة بل كان أستاذا في السوربون قبل أن يتولى منصبه في الكوليج دي فرانس، وكذلك عنيت بدراسة جورفييش وميشيل دارفا وغيرهما من الذين أضاءوا لي الطريق بأعمالهم، أو بالتعارف الشخصي في الجامعة، وقد أتيح لي حين سافرت إلى لبنان عام ١٩٧٣، وكنت ممنوعا من السفر بشكل دائم حتى حين كان يصدر لي قرار وزاري من محمد فايق وزير الإعلام آنذاك للسفر إلى الهند أو حتى حين كان يوسف السباعي نفسه يختارني ضمن أحد الوفود إلى موسكو أو بيروت أو دمشق كانت المباحث تعترض على اسمي، بل إنها اعترضت على منصب جامعي في هولندا أتاني به البروفيسور (دوجمان) عام ١٩٦٦ للتدريس في جامعة ليدن، التي كان يرأس قسم الأدب العربي فيها، وبعد اعتراض المباحث اعتقلت مرة أخرى وفي نفس هذا العام ١٩٦٦ ولم يقدر لي السفر إلا عام ١٩٦٩ في وفد مصر للاشتراك في مؤتمر الأدباء العرب المنعقد في بغداد. وبعد أن انتهى هذا المؤتمر انتهزت الفرصة وتوجهت إلى دمشق وبيروت ومنها إلى باريس لاتخاذ الإجراءات الضرورية في موضوع الجامعة، وحين عدت إلى القاهرة أوفدتني مجلة الطليعة مرة أخرى إلى أوربا الشرقية، ومن هناك توجهت من جديد إلى فرنسا لمتابعة الإجراءات وكان ذلك عام ١٩٧٠، ثم اشتعلت مصر بعد رحيل جمال عبد الناصر، وما سمي بعام الضباب والانقلاب الذي قاده السادات وحركة الطلاب والمثقفين التي شارك فيها الأدباء والفنانون وكنت واحدا منهم، إلى أن قام النظام الساداتي أول عام ٧٣ بتصفية حسابه مع المثقفين من كتاب وصحفيين فأنشأ لجنة النظام في الاتحاد الاشتراكي التي قامت بفصلنا جميعا من أعمالنا، لأن الفصل من التنظيم

السياسي يتبعه بالضرورة الفصل من العمل، وكنت قد تسلمت دعوة من (كارل براون) من جامعة برونستون وأخرى من (هنري مود) من جامعة ميتشجان وثالثة من (مالكلم كير) من جامعة بركلي بالولايات المتحدة الأمريكية لإلقاء مجموعة من المحاضرات في الجامعات الثلاث، ولكن برغم هذه الدعوات فقد رفضت السفارة الأمريكية سفري إلى أمريكا وكنت قد حصلت على تأشيرة الخروج فأردت استغلالها وسافرت إلى بيروت، وهناك في مكتبة الجامعة الأمريكية والجامعة اليسوعية كم هائل من المراجع التي أوصوني بدراستها في باريس، ولما حصلت على دبلوم المعهد العالي للدراسات الاجتماعية تقدمت إلى السوربون للحصول على دبلوم الدراسات العليا المعمقة الذي يؤهل بدوره للحصول على الدكتوراة، فهو بمقام الماجستير في بلادنا، هنا كنت قد استوعبت وتمثلت إلى حد كبير العلوم اللغوية الجديدة وخصوصا السيمينولوجية، الذي ندعوه بعلم الإرشادات أو العلامات.

## محاولات للتأصيل

*** في أعمالكم النقدية الأخيرة لتحليل وتفسير الفكر الأدبي والاجتماعي والسياسي العربي تبدى محاولة لتأصيل منهجية لعلم اجتماع المعرفة وعلم اجتماع الأدب بخصوصية عربية.. هل يمكن إعطاء تحديد لهذه المحاولة؟**

- في الحقيقة أن تقسيم علم الاجتماع في العصور الحديثة إلى علوم اجتماعية متعددة هو اعتراف بمدى المعرفة الحديثة وعمقها، ولم يكن من الممكن أن نظل بمعزل عن هذه المتغيرات الحثيثة وما فعلته ليس أكثر من الارتقاء بنوع المعرفة التي تتغذى عليها حتى في الطب والعلوم الطبيعية، ليس من الممكن الاستمرار في المعرفة بغير علم الاجتماع الذي يمثل الكثير بالنسبة للآداب والفنون.

## نحن واللجوء للغرب

*** هل يمكن إلقاء نظرة على المشهد النقدي العربي خاصة بعد محاولة تسييد المناهج الشكلانية كالبنيوية والتفكيكية والتوليدية وعلوم الخطاب والنص وحصاد المناهج الاجتماعية والتاريخية والماركسية؟**

- وقع في بداية السبعينيات نوع من اللجوء الحضاري للغرب، فقد كانت الثورة المضادة شاملة وليست سياسية أو اقتصادية فقط وإنما كانت ثقافية في الأساس، ولذلك كان الأمر - اضطرارا أو اختيارا - الفرار من أحضان التجربة الوطنية إلى أحضان الغرب في سياقه الأخير، إن الألسنية و البنيوية يتخذان طريقهما النهائي إلى الاحتضار في معهدهما الأصلي. ومن ثم كان الأخذ عن الفرنسيين نوعا من محاولة إعادة الإنتاج التي لا سبيل إلى إحيائها في موطنها، وكيف تحيا في مواطن جديدة، لذلك كانت المحاولات العربية - التي عبرت عنها مجلة «فصول» مثلا - عرجاء عجوزا مشوهة تستعين بأدوات تجميل غيرها فيأتي المشهد الأخير مضحكا.

## الإبداع الروائي والشعري

*** في السنوات الأخيرة تحقق قدر وإنجاز مهم في الإبداع الروائي العربي، في حين دخل الإبداع الشعري في طريق مسدود، فهل ثمة تفسير نقدي لديكم لذلك مع ملاحظة صمتك عن متابعة إشكاليات وقضايا هذا الإبداع الروائي؟**

- في الشعر هناك إشكاليات بنيوية خاصة به، ذلك أن ثورته سبقت ثورة الرواية والقصة القصيرة بنحو عشرين عاما فمنذ بداية الخمسينيات، وقبل ذلك، كان الشعر العربي الحديث في حالة ثورة وغليان لم تعرفهما الرواية و القصة القصيرة بمثل هذه الدرجة، فإن الزمن كان قد أقبل بالمزيد من المتغيرات الفكرية والجمالية بحيث لا يستطيع الروائي العربي أو النامي أن يتجاهلها، ولكنها في نفس الوقت تطرح بعض مشكلات التغيير ذاته الذي وقع ويقع بالقص الحديث وفي الواقع على السواء.

# قـــالـــوا...

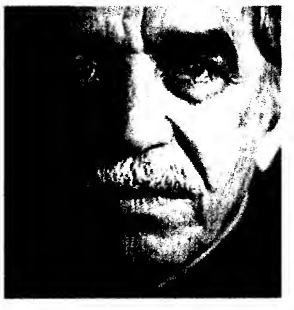

عبد العزيز الصقر

أسأل الله أن يحفظ الكويت وشعبها ويؤيد أميرها وولي عهـدهـا ويأذن بفرج قريب لأسراها.

**عبد العزيز الصقر**
**رئيس مجلس إدارة غرفة تجارة وصناعة الكويت السابق**

التصور الذكوري والفهم الخاطىء للدين وراء تشدد التيار الديني تجاه حقوق المرأة.

**د. أحمد البغدادي ـ كاتب كويتي**


جابريل جارسيا ماركيز

مادام اللبنانيون مع حزب الله فسوف تتكرر مذبـحـة «قـانـا» مـرة أخرى.

**أمنون شاحاك ـ رئيس الأركان الإسرائيلي**

لا أستطيع أن أرشح نفسي لرئاسة كولومبيا فسوف أكون أسوأ رئيس ممكن.

**جابريل جارسيا ماركيز**

عندما صافحت «شامير» أحسست بأنني انتصرت. وانتصرت مرة أخرى عندما تبرعت بقيمة الجائزة التي قدمها لي لأطفال الانتـفـاضـة الفلسطينية.

**الكاتب الراحل إميل حبيبي**


نزار قباني

أنا مع حرية الشعر بلا حدود.. على شرط ألا تكون هذه الحـريـة عملاً تخريبياً تستهدف محو هويتي، وإلغاء تاريخي.

**الشاعر نزار قباني**
**مجلة المصور المصرية**

مطلوب جبهة قوية من السينمائيين العرب للتصدي لبيع السينما، لأن سيطرة إسرائيل على صناعة السينما في المنطقة ستكون كارثة.

**المخرج السينمائي صلاح أبو سيف**


صلاح أبو سيف

لقد سمحنا في الغرب لقلة ضئيلة بأن تضـع الإسـلام فـي صـورة قبيحة.

**هيلاري كلينتون**

إن إسرائيل لا تحارب منطقة معينة في لبنان، أو طائفة معينة، أو حزبـاً، بل تحارب لبنان كله، كونه يشكل المشروع المناقض لمشروعها الصهيوني الهادف إلى بناء دولة عنصرية.

**الشيخ محمد مهدي شمس الدين**
**رئيس المجلس الإسلامي الشعبي الأعلى، لبنان**

أرقام

**بقلم: محمود المراغي**

ثلاث سنوات من عمر الخليج العربي.. ذلك هو موضوع التقرير الذي صدر في منتصف عام ١٩٩٥، واصفا بالأرقام ما جرى في أعوام (٩٢، ٩٣، ٩٤). الأرقام حول التجارة الخارجية، لكن الدلالة تمتد لما هو أبعد من ذلك.. تمتد للسياسة، والجغرافيا، والاقتصاد. تراجعت صادرات دول مجلس التعاون الخليجي - كما تقول منظمة الخليج للاستشارات الصناعية - وكان التراجع مطّردا. كانت الصادرات عام ٩٢: (٩٥,٦) مليار دولار، فأصبحت (٩٤,٤) ثم (٨٩,٦) مليار دولار في العامين التاليين.

الانخفاض طبيعي، فانخفاض أسعار النفط يترك بصماته بالضرورة.. والانكماش العالمي الذي ساد لعدة سنوات يعني استهلاكا أقل من النفط.

قلت حصيلة النفط، وهو أمر مستمر منذ الثمانينيات، وبعد أن انتهت الحقبة النفطية التي اقترب فيها سعر البرميل من أربعين دولاراً. الانخفاض كان متوقعا، والتوقع أصبح متحققا. الجديد، هو ما حدث في الجانب الآخر من التجارة الخارجية لدول مجلس التعاون الخليجي.. أعني الواردات. تقول الأرقام إنه في عام ٩٤ - وهو آخر أعوام المقارنة - بلغت نسبة الانخفاض في الواردات ثلاثة أضعاف نسبة الانخفاض في الصادرات. انخفضت الأخيرة بنسبة (٥٪).. وانخفض الاستيراد بنسبة ١٤٪.. أي أنه بينما استمر الطلب مرتفعا نسبيا على صادرات الخليج، أمكن التحكم في الاستيراد وبدرجة أعلى، وعلى غير ما كان متوقعا. خلال السبعينيات توقع البنك الدولي في تقرير له أن تنتهي الثورة التنموية التي صاحبت ارتفاع أسعار النفط، وأن يعود هيكل الطلب في الخليج إلى الانكماش بعد تحقيق درجة عالية من التشبع في مشروعات الخدمات والبنية الأساسية، وبالفعل شهدت دول الخليج خططا طموحا خلال السبعينيات، فجرى التوسع في المرافق والخدمات وتحولت أكثر من دولة إلى ما تسمى دولة الرفاهية، وزادت التزامات الحكومات تجاه المواطنين.. لكن توقع البنك الدولي لم يتحقق بهذه السرعة فيحدث التشبع، وينكمش الطلب على كل ماهو أجنبي ووارد الخارج.. من سلع أو عمالة أجنبية.

كانت عوائد النفط كافية لأن تستمر عجلة البناء والتوسع الاقتصادي برغم أي شيء.

ولكن، وفي وقت لاحق، ومع انخفاض أسعار النفط بدأت التوقعات في التحقق.. وباتت المعضلة كيف يمكن الانكماش بعد توسع؟.. كيف تستطيع الدول أن تقوم بتخفيض نفقاتها العامة.. وإذا كان ذلك ممكنا في مجال الاستثمار الجديد، فهل يمكن أن يتم في مجال آخر مثل الأجور ودخول العاملين ومصروفات تسيير الدولة؟

السؤال ظل قائما في الثمانينيات.. لكن أصبح أكثر إلحاحا في التسعينيات حين وقعت حرب الخليج الثانية وبدأت بلدان المنطقة في زيادة نفقات الدفاع والتسليح وبما جعل الموازنات العامة أمام تحد حقيقي: إيرادات أقل، ونفقات أكثر. شهدت أكثر من دولة عجزا على المستوى القومي بين الدخل والاستهلاك العام.. وشهدت أكثر من دولة عجزا على مستوى ميزانية الدولة فلجأت إلى الاقتراض مع خطوات لترشيد الإنفاق وتدبير موارد جديدة. كانت هناك بالضرورة سياسة مالية مختلفة، لكن المؤشر كان: أي أثر يحدثه ذلك في مجمل الاستهلاك ومجمل الاستثمار ومجمل التجارة الخارجية؟.. إلى أي حد تتحقق المرونة فتستجيب اقتصادات الخليج للظروف الطارئة التي بدأت بحرب النفط، وانتهت

بحرب العراق؟و . . لأن التجارة الخارجية هي مرآة الاقتصاد . . هي طرفه الأخير الذي ينبئنا عن أحوال الإنتاج والاستهلاك والفائض أو العجز على المستوى القومي، لأن الأمر كذلك فقد باتت أرقام الصادرات والواردات ذات دلالة كبيرة . الأرقام الأخيرة ـ وحتى عام ٩٤ ـ تشير إلى أن طبيعة الاقتصاد الخليجي، برغم التسهيلات المتبادلة، لم تستطع أن تقفز بحجم التجارة بين دول الخليج . ، وفيما يسميه رجال الاقتصاد «التجارة البينية» . . فظلت الصادرات الخليجية المتجهة للخليج في حدود (٥, ٦٪) من مجمل صادرات دول مجلس التعاون . . بينما زادت الواردات على تلك النسبة بدرجة ضئيلة . . والسبب واضح وهو أن الإنتاج الرئيسي ـ وهو النفط ومنتجاته ـ لا يصلح سلعة تبادلية بين دول المجموعة، فكلها منتج لنفس الشيء!

ذات السبب ــ وهو نمط الإنتاج واعتماد الاقتصاد على نشاط رئيسي واحد ــ كان هو المؤشر في التعامل مع الآخرين . اليابان تأتي على رأس قائمة المستوردين، وتحتل وحدها (١, ٢٤٪) من صادرات المنطقة عام ٩٤، وتليها السوق الأوربية بنسبة (٣, ١٢٪) . . ثم الولايات المتحدة بنسبة (٣, ١١٪) . وهكذا حكم النفط كل شيء فجاءت اليابان أولا، والتي يتوقع أن يزيد اعتمادها على نفط الخليج بعد تحول الصين ودول آسيوية أخرى من مصدر إلى مستورد للنفط .

ثم، وبعد اليابان تأتي أوربا . كثاني أكبر مستهلك لنفط الخليج . . ثم الولايات المتحدة التي تملك مصادر أكبر من الطاقة والاعتماد على الذات . في الاستيراد، اختلف الأمر . فتحكمت طبيعة الواردات، وجغرافيا الأسواق . . فأتت أوربا على رأس القائمة . وبنسبة عالية تقترب من ثلث واردات الخليج . . و . . تلتها الولايات المتحدة (٣, ١٣٪) . . ثم اليابان (١, ١١٪) .

ثلاثة عملاء رئيسيون، ثم يأتي ما تسميه التقارير «بقية دول العالم» التي يرتفع نصيبها في الاستيراد من الخليج إلى (٧, ٤٦٪) عام ٩٤ . . بينما يهبط ذلك النصيب عندما يشتري الخليج احتياجاته من الخارج فيكتفي بشراء ٣٦٪ من هذه الاحتياجات . . من دول أخرى، غير السوق الأوربية، واليابانية، والأمريكية .

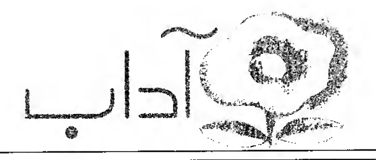
## ملاحظات أساسية

هنا يمكن أن نلاحظ : أولا، إن تراجع عوائد النفط مستمر طيلة السنوات الثلاث (٩٢، ٩٣، ٩٤) .

ثانيا، وبالرغم من ذلك فإن انخفاض الصادرات يتم بنسبة أقل من انخفاض الواردات . . والميزان لصالح الخليج فقد بلغت صادرات المنطقة ـ عام ٩٤ ـ (٥, ٨٩) مليار دولار . . بينما بلغت وارداته (٨, ٦٤) مليار . الفائض كبير، ومع ذلك فإن تخفيض الواردات مستمر، وبما يعني أن سياسات جديدة قد جرى اتباعها وساعدت على تحقيق مرونة الطلب، فتم تخفيضه دون آلام كبيرة . ربما ساعد على ذلك انكماش الاستثمارات الحكومية الجديدة، وربما ساعد في بعض البلدان انخفاض الاستهلاك والرغبة في الشراء، بسبب تراجع أعداد الوافدين، أو بسبب القلق والميل للادخار والاستعداد لأي طوارىء . ميزانية الأسرة اختلفت أولوياتها، فانعكس ذلك على ميزانية الدولة وميزانها التجاري . بطبيعة الحال، فإن ميزان المدفوعات قد يكون شيئا مختلفا، لأن الفائض التجاري قد يتجه لسداد التزامات غير منظورة مثل الديون والقروض والأقساط والفوائد .

و . . تبقى الملاحظة الثالثة وهي أن العلاقات الاقتصادية الخارجية لا تسير بالضرورة بالتوازي مع العلاقات السياسية والأمنية . لقد احتلت الولايات المتحدة الأمريكية المكان الأول في العلاقات السياسية والأمنية مع دول الخليج في التسعينيات لكنها لم تحتل نفس المكان في المبادلات التجارية والتي قد تشمل أيضا : معدات الدفاع . الاقتصاد يحكمه النفط . . وتحكمه الجغرافيا، ومن هنا تحتل كل من اليابان وأوربا ذلك المكان المتميز . ولكن، وفي كل الأحوال فإن علينا أن نقول : إن شركاء ثلاثة لدول الخليج . . متنافسون أشد التنافس، متعاونون أشد التعاون . . وإن الخليج ـ وعلى غير المتوقع ـ استطاع أن يعيد النظر في حجم إنفاقه وأولويات هذا الإنفاق . الأزمات صنعت الكثير، لكن الاستجابة كانت قائمة . يقول المؤرخ العالمي توينبي إن ما يصنع التاريخ هو التحدي والاستجابة . وقد كان ما جرى في الخليج أخيرا نوعا من الاستجابة الضرورية، ولكن . . ماذا عن المستقبل . . واستراتيجياته؟ تلك هي القضية .






# على هامش كتاب

بقلم: الدكتور جابر عصفور

ما كان يمكن لكتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين إلا أن يستقبل استقبالا عدائيا من مجموعات قرائية مختلفة، تلقت الكتاب متربصة مترصدة، مستفزة سلفا، لأسباب متعددة وعوامل متباينة. أول هذه الأسباب والعوامل سياسي يرتبط بالخصومات الحزبية التي اضطر إليها طه حسين، منذ أن انحاز إلى الأقلية الأرستقراطية التي انطوت على أفكار الليبرالية الأوربية، ووجد فيها ملاذه السياسي الاجتماعي، وحلمه الثقافي، فانضم إليها في المطالبة باسترداد حقوق الأمة الطبيعية: الحرية والدستور، في مواجهة السلطة المطلقة للحاكم والسلطة الفعلية للمحتل، ثم انضم إليها في صراعها الذي قاده عدلي يكن، في مواجهة المد الجماهيري المتدافع لأبناء الطبقة الوسطى الذين التفوا حول زعيمهم سعد زغلول.

وقد تحدد لطه حسين موقعه في هذا الصراع منذ سنوات بعيدة، تبدأ باحتضان لطفي السيد له في صدامه الأول مع الأزهر (١٩٠٨) وتقديمه إلى صفوة الأفندية في «حزب الأمة» وإلى قراء الأمة في «الجريدة». ويتواصل هذا الاحتضان طوال مراحل الدرس في الجامعة الأهلية في مصر (١٩٠٨ - ١٩١٤) وفي جامعة مونبلييه في فرنسا (١٩١٤ - ١٩١٥) وفي إقامته القصيرة بالقاهرة، الإقامة التي اصطدم فيها بأستاذه الشيخ المهدي الذي كاد أن ينجح في فصله من البعثة لولا حماية لطفي السيد وعبدالخالق ثروت، وهي الحماية التي امتدت إلى أيام الدراسة في جامعة باريس (١٩١٥ - ١٩١٩) ولم تنقطع بعد أن عاد طه حسين إلى الوطن، فاستقبله في ميناء الإسكندرية حسن عبدالرازق وكيل حزب الأمة القديم والشقيق الأكبر لعلي عبد الرازق، وكان محافظا للإسكندرية، وأوصله وزوجه إلى القاهرة معززا بالدعم المالي موفورا بالدعم المعنوي. وهناك تلقاه حماته القدامى، ليقدمه إلى الجمهور - حين بدأ التدريس في الجامعة - عبد الخالق ثروت باشا، العقل المدبر للأحرار الدستوريين بعد سنوات قليلة، ووزير الخارجية الذي كان يقوم مقام عدلي ويخلفه في رئاسة الوزارة. وما كان أشد الأثر الذي تركته في نفس طه حسين خطبة التقديم التي قدمه بها عبد الخالق ثروت، بعد أن أجلسه على كرسي الأستاذ، ووقف هو ليعرفه بكلمات التشجيع والتقدير إلى الذين حضروا محاضرته الأولى في الجامعة الأهلية عن تاريخ اليونان القديم.

## أول معيد للجمعة

وظل ع[illegible]ق ثروت وأحمد لطفي السيد أعطف أهل الجامعة على طه حسين، وأكثرهم رعاية له، وأشدهم إلحاحا عليه في ألا تكون المصاعب المادية مهما تشتد صارفة له عما هو فيه من الدرس والجد. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يهدي كتابه الإشكالي الأول «حديث الأربعاء» إلى أستاذه القديم أحمد لطفي السيد الذي ظل يؤدي دوره من وراء ستار في حزب الأحرار الدستوريين، إلى أن أصبح أول مدير للجامعة المصرية، بعد أن أسهم في تحويل الجامعة الأهلية إلى جامعة حكومية، مشترطا في وثيقة الاتفاق مع وزارة المعارف العمومية (في ١٢ ديسمبر ١٩٢٣) إبقاء طه حسين أستاذا للآداب العربية في الجامعة الجديدة التي أصبح أول رئيس لها، بعد صدور المرسوم الملكي بإنشائها في الحادي عشر من آذار (مارس) ١٩٢٥. ولم يكن من قبيل المصادفة، أيضا، أن يهدي طه حسين

**سبعون عاما مرت على صدور كتاب « في الشعر الجاهلي » لطه حسين، الذي اثار ضجة في حياتنا الفكرية لم تهدأ حتى الآن. و«العربي»تقدم بهذه المناسبة قراءة نقدية جديدة لهذا الكتاب وللظروف التي احاطت بصدوره.**



كتابه التالي مباشرة عن الشعر الجاهلي إلى صديقه وراعيه الجديد عبد الخالق ثروت، فكلا الرجلين ظل نموذجا لنسق القيم التي سعى طه حسين إلى تجسيدها وإشاعتها بواسطة كتاباته، وكلا الرجلين ظل يقوم بدور الموجه والراعي السياسي، في أحلك الأزمات، وأهمها أزمة كتاب «في الشعر الجاهلي».

وكان طه حسين قبل هذه الأزمة، وعلى نحو أسهم في توجيه عمليات استقبال كتابه، متورطا إلى أبعد حد في الصراعات الحزبية، خاصة منذ أن تولى عدلي يكن الصديق القديم لأحمد لطفي السيد، ووزير الخارجية من قبل، رئاسة الوزارة في السابع عشر من آذار (مارس) ١٩٢١ لتشكيل وفد مصري للتفاوض على الاستقلال مع الحكومة البريطانية، وهو أمر أدى إلى تصاعد الصدام بين العدليين والسعديين. وقد انغمس طه حسين في هذا الصدام، منذ أن حمله العدليون إلى استقبال زعيمهم الذي عاد محبطا من لندن بعد فشل مفاوضاته مع الإنجليز، فرأى فيه طه حسين «المخفق العظيم» الذي لا بد أن يذهب لاستقباله في محطة القاهرة، صائحا مع الصائحين ليحيي عدلي باشا، ويتعرض بسبب ذلك إلى لعنات السعديين وحجارتهم وعصيهم، فيصيبه الأذى الأول المباشر من أنصار سعد. ولولا أن رفيقه الذي يقوده انعطف به إلى حارة جانبية، ثم نفذ به إلى حيث أمن الحصى والحجارة والشتم، لتعرض لشر كثير فيما يحدثنا في «الأيام».

وبعد أن قدم عدلي يكن استقالته من الوزارة ليخلفه عبد الخالق ثروت الذي تولى الإعداد للدستور، تولى أصدقاؤه تأسيس حزب جديد باسم «الأحرار الدستوريين» لمؤازرة ثروت في وزارته وإعداده للدستور. وتولى رئاسة الحزب الجديد عدلي يكن الذي أصبح نقيضا لسعد زغلول زعيم الأغلبية. وانضم طه حسين إلى الحزب الذي سرعان ما أصدر صحيفة «السياسة» للتعبير عن مصالحه ومبادئه، وأصبح المشرف الأدبي على الصحيفة إلى جانب محمد حسين هيكل (زميله القديم في التلمذة على أحمد لطفي السيد في الجريدة) الذي أصبح رئيسا للتحرير. وفي «السياسة» انطلق صوت طه حسين دارس الأدب إلى جانب صوت طه حسين الكاتب السياسي الذي أصبح أكثر حدة في خصوماته السياسية. وتزايدت هذه الحدة في توقد الصراع بين «العدليين» و«السعديين»، أو بين أنصار «الوفد» و«الأحرار الدستوريين»، وتوهجت كتابات طه

حسين، سواء في دعوته إلى الحرية الليبرالية التي تبناها حماته السياسيون، أو في مطالبته بالدستور الذي عملت وزارة عبد الخالق ثروت على تحقيقه، بواسطة لجنة الثلاثين التي ناصبها سعد زغلول العداء، وأطلق عليها اسم «لجنة الأشقياء»، أو دفاعه عن مواقف الأحرار الدستوريين في عدائهم للنزعة الشعبية للوفد، ونفورهم من تسلط سعد زغلول، وكراهيتهم لأساليبه في إثارة الجماهير التي رأوا فيها نقيض التعقل المستنير. وكان ذلك يعني الانحياز الكامل إلى النموذج السياسي الأرستقراطي الذي جسده عدلي يكن الذي أراد قيادة الجماهير إلى ما ينفعها بواسطة النظام والقانون، أي بواسطة الديمقراطية المنظمة، ومن ثم العداء للنموذج السياسي المقابل الذي تجسد في سعد زغلول، الزعيم الشعبي الذي رأى فيه طه حسين تضخم الاستئثار بما للجماهير من قوة وسلطان، والاستبداد باسم الشعب المضلل، وسلوك السبيل التي تؤدي إلى إكراه الخصوم على الإذعان وتكميم الأفواه وعقد الألسنة.

## نفور مع زعيم الأمة

وأسرف طه حسين في النفور من سعد زغلول، خاصة بعد أن استقر في وعيه أنه النقيض الشعبي الضار للمثقف السياسي الأرستقراطي، الليبرالي على الطريقة الأوربية، النخبوي المستنير الذي وجده في أمثال لطفي السيد وعبد الخالق ثروت وعدلي يكن من «أعيان البلاد وسراتها وأذكيائها» وحماته في الوقت نفسه، وهو النفور الذي ساعد عليه اختلاف الطباع وتجارب شخصية تركت آثارها الغائرة. وكان طه حسين قد بدأ هجومه على زعيم الأمة الذي لم يقتنع قط بزعامته في جريدة «الأهرام» قبل صدور «السياسة»، وواصل الهجوم في «الجهاد»، و«الاستقلال». ولم يتردد كثيرا في الانضمام الحماسي إلى الذين هاجموا سعد بعنف وقسوة على مستويات عدة، تقويضا لسلطة الوفد الشعبية ومكانتها المتزايدة في نفوس الجماهير، فيكتب في «الاتحاد» جريدة الحزب الذي أنشأه الملك فؤاد لمواجهة تضخم النفوذ الوفدي في الحياة السياسية.

وتدافع احتجاج طه حسين على احتكار سعد لإرادة الأمة وطغيانه باسمها. وسعدت الأقلية الأرستقراطية بمقالاته التي كان عنوانها «ويل للأمة من سعد»، وأعجبت ببلاغته التي أقسم فيها على طغيان سعد وأصحابه، وعلى مطالبته كل مصري، في جريدة السياسة، أن ينهض للطائفة الباغية الطاغية التي يتزعمها سعد، فيردها إلى طورها، وينزلها منزلتها، ويأخذها بالإذعان لكلمة الحق والخضوع لأمر الجماعة والنزول على إرادة الوطن. وكان ذلك قبل أقل من عامين على صدور كتابه «في الشعر الجاهلي». وبالقدر نفسه استفزت هذه المقالات الجماهير الوفدية المتزايدة، واستعدت طوائف السعديين الذين انتشروا في قطاعات الزرّاع والتجار والموظفين في المدن والقرى، وبرعوا في تدبيج «العرائض الشعبية»، و«البرقيات» الحماسية المرسلة إلى أولي الأمر، وجمع التوقيعات التي تؤكد الإجماع الشعبي لمطالب «العرائض» و«البرقيات». وكانت تلك «العرائض» و«البرقيات» أحد الأسلحة الموجعة التي استخدمتها المجموعات الوفدية للثأر من قلم طه حسين الذي سخر من زعيمها، وظل يواليه الهجوم اللاذع في جريدة «السياسة» لسنوات، وذلك إلى الحد الذي دفع سعد زغلول، حين ترأس الوزارة، إلى أن يطلب من النائب العام التحقيق مع طه حسين بتهمة «إهانة رئيس الوزراء».

## هجوم باسم الدين

ويبدو أن هذا السلاح بالذات تلقفته المجموعات الأصولية المتحدثة باسم الدين من الوفديين، واستغلته هي الأخرى في الهجوم على طه حسين بعد أن أصدر كتابه الذي اتهموه بالإساءة إلى الدين. ولم يكن من قبيل المصادفة أن أولى الجرائد التي بادرت بالهجوم على كتاب طه حسين، بعد صدوره بأقل من أسبوعين، هي جريدة «كوكب الشرق» الوفدية، الجريدة التي فتحت صفحاتها لكل المجموعات التقليدية التي تولت تكفير طه حسين، كما فتحت صفحاتها لبرقيات الاحتجاج وعرائض التكفير المنهمرة من مناطق التجمع الوفدية، ونشرها يوميا، عقابا لطه حسين على ما سلف منه في حق الوفد وزعيمه. وانضمت إلى «كوكب الشرق» في هذا الهجوم جريدة «البلاغ» الوفدية العالية الصوت، الواسعة التأثير في ذلك الوقت. ومعها «الكشكول» ذات الميول الوفدية التي تخصصت في السخرية والكاريكاتير السياسي. ولم تكن جريدة «الأهرام» بعيدة عن الأثر الوفدي في ذلك الزمان، فأخذت موقعها سريعا في حملة الهجوم، وأفسحت صفحاتها للمشايخ الأزهريين والمشايخ المتنسبين إلى دار العلوم، جنبا إلى جنب جريدة «الاتحاد» التي انقلبت على طه حسين الذي ساندها ضد سعد والوفد، في الفترة الأولى من الوزارة الاتحادية، ثم عادت وانقلبت عليه بعد أن انسحب الأحرار الدستوريون من الوزارة، بعد أزمة

علي عبد الرازق، ومن تحالفهم مع حزب «الاتحاد» الذي أخذ الموقف المعادي نفسه الذي اتخذه الوفد، لكن لأسباب مغايرة.

ويبدو أن طه حسين كان يتوقع الاستجابات السياسية المعادية، ويتوقع ما يمكن أن تقوم به المجموعات المعادية من إدخال السياسي في موضوع علمي، جامعي، أكاديمي، مثل موضوع الشعر الجاهلي، فلم يخف انتماءه السياسي المعادي للوفد، وصدر كتابه الأدبي بإهداء سياسي إلى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا، قطب الأحرار الدستوريين، عدو الوفد الذي تولى رئاسة الوزارة في أثناء نفي سعد زعيم الأمة الذي ملك القلوب. والإهداء دال بكلماته التي تخاطب عبد الخالق ثروت معبرة عن موقف كاتبها بقوله:



طه حسين.

«كنت قبل اليوم أكتب في السياسة، وكنت أجد في ذكرك والإشادة بفضلك، راحة نفس تحب الحق، ورضا ضمير يحب الوفاء، وقد انصرفت عن السياسة وفرغت للجامعة، وإذا أنا أراك في مجلسها كما كنت أراك من قبل، قوي الروح، ذكي القلب، بعيد النظر، موفقا في تأييد المصالح العلمية توفيقك في تأييد المصالح السياسية. فهل تأذن لي في أن أقدم إليك هذا الكتاب مع التحية الخالصة والإجلال العظيم».

وذلك إهداء لا يخفي الميول السياسية لصاحبه، أو إعلانه عن انحيازه إلى جبهة ثروت ـ عدلي السياسية التي لم تكن بعيدة عن مواقف أحمد لطفي السيد الذي أهدى إليه طه حسين كتابه السابق. وما يلفت انتباهي بوجه خاص في هذا الإهداء، ويؤرخه صاحبه بالثاني والعشرين من آذار (مارس) ١٩٢٦، بعد مضي أربعة أيام على فراغه من إملاء الكتاب في الثامن عشر من الشهر نفسه، هو الرسالة المباشرة المتجهة من المُهدي إلى المَهدى إليه، لتبلغه (بضمير المتكلم الذي يمكن أن يكون ضمير المخاطب) أن المُخاطب كان يكتب قبل اليوم في السياسة، منصرفا إليها عن العلم، وأنه رجع عن السياسة ليفرغ للجامعة. وتلك رسالة مزدوجة المغزى، تنطبق في دلالتها على كل من المُهدي والمهدى إليه على السواء، فحضرة صاحب الدولة عبدالخالق ثروت باشا كان قد عاد من صراعات الحياة السياسية العاصفة، بعد أن استقالت وزارته التي أشرفت على إعداد الدستور، إلى منصبه القديم الذي ظل مبقيا عليه، وهو عضوية مجلس إدارة الجامعة التي أسهم في تأسيسها وإدارتها، منذ أن ألقى خطابه الذي حدد توجهها أمام الخديو عباس الذي ترأس حفل افتتاحها الرسمي بقاعة مجلس شورى القوانين في الحادي والعشرين من ديسمبر ١٩٠٨. ولا يبعد طه حسين في هذا الجانب كثيرا عن راعيه الذي يدين له بالكثير، فهو مثله بمعنى أو بآخر في العودة إلى حياة الجامعة واستبدالها بالانغماس في النشاط السياسي المحموم الذي مارسه تحت مظلة العدليين في صراعهم مع السعديين. وذلك استبدال مقترن بنوع من الشعور بالهزيمة التي انتهى إليها تحالف الأحرار الدستوريين مع الملك فؤاد وحزب الاتحاد الذي صنعه لمواجهة الوفد، وخروجهم (أعني الأحرار الدستوريين) من وزارة زيور الاتحادية (٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ ـ ٥ يونيو ١٩٢٦) منكسرين، بعد فشلهم في إنقاذ عضو الحزب البارز علي عبد الرازق صاحب «الإسلام وأصول الحكم» من براثن المشايخ والقصر، وذلك في الأزمة المدوية التي أدت إلى طرد عبد العزيز فهمي وزير الحقانية (ورئيس حزب الأحرار الدستوريين في ذلك الوقت) بعد رفضه تنفيذ قرار لجنة العلماء بإسقاط شهادة العالمية عن الشيخ علي عبد الرازق وفصله من وظيفته في القضاء. وكانت النتيجة استقالة بقية وزراء الأحرار الدستوريين من الوزارة، وخروجهم مدحورين بلا وزن ولا قدرة، خاصة بعد أن نجح الملك فؤاد ورجاله في التفريق بينهم وبين بقية خصومه، فتركوا الوزارة مطاردين بشماتة جرائد الوفد الذي تحالف ضده الأحرار الدستوريون مع الملك، وفرحة الأزهريين بفقدان خصومهم «العلمانيين» رضاء الملك الذي جمعته والمشايخ غواية إحياء الخلافة وإمكان تنصيبه خليفة على المسلمين.

ولا تختلف عودة الزعيم السياسي البارز لحزب الأحرار الدستوريين إلى منصبه القديم بالجامعة، في الزمن المتردي للحزب، عن عودة كاتب الحزب البارز إلى حياة

العلم في الجامعة نفسها، فالسياق الواحد يجعل من كلتا العودتين وجها للأخرى، في عملية الاستبدال التي تلوذ بقيمة العلم الثابتة مقابل مراوغة السياسة المتقلبة. وكما انصرف عبد الخالق ثروت إلى تأييد المصالح العلمية في الجامعة بعد أن عجز عن تأييد المصالح السياسية للأمة، في الوزارة والحزب، انصرف طه حسين إلى تدريس الشعر العربي القديم والكتابة عنه والمحاضرة فيه. وأغرق إلى أن انتهى إلى الشعر الجاهلي، وذلك ضمن تركيزه على منصبه الجامعي - أستاذ الآداب العربية - الذي خصّه به أصدقاؤه الأحرار الدستوريون، واشترطوه في عقد تسليم الجامعة الأهلية إلى الحكومة. وهو المنصب الذي أثار بدوره غيظ أمثال مصطفى صادق الرافعي فيما عبروا عنه في جرائد الوفد المعادية وبخاصة «كوكب الشرق» وسخرية الساخرين في المجلات الهزلية ذات الميول الوفدية، مثل «الكشكول» التي ناوشت طه حسين أستاذ الآداب العربية لتذكره بقصعة مرق الفول النابت في الأزهر. وتصف سوزان طه حسين (في كتابها «معك») السياق الذي أملى فيه زوجها طه حسين كتابه عن الشعر الجاهلي، فتقول إنه «بدأ الكتاب في يناير ١٩٢٦، وأنجزه في مارس من العام نفسه، وكان يعمل به في النهار ويحلم به في الليل، مدفوعا بحماسة بلغت به درجة أنه شرع فور إنجازه بتأليف كتاب عن الديمقراطية لكن ما حدث له أرهقه، وأتصور أن الصلة بين الشعر الجاهلي و«الديمقراطية» لا يمكن فهمها إلا في جانبها الرمزي، في المستويات الشعورية أو اللاشعورية التي تستبدل بالكتابة في السياسة الكتابة في العلم، وبالتحرر من الأهواء السياسية التحرر من الأهواء البحثية، والانتقال من صراع الجديد والقديم في الأخلاق والحياة الاجتماعية إلى صراع الجديد والقديم في المنهج. وتلك هي المستويات التي انصرفت بالكاتب عن السياسة ليفرغ إلى علم الجامعة، وإعادته مع نهاية كتابه الذي يمثل علم هذه الجامعة إلى السياسة مرة أخرى، ليجد نفسه مندفعا إلى الشروع فورا في إنجاز كتاب عن الديمقراطية التي هي المبدأ والمعاد في خطاب العلم والسياسة، أو القاسم المشترك الذي يتضخم من غيابه جبل المغناطيس الذي تتفكك على صخوره كل سفن الرحلة إلى المستقبل.

## التشابك مع الواقع السياسي

والواقع أن هذه المستويات متداخلة، منسربة في الأبعاد المتعددة للخطاب «في الشعر الجاهلي». وهي تبدو لافتة، دالة، خاصة عندما يتحدث طه حسين، في مقدمة الكتاب، عن «الأهواء والعواطف التي تنتهي بالناس إلى ما يفسد عليهم الحياة من البغض والعداء». وعندما يؤكد أن منهج الشك« ليس خصبا في العلم والفلسفة والأدب فحسب، وإنما هو خصب في الأخلاق والحياة الاجتماعية أيضا». وعندما يلح على «المؤثرات السياسية الخارجية» التي كان «لها أثر قوي جدا». وهو يواجه هذا الأثر بالحديث عن منهجه الذي يلح على «أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل» كما لو كان يؤكد حضور كل ما في ذهن الباحث من قبل، وبكيفية لا يبدو معها الخطاب «خالي الذهن.. خلوا تاما» من الإشارة إلى هذه المؤثرات. وإلا فما معنى الدعوة إلى أن نستقبل تاريخ الأدب وقد خلصنا من كل هذه الأغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورءوسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة، وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحية. ولايعني ذلك أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به. أو أن «لا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح»، وإنما يعني أن ما وقع على مستويات متعددة، خارج الكتاب وقبل إملائه، يتحول إلى دوافع تسهم في توجيه الخطاب فيه، كما يتحول إلى علاقات تدل على هذه الدوافع، الواقعة في مجالات تتشابك مع البعد السياسي الذي لا يخلو منه ذهن المؤلف الناطق بالخطاب. هذا الذهن لا ينسى الخلافات والخصومة الواقعة خارج الكتاب، والتي تولد منها خطاب الكتاب بطريقة أو بأخرى. وهي خلافات تستدعيها الكلمات الاستهلالية للخطاب، وذلك منذ أن يفاجيء صاحب الكتاب قراءه المخاطبين بجدة كتابه التي لم يألفها الناس عندنا من قبل، معلنا أنه يكاد يثق بأن فريقا من الناس سيلقونه ساخطين عليه، وأن فريقا آخر سيزورون عنه ازورارا، وأنه وإن أسخط فريقا وشق على آخر فسيرضي الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد. وذلك خطاب يعرف خصومه وأنصاره سلفا، ويخاطبهم بطريقة ليست خالية الذهن تماما مما قيل من قبل، وليست خالية الذهن تماما مما يمكن أن يحدث من بعد.




# انطوى زمن.. وابتدا زمن

شعر: فتحي فرغلي

انطوى زمنٌ.. وابتدا زمنٌ..
وهواك كما كان: يرزح بينهما،
حالما بحروف
تلَخِّص، أو لا تلخص، كل القصائد
تحمل عمرا من الأمنيات التي احتضرت في حِماك
وقدام عينيك
أنت انشغلت بتلك التفاصيل
فاستغرقتك تفاصيلها
بينما صمت قلبك مشتعل
بمناسك ضاعت تراتيلها من مسامعهم
وهنا أنت وحدك تقسم أن شواهدها تغمر الأرض
أنت تقاعست،
قُم وتقدم، ولو خطوة، نحو صوتك
تسمعه ثم هم يسمعون

. . . . . . . . . . . . . . .

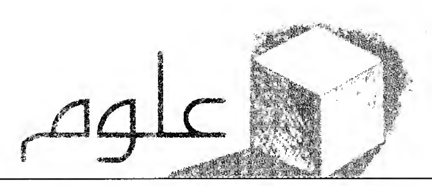
. . . . . . . . . . . . . . .

لو أني تيقنت من نقطة
أبدأ العزم منها
لقُمْتُ
لو أني.. لَلُذْتُ بساحتها وتمسّكت
فهي التي سوف تهزم خيلهمو
وترد الجنود التي تتسلل بين الخلايا
لتنخر ذاكرتي
هكذا كنت أحلم:
عيناي قد شُدّتا للفضاء البعيد
الفضاء بعيد
وفي الأرض كانت قلاعي تميد
وتذهب، تاركة أحرفي في كتاب مهين

سأصحو - إذن - ذات يوم
أو أني سأغفو
على عفن في العروق
يكون قد امتدّ
ثم تشعّب
حتى ليملك كل فضائي
وكل الفضاءات.. لو أنهم يبصرون.

. . . . . . . . . . . . . . .

غافلٌ أنت عن معجم الجرح
كيف تقص عن الوطن المتأجج في الحلم
حين تسمى مسافاته
لن يصدقك السامعون..







# معجزة نصف المخ

بقلم: الدكتور علاء غنام

إن المخ البشري بخلاياه العصبية التي تصل إلى البلايين مازال يُعد الشيء الأكثر تعقيدا في الطبيعة المعروفة للحياة، ولأنه يمثل جوهر ما يجعلنا بشرا فلم تضارعه بعد أية آلة اخترعها الإنسان. في الماضي كان أرسطو يعتقد أن مركز التفكير يقع في القلب وأن المخ يساعد فقط في ضبط وتهدئة الجسد.. ولكن في السنوات الأخيرة تعلمنا أشياء كثيرة عن المخ بفضل التكنولوجيا التي سمحت للباحثين برؤية داخلية، ومعرفة لوظائفه على المستوى الخلوي، أو تحت الخلوي.

عندما نصح بن كارسون جراح المخ والأعصاب الشهير في مستشفى جون هوبكنز في بالتيمور بعملية لإزالة نصف المخ الأيسر لطفل اسمه (مات) لعلاجه من التشنجات العصبية الحادة والارتعاشات الكهربائية التي كانت تعوق وظائف المخ بعدما فشل العلاج الدوائي في مواجهة هذه التشنجات لدرجة قاتلة، حيث كان التشخيص العلمي (التهابا مخيا من نوع يسمى راسميوس)، عندما فعل كارسون ذلك كان يعرف جيدا أنه يمارس أرقى تكنولوجيا جراحية ممكنة لعلاج حالة ميئوس منها، وكان يتصور أن الجزء الخالي من الجمجمة سوف يمتلىء بالسائل النخاعي بسرعة مثل ملعقة شاي كل خمس دقائق حتى يمتلىء تماما. وكان يعرف أيضا أنه من الممكن أن تؤدي العملية إلى إغماء كامل أو الموت أو الشفاء ولم يكن يستطيع أن يخمن كم من الطفل سوف يتبقى عندما تذهب نصف قشرته المخية!

## إزالة نصف المخ

برغم أن عمليات إزالة نصف المخ قد أجريت منذ عام ١٩٤٠ فإنها نجحت مع قليل من المرضى، وهذه العملية قرر الجراح ضرورة إجرائها بسبب التقدم الهائل في رؤية المخ عن طريق تصويره بالأشعة المقطعية وبسبب التقدم الطبي الذي يساعد على منع ومقاومة النزف. وتجرى سنويا في الولايات المتحدة الآن العشرات من عمليات إزالة نصف المخ، وغالبا ما تكون علاجا للالتهابات المخية من نوع (راسميوس)، إضافة إلى بعض أنواع الصرع التي تدمر القشرة المخية.

ولقد نجحت العملية وبدأ (مات) في تدريبات مختلفة على أنشطة الحركة والكلام لمواجهة الواقع الجديد، مما أثبت أن للمخ مرونة مذهلة يسميها العلماء (بلاستيكية).

وتؤكد هذه الحقيقة الدراسات المخية التخيلية التي نفذها (هاري ت. شوجاني) بمستشفى ديترويت الذي يفترض أن إنتاج طوفيات الدماغ تزداد بعد الميلاد، وتظل في زيادة من سن الرابعة حتى عشر سنوات فيصبح مخ الطفل في هذه السنوات قادرا على عمليات اتصالية مذهلة أكثر مما لدى البالغ! مما يجعله يستخدم ضعف طاقته المخية (لذا يقول المثل الشائع التعليم في

## هل يمكن أن يعيش الإنسان بعد استئصال نصف مخه؟ الإجابة تقول: نعم، وهي تجربة طبية حديثة تلقي بالكثير من الضوء على بعض أسرار المخ.

الصغر كالنقش على الحجر) وهذا ما أكدته حالة الطفل (مات) والحالات المشابهة التي تُظهر أن للمخ قدرة غير عادية، وهي ما تسمى بالقدرة البلاستيكية. وهذه البلاستيكية هي التي ستعيد تعريف المفاهيم الأساسية لعمل الدماغ. فالمعروف أن الجانب الأيسر للمخ للشخص ذي اليد اليمنى (اليمين) ـ وهذا بالتحديد ما أزيل في حالة الطفل مات ـ يختص بالتعامل مع الموسيقى، الشعر، والرياضة، ومع ذلك في حالة الطفل (مات) يستمتع بدروس البيانو والرياضيات وهي تعد أقوى مواده الدراسية إجادة! وبطريقة ما رحلت المعلومات والقدرات لديه من جانب من المخ إلى الجانب الآخر..!

قراءة المخ عبر اقطاب تلتقط موجاته الكهربية.

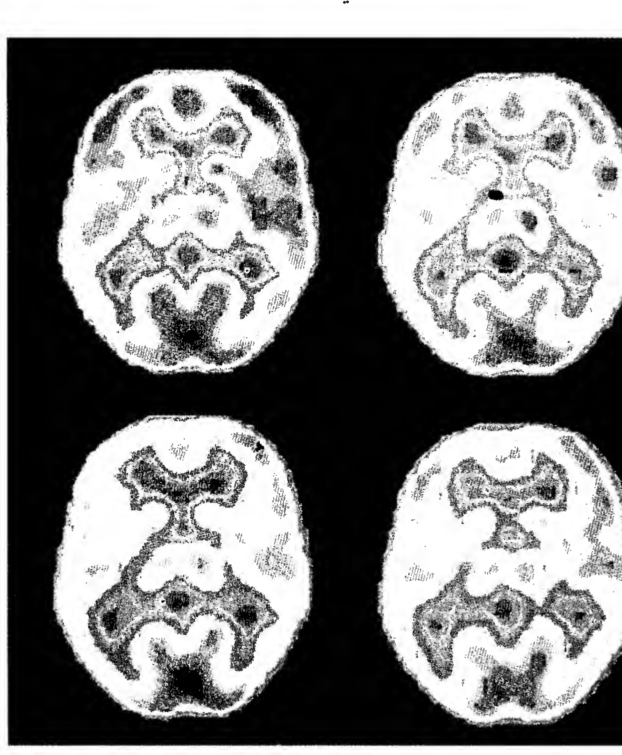
برغم أن هذا التحول يبدو متعارضا مع البيولوجية الطبيعية ـ فهل يعني ذلك أن ثمة اتصالات غير مكتشفة بعد، أو أن كل جانب له قدرة غير ظاهرة تستطيع أن تنجز وظائف الجانب الآخر؟.

الأبحاث الحديثة تؤكد أن القدرة على التحول تكون أعلى فيما قبل البلوغ خلال سنوات دورة النمو، والمعروف أن كل جزء من الجسم يتصل بالقشرة المخية، فلمس الأشياء باليد اليسرى على سبيل المثال يستثير جزءا خاصا في القشرة المخية اليسرى، ووراء هذا من القشرة المخية ـ ولأسباب غير معروفة ـ توجد صلة بين هذه المناطق وفتحات الأنف.

وقد سُجل أن رجلا بعد أن تمت له عملية بتر بيده أحس تنميلا مكان البتر، وقد وضع الباحثون بضع قطرات من الماء الدافيء تحت أنفه. والواقع يبدو أن جزءا من القشرة المخية يتصل بفتحات الأنف التي بها

مساحة تستقبل عليها إشارات من أصابعه التي بترت! وبالمثل فإن صورة مقطعية لمخ إنسان كفيف يقرأ بطريقة (برايل) بلمس الأصابع، تظهر لنا أن أصابع المكفوفين القارئة تؤثر في جزء أكبر من القشرة المخية مما تغفله أصابع المبصرين!

إنها القدرة والمرونة البلاستيكية للمخ ويعتقد أن الاستخدام المتزايد لهذه الأصابع يحفز على اهتداء تأثيرها إلى حدود مجاورة أخرى في القشرة المخية.

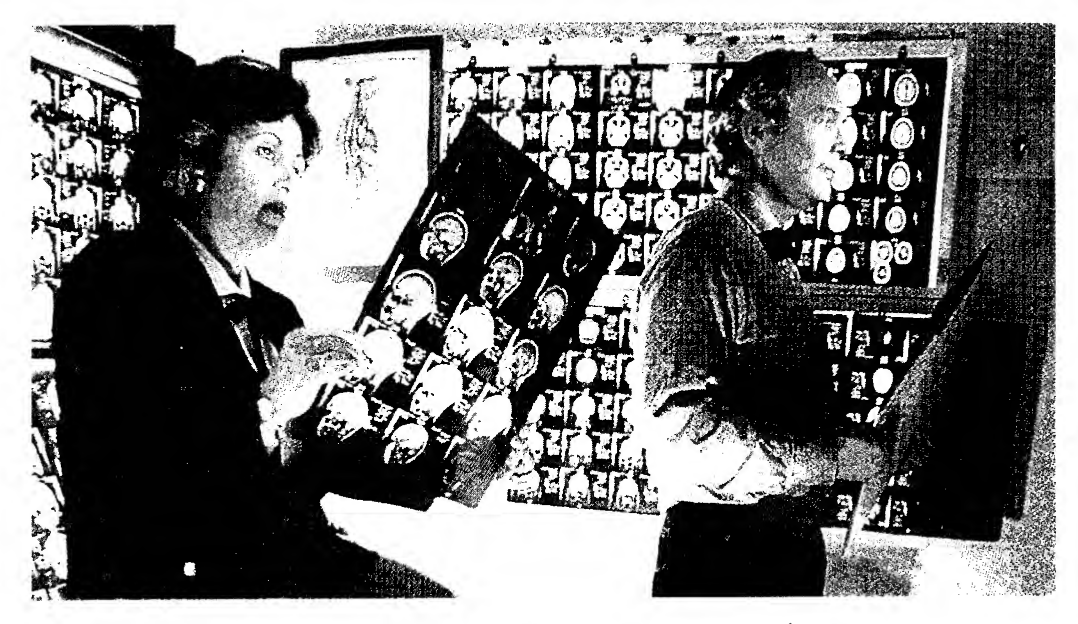


سبر أغوار المخ بالأشعة الكمبيوترية الحديثة.

إن نظرية عالم النفس وليام جيمس التي أطلقها منذ عام ١٩٦٠، تصور أننا نستخدم ١٥٪ فقط من المخ، وعملية مثل التي أجريت للطفل (مات) تظهر لنا صحة هذا الأثر وتظهر لنا أن جزءا كبيرا من المخ لا يستخدم كما يجب وسوف يفاجىء (مات) أصدقاءه بعد عشر سنوات من الآن أن به نصف مخ فقط. إن مقاومة (مات) لحالته تبدو درامية، كما أن تقدم المعلومات عن دور المخ وهيكله الفيزيائي في الأعصاب أو الإصابات العضلية يجب أن يغير مفاهيم كثيرة حول هذه الأمراض مثل الاكتئاب والاكتئاب الهوسي.

## جغرافية الدماغ

في كتابات أبقراط قبل القرن الرابع الميلادي أن الجنون يأتي من الرطوبة الزائدة في المخ. وربما كان حدس أبقراط صحيحا إذا فحصنا صورة لأشعة مقطعية لتوأمين أحدهما مصاب بالفصام على عكس الآخر.. والطب قديما كان يعتقد أن أربعة عوامل تؤثر في الصحة هي الأرض والنار والهواء والماء. وهذا الاتجاه في التفكير والبحث أوجد أنواعا جديدة من الأدوية التي تؤثر في كيمياء الدماغ. ولكن لايزال الإنجاز المتواصل الذي يحققه العلماء واضعو الخرائط الجغرافية للدماغ يتطلب المزيد من الجهد، فهناك مثلا أحد الجينات يعطي أنزيما يسمى Amodo Amino Oscidue، وهو يساعد خلايا المخ على الترابط، ولكن في حالة بعض الجينات غير الطبيعية لا تنتج مثل هذا الأنزيم بالقدر الكافي ولظروف وراثية، لذلك تتجمع بعض المواد الكيميائية الأخرى التي تؤثر في الخلايا العصبية، وكنتيجة لذلك - ودون سبب معروف - يتصرف هذا الشخص بعنف تجاه تعرضه لأي ظروف ضاغطة ولذلك فقول (كان بيرفي) عالمة الصيدلة في هذا المجال: «لقد تعلمنا جميعا أن الفواصل أو المسافة بين اثنين من الألياف الوحيدة (Neuron) تكون ثابتة وفاصلة ولا تتغير. والآن قد اكتشفنا أن هناك شبكة اتصالات تعمل عن طريق مناطق استقبال Receptors وعن طريق المواد الكيميائية التي تحمل



أداء المخ لحظة بلحظة عبر آلاف من صور الأشعة المقطعية.

بالمعلومات من وإلى الخلايا العصبية. وتجرى هذه الاتصالات بين الخلايا عن طريق تفاعلات كيميائية وكهروكيميائية.. وعندما نحاول أن نعرف كيف يؤثر المورفين في المخ، نجد أن ثمة نيوروبياند ـ وهي سلاسل من الأحماض الأمينية تسبح خلال الجسم كله ـ تستطيع نقل المعلومة أو تحويلها عن طريق الترابط فيما بينها أينما وجدت لها أجهزة استقبال Receptors مناسبة وهذه التفاعلات غير العادية تنبض من خلالها الأحاسيس.

ومن خلال التجارب ثبت أن الحث أو التنبيه الكهربائي لمناطق محددة على القشرة المخية يعمل على إثارة العواطف والأحاسيس، لكي تحسها المناطق التي تمتلىء بهذه المواد الكيميائية المسماة (نيوروبياند) وقد اكتشف حوالي ستين نوعا منها.

وإذا أفزعنا ذلك وتساءلنا: هل السعادة.. الحزن.. الحب.. الخ.. كيمياء وحيوية هزّت العالمة رأسها: نعم... نعم بكل أسف!.

فهذه المواد تفرز في كل الجسد وحتى المعدة وذلك ما نسميه (الإحساس المعوي) فالعقل إذن ليس فقط في الدماغ، ولكن بين الاتصالات العصبية خلال أنسجة المخ وفي الغدد وفي الجهاز المناعي. إن بعض هذه الحقائق قد لا تكون جديدة، فتدفق المواد الكيميائية (وإفرازها) بين أنسجة الجسم المختلفة والمخ تبدو كفكرة متشعبة (متداخلة)، فمنذ أربعة آلاف عام اعتبر الطب الصيني أن التحكم في المخ (السيطرة عليه) يكون عن طريق الأعضاء الأخرى كالكبد والطحال والرئتين أو الكليتين.. فهذه الأعضاء تتداخل أو تترابط فيما بينها ـ كما يقول الطب الصيني ـ عن طريق قنوات من الطاقة والتي تمثل أساسا للعلاج كما في حالة الإبر الصينية مما يؤكد بلاستيكية الدماغ وبالمثل بدأ العلم الحديث في دراسة الروابط بين حالة المخ والجهاز النخاعي ولكن أيضا هي عودة إلى الفلسفات الشرقية، التي نجد أنها تربط بين الحالة العقلية (الذهنية) والصحة، فيقول كتاب الحكمة إن للقلب السعيد أثرا يماثل الدواء والطب، في حين أن النفس المتألمة تؤدي إلى آلام الجسد. إنها إذن عدة معجزات حقيقية للمخ (الدماغ) وبالتفوق الطبي المتزايد، وربما بأعظم هذه المعجزات: أي القدرة الدافعة كالحب هي في مجموعها تشكل أساسا لحقبة قادمة نحن على أبوابها.




# البحث عن وطن

قصة بقلم: فاضل السباعي

كل ما كان يعيه أنه يجلس وراء طاولة مديدة، وفي حوزته كتابان: آخر ما صدر من تآليفه، ومرجع عام استعاره توا من مكتبة الجامعة، وتحت يده أوراق بيض، يخط في كل ورقة أسطرا نزقة، محاولا التعبير عن ظلامته، ثم ما يلبث أن يمزقها، ليشرع في الكتابة من جديد.

وما كان ليخامره شك قط، وهو في هذه القاعة وحيدا، أنه حر طليق، إلى أن مثل أمامه، فجأة، شاب طلق المحيا، تفرس في وجهه لحظة، ثم انعطف نحوه بأدب جم خيل إليه معه أنه واحد من طلابه الأوفياء، وسأله: «حضرتك المواطن «س»؟.

- نعم، يا عزيزي!

وإذا الشاب يصرخ، وقد فارقه أدبه الجم كله:

- هيا امش قدّامي!

ولأن «س» كان يعتقد، حتى تلك اللحظة، أنه لايزال في إحدى قاعات الجامعة، فقد قال مستفسرا: «ولكن.. كيف تسمح لنفسك، أيها الفتى، بأن تخاطبني بهذه اللهجة القاسية؟».

فألوى الشاب عليه، جاذبا إياه من كتفه جذبة كانت كفيلة بأن تقتلعه من فوق كرسيه:

- «بلا علاك»! أقول لك: امش قدّامي!

احتج «س»: ولكن.. من تكون، أيها الرجل الغريب؟! ولماذا تعاملني بهذه الفظاظة؟! أنا.. موظف دولة، من الدرجة الأولى!!

ولكنه راح يدفعه أمامه بغلظة مهينة.

- دعني آخذ كتابي!

- وتحمل أشياء ممنوعة؟!

حدّث نفسه: «أشياء ممنوعة»؟! فماذا لو عرف أني هنا، منذ الصباح، أخط شكوى لأرفعها إلى المقامات العليا، احتجاجا على تجاوز زملائي لمنزلتي الجامعية.

لم تسؤه كثيرا الألفاظ النابية التي صكّت سمعه، ولا المعاملة الفظة التي يتلقاها من هذا المأمور الصغير! ولا عجب لسقوطه المفاجيء بين أيديهم.. فلقد سبق له أن وقع، غير مرة، في قبضتهم، دون ما سبب، وتعرض لضروب من الإيذاء والمهانة.. وكانوا، في كل مرة، يطلقون سراحه بعد أن يخُطّوا في سمعه كلمات اعتذار!

ولكن الدهشة الكبرى التي اعترته مقرونة بالخجل العظيم، أنه ألفى نفسه، بعد أن اقتيد إلى قاعة أخرى، مجردا من ملابسه! ومما زاد في استحيائه أن هذه القاعة كانت تعج بالناس وبالحركة!.. وتساءل عما إذا كان في حلم؟ ثم أخذ يتحلل، شيئا فشيئا، من مشاعر الدهشة والخجل وهو يرى الآخرين، كلهم، مجردين من ثيابهم، ومن كتبهم وأوراقهم وأقلامهم.!

وكان لا بد أن ينسى همه الأول، ذاك الذي مزق في التعبير عنه غير قليل من الأوراق، وهو يرى الناس يروحون في هذه القاعة ويجيئون. ولم تسعفه ذاكرته في تعرف أي واحد منهم، ليس لأنهم عراة، ولكن لأن وجوههم بدت له متشنجة، وكذلك أطرافهم، فهم يسيرون كالعناكب المنتصبة.! أخذ يُطمئن نفسه: عندما



يبدأون باستجوابي سيتبينون إلى أي حد هم مخطئون بحقي!

ثم تساءل: لو أن هذا الذي تشهده عيناي، كان حلما، لتحررت منه بالاستيقاظ!

اقترب منه أحدهم:

- إذن فقد أدخلت معك كتبا؟

رأى «س» السائل كاسيا فأسرع يجعل من كفه ورقة توت. سخر الرجل:

- انظروا! إنه يخجل من أن يظهر أمامنا كما ولدته أمه، ولا يخجل من «المخالفة». . يا للتناقض!!

- وهل حيازة الكتب تعد «مخالفة»؟!

ثم رأى من كان خيل إليه أنه واحد من طلابه الأوفياء، يميل على هذا «المحقق» ويسكب في سمعه كلمات. . فيتابع هذا سؤاله:

- وورقا وقلما أيضا، وأخذت حريتك في الكتابة؟!

- الحقيقة، لم أكن أظن أني في سجن.

- في الفيللا التي خلّفها لك أبوك!

- لا، بل في إحدى قاعات الجامعة.

- وماذا كنت تكتب؟

- ظُلامة.

- ظُلامة؟! وما هي هذه الظلامة؟

- هل أشرحها هنا، أم أتريث حتى أشرحها للمراجع التعليمية؟

- ألسنا قدّ المقام؟!

- طيب! فاسمح لي أن أُبيّن لك أني أعلى الأساتذة مرتبة في القسم. .

- «القسم»؟!

- عادة، الجامعة تتألف من كليات، والكلية من أقسام. .

- مفهوم، مفهوم.

- فأنا أقدم الأساتذة في القسم الذي أُدرس فيه وأعلاهم مرتبة. ومن مقتضى التقاليد العريقة في جامعات العالم بأسره، أن أكون رئيسا لقسمي. ولكن المخالفة لم تزل جارية منذ مدة في أنهم يعينون رؤساء للقسم من المدرسين الجدد، الذين هم من الطلاب المتخرجين على يدي، وأحيانا أجدهم من طلاب طلابي!!

- وما بهم طلابك، وطلاب طلابك؟ لو لم يكونوا الأفضل لما فضلوهم عليك! ولكن ماذا كنت تكتب وأنت في قاعة الانتظار؟

- أكتب ظُلامتي هذه، لأقدمها إلى أولي الأمر، التماسا للعدالة والإنصاف.

- عدالة وإنصاف؟! تعني أن بيننا ظلاما ومظلومين؟!!. . خذوه.

لم يكد المحقق يلفظ كلمته الأخيرة حتى تقدم مرافقه، وأخذ ذراعه فلواها، ثم سار به نحو باب يفضي إلى مكان آخر.

استسلم «س»، وقد أيقن أنه في حلم خارق للعادة. ولكنه عَجبَ ألا يكون في استطاعة الألم، الذي حل بذراعه، ان يضع نهاية لهذا الحلم السخيف!

في القاعة الثالثة تعاونوا عليه، فحملوه قبل أن يطرحوه في أعماق كرسي. . وجد نفسه فيه لا هو بالجالس ولا بالمستلقي، ولكن مرفوع الساقين! اختلس النظر لما حوله. ومن خلال السكون المريب رأى صفوفا متراصة من مثل هذا الكرسي الذي ألقي فيه. كل كرسي هو لصْقُ الآخر، وفي كل منها جثة، لم يستطع أن يتبين منهَا سوى الجذع الغائص في أعماق الكرسي، والساقين العاريتين المرفوعتين، وأما الموضع من الجسم الذي يفترض أن الرأس ماثل فيه، فقد جُلّل بغطاء أسود. . وكانت تصدر عن هذه الأجساد اختلاجات صغيرة أكدت له أن أصحابها لا يزالون على قيد الحياة!

فجأة، سقط على رأسه غطاء، بدا له غليظا، حتى أنه أوشك أن يختنق دونه. إلا أنهم سرعان ما عالجوه، فأتاحوا لقليل من الهواء أن ينفذ إلى منخريه. وفيما بدأ جسمه يختلج اختلاجة أولئك الرجال، أحس بالأمراس تلتف حوله وتشده إلى كرسيه. وبدافع من الغريزة العمياء، أخذ يسحب، عبر فتحات هذه العمامة الغليظة، أنفاسا صغيرة منتظمة.

فكر: بعد سجن العري، يطويني سجن العتمة. .

يا لها من سلسلة سجون، لا تنتهي! وتساءل: ولكن لماذا أنا هنا؟ كيف وقعت في أيديهم؟ كيف أمكن أن تتحول قاعة البحوث الجامعية التي كنت فيها، إلى مكان للمراقبة أو التوقيف؟! لماذا يستنطقني أفظاظ أغبياء؟ ليتهم يلقون علي سؤالا واحدا يتوافق والمنطق؟ أين هم المحققون الأكفاء؟ لماذا قُدّر على المواطن أن يخضع، مرة بعد مرة، في اليقظة وفي الحلم، لهذه «الإجراءات» الغريبة؟ لماذا يقع ذلك كله في وطني الحبيب؟!!..

- من أنت؟

سؤال آخر يتسلّل إلى سمعه عبر العمامة:

- أنا المواطن «س»!

- المهنة، من فضلك؟

- أستاذ جامعي.

أمر المحقق: فكّوه!

- ما الذنب الذي اقترفت؟

- لا أدري.

- وماذا تدرس في الجامعة، أيها الأستاذ الجليل؟

- فلسفة، منطق، رياضيات.. ألم تكن في عداد طلابي؟ ألم يتفق لك أن استمعت إلى محاضرة لي؟

كانت أوصاله قد تحررت. مدّ الرجل نحوه ساعده، وأنهضه من ضجعته.. ثم شد على يده مصافحا، وهو يخط في سمعه كلمات اعتذار:

- لا تؤاخذنا، أستاذ، إن كنا أخطأنا في حقك!

ثم رآه يلتفت إلى زملائه:

- أساتذة أجلاء، علماء أفذاذ، ودون جرائم واضحة أو فاضحة؟!. كفانا «بهدلة»، يا ناس!!

وجد المواطن «س» نفسه يتجه نحو بيته، ساعة الفجر، سيرا على القدمين. بدت له المسافة طويلة طويلة. كان عاريا لايزال، لأنهم لم يعثروا على أي قطعة من ملابسه! طوال الطريق كان يفكر: لا بد من الرحيل! لم أعد أطيق العيش في وطني! وما كان للطريق الطويلة أن تنتهي. ولكنه ألفى نفسه، فجأة، وقد فرغ من تدوين تفاصيل هذا الحلم الغريب.. مختتما إياه بعبارة: «لم يعد بد من أن أرحل عن وطني الحبيب!». وأودع الأوراق في حرز حريز.

سألوه، والأوراق بين أيديهم، عما إذا كان الخط خطه؟ اعترف:

- نعم، أيها السادة: الخط خطي، وإن كان مغفلا من التوقيع.

وأخذوا يقرأون، على مسمعه، تفاصيل الحلم المدون.. وترنموا بالعبارة الأخيرة: «لم يعد بد من أن أرحل عن وطني الحبيب»!.

- إذن، فأنت، أيها المواطن «س» كارهٌ لوطنك، الذي تسميه «حبيبا»؟!

- عندما يضطهد المواطن في وطنه الحبيب، يكف الوطن عن أن يكون حبيبا، يصبح بلدا من البلدان ليس إلا! ما فعلته، أيها السادة، أني كتبت ما وقع لي، فور وصولي إلى البيت عاريا. عفوا، أردت أن أقول: كتبته عُقيب استيقاظي من ذلك الحلم الكثيف!

- ولكنك تعلم، وأنت الأستاذ المتخصص، أن أحلام الليل لا تعدو أن تكون صدى لما يعتمل في النفس ساعات النهار!

فكّر: ويعرفون فتاتا؟ من علم النفس أيضا!

- ألم يقع لك أنا اقتدناك إلى السجن قبل هذه المرة؟

- سبع مرات، قبل هذه، أيها السادة!

- وأنك أُهنت، في كل مرة، أو عُذبت، قبل أن يُعتذر إليك بلبَاقة؟

- ....!....!....!

- فهذا الحلم.. أو لندع الحلم جانبا، فهذا العزم منك: الرحيل عن الوطن، هو عين ما تريد في يقظتك!

وساوره الإحساس بأنه في حلم كثيف آخر.

أطلقوه مرة، ومرة، ومرات لا عداد لها.. وكانوا يخطون في سمعه، في كل مرة، كلمات اعتذار.. ثم ما يلبث أن يجد نفسه في قبضتهم مرة أخرى.

التبست عليه الأمور. سواد الليل يدخل في بياض النهار. وما عاد يدري: أهو حلم متواصل؟ أم أنه الواقع الشبيه بالأحلام؟!!.

يعتزم الرحيل. يبحث عن وطن.

فكر

# ٣٠٠ عام على ميلاد فولتير

# عشق الشرق ولكنه هاجم الإسلام

بقلم: الدكتور أحمد درويش

عندما حمل فولتير لدى عودته من إنجلترا سنة ١٧٢٩، اسم شكسبير، وقدمه لقراء الأدب في فرنسا وجنوب أوربا، وساعد على الانتشار الواسع لعبقريته المسرحية، فقد سمح هذا لعبقرية كبرى مثل شكسبير بأن تعبر إلى شاطىء البحر المتوسط والمياه الدافئة تحت معطف فولتير، وقد جاءت لحظة أخرى مماثلة بعد قرن كامل عندما حمل الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) عند عودته من بعثته إلى فرنسا اسم فولتير، وأن تعبر عبقرية الشاعر الفرنسي، البحر المتوسط وتدخل إلى الشرق العربي، تحت جُبّة الشيخ رفاعة الطهطاوي عندما تحدث عنه في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» فقال: «وقرأت مع مسيو شواليه كتابا صغيرا في المعادن، وترجمته، وقرأت كثيرا من كتب الأدب، فمنها مجموع نوبل، ومنها عدة مواضيع من ديوان فولتير وديوان راسين، وديوان روسو، خصوصا مراسلاته الفارسية التي يُعرف بها الفرق بين آداب الإفرنج والعجم وهي أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية». وفولتير هنا يضاف إلى ثقافة رفاعة وثقافة المشرق العربي من بعده باعتباره شاعرا مثل راسين وروسو، وهو يقدم مثلهما باسم شهرته دون ألقاب. ولكن رفاعة عندما يتقدم في سرد قراءاته في الفرنسية فيذكر ما قرأه من كتب المفكرين، سوف يخص فولتير بلقب لا يمنحه لأحد سواه وهو لقب «الخواجة فولتير».

وربما كان سر إيثار فولتير بلقب الخواجة، هو ما ارتبطت به دلالات اللقب في العامية المصرية حتى الآن من الدلالة على شخص أجنبي له اتصال بنا أو نراه بيننا، ورفاعة من خلال هذا الإطلاق يعطي مفتاح سر الإعجاب بكتابات فولتير، التي تحمل في الكثير منها طابعا شرقيا، سواء في الموضوعات أو التكتيك. وكأن كثيرا من المادة الخام التي صاغها فولتير من خلال مسرحياته ورواياته وأشعاره، مجلوبة من بازارات الشرق، وقد أعيدت صياغتها وطرحت من خلال الأسئلة الجذرية التي فجرت موجات من التفكير والتعبير لم تتوقف في الأدب والفكر العالمي حتى الآن.

## مطالع الشموس

ولقد تمثلت هذه النزعة منذ بداية اختيار مترجمات لفولتير إلى العربية، وهي البداية التي تمتد الآن أكثر من قرن ونصف القرن وتعود إلى سنة ١٨٤٢ عندما اختارت مدرسة رفاعة للترجمة رواية «مطالع الشموس Histoire de Charlesx» السيارة في وقائع كارلوس الثاني عشر وأصدرتها مطبعة بولاق بترجمة محمد مصطفى أحد تلاميذ رفاعة

**مثل فرانسوا ماري أوريه الشهير بفولتير علامة تحول بارزة في الفكر الأدبي والحضاري والسياسي للقرن الثامن عشر، وترك آثارا جمة في كل الآداب العالمية وبينها الأدب العربي.**

الطهطاوي، وكان جزء مهم من دوافع الترجمة، هذه الصفحات التي وردت فيها والتي تمجد الشرق من خلال اتصال كارلوس الثاني عشر أو «شارل دوز» ملك السويد بدولة الخلافة الإسلامية في تركيا، عندما كان أسيرا بها.

وإذا كان ملك السويد الأسير في بلاد المسلمين قد شكل موضوعا لمسرحية كتبها فولتير سنة ١٧٣١، فإنه لم يمض عام واحد، حتى كانت «زائير Zaire» الطفلة المسيحية الأسيرة في بلاد المسلمين موضوعا لعمل آخر كتبه فولتير سنة ١٧٣٢. وصور من خلاله حريم السلطان، ومناخ الشرق خلال القرن الثاني عشر عصر الحروب الصليبية، والالتقاء الواسع بدرجاته المختلفة بين الشرق والغرب، فزائير طفلة مسيحية يأسرها المسلمون في صباها، وتنشأ على العقيدة الإسلامية، وهي لا تعرف الكثير عن فرنسا غير أنها مسقط رأسها، وهي تقيم في حرم سلطان المسلمين في بيت المقدس أوزومان، ويتبادلان المحبة وهما على وشك الزواج، لكن أسيرة مسيحية أخرى هي «فاتيما» تؤنب «زائير» على أنها نسيت مسيحيتها، وترد عليها «زائير» بأن اعتناق دين ما هو إلا عادة تتحكم فيها ظروف تاريخية وجغرافية وبشرية تحيط بنشأة الإنسان، أما السلطان أوزومان فيصوره فولتير على أنه رجل فاضل لدرجة أنه يعاهد «زائير» على إلغاء نظام «الحريم» الذي يشتهر به أمراء الشرق، وأن يكتفي بها زوجة واحدة. ويصور فولتير أسيرا آخر هو «نيرستام» وهو أخو زائير، لكن السلطان لا يعرف ذلك، ويحاول نير ستام الذي حظي بفك أسره أن يثني أخته عن فكرة الزواج بالسلطان ولكنها تتمسك به، فيحاول على الأقل أن يعيدها إلى المسيحية قبل أن



يسافر وتوافقه بعد طول ممانعة، ويعطيها موعدا يلتقيان فيه لإعادة تعميدها، ولكن السلطان الذي كان يتابع الأمر، ظن أنه موعد بين عشيقين، فتربص لهما وطعنهما بخنجره، وعندما علم بحقيقة الأمر وأنه قتل حبيبته التي تمسكت به طعن نفسه أيضا، بخنجره ومات.

وقد ترجمت «شارل دور» سنة ١٨٤٢ وترجمت «زائير» إلى العربية سنة ١٩٤٣ على يد نجيب فرج الله.

## تأثير ألف ليلة وليلة

وإذا كان «شارل الثاني عشر» و«زائير» شخصيتين غربيتين عكستا رؤيتهما للمشرق في كتابات «الخواجة فولتير» فإن كثيرا من الشخصيات المشرقية المنبع والملامح والأسماء قد شكلت أدب فولتير، وأثبتت شدة تأثره بالقصص الشرقية، وخاصة «ألف ليلة وليلة» التي كانت ترجمة أنطوان جالون، قد قدّمتها للقارىء الفرنسي منذ أوائل القرن الثامن عشر، ولم يتردد فولتير في الاعتراف بأنه قرأها أربع عشرة مرة قبل أن يمارس كتابة القصص، ويبدو أن طه حسين أراد أن يرد له جانبا من الجميل، فقال في مقدمة ترجمته لقصة «زاديج» «قد قرأت هذه القصة مرات توشك أن تبلغ عشرا، وأكبر الظن أنني سأقرؤها وأقرؤها وقد وجدت فيها متعة العقل والقلب والذوق».

وفي مقدمة هذه القصة أيضا، يشير طه حسين إلى استيراد فولتير لحكايته من «بازارات» الشرق فيقول: «وقد مر بفولتير طور من أطوار حياته الأدبية قرأ فيها ترجمة «ألف ليلة» فشاقته وراقته ووجهته إلى دراسة أمور الشرق فغرق في هذه الدراسة إلى أذنه، وأخرج للناس قصصا شرقية بارعة كثيرة، منها هذه القصة، وأرجو أن يتاح لي أن أترجم لقراء العربية طائفة من قصصه الشرقية الأخرى».

لقد استغل فولتير مسرح الحضارات العريقة في الشرق الممتدة زمانيا آلاف السنين، والممتدة مكانيا على ربوع بابل وبلاد العراق وبلاد الصين وجزيرة العرب، لكي يختبر موقف القوة الإنسانية في مواجهة القدر وليمتحن في شكل روائي الفرص المتاحة أمام الحرية الفردية في مواجهة شبكة القدر، وهي فرضية شكلت أحد أسس المسرح الإغريقي القديم في أساطيره وصراعاته مع الآلهة، ولكن فولتير اختار شخصية «زاديج» أو «صديق» البابلية لكي يعرضها لمجموعة من المواقف القصصية الممتعة والفلسفية الدافعة للتأمل.

فزاديج يحب «سميرة» حبا عميقا على استحياء، وهي تبادله المحبة ويحلمان بيوم الزواج ويعدان له، وفي إحدى نزهاتهما حول حدائق المدينة، تتعرض سميرة لهجوم من شاب طائش يتبعه عبيده، فينقض زاديج للدفاع عنها والتضحية بنفسه لإنقاذها، ويصارع أربعة من الرجال وينجح في إنقاذها من مخالبهم بعد أن يصاب هو بجرح غائر في عينه اليسرى، ويزداد إعجاب سميرة بصديق، ويزداد حزنها على ما أصاب عينه وتصر على أن يدعى أمهر أطباء العصر، وهو الطبيب هرمس من ممفيس لمعالجته، وحين يصل هرمس يعلن على الفور، أنه كان يستطيع شفاء الجرح لو أنه كان في العين اليمنى، أما اليسرى فلا شفاء لها ويجزم بأن زاديج سوف يعيش بقية عمره «أعور» وتحزن المدينة على زاديج وتعجب بشدة علم هرمس وتعلم سميرة بالأمر، وبعد يومين يفاجأ زاديج بأن جرحه قد برأ من تلقاء نفسه، فيهرع إلى سميرة لكي يزف إليها النبأ، فيقال له: إنها عندما سمعت كلام هرمس قالت إن أبغض شيء إليها هو منظر الرجل الأعور، وأنها تزوجت في اليوم نفسه من غريم زاديج الذي كان قد هاجمها وهاجمه منذ أيام قليلة، وتستمر حلقات «القدر» فيتزوج زاديج من فتاة بسيطة أخرى هي «عذورة» التي تعده ببذل أقصى درجات الوفاء، والتي تأتي له ذات يوم شاكية من أن الأرملة «قصروة» لم تحافظ على وفائها لزوجها الراحل، لأنها كانت قد أقسمت أن تقيم بجوار قبر زوجها، ما ظل الغدير القريب من القبر يجري، ولكنها بعد فترة بدأت هي نفسها تفتح ثغرات لكي يتسرب منها ماء الغدير حتى يجف وتستريح من نذرها الثقيل، وأراد زاديج أن يختبر قدرة الوفاء عند زوجته، فانتهز فرصة سفر سريع لها وأشاع خبر موته هو، وعند عودة زوجته استقبلها صديقه «قادور» وأبلغها الخبر وواساها، وظل قريبا منها يلاطفها حتى بدأت في نسيان الأحزان والميل إليه، وذات ليلة تظاهر بالألم الشديد فجزعت، فقال لها إن شفاءه يكمن في شم أنف ميت حديث الموت فقررت

على الفور أن تنبش قبر زوجها وأن تقطع أنفه لكي يشمه الصديق الجديد فيشفى، وأمسك زاديج ـ المتظاهر بالموت ـ بالموسى في يدها قبل أن يمتد إلى أنفه فيقطعه، وذكرها بقصة تحويل الأرملة لماء الغدير. ويدرك زاديج بعد هذا الموقف أن الوفاء لا مكان له، فيقرر الرحيل والإقامة على شاطىء الفرات للتأمل والتفكير، ويتعرض لكثير من سخريات الأقدار فإذا أبدى العلم والخبر كوفيء بالإيذاء والسجن، وإذا أبدى المصارحة كانت العواقب غير سليمة، وخلال ذلك يلجأ إلى وسائل غير مباشرة في معالجة التواء النماذج البشرية فإذا وجد حاكما يحب الإطراء والنفاق في بلاد بابل سلط عليه المنافقين المحترفين الذين يلاحقونه ليل نهار بالنفاق حتى يدرك أن لا لذة في دوام اللذة فيعود إلى طبيعته، وإذا وجد حاكم جزيرة سرنديب في حيرة من اختيار خازن أمين لبيت المال، قدم له نصيحة مبتكرة تتمثل في دعوة المرشحين إلى حفلة رقص داخل القصر، ويدير ممرا صغيرا خافت الأضواء قبل صالة الرقص ويملؤه بالكنوز والجواهر الثمينة، وعندما يبدأ الرقص يلاحظ أن اثنين وستين مرشحا من بين ثلاثة وستين، كان رقصهم ثقيلا بسبب ما أخفوه في ملابسهم من جواهر سرقوها، وأن واحدا فقط كان رشيقا لأنه كان أمينا فلم يخف في ملابسه شيئا فوقع عليه الاختيار، وهكذا امتدت مغامرات زاديج فأحبته زوجة ملك بابل، ورحل إلى منف، واستعانت به امرأة مصرية جميلة لينقذها من رجل فظ يضربها، فلما دافع عنها هجم عليه الرجل فكاد أن يقتله، ونجح زاديج في النهاية في قتله فإذا بالمرأة تنقلب صارخة وتطالب الناس بأن يقتلوا زاديج وتمتد مغامراته إلى جزيرة العرب التي يساق إليها رقيقا مع أحد التجار، وإلى بلاد البصرة التي يرى فيها نقاشا حادا بين الهنود والصينيين والبابليين والمصريين القدماء حول عقائدهم الدينية المختلفة، وإلى مكر التجار اليهود حيث يواجههم زاديج بحيل ذكية تشبه حيل جحا في التراث العربي.

وعلى هذا النحو كانت «زاديج» نمطا للقصص الشرقي المستلهم في حل التساؤلات التي واجهت المفكرين والفلاسفة والروائيين في أوربا في عصر التنوير.

## الراوي المجهول

وقد امتد تأثير القصص الشرقي على فولتير فتصور نفسه قصاصا شرقيا، حتى في قصصه الغربية، وكان في كثير من الأحايين يتقمص شخصية «الراوي المجهول» في حكايات ألف ليلة وليلة، ويسير على خطاه خاصة في تحديد لون العلاقة بين الحكاية ومؤلفها.

ولا شك أن هذه العلاقة تختلف في عمل مثل «ألف ليلة وليلة» عن العلاقة المعروفة قديما وحديثا بين المؤلف وكتابه، فعلى حين حرص التراث الأدبي والفكري في الشرق والغرب على أن يربط أثرا ما باسم سقراط أو أرسطو أو المتنبي أو شكسبير، فقد انقطعت العلاقة في ألف ليلة وليلة بين المؤلف والكتاب، واكتسبت من خلال هذا بعدا سحريا بانتمائها إلى مؤلف وهمي قديم أو بانتمائها إلى كل الناس.

وقد حرص فولتير في كثير من الأحيان أن يكسب قصصه هذا البعد، ويجعل نفسه كأنه مجرد «راو» أو مترجم. فقصة «زاديج» تطرح بين يديها رسالة شعرية من الشاعر الفارسي سعدي في القرن التاسع الهجري «الخامس عشر الميلادي» يهدي خلالها إلى السلطانة قصة زاديج، وكأن هذه الرسالة حلقة في رواية قصة عريقة، ترويها كل الأجيال، وقد تلقفها فولتير ليعيد روايتها فهو ليس مؤلفها، وإنما راويها.

ويتكرر الموقف نفسه في مدخل قصته الشهيرة «كانديد» التي كتبها سنة ١٧٥٩. فقد كتب في مقدمتها أيضا أنها ترجمة لقصة ألمانية كتبها الدكتور رالف، مع الحلقات التي وجدت في جيب الدكتور حين توفي في مدينة مندان سنة ١٧٥٩. وليست هذه العبارة إلا أحد الأقنعة التي اقتبسها فولتير من الراوي الشرقي في ألف ليلة، وأعاد تشكيلها بما يتلاءم وعصره، لأن شراح فولتير يؤكدون أن أفكار «كانديد» تعود أصولها إلى

قصيدة «زلزال لشبونة» التي كتبها فولتير نفسه قبل ذلك بأربع سنوات سنة ١٧٧٥ .

و«كانديد» التي مثلت واحدة من أشهر قصص فولتير، عكست في ثوب روائي شائق، السخرية من الفلسفة التي كانت سائدة في عصره على يد القساوسة ومن ساندهم من الفلاسفة، والمتمثلة في عبارة «لايبنتز» : «ليس في الإمكان أبدع مما كان» . وقد تعرضت فلسفة التفاؤل هذه لمفارقات كثيرة على يد «كانديد» الذي كان يعيش في قصر خاله البارون، ولم تكن أم كانديد قد سمح لها بالاقتران رسميا بوالده الفارس لأنه لم يستطع أن يعد من سلالته أكثر من واحد وسبعين جدا من الفرسان، وكان الفيلسوف «بانجلوس» هو معلم القصر الذي يؤكد وجود العلاقة بين العلة والمعلول، وقد حاول كانديد تطبيق هذه العلاقة مع الفتاة الجميلة «كونجوند» ابنة البارون الشابة التي كانت تحبه ويحبها، فتبادلا قبلة سريعة طرد على أثرها من القصر، وتعرض بعد الطرد لمغامرات، فقد جند في جيش البلغار، ووجد نفسه يمارس القتل ويتعرض له دون سبب واضح، وآلاف الجنود يقتلون بلا هدف، وعندما تمكن من الهرب وكاد أن يهلك جوعا، لجأ إلى أحد القساوسة الذي بادر إلى سؤاله عن رأيه في المسيح الدجال قبل أن يعطيه طعاما ولما لم يجبه طرده دون أن يجود عليه بلقمة ولجأ إلى رجل هولندي علمه صناعة النسيج، والتقى بعد ذلك غيتسبول مشوه الوجه اكتشف أنه الفيلسوف بانجلوس الذي علم منه أن البلغار هاجموا قصر البارون وقتلوا أهله جميعا، وأن وجه الفيلسوف تشوه من مرض الزهري الذي أصابه من وصيفة في القصر كانت لها علاقة بقسيس كان من قبل عشيقا لكونتيسة عجوز التقطت المرض من كابتن في الخيالة، وظن كانديد أن الشيطان لا بد أن يكون أصل هذه السلسلة التي كان ضحيتها الفيلسوف بانجلوس الذي كان مصرا على أن الخير والتفاؤل هما الأصل في كل الأشياء .

ويرحل كانديد إلى لشبونة مع التاجر الهولندي، بعد أن يقنعه بإلحاق بانجلوس في عمل كتابي عنده، وتهجم عاصفة شديدة على السفينة فيكاد يغرق بانجلوس لولا شهامة التاجر الهولندي الذي يضحي بنفسه في سبيل إنقاذ بانجلوس، وما إن يهبطا برشلونة مع بحار عربيد حتى تزول المدينة من الوجود أمام زلزال عنيف، يروح ضحيته ثلاثون ألفا، ويستمر بانجلوس مع ذلك في الدعوة إلى التفاؤل ويجاهر بدعوته فلا ترضى عنه محاكم التفتيش التي كانت ترى أن الزلزال عقاب لأهل المدينة فتأمر بشنق الفيلسوف المتفائل، ويكتشف كانديد بعد فترة أن حبيبته كونجوند لم تمت في الهجوم البلغاري وإنما أفلتت هي وأخوها، وأن صديقه الفيلسوف بانجلوس لم يمت تماما في مشانق التفتيش وإنما ترك بين الحياة والموت فأفلت، فيقرر السفر إلى أمريكا للبحث عن حبيبته ويصطحب معه فيلسوفا متشائما هو «مارتن» الذي يرفع شعار : «ليس في الإمكان أسوأ مما كان» .

ثم يعود إلى البندقية، حيث يلتقي في أحد فنادقها ستة من الملوك المخلوعين من بينهم السلطان أحمد الثالث الذي خلعه ابن أخيه السلطان محمود من عرش تركيا، وكذلك إمبراطور روسيا السابق، وملك إنجلترا، وملك بولندا، وملك كورسيكا الذي أصبح مفلسا ويعلم أن حبيبته أسيرة في بلاد الترك، فيرحل باحثا عنها وعن الحكمة ومعه فيلسوفان أحدهما متفائل والآخر متشائم، ويشتد الجدال المنطقي والسياسي والاجتماعي بينهما، ويجد ضالته من الحكمة أخيرا عند شيخ من دراويش الأتراك المسلمين يهتم بمزرعته الصغيرة التي يرعاها هو وأبناؤه وبناته ويأكلون من خيرها ويكرمون به ضيوفهم، ولا يعلمون شيئا عن أسماء الوزراء في استنبول ولا يتجادلون في المنطق أو الفلسفة أبدا .

إن الملامح الشرقية في أدب فولتير لا تقف عند

استلهام أساطير الشرق، والتقنيات الفنية لحكاياته، ولكنها تمتد أيضا إلى تاريخ الشرق، كما مدنا في روايته التي ترجمها إلى العربية جلال مظهر سنة ١٩٤٧ بعنوان «أميرة بابل»، وقدمت مزيجا تاريخيا وأسطوريا من تاريخ مصر والهند وبابل والصين، ومظاهر الحياة في بلاط الملوك والأمراء، وغرائب السحرة ومعجزات الأنبياء.

## الجهل بالإسلام

ولا شك أن المسرحية التي كتبها فولتير سنة ١٧٤٢ بعنوان «ماهوميت» في تحريف واضح ومقصود لاسم نبي الإسلام محمد، مثلت أشد المواقف سخونة واصطداما في التعامل مع تراث الشرق واتخاذه طريقة للتعبير عن فكرة فولتير المحورية وعدائه لرجال الدين المسيحي في عصره، والهجوم عليهم من خلال رمز مواز، وكما يقول العقاد: لم يشأ فولتير أن يهجم على سلطان رجال الدين في الغرب هجمة صريحة، وكان يهمه عند كتابة تلك المسرحية أن يعلن آراءه ولا يتعرض من جرائها للسخط والحرمان، فاتخذ ذلك الأسلوب المنحرف، ولم يكترث لحقائق التاريخ ولا للأدب في الخطاب، ونسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أمورا كان يريد أن ينسبها إلى الجامدين من رجال الدين في عصره، فلم يخف قصده على العارفين ولامه هؤلاء على التوائه وعلى نفاقه وريائه، وكان من هؤلاء اللائمين نابليون، في حديثه مع الشاعر الألماني جيته، فإنه أنكر تلك الصورة الشوهاء، وقال إنها لا تصدق على محمد، إن محمدا لرجل عظيم ولا يجمل تصوير العظماء بهذا الأسلوب، ويضيف العقاد: إن كلام فولتير عن الرسول يعتبر نموذجا للصراحة المبرقعة في الحملة على أنصار الجمود، وقد كان كل كلام عن الرسول من هذا القبيل يجمع بين الرياء والجهل بحقيقة الإسلام.

ورأي العقاد يدخل في دائرة رد الفعل المعتدل إزاء مسرحية فولتير لدى الكتاب العرب، والذي يفسر جانبا من بطء حركة فولتير لدى عامة المثقفين العرب، بالقياس إلى حركة أدباء فرنسيين آخرين من أمثال مونتسيكيو، أو راسين، أو فكتور هيجو، ممن لم تصطدم كتاباتهم مع أحد الأركان الرئيسية في الشعور الديني.

غير أن هذا التحديد النسبي للدائرة التي تحركت فيها ترجمات فولتير إلى العربية لم يمنع ترجماته من الوجود الحي المؤثر في مجالات مختلفة ولدى شرائح متعددة وأجيال متعاقبة من المفكرين والكتاب والأدباء العرب على امتداد أكثر من قرن ونصف القرن.

بل إن اسم فولتير أصبح رمزا لكثير من القيم، مثل قيمة التسامح التي شاعت في التعبير عنها عبارته المشهورة: «لا أشاركك آراءك ولكني مستعد أن أبذل عمري من أجل أن تعبر عنها وتحياها بحرية».

واقترن كذلك بفكرة الرغبة في تحطيم القيود التي تحد من حرية الفكر وتصادر على المفكرين آراءهم، أيا كانت الدوافع التي تقف وراء هذه المصادرة، كما أصبحت فكرة «التنوير» تجد مصادرها في الفكر الحديث راجعة إلى القرن الثامن عشر، الذي كان يطلق عليه «عصر التنوير» والذي كان فولتيرّ واحدا من أبرز أعلامه إلى جانب مونتسيكيو، وديدرو، وروسو، ومن هذا المنطلق فلم يكد يتوقف عقد زمني منذ أكثر من قرن ونصف القرن عن تقديم ترجمة جديدة لأحد أعمال فولتير إلى العربية، بل إن بعض أعماله أعيدت ترجمتها إلى العربية أكثر من خمس مرات مثل رواية «كانديد» ورواية «زاديج» وبعضها الآخر مثل على مسارح الأقاليم في مصر منذ أكثر من مائة عام كما حدث مع رواية «ميروب» التي ترجمها القاضي محمد عفت بعنوان: «تسلية القلوب في مسرحية ميروب» ومثلتها جمعية روضة الأدب في المنصورة سنة ١٨٨٩.

ولم تتوقف رحلة فولتير مع القارىء العربي منذ أن أدخله رفاعة الطهطاوي تحت جبته إلى الشرق، واستمر حوار الفكر العربي مع معطيات فولتير تمثلا، أو مناقشة، أو قبولا، أو تحفظا وأصبح تراثه في مجمله يشكل جزءا من النسيج الأساسي لشريحة رئيسية في الفكر العربي الحديث.

فكر

## الأيديولوجيا في العلوم

# دعوة إلى علوم عربية إسلامية

بقلم: الدكتور علي القريشي*

بادىء ذي بدء، لا بد أن نشير - ونحن نقف أمام هذه القضية - إلى أن الإشكاليات المثارة في حقل العلوم الإنسانية، لا تنجو منها العلوم الطبيعية، ولو على مستوى بعض مسلماتها ونظرياتها وحقائقها وغاياتها.

فأيديولوجيًا يمكن أن نتذكر عالم الأحياء المشهور «ليسنكو» في العهد الستاليني حين حاول التوفيق بين النظريات البيولوجية وبين الفلسفة المادية الديالكتيكية. وميتافيزيقياً يمكن القول إن عددا غير قليل من المفاهيم والتفسيرات العلمية مبني على افتراضات مسبقة وغير تجريبية، فنظرية داروين - مثلا - على الرغم من تجريبيتها كانت تصدر عن النظرة الميكانيكية التي لا ترى في حركة الوجود إلا حركة آلية وليس من ورائها أي قوة عليا.

ومن ناحية المطلق والنسبي، فإنه مع ثورتي الكم (Quantum) والنسبية (Relativity) يمكن لكل حقيقة مطلقة في الطبيعة أن تتحول إلى حقيقة نسبية في مرحلة علمية تالية.

أما على مستوى الغايات فليس بخاف أن بعضا من معطيات العلوم الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية أخضعت للتحكمات السياسية والأغراض النفعية واللاإنسانية أحيانا.

إلا أنه - مع ذلك - لا يبلغ الإشكال في إطار هذه العلوم حدود الأزمة التي يبلغها في إطار العلوم الإنسانية، نظرا لطبيعة الاختلاف بين هاتين المجموعتين، إذ إن أبرز ما تتميز به العلوم الطبيعية - على الرغم مما ذكرناه - هو الموضوعية واللامعيارية إلى حد كبير، إذ لا تسمح أكثر مفاهيمها ونظرياتها بالتحكم الأيديولوجي أو إدخال عنصر القيمة فيها، ولهذا ترتفع في مجالها نسبة الحقائق التجريبية، على خلاف العلوم التي مجالها الفرد والمجتمع، حيث لا تمثل الحقائق المنضبطة في مكوناتها إلا القليل، بينما يغلب على تلك المكونات البعد الفلسفي والتنظير الفكري والتضمين الأيديولوجي والانحيازات التي يحكمها الاختلاف، على الرغم من ادعاء أصحابها الحياد والموضوعية، وسعيهم إلى محاكاة مناهج البحث الطبيعي، واتخاذهم بعض أدواته.

من هنا تبرز إشكالية الأيديولوجيا في العلوم الإنسانية، أكثر مما تبرز في حقل العلوم الطبيعية.

### علوم إنسانية واحدة أم متعددة؟

وضمن هذا السياق نشير إلى أن العلوم الإنسانية الغربية ما نهضت إلا على أسس فلسفية مستمدة من المدارس «العقلية» و«التجريبية» و«الوظيفية» و«البراجماتية» و«المادية الديالكتيكية». وهي على المستوى الاجتماعي قد تمخضت عن واقع له أيديولوجيته ونظمه ومؤسساته التي شكلت إطارا لانبثاق مفاهيمها ونظرياتها والانشغالات التي تداولها المتخصصون في حقولها.

والعلم الإنساني الغربي - بخاصة في تياراته الليبرالية المحافظة - كان أداة لصون البناء الاجتماعي، وتعبيرا عن

* أستاذ بجامعة عمر المختار - ليبيا.

**منذ مطلع الثمانينيات وحتى الآن، ينشط جدل في مجالنا العربي والإسلامي، حول العلوم الإنسانية (الغربية) - التي نتعاطاها ثقافة وتدريسا وبحثا - وما تثيره من إشكاليات، الأمر الذي يدفعنا إلى البحث عن بديل عربي إسلامي لهذه العلوم.**

أيديولوجيته السائدة، سواء في إطار بحوثه الداخلية أو الخارجية. خذ مثلا كيف يدرس العالم الغربي مجتمعات الآخرين في آسيا وإفريقيا، إنه لا يدرسها بموضوعية العالم الطبيعي حين يتناول الظاهرة الطبيعية، ولا في ضوء الالتزام المحكم بما تمليه المعطيات الحقيقية للواقع المدروس وظواهره الخاصة، بل تتحكم في حركة بحوثه نزعة «التمركز حول الذات» (Euro-Centrism) التي تجعل من مقاييسه الفكرية ونسقه الحضاري الذي ينتمي إليه معيارا لقياس الآخرين. وليست الدراسات الاستشراقية والأنثروبولوجية ونظريات التخلف والتنمية إلا نماذج صارخة لهذا المنهج.

وهذه الحقائق التي تفرضها طبيعة العلوم الإنسانية وظروف تكونها والتباسات حقلها لم تعد محل جدل كبير. فالكثير من المفكرين والعلماء والباحثين في الغرب نفسه أقر جانب «اللاموضوعية» فيها.

ومن هنا يمكن القول إن الجذور الفلسفية لهذه العلوم ونشأتها كانعكاس لواقع معين، ووظيفتها التنظيرية في سياق بناء اجتماعي، وخدمتها لغايات اجتماعية، كل ذلك قد جعلها محكومة باعتبارات معيارية ونفعية وجغرافية، تخرج بها في أكثر الأحيان عن مفهوم العلم (Science) بمعناه العالمي المحدد الذي نعرفه في حقل العلوم الطبيعية، الأمر الذي أخذ يخلع عليها إقليمية من نوع ما، دفعت البعض إلى القول: إنه لا توجد هناك علوم إنسانية اجتماعية واحدة، بل توجد علوم مختلفة.

## علومنا: أزمة نمو أم أزمة شرعية؟

ونحن إزاء هذه الإشكالية نتساءل: لماذا العلم السائد في مجالنا العربي والإسلامي لم يتعد بعد في حدوده النظرية الحدود التي تم اكتشافها من طرف «كونت» و«دور كايم» و«سان سيمون» و«باريتو» و«فيبر» و«بارسونز» وحتى «الإمبيريقيه» بالنسبة لعلم الاجتماع. و«واطسن» و«بافلوف» و «فرويد» و«يونج» و«أدلر» و«بياجيه» و«جون ديوي» و«فروبيل» و«بستالوتزي» بالنسبة لعلم النفس والتربية. و«دي سوسير» و«جاكسون» و«شومسكي» بالنسبة لعلم اللسان. وغيرهم من أقطاب العلوم الإنسانية الغربية الأخرى؟

وما جدوى استمرار الاعتماد المطلق على هذه المصادر ومنحها السيادة على مجالاتنا الأكاديمية والثقافية؟

وإذا كانت «اللاموضوعية» في هذه العلوم من منظور النقد الغربي لا تمثل إلا إشكالية ذات طابع أكاديمي في الغالب، فإنها في إطارنا العربي والإسلامي، تتجاوز هذا البعد لتثير إشكاليات معرفية وأيديولوجية وتربوية، ذلك أن هذه العلوم - ونحن نتداولها ثقافة وتدريسا وبحثا وتطبيقا، هي في المحصلة النهائية،



لا تمثل إلا تكبيلا للعقل العربي والمسلم، وتكييفا له على نحو يضعف ارتباطه بالهوية، ويلغي عنده اعتبارات الخصوصية، ويدفع به نحو شباك التقليد والتبعية. وتلعب جامعاتنا ومعاهدنا دورا أساسيا في تشكيل هذه الظاهرة حين تكتفي بتقديم العروض التجريدية للمفاهيم والنظريات التي تضعها في صلب مناهجها التعليمية دون أي نقد يذكر، حتى أن وظيفة الكثير من أعضاء الهيئات التدريسية أضحت مجرد إعداد الملخصات المترجمة عما كتبه الغربيون في هذا الفرع أو ذاك، وتلقينها للطلاب وكأن مضامينها حقائق علمية مطلقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. وتلك منهجية خطيرة أسهمت كثيرا في تغريب الذهن واصطناع المعرفة المشوهة، وإحداث حالة من الانفصام بين العلم والواقع. ولعل هذه النتائج تتجلى على نحو آخر لا يقل خطورة عند تطبيق تلك الفروع على صعيد النظم والحياة الاجتماعية العامة.

إن السبب الجوهري لأزمة العلوم الإنسانية هو الذات العارفة التي لم تعرف نفسها، ولم تستوعب معادلتها الاجتماعية، مثلما لم تستوعب الآخر، ولم تدرك أن لعلومه أبعادها الفكرية وخصوصياتها الاجتماعية وحقائقها النسبية. ولهذا فإن نقل تلك العلوم والتعاطي معها كمعطى جاهز لم ينتج - عندنا - أي علوم حقيقية.

ومن هنا يصح القول إن أزمة العلوم الإنسانية - الاجتماعية في مجالنا، ليست أزمة نمو بقدر ما هي أزمة وعي وأزمة شرعية. وبناء على ذلك فإن الدعوة إلى علوم خاصة في المجال العربي والإسلامي هي دعوة ذكية ومشروعة، لأن جعل العلم نظاما معرفيا متداخلا مع الواقع الاجتماعي ومؤثرا في تاريخيته من شأنه أن يحوله إلى قوة فاعلة في سيرورة التغيير.

وهذا ما كنا نسلكه بالفعل في إطار الخبرة التاريخية، حيث كانت العلوم العربية والإسلامية غير منفصلة عن المضامين الثقافية للمجتمع، كما كانت تعكس حالة الحوار بين الفكر والواقع.

إن العقل العربي والإسلامي لم يوصد نوافذه أمام التيارات الفكرية، ولم يُعرض عن العلوم الأجنبية، بل تقابل معها، وتعقلها، وتفاعل معها، واستفاد منها، و«أسلم» ما يقتضي منها «الأسلمة» ولم تذهله السباحة في روافدها عن اتخاذ الموقف الذي يقتضي التمييز بين مستويات الحقيقة المتفاوتة التي كانت تحتويها. ففي مناظرة جرت عام ٣٢٧هـ. بين العالمين العربيين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر القناتي، أثيرت إشكالية المطلق والنسبي في المنطق اليوناني، على الرغم من أن المنطق هو أقرب ما يكون للرياضيات، فكيف سيكون الاستعداد النقدي للعقل العربي الإسلامي حين يواجه علوما كالعلوم الإنسانية الحديثة؟!

## المشهد النقدي ومقومات البديل

واليوم، ونحن نعيش حالة التراجع، ونفكر بالخروج من المأزق، ونحاول الاجتهاد في البحث عن بديل علمي مناسب، نجد أن المشهد النقدي الراهن قد انتهى إلى اتجاهين رئيسيين:

الأول: إصلاحي يُسلم بالإنجازات الغربية في الفروع المختلفة للعلوم الإنسانية، ويدعو إلى إقرارها، مع الأخذ بمبدأ التطويع والتكييف الذي يناسب مجالنا الاجتماعي وظروفنا الحضارية.

والثاني: جذري ينطلق من مبدأ التأصيل والتأسيس ويدعو إلى إيجاد «العلمية الخاصة»، مع التعامل النقدي مع المعطيات العلمية الغربية وتقبل ما هو مطلق وإيجابي فيها دون الاستنكاف عن أي استعارات مفيدة.

ونحن إذ نرى عدم جدوى الاتجاه الأول، لأسباب علمية وتربوية وحضارية ألمحنا إليها، فإن الاتجاه الثاني هو الأجدر بالتبني في إطار من الجهود الفردية



والمشتركة. ولا بأس أن نشير هنا إلى أبرز المقومات التي ينبغي الأخذ بها لبلورة هذا الاتجاه:

أولا: تطوير الموقف النقدي إزاء العلوم الغربية على النحو الذي يقود إلى امتلاك القدرة على التمييز بين ما هو علمي موضوعي، وبين ما هو قيمي أيديولوجي، مع الاستفادة مما توصل إليه، علماء الغرب من حقائق ومعارف علمية نتفق نحن وإياهم على موضوعيتها أو إطلاقها.

ثانيا: العكوف المسبق على توضيب المسلمات الميتافيزيقية والأفكار القيمية التي تأخذ صفة الثوابت في إيماننا، واعتبارها الأساس الفلسفي لبنائنا المعرفي (يُشار هنا إلى جهود بعض المفكرين الإسلاميين، والجهود التي يبذلها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن).

ثالثا: بذل الجهد العلمي المتواصل لاكتشاف الحقائق والمعارف الموضوعية المرتبطة بالفرد والمجتمع في مجالنا العربي والإسلامي. وصياغة النظريات التي تفسر ظواهره الكلية والجزئية، وذلك من خلال دراسات وبحوث نظرية واستقصائية وحقلية وتجريبية (يُشار هنا إلى بعض جهود مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، وبعض البحوث الجامعية في مصر بوجه خاص) يمكن استخدامها في مزيد من فهم الواقع، واستنباط قوانينه المطلقة أو النسبية.

رابعا: استلهام التراث العربي والإسلامي نصا و برة في بناء المفاهيم والنظريات أو تطويرها، مع ضرورة الحذر من التعامل مع معطياته بمنهجية الاستنساخ التي من شأنها أن تقود إلى حفر «الأفكار الميتة» (التي كانت حية في إطارها التاريخي أو الاجتماعي، ثم فقدت فاعليتها في خضم المتغيرات) - كما يوضح ذلك مالك بن نبي.

خامسا: الإسهام في اكتشاف الحقائق والمعارف الإنسانية المطلقة التي لم يتوصل إليها العلم الإنساني المعاصر، وتسجيل أي نتيجة موضوعية دقيقة تتمخض عن ذلك وإضافتها إلى صرح المعرفة العلمية العامة، مع اعتبارها جزءا لا يتجزأ من منظومتنا العلمية الخاصة.

سادسا: اكتشاف وتطوير مناهج بحثية وأساليب وأدوات نابعة من الواقع، وتتناسب مع القضايا والإشكاليات المثارة ضمن هذا الواقع. مع إمكان الاستفادة من المناهج والأساليب والأدوات الغربية المناسبة.

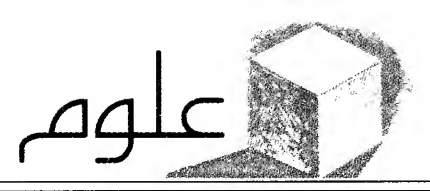
## إسلامية المعرفة والبديل

مما تقدم، وحيث يتبين لك حضور الرؤية الإسلامية في صلب البديل المقترح واستراتيجية دعمه وتطويره، فإن ثمة حقيقة أساسية لا بد أن نشير إليها وهي: إن ظواهر الخطأ والمحدودية العقلية، وفقدان اليقين المطلق، كصفات تلازم الجهد البشري في حقل المعرفة، تجعل من الحاجة إلى الوحي - بما يقدمه من يقين معرفي، وإجابات إلهية لأسئلة الإنسان وملابسات حياته الفردية والاجتماعية - ضرورة حيوية وعلمية في المطلق، مثلما هي ضرورة علمية خاصة في إطار المجتمع الذي يؤمن بذلك الوحي ومقرراته.

غير أن ثمة تحفظا في هذا الخصوص ينبغي مراعاته وهو: أن المداخلة الإسلامية في عملية تأصيل العلم وبنائه، ينبغي أن تتم في إطار من الوعي بمقولة إن الإسلام «مذهب» لا «علم».

أي أنه إذا كان بإمكان «المذهبية» الإسلامية أن تنعكس على بعض مسلمات العلم الأولية وتؤثر في صياغة بعض مفاهيمه وبناء نظرياته الاجتماعية - كما تسمح بذلك الطبيعة المعيارية لبعض أنشطة العلوم الإنسانية - فإن ذلك ينبغي ألا يؤثر في حيادية العملية العلمية بصفتها بحثا «منهجيا» في أسباب الظواهر ووصفا دقيقا لخصائصها وتحليلا لعلاقاتها ورصدا ماديا واجتماعيا لتكراراتها وانتظامها، وبالتالي استنباطا لقوانينها العامة أو النسبية.

إن المعيارية (أحكام القيمة وما ينبغي أن يكون) لا يمكن استبعادها - على خلاف ما يُزعم - عن مكونات العلم الإنساني «فالعلوم التي تظل تنطوي على القيمة هي العلوم التي تنطوي موضوعاتها على القيمة». والمنهجية الإسلامية إذ تستوعب المعيارية في بنائها العلمي، تشترط أن تكون هذه المعيارية مقرونة بالموضوعية في تلازم وثيق، . وأخيرا يمكن القول - مع كل ما قدمناه - إن دعوة البديل العلمي في مجالنا العربي والإسلامي تمثل في حقيقتها ظاهرة صحية. □




# خدم الكمبيوتر

بقلم: أنطوان بطرس

شاع في الآونة الأخيرة في عالم الكمبيوتر مصطلح جديد هو (Client Server) ليعبر عن نوع جديد من التطبيقات الكمبيوترية. ومن النادر أن يفتح المرء مجلة أو مادة إعلامية جديدة ولا يجد ذكرا لهذا المصطلح فيها. البعض ترجمه بـ«الخادم» والبعض الآخر بـ«المزود/ المستفيد». ونحن من هذا البعض الآخر لأن مصطلح المزود أكثر دقة وأبعد دلالة. فكلمة خادم تخلط بين Servant و Server وهناك فرق شاسع بينهما. على أية حال فالمصطلح الجديد إنما يعبر عن وظيفة جديدة للكمبيوتر الشخصي، ضمن إطار العمل وهي حلوله محل الكمبيوترات الكبرى لتوزيع العمل وتقاسمه ضمن المنشأة الكمبيوترية الواحدة وضمن بيئة وظائفية معقدة أو بين عدة نظم وأحيانا مؤسسات عدة.

والمعروف أن الكمبيوترات مرت تاريخيا، من الوجهة العامة، بمرحلتين. الأولى: الكمبيوترات الكبيرة المسماة سوبر كمبيوترات أو إيوانية (نسبة للإيوان لكونها كانت تتصدر المكان الذي كانت توضع فيه لضخامتها)، والثانية: الكمبيوترات الشخصية الصغيرة. وكان العمل في المؤسسات، خاصة الكبرى، يعتمد هذين النوعين من الكمبيوترات بحسب مقتضيات العمل ونوعيته.

ومع تطور تكنولوجيا المعلومات، وخاصة تكنولوجيا التصغير (Downsizing)، فقد باتت الأجهزة الشخصية الصغيرة ذات فعالية كبيرة وقادرة على مواجهة أعباء كانت في الأمس القريب من اختصاص الكمبيوترات الكبيرة. وفي حين لم يتم الاستغناء عن الكمبيوترات الإيوانية فقد ازداد دور الكمبيوترات الصغيرة في بيئات العمل، وأخذت الشركات تتسابق على تسويق أجهزتها الصغيرة.

## عمليات كبرى.. في لحظات

ونظرا لتعقيدات بيئة العمل فقد وجدت الشركات ضرورة لتوافر أجهزة تستطيع أن تقوم بأداء النوعين في آن. صحيح أن الأجهزة الصغيرة قادرة على العمل بسرعات كبيرة وتخزن مقدارا كبيرا من المعلومات غير أن الضرورة باتت تقضي بأن يقوم في وسط المنشأة جهاز شبيه بالأجهزة الإيوانية ذو مهمة تنسيقية يوزع العمل بين مختلف المستعملين وبحسب اختلاف درجاتهم وتنوع متطلباتهم وصلاحيتهم للولوج إلى هذا أو ذاك القسم من المعلومات.

والحقيقة أن المفهوم الأساسي للأجهزة «المزودة/ المستفيدة» هو أن أي عمل معقد للكمبيوتر إنما ينطوي على ثلاث عمليات معالجة مختلفة: خزن البيانات، معالجة البيانات، تقديم البيانات للراغب فيها (المستفيد) عند الطلب. هذه العمليات الثلاث تتوزع بين مختلف الكمبيوترات في المنشأة الواحدة، بحيث إن كلا منها تتم في الكمبيوتر الأنسب لكل واحدة من هذه العمليات الثلاث.

فإذا أخذنا على سبيل المثال حسابات الموازنة في شركة ما ذات ستة فروع مثلا وأردنا أن نعرض النتائج في رسم بياني، نجد أنفسنا، حسب العرف السائد حاليا في

**الأجهزة «المزودة/ المستفيدة» تدخل عالم الكمبيوتر من الباب العريض، تعبيرا عن مرحلة جديدة في تطبيقات الأعمال، وإن كانت تحمل اسم «الخدم».**

الشركات، مضطرين للحصول على المعلومات من دائرة المعلوماتية في الشركة، وأن ننتظر أياما وربما أسابيع لترسل لنا هذه الدائرة ما طلبناه من تقارير. فقد تكون منشغلة بغيرنا أو بأشياء أخرى مما يحول دون تلبية طلبنا فورا. وقد نجد أنه من الأنسب أن نطلب من كل فرع من فروع الشركة البيانات الخاصة به، وفي كلتا الحالتين هناك دائرة معينة لتلبية مثل هذه الطلبات وهو أمر يحتاج إلى خبرة ووقت، خلال ذلك ما علينا سوى الانتظار.

لكن إذا كان لدينا نظام «مزود/ مستفيد» فكل ما علينا هو أن نحدد طلبنا على شاشة الكمبيوتر الشخصي الخاص بنا، وهو في هذه الحالة (المستفيد) بالتأشير بواسطة الفأرة على المعلومات المطلوبة. فيقوم الكمبيوتر بإصدار الأمر إلى الكمبيوتر التابع للدائرة (وهو المزود) الذي يتولى البحث عن المعلومات المطلوبة. فقد يعثر عليها في قاعدة بياناته أو كمبيوترات أخرى عائدة لدوائر أو أقسام أخرى وربما في كمبيوتر مركزي للشركة، وربما أيضا في كمبيوتر تابع لمنشأة أو مؤسسة كمبيوترية أخرى، وعندما يعثر عليها يحولها إلى كمبيوترنا الشخصي (المستفيد) والذي يقوم عندها بتحويل البيانات إلى رسوم بيانية على الشاشة... كل ذلك خلال لحظات.

## موافقون ومعترضون

من الواضح إذن أن المفهوم ينطلق من علاقة معينة بين الجهاز الموزع والجهاز المستفيد عبر آلية معينة مرنة.

من هنا كانت الأنظمة «المزودة/ المستفيدة» تجمع مزايا أنظمة مراكز البيانات وجهاز الكمبيوتر المستقل، التي من شأنها تحويل نمط العمل بين رجال الأعمال والاختصاصيين في تكنولوجيا المعلومات، حيث بإمكان المستعملين الأفراد اختيار أدوات العمل الشخصية التي يفضلونها مع إمكانات الولوج إلى المعلومات أو إلى البرامج الكمبيوترية على نطاق الشركة ككل. أما المسئولون عن أنظمة تكنولوجيا المعلومات، فإنهم يستطيعون الحفاظ على بنية تحتية لتكنولوجيا المعلومات أمنية واقتصادية، وفي الوقت نفسه التجاوب بسرعة مع المتطلبات الطارئة، وبالإمكان توزيع الموارد الكمبيوترية، إذا جاز التعبير، ضمن إطار المؤسسة والتحكم بها وإدارتها مركزيا. وبالإمكان أيضا تطوير تطبيقات جديدة، وفي الوقت نفسه ترقية التطبيقات الموجودة للحصول على أفضل مردود بالنسبة للاستثمارات. بالمختصر فإن الميزة الأبرز للأنظمة المزودة/ المستفيدة تكمن في قابليتها لأن تتكيف وتتعدل وفق أي استراتيجية مطلوبة، على أن يتم اختيار الهيكلية الأنسب والهندسة الأفضل لمتطلبات العمل.

ويرى أنصار الأنظمة «المزودة/ المستفيدة» أنها تتفوق على الأنظمة الإيوانية بثلاث ميزات على الأقل:

- أن كلفة تشغيلها أقل من كلفة تشغيل الأنظمة الإيوانية.

- أن استعمال الأنظمة «المزودة/ المستفيدة» يحول دون أن يسيطر العاملون على الأنظمة الإيوانية على جميع بيانات المؤسسة.

- من الأسهل تشغيل الأنظمة المزودة/ المستفيدة، وهذا لا يتطلب اختصاصيين بل يكفي أن يعمل عليه القادرون على تشغيل الأجهزة الكمبيوترية الشخصية.

إلا أن ثمة من بدأ يعارض هذا الرأي معارضة شديدة، ويؤكد ضرورة الاستعانة بالأنظمة الإيوانية، نظرا إلى أن:

- تشغيل شبكة كمبيوترية كبيرة من الأجهزة الشخصية أغلى بكثير من تشغيل نفس العدد من المحطات بواسطة نظام إيواني على المدى البعيد، وهذا ما بينته عدة دراسات أجرتها مؤسسات مستغلة للأبحاث.

- فيما يتعلق بسيطرة شخص أو أشخاص معدودين على مقدرات جميع بيانات المؤسسة، فإن الأنظمة الإيوانية مزودة بتسهيلات أمنية أكثر تطورا واختبارا من تلك الخاصة بالأنظمة المزودة/ المستفيدة، وبالتالي فإن خطر تعرض هذه البيانات للقرصنة أو مشروع الفيروسات أقل بكثير في الأنظمة الإيوانية.

- فيما يتعلق بسهولة تشغيل الأنظمة، يقول أنصار الأجهزة الإيوانية إن لغات البرمجة المستعملة في تلك الأجهزة تسمح بمعالجة عمليات معقدة بتعليمة واحدة، على عكس لغات الأجهزة الشخصية، فضلا عن أن الشركات التي تنتقل من الأجهزة الإيوانية إلى الأنظمة المزودة/ المستفيدة ستضطر لتحمل أعباء إعادة تدريب العاملين لديها ليتعلموا كيفية تشغيل الأنظمة الشخصية.

## المعالجة المتوازية

من الواضح أن الأنظمة «المزودة/ المستفيدة» لن تحل بالضرورة محل الأنظمة الإيوانية، وإنما ستكون مكملة لها، ولكن إذا تأكدت أهمية الأجهزة المزودة/ المستفيدة ضمن المنشأة الواحدة فماذا بشأن التواصل بين أكثر من مؤسسة لكل منها أنظمتها المختلفة؟.

يمكن تجاوز مشكلة عدم التوافقية بين الأجهزة والأنظمة التشغيلية ضمن شبكة «مزودة/ مستفيدة» عن طريق اعتماد «برامج وسيطة» (Middleware Software) تلعب دور «الربط» بين البيانات الواردة من أنظمة متعددة، وذلك من دون أن يضطر المستعمل إلى التدخل. والبرامج الوسيطة هذه تتولى إيجاد البيانات المطلوبة وتحويلها إلى النسق المطلوب، وعرضها للمستعمل الذي طلبها بواسطة البينية الرسومية للمستعمل.

وتشير الإحصاءات إلى أن عدد الأجهزة العادية أو التقليدية (إن صح التعبير) كان قبيل عام ١٩٩٢ قد بلغ ٧٠٪ من مجموع الأجهزة، مقابل نسبة ٣٠٪ للأجهزة المزودة/ المستفيدة. ويرجَّح أن ترتفع النسبة الأخيرة هذه إلى ٧٨٪ بحلول عام ٢٠٠٠، ويتضاءل دور الأجهزة العادية إلى نسبة ٢٢٪.

وتعتبر شركة «أوراكل» من الشركات الرئيسية في مجال برامج الأنظمة «المزودة/ المستفيدة». وتعرض نظام «ميديا سيرفر» ليقوم بدور «مخزن البرامج» الخاصة بأنظمة الإعلام المتعدد «المالتي ميديا» مع تحديد كيفية تخزين واستخراج

● خدم الكمبيوتر.

المعلومات إضافة إلى إيصالها إلى وجهتها النهائية. ويعمل البرنامج على أنظمة كمبيوترية تعتمد على المعالجة المتوازية المكثفة مع إمكان معالجة ألوف الطلبات البيانية في الوقت نفسه، وإدارة عدة أنواع من البيانات الفيديوية والسمعية والمكتوبة.

ومن التطبيقات العلمية للبرنامج إدارة شبكة فيديو، وإمكان تلبية طلبات ٢٥ ألف قناة فيديو فردية خاصة بالمشتركين، مع تمكن المشتركين هؤلاء من القيام بمختلف تسهيلات الفيديو مثل عملية الضبط والإرجاع وتثبيت الصورة وغير ذلك.

كما يتيح الميديا سيرفر للمستعملين استقبال وتشغيل مئات الأقنية التلفزيونية، بحيث يستطيع المشاهد اختيار ما يريده هو. وليس ما يفرض عليه من برامج، وذلك في الوقت الذي يختاره. وهذه الميزة مفيدة بشكل خاص لبرامج التبضع بواسطة أجهزة التلفزيون.

مقارنة الأنظمة الكمبيوترية التقليدية والأنظمة المزودة / المستفيدة الى إجمالي الأنظمة المعلوماتية



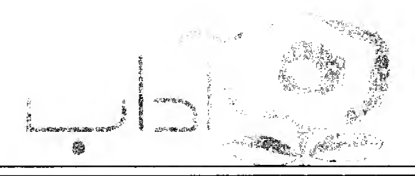
## خادمات المستقبل

يعتبر نظام «وندوز إن تي» من إنتاج «مايكروسوفت» من أبرز الأنظمة التشغيلية للتطبيقات «المزودة/ المستفيدة» في الوقت الحاضر. ويوفر النظام قاعدة قوية ذات ٣٢ بت مع تعدد المهام وإمكان الولوج إلى بيانات سعة عدة جيغابايت - (جيغا = بليون، والبايت = ثماني بتات، والبت أصغر وحدة تخزين في الكمبيوتر وهو رقم قد يكون صفرا أو واحدا) من الذاكرة - وعدة تيرابايت (التيرا = تريليون) من أقراص التخزين. وهو يتضمن تسهيلات مدمجة للشبكات والتقييس مع إمكان العمل وفق معالجات إنتل بالتعليمات المعقدة «سيسك»، ومعالجات التعليمات المبسطة «ريسك» فضلا عن التعدد المتوازي للمعالجات*.

وبدورها فإن عملاق الشركات المصنعة للكمبيوترات الإيوانية «آي بي إم» دخلت هذا الميدان لتطرح أجهزة «مزودة/ مستفيدة»، وأبرزها: الكمبيوتر «أي إس/ ٤٠٠» المصمم في الأساس ليكون قابلا لإعادة التطوير بصورة مستمرة، مع اعتماد تركيبة «مزود/ مستفيد» معقدة، من دون أن يشعر المستعمل بالأمر وتعمل أنظمة «أي إس/ ٤٠٠» وفق نظامها الخاص، بالإضافة إلى نظام التشغيل يونيكس وأنظمة المعلوماتية الشخصية. وقد طرحت «أي بي إم» أخيرا نظامين جديدين آخرين أولهما (نيت فينيتي) للدمج بين الوظائف المتفوقة الخاصة بالأجهزة الإيوانية، والثاني (سرفر غارد) ليتيح لمدراء الشبكات فرصة مراقبة وإعادة تركيب الأنظمة المزودة والتحكم بها عن بعد.

وليست «أوراكل» أو «مايكروسوفت» أو «أي بي إم» سوى أمثلة بسيطة عن تحول الشركات المصنعة للكمبيوترات إلى إنتاج الأجهزة «المزودة/ المستفيدة». ويمكن أن نضيف شركة «هيولت باكرد» و«إنفورميكس» و«ديجيتال» وحتى «كراي»، هذه الأخيرة التي بنت شهرتها على صنع الكمبيوترات الفائقة الإيوانية، وما ذلك إلا للدلالة على الاتجاه المستقبلي الذي باتت تمثله الأجهزة «المزودة/ المستفيدة». □

* لإيضاح هذه المعلومات يُرجع إلى العربي - عدد أغسطس ١٩٩٤، ص ١١٤




# اعترافات

شعر: منصور الرحباني

أحب أن أجالس الأغراب
لأنهم يمضون لا يتركون حزنهم
لا يوقظون جزراً غريقة فينا
يمضون ألف سنة
يمضون من أيامنا
يمضون
أحب أن أحادث الذين لا أعرفهم
نشرب كأساً ـ مرة ـ
نحكي عن الأوضاع
عن ثورة بلاغها يذاع
ونكتم الصراخ في عيوننا ونكتم الأوجاع
أما رفاق صغري
فإنهم يجالسون في بلدتي
طلائع المشيب
ويكبرون في المقاهي
وجوههم صارت نحاساً
وتماثيل سنين
أهرب منها . .
لأنها وجهي وتاريخي وعمري
إنني أهرب من وجهي وتاريخي وعمري

كي لا يجيء الوقت
جعلت حراساً على المداخل
أوصدت أبوابي
كسرت في بيتي المرايا
حبستني في الداخل
لكنني مازلت
أكبر في الداخل
أنهار في الداخل
وإن ما يأتي . . يأتي من الداخل
من لي بأن أكسر هذا الوقت
هذا السجن
هذا العدم القادم كالأسوار
السيد الآتي بلا حزن
بلا دمع بلا أشعار
ليجمع الأشعار
من لي بأن أفلت من هنيهة
أفتح فيها طاقة
أقفز منها مسرعاً
خارج سور الوقت أعدو
كهارب من القطار□


حلمي التوني 96




قراءة نقدية في

# «أنا.. الآخر»

## مجموعة قصصية للدكتور سليمان الشطي

بقلم: الدكتور محمد حسن عبدالله

«ونظرت في خزان الذاكرة فوجدتها تنثال حاكية قصة الجد القديم، تلمست الجلد، حككته فانبثق دم، سال، تشكلت خطوط، ترتبت سطور، توالت قصص، نحتت صخور، قطعت أشجار، تجمعت مجلدات، تجردت أفكار فاستوى تاريخ يشدني شدا فتنخلع كتفاي. دار رأسي، فاستسلمت».

هذه عبارة افتتاحية، صدر بها سليمان الشطي آخر قصص مجموعته، فكأنما جعلها بابا يفتح على نموذجين من نماذج «الخناجر النادمة» ـ وما أكثرها في تاريخ الصراع البشري ـ قابيل قاتل أخيه، وعبد السلام، أو «ديك الجن الحمصي» قاتل جاريته، أو غلامه، أو كليهما. غير أن هذه العبارة الافتتاحية، وإن تأخر مكانها في ترتيب القصص تبدو لنا دقيقة جدا في وصف هذه المجموعة القصصية، وتحديد إطارها العام، ونشاط الذاكرة في تشكيل مادتها، وتوجيه أهدافها. وقبل أن نتمهل عند بعض هذه الجوانب نذكر أمرين: أن الأديب القاص سليمان الشطي هو أستاذ النقد الأدبي بجامعة الكويت، ولا نذكر هذا لمجرد العلم بالشيء، أو إضفاء التعريف، وإنما لما نتوقع مسبقا من احتمال التعارض بين موهبة الإبداع ومقدرة البحث الأدبي، فكثيرا ما تطغى إحداهما على الأخرى، وغالبا تكون موهبة المبدع هي الضحية، المتراجعة، ولا أقول المرتجفة، أو المرتبكة، أمام زحف المعرفة، وتطلع الفنان واسع الثقافة إلى أن يضمن عمله الإبداعي خير ما استوعب عقله من نظريات، ورموز، وإسقاطات، وكلاسيكيات متأصلة، واكتشافات مستحدثة.. إلخ. فينتهي به التوفيق المستحيل إلى تلفيق يثير الإشفاق، بما يدل عليه من «طمع» في أن يقول العمل الفني كل شيء، فتكون النتيجة أن يسقط في التأتأة، والفأفأة.. ولا يتمكن من إبلاغ نيته الحسنة!! هذه المجموعة القصصية دليل مؤكد على أن الكاتب لم يقع في هذا «الكمين» الجاهز، الذي نلاحظه في إبداعات كثير من الأكاديميين الذين يتطلعون إلى المشاركة في الإبداع، وقد يملكون الموهبة، ولكنهم يتهيبون إطلاق العنان لها، فتتعثر في ركام المعارف النظرية، وخبرات الآخرين، وتكون الكبوة المفسدة.

أما مرجع هذه «العصمة» ـ وهو الأمر الثاني ـ فلأن سليمان الشطي بدأ قاصا، إذ ظهرت مجموعته الأولى: «الصوت الخافت» عام ١٩٧٠ وكان طالبا بالليسانس، وظهرت مجموعته الثانية: «رجل من الرف العالي» عام ١٩٨٣، وهذه المجموعة الثالثة تؤكد التواصل، كما تدل على تطوير الرؤية، فقد كانت المجموعة الأولى معزوفة حنين إلى الماضي، قبل أن تهب عاصفة النفط فتقتلع أشجار السدر وتقيم مكانها أبراج الأسمنت، كما كانت المجموعة الثانية مجهرا يكشف نوازع القلق والضياع لدى المثقف العربي في راهنه الحافل بالتناقضات.

### خزان الذاكرة

إن «خزان الذاكرة» هو المصدر الأساسي لتجارب هذه القصص السبع التي تكونت منها مجموعة: «أنا..

**من خلال قصص هذه المجموعة يقدم الكاتب قراءة تاريخية، تشريحا طوليا، اكتشاف طبقات وتراكمات الشخصية العربية أو الكويتية ـ لا فرق ـ فكل الأنهار تجري إلى البحر.**

الآخر»، وهذا هو الخيط المستتر الدقيق الذي يمتد ما بين سليمان الشطي مبدعا، والدكتور سليمان الشطي ناقدا وباحثا، وهو لا يحكي التراث المختزن، وإنما ينتقي، وينتقد، ويعيد التشكيل، ليتولد المعنى، ويتحدد الهدف، فهنا «رؤية»، أو «تناص» يضع البعد التاريخي للنص في صميم عصر الكاتب، صانعا الجسر الممتد المشترك ما بين المبدع وقرائه.

كيف «تشكلت خطوط»، و«ترتبت سطور» و«توالت قصص» منبثقة عن خبر تاريخي، فتصبح بالتناص الواعي حاضرة في واقعنا، مجسدة لمعاناتنا؟

في قصة «أنا الآخر» يبرق نص: «حدثني جماعة من شيوخ بغداد أنه كان بها في طرفي الجسر سائلان أعميان، يتوسل أحدهما بأمير المؤمنين علي، عليه السلام، وآخر بمعاوية، ويتعصب لهما الناس، وتجيئهما قطع النقود دارّة. فإذا انصرف الناس اقتسما القطع، وأنهما كانا شريكين، يحتالان بذلك على الناس». قرأ راوي القصة هذا الخبر الطريف على صديقه «التاريخي» حميد، فأصر على وصفهما بأنهما أولاد كلب. مع هذا راح يجرب طريقتهما، فـ«اللعب على الاختلاف ممكن»، وهكذا توسع الصديقان الشريكان في تجارتهما، ما بين محل لبيع أشرطة الأغاني، ومطبعة، مع عملهما الصحفي. يردد الأول أنغام الحرية والفن عن اقتناع، ويرفع الآخر (حميد) شعارات التوبة والالتزام. وهذا الطريق الأخير تفتق عن عقود وأموال ومشروعات، ما لبثت أن زحفت على مساحة الحرية، وأحرقت أشرطة الفن، وانتهى الأمر بالصديقين إلى فُرقة يستحيل معها الاجتماع. وبهذا افترق «الأعميان» على طرفي جسر بغداد، بل انقطع الجسر وسقط، لأن «اللعبة» في هذا الزمان صارت أكبر، والمحركات والثروات المساندة أكثر، فلم تعد أنصاف الحلول بين الشركاء ممكنة، وبخاصة أن أحد الشريكين ـ في القصة ـ يؤثر الغموض، بحجة أن «في الغموض سحر مطلوب، والواضح قد لا يكون محل اتفاق»، وبهذه الخدعة «الفنية» سوّغ أسلوب عمله السري، وخدع صاحبه. وفي قصة «جمل» يتحقق التناص مع قصيدة للشاعر أحمد العدواني: «رسالة إلى جمل» وفي القصيدة يتخذ الشاعر من هذا الصديق التاريخي رمزا للأصالة، والثبات، والصبر على معاناة التفاهة في زمن تتغير طبائعه وفق مطالب الزيف. أما القصة التي تصدّرها مقطع من القصيدة ففيها جملان، وليس واحدا، تباعدت بينهما طرائق المعاناة، لكنهما انتهيا إلى الهوان، وتزييف الرسالة، فثار أحدهما ودفع حياته ثمنا لنخوته، ورقد الآخر مستسلما، جيء به ليصنع الشفاء لمريض ميئوس من شفائه، فتحول المريض إلى طبيب

● د. سليمان الشطي

يحاول استنقاذ آخر الرموز التي تنتمي إلى زمانه. كان الجمل الأول وسيلة إنقاذ «الأب» من جنون الثأر في البادية، فحمله إلى المدينة، تكيف الأب مع الواقع المتغير، فلم يستبق من البادية إلا الحنين، فإذا قال مجرب إن شفاءه في لبن الناقة، أدّى التداعي دوره، فقال الأب: «إذا كان لا بد من حليب الناقة فليكن معها جمل»، وقد شرط في الجمل المأمول شروطا جمالية، أمكن العثور عليها ولكن مطعونة بزيف الانتخابات العصرية، فلأمر ما يحرص المرشحون على إقامة الخيام في الصحراء لاستقبال الناخبين، واعتقال جمل مهاب الطلعة قرب الخيمة ليثير نعرة القبيلة، ويعمّق الشعور بالانتماء. وهكذا ظهر الجمل القديم المذبوح بثورة الكرامة ورفض الهوان، مكتوفا بالحبال، وقد تحول إلى دمية، لافتة دعاية، رمزا للعجز عن الفعل، والتردي الذي مثلته «البطة البرية» في مسرحية إبسن الشهيرة!!

## قابيل يعود

وفي النموذج الأول من حملة الخناجر النادمة، قابيل، فإن تطوير الحكاية محكوم بالنص القرآني، وقد انعكست

العلاقة التناصية بالمقدس في تأسيس حالات نفسية مزاجية، لا تصادم ولا تضيف ما يمكن اعتباره تدخلا، فقابيل - في القصة - فلاح، مالك للأرض، حاكم ومحكوم بمنطق المنفعة وقوة الملك، في حين كان هابيل راعيا، والرعي كما يراه الكاتب يكسب صاحبه شعورا حرا، ويقربه إلى قيمة العدل والمشاركة، ويعلمه تحمل المسئولية، ولعل الكاتب كان يستحضر القول إن الرعي كان دائما مهنة الأنبياء، ولكننا نعرف في تحليل مراحل الحضارة أن الرعي هو المرحلة الأقدم (الأدنى) وأن بداية بناء الحضارة كانت مع الزراعة، على أن الكاتب لم يدخل في هذه المساحة من الجدل، وكل ما استبقاه من أخلاق الرعاة فضيلة المشاركة، والسخاء بما في اليد، وهذا عكس ما يؤمن به من ذاق لذة التملك وجرّب الاستعلاء بالثروة، وبهذا التعارض تحدد المصير «التراجيدي» لهابيل، واستكملت الذرائع أن يكون قابيل قاتلا لأخيه، أما موضوع النزاع: «المرأة» فمسكوت عنه في النص، مسكوت عنه كذلك في التناص المحكوم بقيود التعامل مع الأصل. لم يكن الأمر كذلك في النموذج الثاني، ديك الجن، ولهذا تحرك تشكيل المادة المأثورة بين احتمالات الرواية، وإشارات الشعر، واصطناع عناصر تنويع لإذكاء الصراع، واستكمال تصوير الحادثة الفريدة التي ينقصها الكثير من عوامل الإقناع، وفي سياقها - كما ترويها المصادر الأدبية - غموض وثغرات متعددة، وبرغم أن الكاتب بذل جهدا ليدخل إلى أعماق هذه الشخصية النادرة، فإنه - بطريقة ما - أحس أن قدرا من الحقيقة لا يزال مطويا يستعصي على الكشف، أو أن «الزمن» أضاف إلى الحادثة ما ليس منها.

## الواو المحذوفة

ثم نتأمل هذا العنوان: «أنا.. الآخر»، وهو خاص بقصة محددة، ولكنه يصلح عنوانا، لا يفتقد الدقة، لكل قصة على حدة من قصص هذه المجموعة. نلاحظ أولا الاستغناء عن واو العطف، فهي ليست عن الأنا، والآخر. وبالصيغة التي آثرها سليمان الشطي تتجرد «الأنا» تماما من أنانيتها، فقد جعل من الـ «هو» أصلا، ومن «الأنا» فرعا، أو مساعدا، وكما تحتمل صيغة التقابل بين الـ «هو» والـ «أنا»، فإنها تحتمل انقسام «الأنا» نفسها بين مستويين: الأنا المعلن، أو الظاهر، أو الماثل الآن، والأنا الخبيء تحت الوعي، أو المستتر الخفي، أو الآخر الذي كان. ودون مبالغة فإن الإشارة إلى هذا الأنا الآخر منصوص عليها في هذه القصص جميعا، ولولا أن الكاتب صنع قصص هذه المجموعة، ونشرها على مساحة زمنية تتجاوز سبع سنوات، لظننا أنه أنجزها في أزمنة متقاربة جدا، وأن هذا التقارب الزمني وراء تماسك نهجها الفني ومراميها الفلسفية، وأنه سر توحد الرؤية فيما بينها، فإذا كانت هذه القصص السبع قد تباعدت زمنا، وتقاربت شكلا، وتوحدت رؤية، فإن هذا يعني استقرار المقولة الأساسية التي تمثل رسالة الكاتب، يبثها عبر ما يلفته من شخصيات، وما يستأثر بانتباهه من أحداث، يستوي في ذلك الراهن، والتاريخي، الواقع والأسطوري، البطولي والدوني والتهكمي!!.

في القصة الأولى: «جسد» تتحرك شخصية الأم بين الأنا، والأنا الآخر، صورة ونفسا، فقد تحدث كل من رآها، عن جمال طلعتها، والسماحة التي تطل من وجهها، أما ابنتها - راوية القصة - التي تعايشت مع عيوب الأم حتى ألفتها، فإنها تطلعنا على أخدود قديم في الوجه، والتواء قديم في القدم، ونتوء في الرأس، هذا غير ما استتر من آثار حريق في الفخذ. ويتوازن تعارض الصورتين مع تعارض السلوكين، فقد كانت مراهقة معجبة بجمالها، متعطشة للحب، ساقها تلهفها إلى السقوط من سطح الدار إلى الشارع، فكان التواء القدم، على أن العيوب الأخرى ترجع إلى سبب نقيض، اختلفت الدوافع والنتيجة واحدة، هذا الجسد المثقل بالجراح، وكأنه جسد الأمة العربية (إذا أخذنا بالتفسير الرمزي، وهو ليس ببعيد) بلغ ذروة آلامه، واستراح منها صبيحة الغزو، فكان يوم الهول، هو يوم الوداع، فلم يلتفت أحد إليها!!

ولسنا نشك في أن سليمان الشطي، في القصة الثانية: «أنا.. الآخر» كان يفكر في انتهازية الثقافة، وتدليس المثقفين، وفي نقطة «اللاعودة» التي انتهت إليها المواقف الممالئة، والأحكام الذرائعية المتميعة في مواجهة الانحراف والتحريف، وإذا كنا نلاقي في القصة شخصين: الراوي وصديقه حميد، فإننا نشعر في أكثر من موقع أنهما يرجعان إلى أصل واحد (رمز له الكاتب بأغصان الشجرة حين تتلاطم، فإنها ترجع إلى جذور واحدة) أو أنهما شخص واحد، لا نستطيع أن نقول إنه يعاني انفصاما، فقد كان يدرك كل ما يفعل، وما يجري حوله، ويشارك في مكاسبه، ويتوقى أخطاره المحتملة، فهو يمارس ألاعيبه كما كان دوريان جراي - في رائعة أوسكار وايلد - يمارس غواياته، مطمئنا إلى أن غيره سيحمل أوزارها، ويفوز وحده بمتعها، لكنه حين يصل إلى لحظة المحاسبة التي لا مناص منها، ينسلخ عن جلده، كما تفعل الأفعى، لتستقبل حياة متجددة، في إهاب جديد.

وفي قصة: «جمل»، فقد كان هناك الجمل الآخر.

وفي قصة: «كتابة على حائط مقروء» يرسم الكاتب لوحة جدارية تهكمية من نوع فريد. إنها تجري في مدرسة (أقرؤها دولة) على رأسها ناظر (أقرؤها دكتاتور) لا يكتفي

من التلاميذ (الرعايا) بالولاء، إنه يريد امتلاك الأرواح، من معتقد أنه سيد العالم ومنظم الفلك.. تبدأ المعارضة في حمامات المدرسة، فقد كتب شخص أو أشخاص عبارات متمردة على جدران المراحيض!! تم تشديد الحراسة، حتى تحول نصف المعلمين إلى خفراء مراحيض، كما فكر في هدم الحمامات، ولم تنقطع عبارات الاستفزاز، شعرا ونثرا، تراثا وتأليفا، مما يؤكد أن الكتابة على جدران المراحيض قدر تاريخي لأمة لم تمارس حرية التعبير إلا في هذا المكان. حين أمسك أستاذ الفلسفة (الذي اختصر جدول دروسه ليقوم بالحراسة) بتلابيب تلميذ نابه من تلاميذه، وقد خرج لتوه من الحمام وكتب عبارات ملتهبة، وجد نفسه في هذا «الآخر» أحس بنبضه، ربما لأنه يوقظ في وجدانه ذكرى حب قديم، وربما لأنه محب للفلسفة مثله. ومهما تكن حقيقة العلاقة بين الأنا، والأنا الآخر، فإن أستاذ الفلسفة الذي تستّر على تلميذه، وأطلقه مغامرا بالوقوع في كمين المراقبة والمساءلة، بدلا من أن يسارع بمحو ما كتب الفتى، أضاف إليه ما يكمل دعوته ويؤكد معناه، وبذلك توحدت الأنا، والأنا الآخر، في انسجام وجودي، ارتفع بالذات من مشروع الوجود إلى مواجهة الخطر.. التحقق الكامل.

وكما كانت «كتابة على حائط مقروء» لوحة جدارية ساخرة، انتهت إلى مواجهة بين الصقر والحمامة، فإن «بقعة زيت» قصة شعرية مفعمة بالتهاويل والصور الأسطورية وكأن الفتى العائد من رحلة الضياع، ملطخا بسواد النار، كان عائدا من حرب طروادة، وقد غضبت عليه الآلهة ولم ترض عنه إلا أن تكون حياته قربانا يروي الشيخ حكاية بقعة الزيت عام ٤٠٢هـ، وهذه إشارة إلى حادثة حقيقية جرت عام ١٤٠٢هـ، على أن الفتى الوحيد الذي نجا كان في ساعة اختلاطه وبهره وهلوسته يرى مناظر جنسية، ومشاهد غير معقولة، فقفز إلى ذهنه الرقم «خمس وخمسين وثلاثمائة سنة». لقد عبر الكاتب بهذه الإشارة عبورا خاطفا، ولم يدعمها في السياق القصصي بما يكشف مغزاها أو مرماها، ولكننا باستعادة أحداث التاريخ العربي، وما كانت منطقة الخليج ـ بصفة خاصة ـ مسرحا له، سنجد أنه في عام ٣٥٥هـ اصطلحت الأرزاء على دولة الخلافة، واجتمع عليها القرامطة والزنج، كما عبرت جيوش خراسان إلى الري، قاصدة اقتناص قطعة من دولة آل بويه، المتغلبين بدورهم على سلطان الخليفة. وفي هذه الحروب جرى تكفير المسلم للمسلم توصلا للامتناع عن مناصرته، أو استحلال بلاده وحياته. هكذا تشكلت بقعة الزيت في قصة سليمان الشطي في تركيب كابوسي، وصور شعرية فاتنة، تحمل معادلا موضوعيا لما كان يجري فعلا، وما يجري الاستعداد له على شاطىء الخليج، فإذا كان الشاعر أحمد العدواني رأى فيما يحدث طوفانا قادما فصرخ من أعماقه: «يا نوح أدركنا» (في قصيدة بعنوان خطاب إلى سيدنا نوح، نشرت بتاريخ ١١/١٢/١٩٧٩) فإن سليمان الشطي رأى أن الذي نجا لم يكن خيرا من الذي انقطع فوق الصخرة الموحشة، أو انزلق في حمأة القار مخدوعا بألوانه الزائفة. إن «الآخر» في هذه القصة متعدد المستويات، فها هنا الوجه الآخر، المهلك، للنفط، والوجه الآخر للدنيا، والشكل الآخر الخارجي، لأشياء تبدو مستورة محتشمة، لكن داخلها واضح مبتذل. ولقد ألقى ابن الوالي بنفسه في غمار القار حين رأى صورا منعكسة مشتهاة، ظن أنها ما يريده، فكان فيها حتفه!! هكذا تتعدد صور الآخر، وتنثال، حتى هابيل كان يفكر في الآخر، وقابيل كذلك، وإن يكن على نحو مختلف. ومن خلال هذه المغايرة بين المواقف والمصائر تتأكد حرية الاختيار، واختلاف النهايات عن البدايات، وكما يدل هذا على أن سليمان الشطي كاتب قد تحرر من التفكير النمطي، ورفض الصور الجاهزة، وأعطى الفرصة لتكوينه الثقافي المنظم أن يكون سبيله إلى ترميز مشاهد الحياة العابرة، بحيث تكتسب أساسها المنطقي والتاريخي ـ الأسطوري معا، فإنه يعتد بثوابت تفكيره المنطقي وموهبته التي تغوص وراء جذور الأشياء، ومن هنا كانت «القرابة الروحية» بين قصص هذه المجموعة، وكأنها قصة واحدة، حملت ألوان الطيف المتفرقة، واجتمعت في شعاع واحد، ممتد، من التاريخ، إلى الراهن، والمستقبل. □

سليمان الشطي

أنا.. الآخر

دار الفتح الجديد

ـ غلاف المجموعة القصصية




# التقدم الأُسِّي

## طريق إلى عبور التخلف ومنافسة المتقدمين

بقلم: الدكتور محمد رءوف حامد *

تمثل الفجوة المتزايدة بين بلدان الشمال وبلدان الجنوب الوصف العام لمشكلة التخلف والتقدم في النصف الثاني من القرن العشرين، وإذا كان الاتساع المتزايد للفجوة بين الدول المتقدمة والدول النامية هو أمراً واقعاً فإن هناك أمراً واقعاً آخر يعد في تقديرنا أكثر أهمية من مشكلة الفجوة بالإضافة لكونه يتناقض معها، ألا وهو «اطراد التقدم العلمي والتكنولوجي»، إذ كيف لا يتيح هذا التقدم الفرص والآليات لشعوب الجنوب بغرض الانتقال من حالة التخلف إلى حالة التقدم؟!، وهكذا يكون السؤال: كيف يمكن للمعرفة العلمية والتقنية أن توفر لشعوب الجنوب المنهج المناسب لعبور الفجوة بين التخلف والتقدم، بحيث يتاح للمتخلفين التحول إلى المنافسة في إطار التقدم ذاته؟!. إن الفحص المتأني للشكل «١» يقود - من وجهة نظرنا - إلى إدراك أن التقدم الأُسِّي هو الطريق الوحيد أو الأنسب لتحقيق الانتقال من حالة التخلف إلى حالة التقدم، وذلك بمعنى «الاستخدام الأمثل للزمن والجهد في تركيب القدرات البشرية والمادية والمعلومات والمعارف والعلاقات المتاحة مع بعضها البعض الآخر بطريقة تجعل الإنجاز يتحقق ويتقدم كما وكيفا بسرعة أسية». التقدم الأسي إذن هو الهدف والمنهج في ذات الوقت. وربما يستغرب البعض من تعاملنا مع مشكلة التقدم والتخلف من خلال منحنيات نظرية لكن من الضروري تذكر أن التوصل إلى حل المشكلة.. أي مشكلة.. لابد أن يبدأ بفرض نظري.. وتصبح المسألة عندئذ هي الفحص الدقيق لمعقولية الفرض المطروح (أي إثبات صحة الفرض). وقبل الاستطراد في مسألة التقدم الأُسِّي نود الإشارة إلى ما نعتبره مؤشراً على خلل في أدبيات التنمية (بمعنى الانتقال من التخلف إلى التقدم)، وهو أن عمليات إحداث التقدم في دول الجنوب تتناول قضايا كبرى على مستوى الاستراتيجيات والسياسات (مثل الأمن القومي - السياسات التكنولوجية - التعاون الاقليمي - الشرق أوسطية... إلخ) أكثر مما تتناول «الطريقة» التي تجري بها الأمور بدءا من الاختيارات اليومية وكيفية تنفيذها على المستوى الفردي وحتى التوصل للاختيارات الاستراتيجية وكيفية تطبيقها على المستويات العليا (المؤسسة - الوطن - الإقليم... إلخ)، فكل القضايا الكبرى المشار إليها وغيرها تعتبر من - وجهة نظرنا - قضايا مفردة ذات طبيعة جزئية يمكن تناولها تناولا مدرسيا، على أساس من البيانات والدراسات والسيناريوهات وتحليل النظم وبحوث العمليات، وفي المقابل، فإن «الطريقة» التي تجري بها الأمور أو تنفذ بها الأشياء تمثل المشكلة الأصل أو القضية الكبرى الحقيقية في البلدان المتخلفة، حيث هي الإطار الأكثر تأثيرا في فاعلية الحياة في هذه البلدان بما في ذلك من سوء أو حسن اختيار وصياغة الاستراتيجيات والسياسات وكذلك مدى الدقة والالتزام في التنفيذ.

وهكذا، في غياب الطريقة السليمة التي تجرى بها

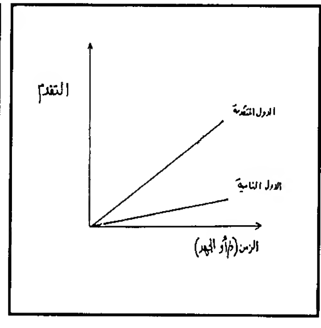
*أستاذ علم الأدوية بالهيئة القومية للرقابة والبحوث الدوائية - مصر.

**الدول مثل البشر، تتفق في أشياء وتختلف في غيرها، والتنمية شأن النمو، يتطلب كل منهما اتباع سبل خاصة، وهذا ما يؤكده منطق العلم وهذه المداخلة.**

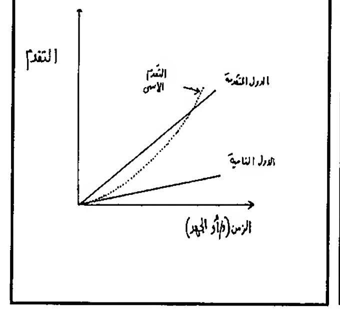
---

الأمور أو تنفذ بها الأشياء تتحول الاستراتيجيات والسياسات إلى طبول وشعارات جوفاء.

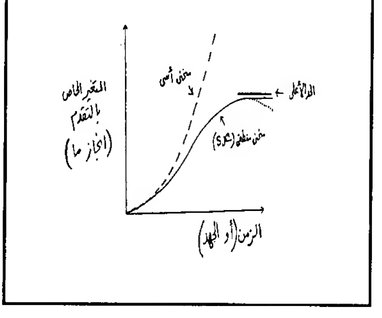
هناك إذن حاجة الى الاقتراب المعرفي من الطريقة (أو التقنية) التي نحتاج إلى اتباعها للتوصل إلى التقدم والتي نعتقد أنها هي ما نسميه « التقدم الأسِّي»، والتي يسرنا أن نقدمها للقارىء من خلال ما يلي:




شكل «١»




شكل «٢»




شكل «٣»

١ - تميز التقدم الأسي كأسلوب لتخطي الفجوة.

٢ - التقدم الأسي من منظور الفكر العلمي والإداري الحديث.

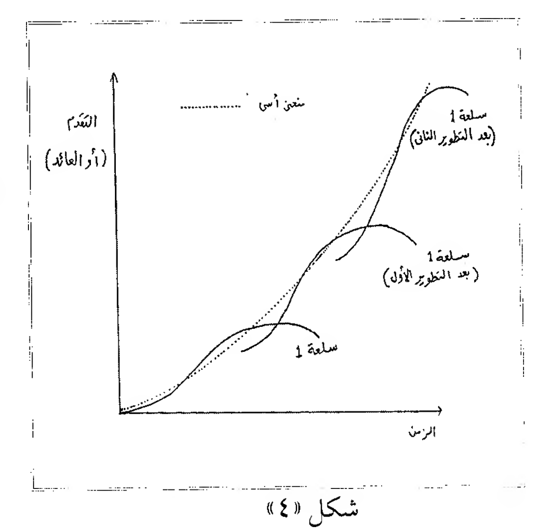
٣ - المنظومة كمجال لإحداث التقدم الأسي.

٤ ـ شروط إحداث التقدم الأسي.

**١ - تميز التقدم الأسِّي كأسلوب لتخطي الفجوة**: يوضح الشكل «١» أن العلاقة بين الزمن (أو الجهد المبذول) من ناحية والتقدم من ناحية أخرى يمكن أن تمثل بنوعين من المنحنيات، منحنى تقليدي على شكل حرف S (يسمى أيضا منحنى منطقي) ومنحنى أُسِّي يمثل التقدم الأسي الذي تعنيه. وفي المنحنى المنطقي نلاحظ أن سرعة تحقيق الإنجاز تزداد تدريجيا إلى حد معين بُعدها تقل هذه السرعة تدريجيا أيضا حتى تصل إلى سرعة ثابتة (صفر) لا تزيد عليها سرعة الإنجاز بل وربما تقل. وهكذا، هناك حد أعلى للتقدم طبقا للمنحنى المنطقي، وهذا أمر حقيقي نلمسه في العديد من الأمثلة الحياتية، فالطالب يزيد تحصيله بزيادة ساعات المذاكرة، ولكن مع ازدياد زمن المذاكرة على حد معين فإن معدل زيادة التحصيل يتناقص إلى أن يقل التحصيل ويتوقف. ومن ناحية أخرى فإن كفاءة أي عملية خدمية أو إنتاجية تزيد بازدياد عدد العاملين فيها، ولكن إلى حد معين من عدد العاملين (حد حرج) تقل بعده كفاءة العملية الإنتاجية وتكون مهددة بالتدهور والتوقف مع استمرار زيادة عدد العاملين. وأما في المنحنى الأسي فإننا نجد أن سرعة زيادة الإنجاز تتزايد باستمرار مع مرور الزمن أو زيادة الجهد. والحقيقة أن التقدم الأسي يتطلب تدخلاً إنسانياً واعياً وإيجابيا نشطا ـ كما سيتضح فيما بعد ـ لكننا هنا نكتفي بالإشارة إلى مثال واحد ونعني به ما توصلت إليه معارف وفنون التسويق إلى أن لكل منتج دورة حياة، وأن هذه الدورة (كما في الشكل ٤) تأخذ شكل منحنى منطقي S، وأنه للحفاظ على نجاح وتقدم المؤسسة صاحبة السلعة ينبغي أن تستحدث تطويرات وتغييرات في السلعة (المنتج) بحيث يستمر تطور المبيعات في منحنى خطي أو أسي وإلاّ حدث هبوط في نسبة المبيعات. وإذا أمعنا النظر في المنحنيات المتتالية لإدارة حياة المنتج بعد التطويرات المتعاقبة له (شكل ٤) فإن دورات حياة المنتج يمكن أن تختزل في منحنى تقدم أسي.

**٢ - التقدم الأسي من منظور الفكر العلمي والإداري الحديث**: والحقيقة أن الفاحص المدقق للفلسفات العلمية الجديدة وكذلك المدارس الفكرية في الإدارة الحديثة يجد أن التقدم الأسي متضمن من حيث الجوهر داخل نظريات ومفاهيم هذه الفلسفات والمدارس برغم عدم

الإشارة إليه صراحة أو تلميحا. . ففي نظريتي تضافر المنظومات (أو تداؤب الأنساق) Synergetics (هرمن هاكن - ١٩٧٧) والتواصل الارتقائي المجتمعي Sociogenesis (فلاديمير نوفاك - ١٩٨٢) نجد أن الموجودات (أو الأنساق أو المنظومات) الأدنى سواء هي حية أو غير حية قادرة على الارتقاء في المرتبة و «النمو» إلى مرتبة أعلى، وأن هذا التنظيم الذاتي للترقي أو من خلال أداء أو فعل مشترك لعدد من الأنساق الأصغر (نسبيا) Sub Systems - حيث يؤدي هذا الفعل المشترك إلى تشكيل




شكل «٤»

مستوى منظومي أعلى (كائن أعلى) من خلال عمليات ارتقائية تتضمن تعديلا في الاختصاصات والمناخ والعلاقات بحيث إن النسق الأعلى الجديد New System أو الكائن الجديد New Individual يمثل مخلوقاً جديداً يكون أكثر رقيا في تكامله ووظائفه من الأنساق أو الأفراد المكونة له. . . هذا المخلوق الجديد يمكن أن يكون شركة أو مادة كيميائية أو مركزا بحثيا أو اتحاد سكان في حي ما أو تحالفا بين مجموعة شركات. . . إلخ. . . وهو يمثل من حيث قدراته وسعته الوظيفية تغيرا نوعيا كبيرا بالنظر لأي من مكوناته حيث يمثل بالنسبة لهذه المكونات تقدما أسيا. . وأما السيبرناطيقا Cybernetics والتي تأسست كعلم وميدان علمي جديد بصدور كتاب فاينر Wiener عام ١٩٤٨ بعنوان «السيبرناطيقا أو التحكم والاتصال في الحيوان وفي الآلة» فقد أدت إلى تقدم كبير في المعرفة الإنسانية عن التحكم والاتصال، مما انعكس في تسارع التقدم في مجالات عديدة نذكر منها الإلكترونيات والذكاء الاصطناعي وهندسة الآلات والمعلوماتية والإدارة والتخطيط، وإذا كنا الآن ندرك أن التقدم الأسي متضمنا Implicited كجوهر معرفي في اتجاهات فلسفيةعلمية وفكرية وإدارية حديثة، فإن ذلك الإدراك ليس إلا دليلا على أهمية التقدم الأسي كهدف ومنهج يمكن بتعرفه واستيعابه وتطبيقه العبور الحقيقي من التخلف إلى التقدم.

**٣ - المنظومة كمجال لإحداث التقدم الأسي**: وحتى نتوصل إلى العناصر أو العوامل أو المسببات أو القوة الدافعة على تحقيق التقدم الأسي Inducers Of Exponential Growth علينا أولا أن نتساءل. . ما مجال عمل التقدم الأسي؟ وعند التوصل إلى تحديد هذا المجال علينا أن نتعرف خصائصه حتى يتسنى بعد ذلك الكشف عن السبل المؤدية للاستخدام الأمثل للزمن والجهد في تركيب القدرات البشرية والمادية والمعلومات والمعارف والعلاقات المتاحة (داخل وخارج المجال المعني) مع بعضها البعض بطريقة تجعل الإنجاز يتحقق ويتقدم كما وكيفا بسرعة أسية (كما أشرنا في بداية المقال). وهنا قد تختلف الرؤى فالبعض يرى أن مجال العمل الرئيسي هو التنظيمات السياسية، والبعض قد يرى أنه جمعيات النفع العام غير الحكومية (NGOs) والبعض الآخر قد يرى أنه التعليم. . أو البحث العلمي أو الإعلام أو البنية الأساسية. . . . إلخ. وفي تقديرنا أن مجال عمل التقدم الأسي هو كل هذه المجالات وهو كل المجالات التي نذكرها أيضا، لكن هناك نمطا واحدا يجمع كل هذه المجالات مهما بلغ تنوعها ومهما بلغ مستواها من أدناها (الفرد الواحد ووحدة العمل كمعمل أو مدرسة أو صحيفة. . إلخ)، إلى أعلاها (الدولة أو الشركة متعددة الجنسيات أو الإقليم أو جامعة الدول العربية. . إلخ). هذا النمط هو المنظومة أو النسق System، وهكذا يصبح مجال إحداث التقدم الأسي هو الأنساق (أو المنظومات) على كل مستوياتها من الأنساق الأدنى جدا Sub - Sub Sub Systems -.. إلى الأنساق الأعلى أو الأكبر جدا Supra - Systems ويصبح الأمر أنه كي نتعرف شروط إحداث التقدم الأسي علينا أن نتعرف المنظومة من حيث مواصفاتها وسلوكياتها وعوامل وجودها وتطورها وضعفها وتحللها.

ويعرف النسق (أو المنظومة) بأنه مجموعة من الأجزاء التي لها فيما بينها روابط بينية، بحيث إن هذه الأجزاء تبدو مع بعضها البعض كوحدة واحدة Unity وكما أن النسق

يمكن أن يكون جزءا من نسق وأنساق أعلى فإنه أيضا يمكن أن يحتوي على أنساق أدنى .

## العوامل المؤثرة في قوة المنظومة

وهنا يثور تساؤل عن العوامل التي توفر للمنظومة القدرة على توليد استجابة كفء للتحدي الواقع عليها؟

. . إن هذه العوامل تتلخص في أمرين مهمين هما :

أولاً : مقدار التنوع الكيفي والكمي في التحديات الواقعة على المنظومة .

ثانياً : السعة الوظيفية بمعنى الكفاءة الفعلية للأنساق التحتية Sub-Systems والقدرة على توليد أنساق تحتية جديدة لمجابهة التحديات .

والحقيقة أن النسق يستمر ويقوى ويتجدد في الأحوال التالية :

١ - تكامل أهدافه مع الأنساق الأخرى (أي التفاعل المصلحي بين الأنساق) .

٢ -توسيع الحدود الوظيفية للنسق .

٣ - مجابهة الظروف الخارجية التي تهدد وحدة النسق .

٤ - تحويل التحديات القادمة من الخارج إلى أهداف جزئية تتولد معها أنساق أصغر داخل النسق ذاته .

٥ - مجابهة الظروف أو المتغيرات التي قد تنشأ في الأنساق التحتية ، وقد يكون من شأنها تهديد النسق ذاته .

وفي المقابل فإن النسق يضعف وقد يتحلل أو يتوقف في الأحوال التالية :

١ ـ إذا انخفضت سرعة استجابة النسق للتحديات القادمة من البيئة المحيطة (أو المتغيرات الحادثة فيها) عن سرعة ورود هذه التحديات (أو حدوث هذه المتغيرات) .

٢ ـ إذا ازدادت سعة تنوع أحد الأنساق التحتية عن النسق ذاته ، حيث تنقلب الأوضاع بالنسبة لواجبات التحكم والرقابة وربما التشغيل بين النسقين (النسق والنسق التحتي) .

٣ ـ إذا قام النسق بوضع تعريفات متناهية التفاصيل لأهداف الأنساق الأدنى ، بحيث تصل دقة التفاصيل إلى درجة يصعب على آليات (وظائف) الرقابة والتشغيل عند النسق الأعلى أن تقوم بممارسة مهامها ومتابعة الأهداف الموضوعة للأنساق الأصغر .

٤ ـ إذا نزل النسق عن ممارسة وظائفه الخمس إلى مستوى ممارسة وظائف أنساق تحتية .

٥ ـ إذا فشل النسق الأعلى في تحويل التحديات القادمة له من الخارج إلى أهداف مجسمة وممكنة أمام الأنساق التحتية .

٦ ـ كما يضعف النسق إذا لم يوفر لنفسه توازنات (داخلية وخارجية) تساعد على ثباته ، أو إذا حدثت اختلافات واضطرابات مع النسق الأعلى ، وكان النسق ذاته لا يتكون من أنساق تحتية أخرى .

وهكذا يمكن القول إن المنظومات في حركة دائمة من حيث الاستجابة للتحديات وتوليد منظومات جديدة والحفاظ على التوازنات وتبادل المنفعة ، وهنا يجدر الانتباه إلى أن الحركة الدائمة للمنظومة تكون في إطار الأهداف المنوطة بها من المنظومة الأكبر والتي (أي الأهداف) يتم وضعها ومتابعتها من منظور القيم والمعايير السائدة في المنظومة الأم ، بحيث إن المنظومة الأم تحافظ على المنظومة الأصغر مادامت تساهم في تحقق أهداف المنظومة الأم ولا تشكل ضرراً لها ولقيمها ومعاييرها ، (بصرف النظر عما إذا كانت المنظومة نادياً رياضياً أو مافيا أو مهرجانا سينمائيا أو مستشفى أو جيشا نظاميا أو عصابات مرتزقة أو شركة متعددة الجنسيات . . . إلخ) .

## شروط حيوية وفاعلية المنظومات

مما سبق يمكن التوصل إلى أن الشروط الأساسية لتمتع المنظومات بالحيوية والفاعلية تكمن فيما يلي :

١ ـ وضوح القيم والمعايير العامة للمنظومة ، بحيث لا تكون هناك قيم ومعايير مغايرة موجودة في الظل ، حيث إن التداخل والاختلاط بين القيم والمعايير المعلنة وتلك المغايرة يؤثر حتما في حيوية المنظومة (حركيتها الداخلية وتوازناتها الداخلية والخارجية وقدرتها على تطوير وظائفها) ، ومن ثم يؤثر في فاعليتها ، مما قد يؤدي تدريجيا إلى توليد منظومات تحتية مغايرة في القيم والمعايير الأصلية .

٢ ـ نجاح النسق الأعلى في استيعاب التحديات المفروضة عليه بل والتنبؤ بها وحسن تعامله معها وتحويلها إلى أهداف أمام الأنساق التحتية .

٣ ـ الارتقاء المتوافق للنسق بحيث يتم تجديد وتنويع الأنساق التحتية أو استحداث أنساق تحتية جديدة دون حدوث خلل في أداء الوظائف العامة الخمس (السابق الإشارة إليها) بواسطة النسق الأعلى أو الأنساق التحتية .

٤ ـ استيعاب وتطبيق الفكر الأحدث في الإدارة ، حيث في التخلف عنه تكمن احتمالية التخلف عن فرص وأدوات لتقليل الفاقد أو رفع الكفاية ، وهنا تجدر الإشارة

إلى أن الاتباع الواعي لمناهج إدارة الجودة الكلية والإدارة الاستراتيجية يكفل - كما حدث في اليابان - أن «يعطي كل فرد أو مجموعة داخل المنظومة بقية الأفراد أو المجموعات أحسن ما لديه». وبنفس التسلسل فإن طبيعة هذا التوجه تكفل إمكان أن تعطي كل منظومة بقية المنظومات (الموازية أو الأعلى أو الأدنى) أحسن ما لديها.

٥ - ترك درجات حرية مناسبة للمنظومات الأدنى بحيث يكون من شأنها إتاحة إمكانات ودوافع التأقلم والارتقاء والإبداع.

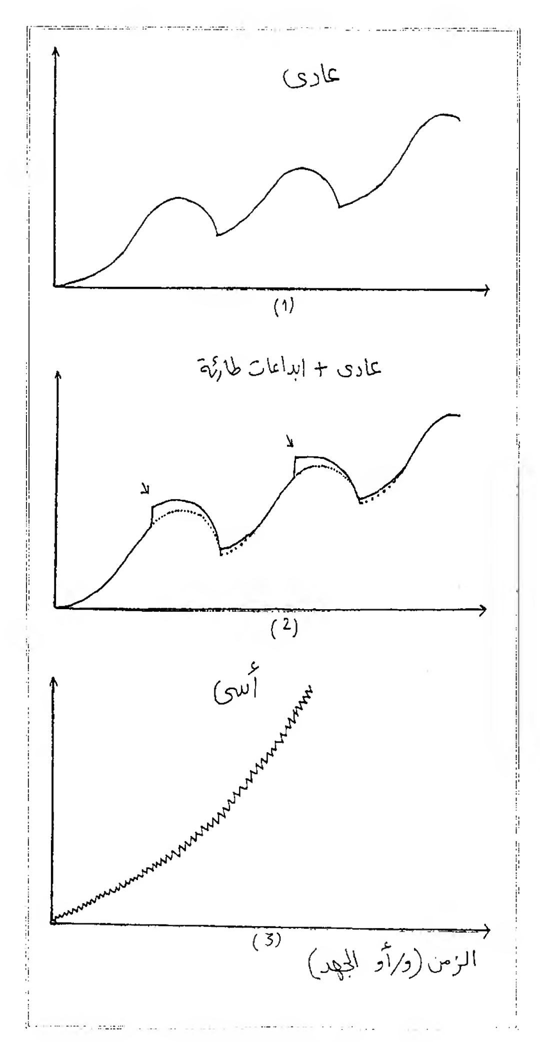
## شروط إحداث التقدم الأُسِّي

والآن وقد تناولنا تعريف التقدم الأسي والحاجة إليه وخصائص المنظومات، باعتبارها مجال إحداث وتحقيق التقدم الأسي، فإنه يبقى التوصل إلى أركان (أو شروط) تحقق التقدم الأسي، وذلك بمعنى تحديد المتطلبات أو الإجراءات التي يمكن باتباعها إحداث تقدم أسي. وفي تقديرنا يمكن إيجاز شروط التقدم الأسي فيما يلي:

أولا: تحقيق المنظومات لكل شروط الفاعلية والحيوية وفي نفس اتجاه القيم والمعايير (انظر البند الخاص بشروط حيوية وفاعلية المنظومات).

ثانيا: قدرة Capability والتزام Commitment من كل رأس منظومة (أو كل منظومة أعلى) بالرؤية الشمولية (أو الكلية) Holistic للمنظومات الأدنى ومخرجاتها بهدف توفير قوة دافعة منظومية (أي تحديات وأهداف وتنوع) باستمرار بغرض اختزال تقدم المخرجات (الإنجازات) بالنسبة للزمن (أو الجهد) من المنحنيات النسبية أو المنطقية (شكل ٥) إلى منحنيات أسية قدر الإمكان، وذلك بمعنى الانتباه في تغيير الأهداف والتحديات ورفع مستواها مع تطوير التنوع وتشجيع الإبداع، بحيث يتم دائما تفادي ضياع الوقت (أو الجهد) في منطقة سقف المنحنى والتي هي في الأغلب منطقة انخفاض، على أن تكون هذه هي الرؤية الاستراتيجية لإدارة المنظومة مهما بلغ رقي أو تدني مستواها المنظومي (انظر شكل ٥ حيث الانتقال من ١ أو ٢ إلى ٣).

ثالثا: الأخذ في الاعتبار أن متغيرات بسيطة في الطرق Procedures قد تؤدي أحيانا إلى طفرة في الإنجاز، ومن الضروري الانتباه المستمر إلى معلومات بهذا الخصوص (من خارج المنظومة) أو إبداعات من هذا النوع من داخل المنظومة، بحيث يتم تجنب أي إهدار في الوقت قبل استيعاب وتطويع الطريقة متى كانت مناسبة، ومن أمثلة




شكل «٥»

ذلك المبدأ الياباني Just in Time وهو مبدأ ذائع الانتشار في أدبيات جودة الإنتاج والتخزين (والمقصود به التخلص من أي فاقد في أثناء عمليات التشغيل) وطبقا له «يتم فقط إعداد أو إنتاج الأجزاء المطلوبة بالكميات المطلوبة وفي الوقت والمكان المطلوبين مع استخدام أقل ما يمكن من وسائل وتجهيزات ومواد وموارد بشرية».. وكذلك مثل آخر هو طريقة لتقييم الطلاب في الاختبارات الجامعية أسميتها - Group Dependent Marking وتعني أن جزءا من الدرجة التي يحصل عليها الطالب (٢٠٪ مثلا) تقوّم على أساس المستوى الجماعي للمجموعة التي ينتمي إليها

الطالب، بحيث إذا حازت مجموعة على أعلى متوسط في الدرجات يحصل كل طالب منها علـى الـ ٢٠٪ كاملة، وإذا حازت المجموعة على أقل متوسط في الدرجات يحصل كل طالب فيها فقط على الدرجة التي أحرزها كفرد في الاختبار وهي من ٨٠٪.. وهكذا، وكنت قد توصلت إلى هذا النهج في إطار البحث عن وسيلة لدفع الطلاب على التعاون في تبادل المعلومات وحل نماذج من المشكلات والمسائل العلمية بهدف تعميق روح الفريق لديهم، وكان ذلك في أثناء قيامي بالتدريس في إحدى الجامعات بقطر عربي شقيق (٧٨/ ١٩٧٩).

رابعا: الانتباه لاعتبار أن بعض الأفراد أو الأنساق لظروف خاصة بالعمل أو التدريب أو التقليد قد تصل الأمور الموكلة إليها إلى أبعد من السعة التي يمكن تحملها وظيفيا أو نفسيا.. إلخ، هنا قد تأخذ سلوكيات سلبية في النمو ببطء بحيث تتراكم إلى الحد الذي يسبب كارثة أو نكبة مفاجئة أو إخفاقا مفاجئا Catastrophe .. وبالتالي يكون على رأس المنظومة (أو المنظومة الأعلى) التنبه إلى مثل ذلك واللجوء إلى وسائل مثل التدريب أو التغيير السلوكي أو التطوير التكنولوجي أو تبديل الأشخاص.. إلخ، وأحيانا ما يكون هذا التنبه دافعا إلى تطوير يكون من شأنه ليس فقط تجنب حدوث كارثة، بل التوصل إلى طفرة في الأداء.

خامسا: التوجه المنظومي دائما إلى الإنسان البسيط العادي Ordinary humanbeing بمعنى استيعاب المنظومات لاحتياجاته وإمكاناته باعتباره الخلية الرئيسية (أو المنظومة الأساسية) في كل المنظومات.

سادسا: تشجيع حدوث تضافر أو تواصل ارتقائي بين الأنساق Synergetics-Sociogenesis متى كان ذلك في إطار القيم والمعايير العامة حيث يؤدي ذلك إلى طفرات في التقدم، ولكن إذا حدث التضافر والتواصل الارتقائي للأنساق والنظم في إطار قيم ومعايير تحتية فإن النتيجة تكون معاكسة حيث يؤدي ذلك إلى تكوين وانتشار أعراض مرضية في الأنساق على اختلاف مستوياتها.

## خاتمة

والآن بعد أن حاولنا جذب الانتباه لما يمكن أن نطلق عليه «التقدم الأُسِّي» كهدف وآلية في ذات الوقت وذلك من خلال الاستعانة بجوهر الفكر العلمي العالمي في مجالات النظم والسيبرناطيقا والإدارة الحديثة فإننا قد ندرك ما يلي:

أ ـ أن الفكر المطروح ربما يكون متضمنا داخليا فينا، بحيث نشعر أنه ليس جديدا تماما، وهذا شعور طبيعي فالتقدم والنمو متضمنان في الطبيعة النسقية للإنسان.

ب ـ أن التعامل مع السلبيات المسببة للتخلف أو الناتجة عنه بعيدا عن المنظور المنظومي لا ينعكس بأي فائدة على عملية التقدم. وأما معالجة السلبيات من حيث إطارها المنظومي على المستويات الرأسية والأفقية، ومن حيث نوع الوظائف المنظومية التي تتداخل مع السلبيات سلبا أم إيجابا ومن حيث التوازنات المنظومية المولدة أو الخانقة للسلبيات.. ومن حيث انعكاس السلبيات على قدرة المنظومات في مجابهة التحديات الخارجية أو قدرتها على التطور الذاتي.. وكذلك انعكاس السلبيات على قيم ومعايير المنظومات.. إلخ، فإن ذلك (المنظور المنظومي) يضمن إلى حد كبير فرص الرؤية الموضوعية للسلبيات وحسن الاستخدام المنظومي للإيجابيات القائمة في معالجة السلبيات.

جـ ـ وامتدادا للنقطة السابقة «ب» فإن معالجة السلبيات بعيدا عن المنظور المنظومي لا يؤدي لأكثر من علاج مؤقت، كما أن استمرار ذلك يعني الخطر الذي يكمن في انتشار السلبيات واتساع تأثيرها في المنظومات القائمة.. بل إن غياب المنظور المنظومي يؤدي إلى القضاء تدريجيا على أي نماذج طيبة تمثل تقدما أُسِّيا.. وبالتالي القضاء على فرص التقدم الأُسِّي، وفقد الكثير من الوقت والجهد والطاقات والإمكانات البشرية في محاولات فدائية (انتحارية) للتقدم.

د ـ وهكذا، فإن التقدم ليس خطابة أو تعبيرا أو حتى محاولة إصلاحية في جزيرة معزولة، إنه سلسلة من العمليات البسيطة المتشابكة التي تحتاج إلى التناول العلمي المنظومي الذي تتداخل فيه أمور السياسة والأخلاق والفلسفة والإدارة والثقافة والتعليم والتقنية بانسياب وتناغم وتضافر، أي من خلال المنظومة على اختلاف مستوياتها من المستوى الأعظم أو الأكبر Supra إلى أدنى المستويات (الإنسان الفرد)..



# قلب شجاع
## وصناعة الأفلام (الأوسكارية)

بقلم: عماد النويري

«خلف كل فيلم أشارك فيه توجد فكرة ما. لابد أن تكون شريفة ونبيلة»، هكذا يعتقد الممثل والمخرج ميل جيبسون، وهذه أول عناصر النجاح، فمن المهم أن يؤمن الفنان بفكرة ما، ومن المهم أن تكون شريفة ونبيلة. وبرغم أنه يعتبر واحداً من رموز سينما العنف من خلال سلسلة أفلامه (ماكسي المجنون) و (السلاح القاتل)، فهو لا يتوانى كل لحظة عن الإعلان: «أفلامي لا تصنع العنف ولا تكرس له، ولا يوجد أشد تأثيراً من إدارة هزيلة لكي يوجد العنف في مجتمع ما».

من حق جيبسون أن يصرح كما يشاء. وليس بالضرورة أن نتفق مع كل ما يقول.

أصبح جيبسون ممثلاً بالمصادفة إذ كان يطمح إلى أن يصبح طباخاً أو صحفياً وكان النجاح من نصيبه منذ البداية، فبعد عامين على تخرجه عهد إليه المخرج الأسترالي جورج ميلر بدور البطولة في فيلم (ماكسي المجنون) ١٩٧٩ الذي تجري أحداثه في زمن مستقبلي، وعرف الفيلم نجاحاً عالمياً واسعاً كان يعتبر انطلاقة تبعها تصوير جزأين آخرين قام جيبسون أيضاً ببطولتهما. وفي عام ١٩٨٢. قدم (سنة العيش في خطر)، ولعب دور صحفي يعيش وقائع الانقلاب الذي أطاح بالزعيم الأندونيسي سوكارنو في عام ١٩٦٥. ومع فيلم (السلاح القاتل) أصبح جيبسون بطلاً سينمائياً شعبياً حيث لعب دور شرطي ذي نزعة انتحارية، ونتيجة لنجاح الفيلم تم تحقيق أجزاء أخرى منه عامي ١٩٨٩و ١٩٩٢. وقال عنه داني جلوفر الذي شاركه البطولة في الأجزاء الثلاثة من (السلاح القاتل): «ميل قريب جداً من الآخرين وصادق وحساس». وقال عنه المخرج الإيطالي زيجريللي: «على كل من يريد أن يكون نجماً سينمائياً قادراً على تحمل المشاق أن يكون مثل جيبسون».

### من ممثل إلى مخرج

لماذا اتجه جيبسون للإخراج وهو ممثل ناجح لاينقصه الاعتراف ولا تنقصه الشهرة: «أجد أنني فعلت أشياء كثيرة لم أكن راضياً عنها، ومن هذه الأشياء بعض الأعمال التي تمنيت لو أصنعها من جديد مادمت أملك القدرة على ذلك». وكان فيلمه الأول

**عناصر كثيرة تجمعت في بوتقة فنية، لتصنع نجاح واحد من أهم أفلام عام ٩٦. ولتضمن له احتلال مكانة كبيرة عندما حصد خمس جوائز في ليلة الأوسكار الـ ٦٨ في مارس المنصرم.**

الذي قدمه كمخرج هو (رجل بلا وجه) ١٩٩٣ : «كانت مخاطرة كبيرة» لكن : «فور الدخول إلى العمل كان الخوف يتلاشى». ولأن الفيلم تمكن من تحقيق بعض النجاح كان له ـ جيبسون ـ أن يخوض تجربته الثانية : لكن هذه المرة زاد الطموح واتسعت رقعة الأحلام، وتوافر للطموح فكرة نبيلة (أو عناصر النجاح)، وتجسدت الفكرة في قصة بطل أسطوري أسكتلندي الجنسية كان يعيش في فترة العصور الوسطى المظلمة في القرن الثالث عشر. إلا أنه يحمل عقلا مستنيراً وروحاً تواقة للحق، وقلباً ينبض بالحب للحبيبة وللإنسان وللوطن. وكان لهذا البطل ويليام والاس أن يثور ثورته الكبرى عندما قتل الإنجليز حبيبته.

## اللغة السينمائية

العنصر الثاني الذي تفاعل في بوتقة جيبسون الفنية لكي يصنع نجاح الفيلم هو القدرة على استخدام مفردات اللغة السينمائية، فقصة مثل قصة

●ميل جيبسون يقود معركة النبلاء التاريخية التي اشترك فيها ١٧٠٠ ممثل.

والاس بطولية تاريخية ملحمية لابد أن تتوافر لها أزياء توحي بالفترة التاريخية، وألوان تعبر عن روح الأمكنة ولقطات عامة تصور تحرك الناس عندما يستمدون قوتهم من بطلهم المغوار، ولقطات قريبة تصور انتفاضات الروح في لحظات المكاشفة (المشاهد التي تجمع ويليام مع حبيبته) ولابد أن يكون هناك أيضاً بعض اللقطات المتوسطة ذات النقلات السريعة لتتلاءم مع مشاهد المعارك التي شاهدناها على مدار الفيلم.

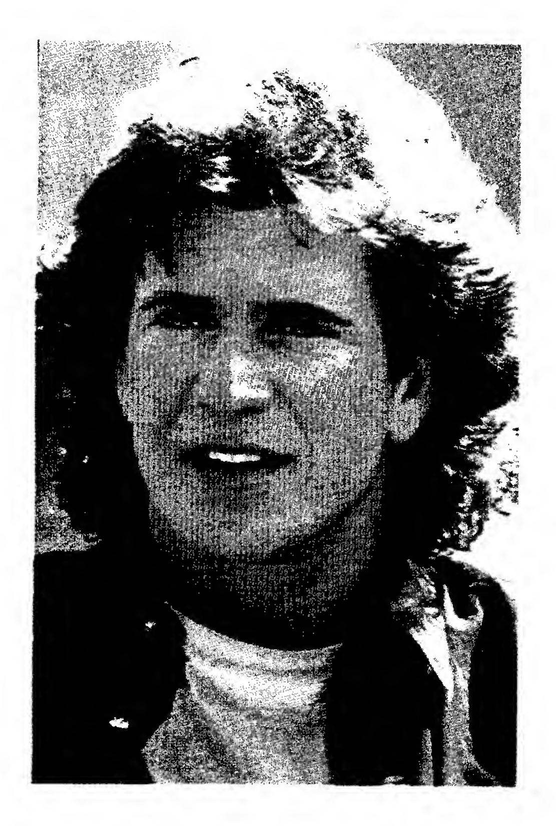
في (قلب شجاع) نحن إذن بصدد كتابة سينمائية استطاعت أن تجعلك مشدوداً لمتابعة الأحداث، وذلك من خلال التنقل السلس من مرتفعات الحزن إلى سهول الفرح، ومن الأماكن المغلقة إلى الأماكن التي تمتد بامتداد البصر. نحن إذن (مرة أخرى) بصدد صورة مشهدية ديناميكية تلعب فيها حركة الممثل دوراً كبيراً، ممثل يجسد دوره دون زيادة في الانفعال: ميل جيبسون في دور ويليام، وباتريك ماكوهان في دور إدوارد الأول وصوفي مارسو في دور زوجة الابن، و ٣٠٠٠ كومبارس لا يتحركون بعشوائية، وإنما يتحركون طبقاً لأوامر مخرج يعرف جيداً كيف يقود المجاميع.

وهنا إشارة إلى أداء جيبسون المقنع الذي لايكتفي بدراسة مكونات الشخصية النفسية والاجتماعية، وإنما نتابع ممثلا له باع طويل في تجسيد مثل هذه الشخصيات الأسطورية التي تجمع بين الواقع والحلم، وبين الحقيقة والخيال.

وغير حركة الممثل هناك أيضاً حركة الموضوع المتمثلة في خروج الشخصيات ودخولها إلى الكادر، في التفافها حول نفسها أو حول الآخرين، في التحامها مع بعضها في المعارك أو في فرارها من ساحة الحرب، وهناك حركة الطبيعة المتمثلة في أضواء المشاعل المتحركة وغبار المعارك وسحابات الدخان الكثيفة. طبعاً كل هذه الحركات تساهم في تقديم لقطة فيلمية عامرة مما يزيد من قوة التعبير.

## انتقال الزمن

وغير نبالة الفكرة والقدرة على تجسيدها سينمائياً فإن ثالث عناصر النجاح يكمن في قدرة الفيلم على الإيحاء بأجواء الحدث. وهذا الإيحاء لا يصنعه الاختيار الموفق للأزياء مثلاً، ولا يخلقه نجاح الممثل في تجسيد الشخصية (طبعا هنا لازم)، إنما نجاح أي فيلم يعتمد كثيراً على قدرته في نقل المشاهد من اللحظة الآنية لكي يعيش في الأجواء التي يتحدث عنها الفيلم. نجاح (قلب شجاع) الحقيقي متمثل في انتقالنا للعيش في



●جيبسون كما ظهر في فيلم « السلاح القاتل».

إسكتلندا القرن الثالث عشر، وفي مصاحبتنا لويليام طوال الفيلم. وخلق الأجواء هذا لا يصنعه إلا سينمائي مقتدر يعلم أن هناك أهمية كبرى للتفصيلات الصغيرة، فمن العادي مثلاً بل ومن المألوف في الأعمال الدرامية التاريخية العربية، أن تجد أن موديل السيارة عام ١٩٨٠ برغم أن الأحداث تدور في الثلاثينيات، ومن المألوف أن ترى عباءة الجندي وقلنسوته تنتميان إلى العصر اليوناني برغم أن الأحداث تدور في عصر الدولة الأموية. طبعاً هناك استثناءات. لكن لن يحدث في يوم من الأيام أن تكتشف أن الصندل الذي ينتعله ويليام في (قلب شجاع) ينتمي إلى العصر الروماني، ولن يحدث أيضاً أن تكتشف أن نوعية السيوف المستخدمة تعود إلى العصر الحجري الأول.

إن الأفلام تقترب من العالمية، وتقترب من الحالة (الأوسكارية) كلما استطاعت أن تكون في صنعتها مقنعة وموحية، ولفعل ذلك فإن هناك فرق عمل متخصصة تسهر الليالي لجعل الأفلام قادرة على خلق الأجواء: هناك فريق عمل مهمته البحث التاريخي لمعرفة تفاصيل الفترة التي كان يعيش فيها البطل ويليام والاس، وهذه التفاصيل لابد أن تخوض في الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لإنجلترا وإسكتلندا القرن الثالث عشر، وهناك فريق عمل مهمته البحث اللغوي لمعرفة كيف كان ويليام يتحدث، وكيف ينطق الحروف. وهناك فريق عمل ثالث مهمته تصميم أزياء تنتمي فعلاً لفترة أحداث الفيلم. وهناك فريق عمل رابع مهمته البحث الضوئي أي قياس كمية الضوء في كل مكان ستجرى فيه الأحداث مع مراعاة تناسب هذه الكمية مع المكان وأيضاً مع الزمان. وهناك فريق خامس وسادس وسابع، ويتحرك كل فريق ليهتم بتفصيلة أخرى من التفاصيل الكثيرة.

لكن هل يكفي أن يستند الفيلم إلى قصة تاريخية أو أن تتحلى القصة بنوع من (النبالة) وأن يتوافر لإخراج الفيلم واحد من المخرجين المقتدرين، لكي يحصد الفيلم جائزة الأوسكار.

طبعاً هناك أشياء لابد من توافرها لكي يكون الفيلم فيلما! وبغض النظر عن الجوائز لابد أن تتوافر للأفلام لغة صورة ولغة صوت، لكي تكون موصلة لكن ليس شرطاً أن يعتمد الفيلم على قصة تاريخية. غير أنه من المؤكد أن قوة الموضوع تلعب دوراً كبيراً في ترشيح أي فيلم للحصول على الجائزة، وقوة الموضوع - ومن خلال التعامل مع الكثرة من الأفلام الجوائزية - تنبع أساساً من إنسانيته وعموميته، أي أن موضوع الفيلم من الأفضل له أن يتركز حول قيمة إنسانية كبيرة تنتصر للإنسان ضد الخوف والقهر، ولنا أن نذكر (طيران فوق عش الوقواق) ١٩٧٥، الذي فاز بخمس جوائز أوسكارية رئيسية منها أفضل فيلم فهو قصيدة غاضبة

● الملك إدوارد الأول كما قام بدوره باتريك ماكوهان.

ضد فساد المؤسسة الرسمية، و (الرقص مع الذئاب) ١٩٩٠ ينتصر للإنسان المغلوب على أمره. وحتى (روكي) برغم تحفظاتنا على صيغة البطل الفرد بالمفهوم الهوليوودي - يحكي عن ملاكم مغمور يصر على تحقيق الانتصار مهما كانت الظروف والعقبات. وهذا ما نراه بشكل أو بآخر في (قلب شجاع). قد نختلف في مدى عنصرية الأوسكار، أو في مدى إنسانية هوليوود نفسها، لكن ستبقى الأوسكار هي أهم جائزة سينمائية تمنح سنوياً على الإطلاق وحتى إشعار آخر. ويبقى (قلب شجاع) واحداً من الأفلام المهمة والمميزة التي قدمتها السينما العالمية خلال عامي ٩٥/ ٩٦.

## ثورة البسطاء

ولكن ماذا عن الفيلم وعن الخلفية التاريخية التي يقوم عليها؟

في عام ١٢٩٦، قام الملك إدوارد الأول، ملك إنجلترا آنذاك، بسجن الملك الاسكتلندي جون دي باليول، وأعلن نفسه ملكاً على عرش اسكتلندا. في شهر مايو عام ١٢٩٧، قام ويليام والاس البطل القومي وزعيم المقاومة هو ومجموعة من رفاقه تتكون من ثلاثين رجلاً بقتل الشريف الإنجليزي لإحدى المقاطعات الاسكتلندية المحتلة. وكون بعدها جيشاً من المزارعين والبسطاء والمقهورين، وقام هو وجيشه بمهاجمة الإنجليز بين نهري ريفر فورث وويتر.

في سبتمبر من العام ذاته وتحت قيادة جون دي وارنر وايرل سيري، قام الإنجليز بمهاجمة والاس ورجاله، لكن خاب أمل الإنجليز في القضاء على والاس عندما استطاع الفريق الاسكتلندي إغراق الإنجليز وهم يعبرون النهر، وأعقبها احتلال والاس ورجاله لقلعة سترلنج الحصينة. بعد شهر من الحدث الأخير تحرك بطلنا والاس تجاه الشمال الإنجليزي، ليضرب الإنجليز في عقر دارهم، وعند عودته في ديسمبر ١٢٩٧ تم إعلان والاس كحارس للمملكة، وفارسها الأول، وحاكمها باسم الملك باليول. وكان ذلك يعني في الخطوة المقبلة مواجهة الملك إدوارد الأول، ويعني أيضاً أن المعركة المصيرية بين إدوارد ووالاس قد حان موعدها. في مارس ١٢٩٨، عاد الملك إدوارد إلى إنجلترا بعد أن قضى فترة في فرنسا، وفي الثالث من يوليو تقدم بقوات ليغزو اسكتلندا وليؤدب غريمه والاس. وفي معركة فالكيرك الشهيرة مني والاس بهزيمة نكراء. هناك بعض الدلائل التي تقول إن والاس ذهب إلى فرنسا عام ١٢٩٩، ولكن منذ خريف ١٢٩٩ تضاءلت المعلومات حول حياته، واستمر ذلك لمدة أربعة أعوام، خلالها فضح معظم نبلاء اسكتلندا لحكم الملك إدوارد وتولى الحكم بعد والاس روبرت دي بروس. في ٥ أغسطس عام ١٣٠٥، تم القبض على والاس. بالقرب من جلاسجو، وتم اقتياده إلى لندن، ووجهت له تهمة الخيانة العظمى، وتم الحكم عليه بالإعدام شنقاً. هذا ما يقوله التاريخ عن والاس.



● الأميرة ايزابيلا قامت بدورها الممثلة الفرنسية صوفي مارسو.

في (قلب شجاع) ينسج الفيلم علاقة وثيقة بين والاس وحبيبته منذ الصغر، ليكون مقتل الحبيبة على يد الإنجليز هو الدافع القوي لانطلاق الشرارة الأولى لثورة والاس. ويتم التركيز على العلاقة بين والاس وطبقة النبلاء في اسكتلندا، تلك الطبقة التي هزمته قبل الملك إدوارد. ويتعرض الفيلم لعلاقة ما تمت بين والاس وزوجة ابن ملك إنجلترا لتحسين صورة الحكم الإنجليزي. بشكل عام. وينتهي الفيلم كما انتهت الحكاية في التاريخ. نشاهد بطلنا وهو يرفض الاستسلام صارخاً: (فريدم) الحرية. هو لا يقدم أبداً التوبة والندم مقابل العفو والانعتاق.



# الشريك

## قصة بقلم : سعيد سالم

حين تراكمت الخسائر وبدأت الشركة في الانهيار، كان من الطبيعي أن يقاسمني شريكي الخسارة ونفض الشركة، ويذهب كل إلى حال سبيله. لكنه تشبث بي لسبب غامض عارضا أن يتحمل الخسارة وحده. ولسبب أكثر غموضا رفضت عرضه وقررت الاحتفاظ لنفسي بملكية الشركة الخاسرة. احتدم بيننا الجدل وتساءل:

ـ لماذا لا تنفصل أنت وأشتري نصيبك؟

تعجبت لمنطقه المعكوس الذي لا يخالف في حقيقته منطقي أنا الآخر: شريكان يتشبث كل منهما بتحمل الخسارة سواء بمفرده أو مناصفة مع الآخر.

قلت له وكلانا يغالب دهشته القدرية:

ـ انفصل أنت وسأدفع لك ما تطلب!

أجاب في ذهول مطابق لذهولي:

ـ دعني أفكر ليومين قبل أن أعطيك إجابتي الحاسمة.

وكان قد سبق ذلك اللغز الإنساني إعلانات عديدة عن عرض هذه الشركة للبيع، لكن أحدا لم يتقدم لشرائها بسعر مناسب.. بل إن مشتريا جاءني ذات مساء حين ظننت لأول وهلة أنه سيعرض ثمنا معقولا، لكني فوجئت به يقول لي بوقار غير مصطنع:

ـ كم تدفع حتى أقبل تنازلك لي عن هذه الشركة؟!

لم أنفعل بغضب أو دهشة، وإنما رحت أفكر بموضوعية شديدة البرودة في عرضه الغريب.

بعد قليل سألته بحياد تام:

ـ أنا البائع وأنت المشتري فبأي منطق أدفع لك؟

أجاب بثقة مطلقة:

ـ لست على استعداد للحوار بأي منطق، إما أن تقبل وإما أن ترفض، وما بيننا يفتح الله.

أصابني ثباته اللامتناهي بالتردد، فلعله على حق في ضرورة أن أدفع رغم جهلي التام بالسبب.

حسمت الأمر بقولي:

ـ دعني أفكر، أمهلني يومين قبل أن أعطيك الإجابة.

لم يكن من العقل في شيء أن أحكي لشريكي قصة هذا المشتري البائع الذي يتحدث بحكمة سليمان. قررت أن أتكتم الأمر ولكني كنت أغالب في نفسي ميلا شديدا لتسليم الشركة بأصولها كاملة لهذا الرجل بعد أن أدفع له ما يريد.

جلست في الموعد المحدد أنتظر الرجلين. في غمرة شرودي برقت في ذهني فكرة قدسية دفعتني من مكاني إلى عرض الشارع أركض في لهفة باحثا عن أقرب مسجد. توضأت بشغف، وأمام القبلة توجهت إلى من لا شريك له، صليت ركعتين استخارة، توسلت لجلالته أن يجعل لي آية حتى أحسم أمر هذه الشركة المحير، وعدت إلى مكتبي تحملني أجنحة لا أراها وتحف بي هالة من نور.

في البدء جاءني الحكيم فصرفته بأدب حين قال لي بإشفاق:

ـ إني أرثى لحالك!

ثم جاءني الشريك فسألته:

ـ كم تطلب؟

ـ أمازلت مصرا؟!

ـ نعم.

أطلق رقما خياليا يفوق ضعف قيمة الشركة حتى يضمن بقائي شريكا له. أصابه ذعر شديد حين قبلت العرض وأضفت إليه نسبة من عندي!

أصابه وجوم شديد بعد أن وقعت له الشيكات، قبل أن ينصرف سألني بمشاعر لمحت فيها المودة ممزوجة بالحسد:

ـ لماذا تفعل هذا بنفسك؟!

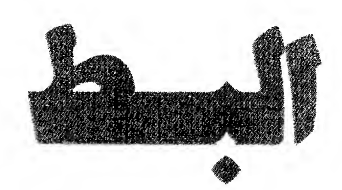
كان النور طاغيا وكنت أستمع في نشوة إلى رفيف الأجنحة، وأجبته بفرحة كونية دون أن أراه:

ـ لقد اهتديت إلى الشريك.





محمد مستجاب



# البط



## ذو الصوت المبحوح على شواطىء البحيرات، والتمائم، وحفلات الزار



لا أستطيع أن أتصور وطنا دون بط، هذا الطائر المائي الساذج الذي يمشي نفس مشية الجيش النازي المغرور، كما أني لم أكن أتصور أنه يمكن أن تكون ثمة بركة - أو قناة - ريفية تخلو من سرب بط، يفح الذكر منه في عنجهية ليدرأ ما يراه عدوانا على هدوء الجماعة، وصوته المبحوح هو الذي جعل مناطق كثيرة في الصعيد المصري تطلق عليه (بِحّ) بكسر الباء وتشديد الحاء، ومنه تأتي الأنثى (بحّة)، ويتركون اسم الجنس (بط) ليَسحب على الأوز - أو الوز - في نفس الوقت، وهو اختلاط في الأسماء لا تنتبه إليه كتب المدارس. ومنذ سنوات أخذني الشوق لأوز معتقل (المحاريق) بواحة الخارجة (الوادي الجديد)، والذي جاءت سيرته كثيرا في كتب محمود السعدني وزملائه من المعتقلين المشهورين في عصر عبدالناصر، كان أنور السادات قد أعلن - فور أن تولى الحكم - هدم المعتقلات، وجاءت الصوره الإعلامية وقد أمسك بمعول يحطم به واجهة أحد المعتقلات، وبعد اغتيال السادات قمت بزيارة مواقع (تاريخية) من هذا النوع، وكان معتقل المحاريق - في عزلته - أشبه بناسك متوحد مع الوجود، كان خاويا لا أثر للضجيج المحاصر فيه، وحوله كان ثمة جدول ماء منطلقا من إحدى العيون وقد غصّ بالمئات من البط، ما كاد يراني حتى انطلق الفحيح ذو الصوت المبحوح، وآلاف من بيضه قد ملأت شواطىء الجدول عشوائيا، كان المنظر فريدا، ولا سيما حينما خرجت أسراب من ذكور (البحّ) من الماء تحاول مهاجمتي، وانطلقت - حينئذ - أسراب الغربان الكامنة في الشجر، مرة أخرى:

تشارك البط في الاحتجاج. كان المنظر فريدا. ويحتل البط السمين موقعا مميزا في طعام ليلة الهناء، فرح العرسان، بديلا لزوج الحمام الشهير، كما أن شريحة من صيادي الطيور تخصصت فيه وتعرف وسائلها لتسويقه لعشاق لحمه، وتعتبر بحيرة قارون (الفيوم) ووادي الريان المجاور من أخصب أماكن اصطياد أخف أنواعه وزنا: الشرشير، وهو نوع من البط الطائر المهاجر الذي يفد إلى مصر شتاء، إضافة إلى البط أحمر الرأس، والسّكوتر، والإيدر، والكانفار باك، وكلها طيور المياه البحرية - المالحة - عدا الشرشير الذي لا يتوقف عند نوع الماء، والذي نشاهده مع الخضاري، وبط الغابة، والبط الأسود، في مستنقعات المياه العذبة، وأنواع أخرى عديدة يضاف إليها بط بكين المستأنس مع بط المنازل الشهير. وكانت حلقات الزار المصرية تعتمد على ذبح (البط الأسود المتضخم نوعا) تحت قدمي صاحبة حلقة الزار، يطلبه عفريت سوداني ويستمتع به كلما كان الذكر ذا فحيح مقلق، كما أن كثيرين من أثرياء مصر - في عصور غابرة - كانوا يقيمون موائدهم لأصدقائهم عامرة بالبط والحمام في الهواء الطلق. ويعتقد أهل الريف بالذات أن للبط أهميته القصوى في تجديد القوى، ولا سيما إذا ما حفل بالبهارات الحامية، وبالتأكيد فإن للبط فاعليته المعروفة في علاج الأنيميا - شعبيا وعلميا، وترى لوحات ورسومات متعددة لإناث تحمل من السلال، وبالأيدي، أزواجا من البط عائدة بها من الأسواق: في مقابر بني حسن بالمنيا، وعلى جدران مقابر وادي الملكات بالأقصر، كما أن إشارة رسم البطة تتكرر كثيرا في اللغة الهيروغليفية المنقوشة على الجدران كحرف من حروف نطقها، وكان صناع التمائم والأحجبة يرسمونها مع الديك البلدي في حالة شجار علاجا لمن تأخروا في النطق من الأطفال. وإذا كان لذكر البط أسلوبه في مهاجمة من يقترب من سربه بإطلاق فحيح ممزوج بصراخ مبحوح، فإن الإناث تظل متجمعة بعيدا في سلبية واضحة، ويقال إن الثعلب - لذلك - لا يستطيع مهاجمة ذكر البط، ويقفز فوقه مبتغيا الإناث، ومع شراسة الذكر يظل أيضا هو المأمول ليأكله الناس، لضخامة حجمه أولا، ولقلة الدهون نوعا في تكويناته الداخلية، كما أن مصطلح (الزّقّر) الذي نسمعه يتردد في تمثيليات الإذاعة والسينما والتليفزيون يقصد به ذكر البط فقط، مع أننا - في عصورنا المتأخرة - لا نفرق في (الزّقّر) بين ذكر وأنثى.

وتظل البطة البرية - رائعة هنريك ابسن النرويجي - من أجمل الأعمال المسرحية التي تعاملت مع البط، وقصص الشمال الأوربي الشعبية عموما فيها كثير من ذلك، كما أن والت ديزني الأمريكي صمم دونالد دك الطيبة المشاغبة في رسومه الكرتونية العديدة التي شملت ميكي ماوس أيضا. وغير ذلك يظل البط أسير البرك والمستنقعات والجداول والبحيرات، وبطون الناس. □

## كلمات لها معنى

- لا تخف، فإن الأمر لا يعدو نوعا من الصبيانية العابثة التي يطلقها جموح الربيع.
- كل واحد منهما يركب دراجته وينطلقان حتى يصلا إلى كوخ منعزل: سارتر يجلس ليعمل في كتابه (الوجود والعدم)، وسيمون دي بوفوار تجلس بعيدا ترقب الأفق.
- جاء ابني ليزف إليّ البشرى لأنه أصبح أبا، ظللت أمعن في البشرى السعيدة بامتعاض.
- ما يكاد حيوان يلوذ بأسرة حتى يبدأ في تعلم المداهنة.
- ظل يتمنى أن يحظى بزوجة ذات مؤهل عال ومن عائلة ثرية، ولما تحققت الأمنية وتزوجها، بدأ يشكو، نسي أن يتمنى أن تكون امرأة جميلة.
- كثيرا ما ينسحب الليل عني مصطحبا أسباب السعادة، ثم يعود آخر النهار من دونها.



# الإمارات العربية المتحدة تلبي حاجة الخليج من الدواء

استطلاع: صادق يلي
تصوير: فهد الكوح



**تشهد الإمارات العربية المتحدة ازدهاراً مميزاً في مجال الصناعات الدوائية، حيث قدمت شركة «جلفار» الخليجية حتى عام ١٩٩٥ نحو ١٧٠ مستحضراً طبياً، وهي تطمح إلى الحصول على شهادة من F.D.A ليتاح لمنتجاتها الوصول إلى صيدليات أوربا وأمريكا، بعد أن عرفتها الصيدليات العربية والإفريقية بجودتها ودقة فاعليتها.**

تعد صناعة الدواء من أكثر الصناعات الاستراتيجية التي تحرص الكثير من الدول المتقدمة على إدخالها ضمن أولويات صناعاتها المحلية، وذلك لما لهذه الصناعة من أهمية اقتصادية ولارتباطها بمستوى التطور الاجتماعي والتقدم الصناعي للبلاد، ومن هذا المنطلق، ونتيجة لجهود نخبة ممتازة من الفعاليات الاقتصادية والمالية في كل من دولة الإمارات العربية المتحدة ودولة الكويت تأسست سنة ١٩٧٨ شركة الخليج للصناعات الدوائية كأول شركة عربية متخصصة في صناعة الدواء في منطقة الخليج، ونظراً لوجود مقر الشركة في إمارة رأس الخيمة والتي كانت تعرف قديماً باسم «جلفار» فقد اتخذت الشركة اسم «جلفار» كعلامة تجارية لمستحضراتها. وخلال سبع سنوات من بدء إعلان الشركة بدأت عمليات إقامة المباني وشراء المعدات والتجهيزات وعمل التجارب المخبرية والصناعية لمستحضراتها الطبية. ومع إطلالة عام ١٩٨٥ بدأ إنتاج مستحضرات «جلفار» يأخذ طريقه إلى الأسواق.

ومن المعروف أن أي دواء أو مستحضر طبي لا يمكن أن يسوق في أي دولة إلا إذا اكتمل له ما يسمى «بملف المستحضر»، فيقدم إلى وزارة الصحة ويسجل ويعتمد، ثم تعطى الموافقة ببيعه وتسويقه، كما يقدم هذاالملف إلى كل دولة يراد أن يسوق فيها هذا المستحضر، بعد أن يمر الدواء بعدة دراسات يطلق عليها «الدراسات الثباتية»، ثم تليها دراسة الجدوى، ولها حسابات صيدلانية معروفة، وقد استطاعت «جلفار» سنة ١٩٨٥ أن تقدم إلى وزارة الصحة في الإمارات العربية المتحدة ٣٠ مستحضراً طبياً لتسجيلها، وفي سنة ١٩٩٥ وصل ما سجلته «جلفار» إلى نحو ١٧٠ مستحضراً، والكثير من هذه المستحضرات مسجل في دول خليجية وعربية وإفريقية.

وكانت لنا جلسة مطولة مع المهندس عبد الرزاق اليوسف مدير عام شركة الخليج للصناعات الدوائية «جلفار» وهو الذي قدم لنا مشكوراً كل التسهيلات ليرى استطلاعنا النور على صفحات «العربي» قال: إن هدفنا الأول من إقامة هذا المصنع هو تحقيق الاكتفاء الذاتي من الدواء لأبناء المنطقة، وذلك عن طريق تطوير كادر بشري متخصص لديه معرفة فنية وتقنية متقدمة وقادرة على مواجهة تحدي المرحلة، ومجاراة التقدم العالمي في علوم وتصنيع الدواء، وقد استطاعت «جلفار» خلال سنوات قليلة من قيامها أن تفرض نفسها على العديد من الأسواق العربية والعالمية.

تلتزم «جلفار» بفلسفة تصنيعية محددة قوامها التقيد بالحصول على مستحضرات طبية تتميز بالجودة الفائقة، حيث صمم بناء المصنع بشكل يتطابق مع مواصفات وشروط التصنيع الدوائي العالمي الجيد، وبصورة تسمح بالتحكم الكامل في ظروف الإنتاج كدرجة الحرارة ونسبة الرطوبة، لذلك جاءت مباني الأقسام المختلفة للمصنع منفصلة عن بعضها البعض. كما تحول أنظمة ترشيح وتنقية الهواء الخاصة بكل قسم في المصنع



تمتلك «جلفار» أحدث ما انتجته مصانع الأدوية في أوربا وأمريكا من أجهزة ومعدات حديثة لتصنيع مستحضراتها الطبية.

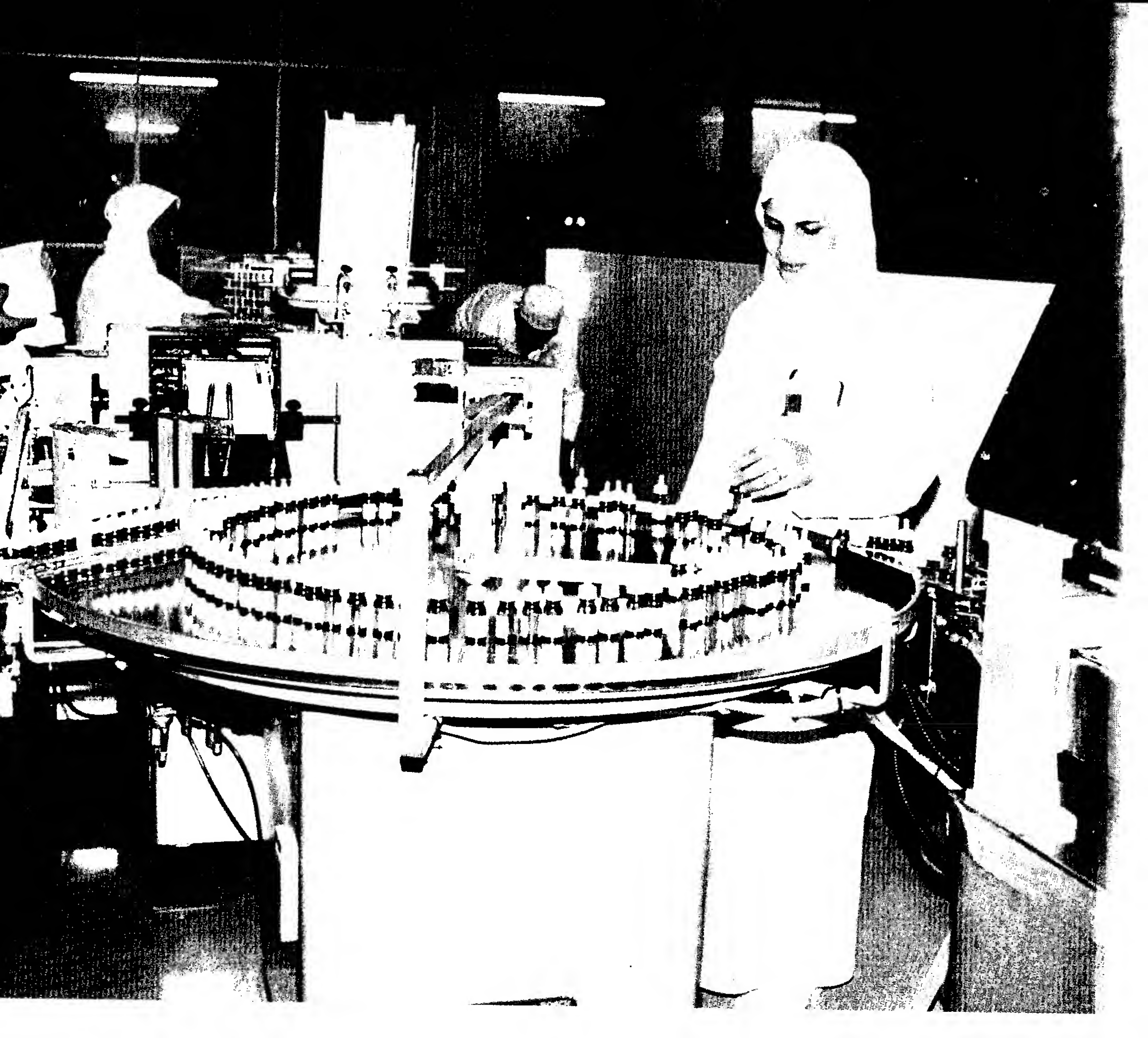
دون تلوث المستحضرات المصنعة من خلال فحص عينات الإنتاج في جميع مراحل التصنيع.

## الطاقة الإنتاجية

وسألنا المهندس عبد الرزاق اليوسف عن الطاقة الإنتاجية لجلفار فأجابنا قائلاً: بداية أقول لكم إن عملية الإنتاج في مصانعنا تخضع لنظام موثق، يتميز بالتفصيل والوضوح في جميع خطواته ومراحله، فيتم في البداية اختيار المواد الأولية التي نستوردها من أوربا، وبعد وصولها يتم تخزينها وفق الشروط العالمية، ثم تأتي خطوات التصنيع التي تبدأ بعملية الوزن والتقسيم، فتؤخذ جميع الاحتياطات اللازمة لعدم الخلط أو فقدان مواد الوجبات في أثناء النقل للتصنيع، أما خطوط إنتاجنا فهي على النحو التالي:

ننتج سنويا نحو ألف مليون قرص، وحوالي ثلاثمائة مليون كبسولة، ولدينا ثلاثة خطوط للأشربة والملعقات فتنتج نحو خمسة وأربعين مليون زجاجة، أما خط القطرات فينتج ما يقارب عشرة ملايين أنبوبة، وأخيراً التحاميل واللبوس ينتج حوالي سبعة عشر مليون تحميلة سنوياً.

ويمتاز قسم التعبئة والتغليف في «جلفار» بأنه يحتل حيزاً كبيراً من المصنع، بالإضافة إلى وجود تجهيزات آلية ذات تقنية عالية وطاقة إنتاجية كبيرة



قسم إنتاج القطرات السائلة يقوم بإنتاج نحو اثنى عشر مليون زجاجة سنوياً.

تتميز بالتكامل وذاتية الحركة، بحيث تتيح إنجاز جميع عمليات التعبئة والتغليف بشكل أوتوماتيكي آلي، لكيلا يتلوث الدواء، وتمتاز خطوط التعبئة والتغليف في هذا القسم بأنها تلتزم بالشروط الموضوعة للتصنيع الجيد في دساتير الدواء العالمية، بحيث يمنع أي اختلاط مع الأصناف المصنعة بجميع أشكالها السائلة والصلبة.

## الجودة .. هدفنا الدائم

وحدثنا المهندس عبد الرزاق اليوسف عن نقطة مهمة في صناعة الدواء وهي ما يطلق عليها تحقيق الجودة والتي تتجسد في التركيز بتزويد المختبرات بمجموعة متخصصة من الصيادلة والفنيين، وأحدث آلات التحليل المتطورة، إذ تتضمن مختبرات الرقابة على النوعية عدة ثوابت، منها وضع مواصفات المواد الأولية والمواد المصنعة، وإقرار مواصفات مواد التعبئة والتغليف، بالإضافة إلى تحليل المواد الأولية اللازمة للتصنيع قبل استعمالها، للتأكد من مطابقتها للمواصفات الدولية، بالإضافة إلى فحص وتحليل جميع تشغيلات المستحضرات الطبية المختلفة في أثناء مراحل التصنيع، وبعد تحضير المستحضر بالشكل النهائي ثم قبل خروجه من مخازن الشركة. يقوم



مختبر الرقابة على الجودة الذي زود بطاقم متخصص من الصيادلة والفنيين، وأحدث الأجهزة المتطورة. وهنا إحدى الفتيات تقوم بفحص عينة من شراب مستحضر طبي قبل دخوله خط الإنتاج.

مسئولو مختبرات الرقابة على النوعية مع المفتشين بالتأكد من قواعد الصحة العامة الخاصة بنظافة العاملين في المصنع، ونظافة الأماكن الخاصة بالإنتاج والتخزين، واتباع التعليمات التي تخص التصنيع كضبط درجة الحرارة، ونسبة الرطوبة، والتهوية، وقياس الضوضاء، ومنع التلوث في أثناء العمل.

ولا تقوم «جلفار» بتصنيع أية مستحضرات جديدة دون أن تخضع لسلسلة من الأبحاث المكثفة من قبل مختبرات الأبحاث والتطوير، ومختبرات مراقبة الجودة التي تمثلها قبل وصول المستحضر إلى مرحلة التصنيع، حيث تهدف هذه الأبحاث إلى التأكد من جودة المستحضرات عالميا، لذلك فقد تم تزويد مختبرات الأبحاث بجميع الأجهزة والمعدات التي تتطلبها عمليات تحضير الدواء، كما أن من مهام مختبرات الأبحاث والتطوير في الشركة إغناء لائحة المستحضرات المصنعة بإضافة أصناف أخرى جديدة من المستحضرات تضاف إلى سابقاتها حتى يكون إنتاج الشركة شاملاً، ويلبي معظم احتياجات المنطقة من الدواء، ونتيجة لذلك نجحت «جلفار» في إضافة العديد من المستحضرات الجديدة.

ولتحقيق النجاح الذي تأمله «جلفار» فقد استقطبت طاقما متخصصا من الصيادلة ذوي الخبرة الطويلة في مجال تصنيع المستحضرات الطبية وتسويقها، فهناك نحو ٨٦ صيدلانياً من أصل ٤٧٥ عاملاً فنياً وموظفاً إدارياً يشكلون عدد العاملين في المصنع، موزعين على جميع الأقسام، كل حسب مجاله وتخصصه، غالبيتهم من الجنسيات العربية.

وتشجع «جلفار» شباب دولة الإمارات على دراسة الصيدلة لإبراز العنصر الوطني، وذلك من خلال فتح مجال الزيارات المدرسية للمصنع، والتنسيق مع كليتي الطب والصيدلة في جامعة الإمارات لاستيعاب الخريجين، وفتح مجالات توظيفهم وتوسيع خبراتهم.

## ١٤٠ مليون درهم مبيعاتنا خلال ١٩٩٥

إن كفاءة ونجاح أي شركة دوائية يعتمدان على الكمية التي تستطيع أن تصدرها إلى الخارج، وقد استطاعت «جلفار» أن تصدر نحو ٨٥٪ من إنتاجها إلى خارج دولة الإمارات العربية، كما استطاعت أن تفرض مستحضراتها الطبية على العديد من الأسواق الخليجية والعربية والعالمية، وتصل منتجات «جلفار» إلى مالي ونيجيريا والسنغال وإثيوبيا وكينيا وتنزانيا، وبعض دول أوربا الشرقية، إذ يعتمد قسم التسويق على عناصر مؤهلة ومتخصصة في الدعاية والترويج والتوزيع والقيام بالدراسات التسويقية للأسواق الجديدة، والتي تتم إضافتها إلى قائمة الدول التي يتم التصدير إليها.

يقول مدير عام الشركة في هذا الصدد: إن مبيعات «جلفار» قد تطورت خلال السنوات العشر الماضية، حيث كانت في عام ١٩٨٥ نحو ٣٠ مليون درهم، فيما وصلت إلى ٥٠ مليون درهم في عام ١٩٨٧، أما في ١٩٨٩ فقد ارتفعت مبيعاتنا إلى ٨٠ مليون درهم، ثم وصلت في عام ١٩٩١ إلى ١٠٧ ملايين درهم. أما في عام ١٩٩٣ فقد وصلت إلى ١١٧ مليون درهم وأخيرا في عام ١٩٩٥ وصل رقم مبيعاتنا إلى ١٤٠ مليون درهم.

## ملفاتنا عند الـ F.D.A

ويضيف المهندس عبد الرزاق اليوسف قائلاً: لقد استطعنا في الفترة الأخيرة أن نقدم ملفات مستحضراتنا الطبية إلى وكالة الصحة والأغذية الأمريكية والمعروفة اختصاراً بـF.D.A وطلبنا منهم أن يقوموا بالتفتيش على مصنعنا وإنتاجنا، وقد قبلوا ملفاتنا وأعطونا رقماً، وعندما يأتون إلينا ويعطوننا شهادة بأننا مطابقون للنظام الأمريكي والمواصفات الأمريكية نستطيع أن نسوق إنتاجنا في أمريكا وأوربا أيضاً، والحق أننا بذلنا جهوداً مضنية للوصول إلى هذه الخطوة.

وتستبدل «جلفار» الآن بأجهزتها القديمة أخرى حديثة متطورة وذات كفاءة عالية، وسوف تستثمر نحو ٥٠ مليون درهم لتوسيع المصنع وتبديل أجهزته خلال السنوات الثلاث القادمة، وقد جاءت هذه الخطوة نتيجة زيادة رأس مال الشركة في حدود ٢٣ مليون درهم، أما الباقي فقد كان نتيجة الأرباح التي حققتها «جلفار» خلال عملها.

و«جلفار» مزودة بأجهزة كمبيوتر تستطيع أوتوماتيكياً فحص العينات كل خمس دقائق، وإذا كان هناك خلل فإن أجهزة الكمبيوتر تعطي تنبيهاً لضبط الإنتاج، وهذه الأجهزة الحديثة جعلت الإنتاج يزداد إلى سبعة أضعاف على ما كان عليه سابقاً، وبرغم أن الأجهزة الحديثة يقل حجمها عن الأجهزة القديمة فإن إنتاجها أدق وأكثر وأحسن.

## مشروع المضادات الحيوية والحقن

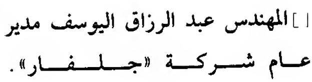
أما أهم مشروع يتم تنفيذه حالياً فهو مشروع المضادات الحيوية والحقن الذي يحتل مبنى بمساحة ٩٢٠٠ متر مربع، ويعد هذا المشروع إضافة نوعية للشركة، وهو أحدث ما توصلت إليه التقنية الحديثة

لصناعة الأدوية، فقد صمم المبنى على أحدث طراز يمكن أن يضاهي مباني أوربا، بحيث يكون هذا المشروع من الناحية التصميمية معتمدا من قبل وكالة الأغذية والأدوية الأمريكية F.D.A، أما من ناحية الأجهزة فيحوي أفضل نوعية من الأجهزة والمعدات المخصصة للصناعات الدوائية في أوربا وأمريكا، منها جهاز يقوم بتبخير الماء من المحاليل التي تستخدم للإبر حتى يكون مسحوقاً بطريقة من التبخير الخاص بواسطة جهاز «الأوفر لايزر» وهو من أحدث

فالمصنع سوف ينتج الدواء والحقنة في جهاز واحد وهو ما يعرف بـ «جاهزية الاستعمال» وسوف يكون الوحيد في الشرق الأوسط الذي يقوم بهذا النوع من الإنتاج الدوائي وقد بلغت تكلفته نحو ٥٠ مليون دولار وهو ما يساوي ٣٠٪ من رأسمال «جلفار» إضافة إلى مشروع المضادات الحيوية الذي بلغت تكاليفه نحو ٥٠ مليون درهم والذي سوف يباشر الإنتاج خلال الربع الأول من عام ١٩٩٦.

كما أن هناك مشاريع تكميلية أخرى توليها جلفار



□ المهندس عبد الرزاق اليوسف مدير عام شركة «جلفار».

□ واجهة مبنى شركة الخليج للصناعات الدوائية «جلفار» في إمارة رأس الخيمة.

الأجهزة الموجودة في العالم، وتعد «جلفار» واحدة من بين خمس شركات في العالم تقتني مثل هذا الجهاز، حيث يعمل أوتوماتيكياً بالكامل كما أنه مراقب بالكمبيوتر، ولهذا الجهاز ذراع آلية لإدخال وإخراج المستحضرات، أما بقية الأجهزة الموجودة ضمن هذا المشروع فهي الأخرى من أفضل الأجهزة،

العناية اللازمة، منها مصنع لإنتاج أغطية زجاجات الدواء من الألمونيوم بقدرة تصل إلى ٤٠ مليون غطاء، كما أن هناك مصنعا آخر يقوم بصنع أكواب بلاستيكية صغيرة لشرب الدواء، وملاعق بلاستيكية للغرض نفسه، وبالإضافة إلى ذلك فقد ساهمت «جلفار» كذلك في إقامة شركة نقل خاصة تتكون من

الخــــــط المخصص لإنتاج الأقراص يقــوم بإنتـاج حـوالـي ألف مليـون قرص سنوياً.



تمتلك «جلفار» نحو ٢٧ صيدلية داخـــل دولـــة الإمارات العربية تقوم بتسويق إنتاجها بالإضافة إلى منتجات الوكالات التجارية الأجنبية.

● الإمارات العربية المتحدة تلبي حاجة الخليج من الدواء.

مجموعة من السيارات المبردة والمجهزة لنقل الأدوية والمستحضرات الطبية إلى أسواق دولة الإمارات وأسواق دول مجلس التعاون الخليجي بطريقة حديثة لا تسبب أي ضرر لمنتجاتها.

## سلبيات صناعة الدواء

يحدثنا المهندس عبد الرزاق اليوسف عن سلبيات صناعة الدواء في وطننا العربي بصورة عامة قائلا: تؤكد الدراسات التي اطلعنا عليها أنه يوجد حالياً في وطننا العربي نحو ١٧٦ مصنعاً لإنتاج الدواء، وهذه المصانع تقوم بإنتاج ما يقرب من ٢٣٪ من قيمة استهلاك العالم العربي من الدواء، أما أولى هذه السلبيات فتتمثل في مصانع الدواء في الوطن العربي حيث إنها تكرر نفس المستحضرات وغالباً ما تكون مستحضرات طبية بسيطة مثل حبوب البنادول أو أدوية السعال، لأنها مستحضرات سهلة التسجيل ولها سوق رائجة في وزارات الصحة الموجودة في هذه الدول. فلو كان هناك تنسيق بين هذه الشركات وقامت بتنويع إنتاجها لاستطاعت شركات الدواء العربية أن تغطي معظم احتياجات وطننا العربي من الدواء الضروري، ولم تهدر هذه الملايين من الدولارات لشراء أدوية يمكن إنتاجها. إنني أطلب من الإخوة في شركات الدواء العربي أن يبذلوا جهودهم ليثبتوا للدول الأوربية وأمريكا ووكالة الصحة والأغذية الأمريكية جدارة أدويتهم، لأن هذه الدول لا تعترف بما تنتجه مصانعنا، فلابد من الحصول على شهادة الـ F.D.A حتى نستطيع أن نصدر إنتاجنا إلى أوربا وأمريكا.

تستورد «جلفار» موادها الأولية من الصين والهند وأوربا وأمريكا، وتعتمد في استيرادها لهذه المواد على المواصفات الموجودة في دساتير الأدوية، وهي مواصفات وافقت عليها الوكالة الأمريكية للأغذية والدواء F.D.A لتشتري «جلفار» موادها من شركات لديها شهادة من الوكالة المذكورة وذلك لتحصل على مستحضرات ذات جودة عالية.

## دراسات التوافر الحيوي المقارنة

ولا تقتصر اهتمامات «جلفار» على إنتاج أجود أنواع المستحضرات الطبية بل تتعداها إلى القيام ببعض الدراسات المقارنة بين المنتجات الصيدلانية التي تقوم بإنتاجها مع مشابهاتها العالمية، وهي تجارب مكلفة مادياً وتهدف ـ بشكل علمي وإحصائي وطبي ـ إلى إثبات جودة إنتاجها مقارنة بالأدوية العالمية، ويتم نشر هذه الدراسات في مجلات علمية موثقة، وبذلك تبث هذه التجارب الثقة عند الأطباء والمواطنين بأن مستحضراتها ذات جودة عالية. يحدثنا الدكتور الصيدلاني أحمد الدلال عن هذه التجربة قائلاً: الواقع أن الجودة التي نطلبها لا تأتي بتجربة الدواء من خلال استخدامه بوصفه للمواطنين، لكن بالقيام ببعض التجارب لهذا الدواء في الولايات المتحدة بالإضافة إلى بعض الجامعات العربية والأجنبية، حيث تقام هذه الدراسات في كليات الصيدلة وكليات الطب لإجراء مثل هذه التجارب مع متطوعين لا يعرف الباحث أي دواء استخدمه المتطوع، بل يستخدم اسما رمزيا لذلك الدواء واسما رمزيا آخر لمستحضر عالمي مشابه له، وبعد انتهاء التجربة لمجموعة المتطوعين المقسمين إلى مجموعتين تتبادل المجموعتان الدواء للتأكد من أن النتيجة واحدة، وتقاس النتائج بأجهزة دقيقة وليس بحكم إنساني، وهذه الأجهزة تعطي أرقاماً محددة لا يمكن التلاعب بها، ويطلق عليها «دراسات التوافر الحيوي المقارنة» وهي دراسات مكلفة إلا أن جلفار تسعى بواسطتها للوصول إلى أفضل المنتجات، كما أن هذه الدراسات تستخدم أيضاً في تقديم مستحضرات «جلفار» للأسواق الخارجية للتسجيل، وهذه الدراسات تدعم الدواء من ناحية النوعية والجودة وهي من متطلبات بعض الدول لتسجيل

الدواء، كما أنها إحدى الخطوات للوصول إلى متطلبات منظمة الصحة العالمية W.H.O ومتطلبات منظمة الأغذية والأدوية الأمريكية F.D.A وهما المسئولتان عالمياً عن توثيق الأدوية واعتمادها.

## مستودع «جلفار» للأدوية

وجلفار مستودع أدوية يتبع القسم التجاري للشركة، حيث يقوم بتسويق منتجاتها داخل الإمارات العربية والأسواق التي ليس لـ «جلفار» وكلاء تجاريون بها. يقول الصيدلاني الدكتور عليان الحياري: إن هذا المستودع يقوم بتسويق منتجات الوكالات التجارية الأجنبية، التي يكون المستودع وكيلاً لها مثل: أغذية ومستلزمات الأطفال، بالإضافة إلى بعض الأدوية والمعدات الطبية ومستحضرات التجميل. ويضيف الدكتور الحياري قائلاً: إن «جلفار» تمتلك سبعا وعشرين صيدلية داخل دولة الإمارات العربية يقوم مستودع «جلفار» للأدوية بإدارتها ولديه المسئولية الكاملة عن نشاطها، وتمثل أدوية «جلفار» ومستحضراتها جزءا مهما من مبيعات هذه الصيدليات. وللمستودع قسم يقوم بمتابعة مبيعات الوكالات التجارية خارج دولة الإمارات ومتابعة المشاريع المستقبلية سواء بالنسبة لفتح صيدليات جديدة داخل الدولة، أو الاتصال بالوكالات التجارية الخاصة بالأدوية لتسويق مستحضراتها.

## خدمات للمجتمع والبيئة

وتقدم «جلفار» مجموعة من الخدمات لمجتمع الإمارات العربية، وذلك من خلال دعمها المادي والمعنوي لمشروعات خدمة المجتمع والبيئة، تتمثل بدعم البحوث الطبية مادياً لاستمرار البحث العلمي من خلال الجامعات الموجودة بالإمارات، وتكون تلك البحوث لخدمة المجتمع من حيث التطوير والبحث عن الجديد، كما تقدم دعماً للمؤتمرات العلمية عن طريق الاشتراك بمعرض لمنتجات الشركة لدعم هذه المؤتمرات ثم دعوة أخصائيي الأدوية المعروفين عالمياً من أجل تبادل الخبرات والاستفادة من الخبرات العالية، وتهتم جلفار بالدوريات العلمية الحديثة وإرسالها إلى الأطباء والصيادلة، كما تقدم منحاً وجوائز للبحوث الميدانية التي يقوم بها الطلبة، وكذلك تقدم الدعم المادي والمعنوي لمجالات الخدمة العامة في دولة الإمارات، كتدعيم الإحصاءات والدراسات الميدانية ومساعدة الهلال الأحمر والهيئات الخيرية في أداء رسالتها، بجانب مساعداتها للخدمات المتخصصة في مجال التوعية البيئية.

## لماذا يعزفون عن الدواء العربي؟

ونحن بصدد الكلام عن الدواء المصنع عربياً لابد أن نتوجه إلى بعض الأطباء بالسؤال التالي: لماذا يعزف المريض العربي عن تناول أو شراء الدواء المصنَّع عربياً ويفضل عليه الدواء الأجنبي؟، ثم ما الحل لهذا العزوف؟ حملنا هذا السؤال إلى الدكتور عبد الرزاق العدواني وهو وزير سابق للصحة في دولة الكويت فأجابنا قائلاً: ليس هناك ما يثبت هذا الادعاء.. هناك بعض الآراء الفردية، وهذا لا يعتبر دليلاً على عزوف الشعوب العربية عن استخدام الدواء المنتج محلياً أو عربياً، إلا أن هناك بعض الأسباب التي قد تفسر هذا العزوف عند بعض الناس، من هذه الأسباب تصميم العبوات الدوائية والذي يشكل جزءاً من طريقة تفكيرنا عموماً. ومنها أيضا الرغبات والميول الشخصية، فنحن نعلم أن شركات الدواء تلتزم بإنتاج الدواء حسب المواصفات العالمية، والاختلاف أحياناً بين دواء وآخر لا يكون إلا في اللون أو الشكل أو التعبئة.. هناك من تعود على نوع واحد، ويرغب في الحصول عليه ولا يهمه الاسم العلمي للدواء. ويدخل ضمن التعميم الذي ذكرته بعض النقد الذي توجهه بعض الوسائل المقروءة بسبب الهفوات البسيطة، هناك أمر يجب أن

نأخذه في الحسبان وهو أننا في البلاد العربية جدد في الصناعة الدوائية، ونعاني نقصاً في الخبرات الفنية، وعدم إجادتنا استخدام أحدث الوسائل في ضبط الجودة، وهذا بسبب ما ذكرت من هفوات.

ونسأل إذن ما الحل لهذا العزوف؟ يقول الدكتور العدواني: إنه صعب فكما ذكرت أن كثيراً من الحالات يرجع سبب العزوف فيها إلى ميول شخصية، والتوعية هي أحد الحلول لهذه المشكلة، وإجراء إحصاءات مقارنة بالدواء العربي والدواء الأجنبي يمكن أن يكون فيه فائدة، والفائدة هنا تعتمد على إحساس الناس والثقة، فالإنسان العربي متى ما وثق في صناعة الدواء العربي فإنه سوف يقبل على تناوله.



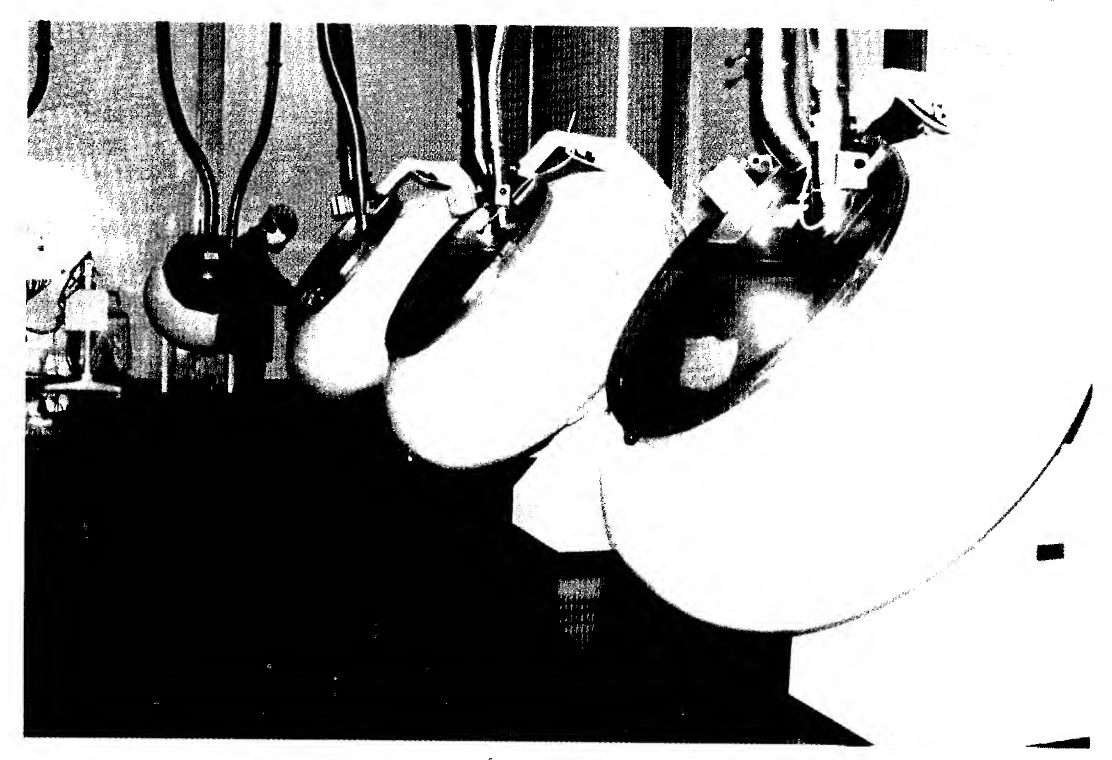
الدكتور عبد الرزاق العدواني
عزوف المريض العربي عن شراء الدواء العربي ادعاء لم تثبت صحته.

إلى الغش أو التزوير من قبل أحد المنتجات الطبية العربية، أو قد يكون المنتج العربي غير جيد في بعض الأحيان أو يختلف في التغليف والتعبئة عن المنتج الغربي.

وهناك الصدمات التي يتعرض لها المواطن العربي خلال استخدامه للمنتج العربي، فقد يتصادف عندما يستخدم المريض المنتج العربي على مدى فترات زمنية معينة، أن تنتكس حالته الصحية أو لا يحصل على أي تقدم طبي، ولا توجد أي علاقة لهذه الحالة بنوع الدواء الذي يتعاطاه وهناك في الطب النفسي حالة تسمى «الاقتران الشرطي السلبي» أي أن المنتج العربي يرتبط ذهنياً معه بعدم الشفاء والتدهور الصحي، ودخلت في هذه المسألة عوامل سياسية واقتصادية، بمعنى أنه عندما يقوم مشروع لإنتاج صناعة دوائية محلية يعتقد الناس أن هناك تزويراً وتلاعباً في المواد الكيماوية، وعدم نظافة في عملية التصنيع، وهناك عامل التقصير في الإعلام والدعاية لما هو مصنع عربياً، فالإعلام الغربي يدفع مبالغ كبيرة للترويج لبضاعته وهناك ميزانيات ضخمة تصرف للإعلانات بينما نرى في المقابل أن المنتج العربي ليست له ميزانية للإعلان لاعتقادهم أن الصحة أمر مسلم به، ولا يحتاج إلى أي عنصر دعائي وبالتالي فإن المريض يجبر على شراء الدواء المصروف له من الطبيب، كما أن الأطباء العرب الذين يدرسون في الغرب نراهم يتعاطفون مع المنتج الغربي الذي اعتادوا وتدربوا عليه، فمن درس في أمريكا يتعاطف مع المنتج الأمريكي وهكذا، وهناك عامل آخر وهو أن المنتج الغربي ارتبط في أذهاننا بالإضافة

## عزوف نفسي

وحملت هذا السؤال أيضا إلى الدكتور مروان سليمان المطوع وهو أخصائي في العلاج النفسي فقال: من المعروف أن المواطن العربي عندما يحجم عن استخدام المنتج الدوائي العربي فإننا لا نستطيع أن نفسر هذه الظاهرة إلا بالعودة إلى التربية والتنشئة الاجتماعية، فمنذ الطفولة والمواطن لديه تأثير سلبي عظيم فوسائل الإعلام الأجنبية دائماً تظهر النمط الغربي العنصر المتفوق وتظهر النمط الشرقي العنصر المتخلف، فالنمط الغربي هو نمط «السوبر مان» أو الرجل الخارق سواء كان على مستوى العلم أو على مستوى المعارك أو حتى على مستوى مكافحة الجريمة، ويظهر الدواء بصورة التفوق، والنجاح الذي لا يحتمل الخطأ وقد يتعرض المواطن



أجهزة خلط مركبات الأقراص.

إلى التفوق بالشعور بالفخر، فعندما أقول إنني أملك أدوية صناعة أمريكية فأنا أشعر بالثقة والفخر، كمن يريد التوفير، والمشكلة في أن المنتج العربي غالباً ما يكون أرخص من المنتج الغربي، والمواطن العربي اعتاد على هذه النظرية، أن كل شيء مرتفع السعر لابد أن يكون بالضرورة ذا قيمة أكبر. ولكن ما الحل الأمثل لهذه الإشكالية؟ يقول الدكتور مروان المطوع: لحل هذه الظاهرة لابد أن نبدأ بالتوعية الصحية منذ الطفولة فالقناعة لدى كبار السن ترسخت، والسمات أصبحت أنماطا ثابتة في الشخصية، فيجب أن نبدأ بتشجيع الانتماء والولاء للأرض العربية، وأن علماء العرب كانوا متفوقين في علوم الطب والدواء، أما النقطة الأخرى فعلى المدرسين في المراحل المبكرة من الدراسة أن يظهروا الدواء العربي على أنه منتج من الطراز الأول وله قيمته، ويشجعوه، كما أن للأسرة دورها وهو تشجيع الأبناء على أن يلبسوا ويقتنوا كل ما هو عربي، ولابد من ترسيخ مفهوم العروبة والانتماء في ذهن الشباب، وأن استخدامه لهذا المنتج وهذه الصناعة العربية يعني الولاء للأرض وللعروبة.

وهنا تلعب وسائل الإعلام الدور الأساسي، فعليها أن تقدم برامج للتوعية الصحية وبخاصة للصغار، ماذا يضير الإعلام لو أنتج برامج توعية صحية ضمن برامج الأطفال تخصص فقرة تقدم رسالة موجزة للطفل عن الطب والدواء العربي، ويفضل لو تنظم زيارات ميدانية للطلبة إلى مصانع الأدوية وعن طريق الأطباء إذ ينبغي أن يحظى الدواء العربي عند الأطباء بالأولوية في الصرف، كما أن الطبيب يستطيع أن يقنع المريض بأن هذا الدواء ذو فاعلية ممتازة وهو لا يقل عن الدواء الأجنبي. كما يجب أن يكون هناك تنسيق بين المصانع العربية، بحيث لا تكون هناك ازدواجية في إنتاج الدواء، لأن ذلك يقلل من مصداقية هذه المنتجات الدوائية العربية. □




# دينـــا

شعــر: بـــدر تـــوفـــيـــق

دينا التي لاعبتها وهي طفلة،
مازال ماثلا لديّ صوتها الملعثم،
وحرفها المنمنم،
ونقشها المعقود،
تميمة للزمن الموعود،
ترد للقلب سراجه المفقود

***

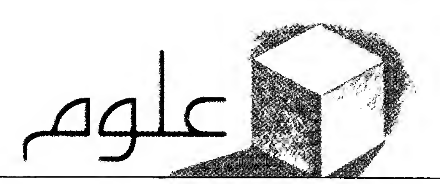
من غربتي أعود
للوطن المنشود،
سلبتني الحرب عزائي
سلبتني أبنائي
فهل تعاودين يا دينا الغناء
في شجن الأشلاء
وعبث البحث عن الجمال والولاء؟
أم ترفعين صوتك السجين بالبكاء
لعل نور الحزن والدعاء
يصعد من وشائج الموتى إلى الأحياء؟

***

ابتسمي . . أو اصرخي . .
لشد ما يرعبني الجمود والخواء
فهذه النافذة الخاوية الزرقاء
مغلقة خرساء
كأنها جناحك الذي طواه الموت
فاستلب الكلمة من بين الشفاه
وفرض الصمت!

***

إني أرى البحر غضوبا، والرياح قاتلة،
والسمك الصغير مذعورا من الزلزلة.
عيناك صارتا مع الليل اليباب
كوكبين جامدين مظلمين،
على السفوح الكالحة،
اقترنا بالسكن الأليف بين الأضرحة
فواصلي البكاء، واصلي البكاء،
واحكمي الرباط في عباءة العذرية السوداء،
لأن «أحمد» الحبيب،
كالوردة التي تموت،
سوف يموت للأبد،
ولن يعود آخر النهار،
كما وعد!! □




# زمن الثورة الزرقاء

إعداد: إبراهيم عبد الله العلو

لقد قدحت حضارة الحاسوب والتطور التقني المتسارع مولد علم جديد يبشر بزراعة البحار وجني ثمارها من أطايب الطعام.

وهذا العلم هو علم الزراعة المائية Aquaculture ونعني به الإنتاج المنتظم للنباتات والحيوانات في البحيرات والبرك والمحيطات والأنهار وهو الامتداد المنطقي لترويض الإنسان لبيئته.

والزراعة المائية بحد ذاتها ليست وافدا «جديدا» إلى علم الإنتاج الزراعي، فزراعة الأسماك بدأت قبل آلاف السنين في الصين ومصر، حيث قدمت الأسماك المرباة في البحيرات والبرك مع البط مصدرا «أساسيا رخيصا» من مصادر البروتين. وثمة حكمة صينية تقول: «عندما تطعم فقيرا سمكة فإنك تقيه من الجوع ليوم واحد وعندما تعلمه تربية الأسماك فإنك تبعد عنه غائلة الجوع مدى الحياة».

تشمل زراعة الأسماك سمك الترويت والسلمون والمحار وسمك القط والكارب والمشط والبوري وغيرها، ويبلغ حجم الإنتاج العالمي من المزارع السمكية ما يقدر بـ ٦ ملايين طن سنويا.

## الزراعة على الماء

هناك عدة أسباب تساعد على ازدهار الزراعة المائية فالأسماك بحد ذاتها «مصدر محدود» عرضة للاستهلاك والنضوب، ويعتقد أن المحيطات توفر ما بين ١٠٠ إلى ١٥٠ مليون طن سنويا من الأسماك ويقدر بعض العلماء حجم الصيد العالمي لعام ٢٠٠٠ بحدود ٩٤ مليون طن.

ولكن أعداد بعض الأنواع مثل السمك المفلطح والرنكة وجراد البحر والأنشوقة والخفش قد تناقصت إلى مستوى يقرع ناقوس الخطر. وتعتبر الأغذية البحرية «مصدرا غذائيا رخيصا» - في بعض الدول - من مصادر البروتين وتحتوي على كمية أقل من الكولسترول تجعلها أكثر جاذبية من الناحية الصحية.

وتستخدم الزراعة المائية الماء بفعالية أكبر تفوق أي استخدام زراعي آخر للماء ويمكن استعمال المياه المترعة بالفضلات فيما بعد لري المحاصيل.

ويقول الدكتور جون بارداش من جامعة هاواي إنه بتوافر المادة والطاقة يمكن إنتاج مخلوقات بمعدلات وأحجام مرتفعة، ولكن تكاليف الإنتاج العالية لاتزال العقبة الأساسية الماثلة أمامنا.

تظهر المصاعب عندما يحاول العلماء اعتراض دورة الحياة الطبيعية للحيوانات المائية التي تمتلك مراحل نمو معقدة، فالمورد المحدد من البيوض يتطلب تحكما بالتزاوج ويفتح الباب على الانتقاء الوراثي، الذي قد يضاعف من معدلات النمو والخصوبة ويمنح مقاومة عالية للأمراض. مثل بعض هجائن المحار المرباة في مزارع واشنطن.

تقدر تكاليف العلف بنصف كلفة الإنتاج الكلية ويحاول علماء التغذية - باستخدام الحاسوب - موازنة عشرات العوامل التغذوية لإيجاد علائق رخيصة يمكن تشكيلها من مواد متوافرة محليا، ويتوجب على الحاسوب تحديد أدنى كمية من البروتين الرخيص اللازم لإنتاج الأسماك. ولا يخفى أثر التغذية الملائمة على عامل متبدل آخر وهو الأمراض. إذ تبين أن مرض الموت

ثورات عديدة، بألوان حمراء وخضراء، زعمت أو طمحت أن تواجه الجوع، ومع تزايد أعداد البشر، كان لا بد من ثورة جديدة.. زرقاء هذه المرة.

الأسود الذي اكتسح مزارع الروبيان كان ناجما عن نقص في فيتامين «ث» وكلما ازدادت كثافة الأسماك أو القشريات المرباة أصبح مورد الأوكسجين المتوافر في الماء أكثر حساسية، مما يفرض عليها ضغوطا واجتهادات جمة. وفي مثل تلك الظروف قد يقضي المرض على محتويات البركة أو البحيرة في غضون ساعات قليلة، وعندما ترفع درجة حرارة المياه التي يسبح فيها جراد البحر يمكن تقليص فترة التربية اللازمة لجراد البحر من ٥ ـ ٧ سنوات إلى ما دون ثلاث سنوات.





وتستخدم تقنيات الزراعة المائية لإعادة تزويد المصائد الداخلية بصغار الأسماك مثل محاولات إكثار وإنقاذ بعض الأنواع المستنفدة مثل سمك الحفش.

ويقوم العلماء في جامعة كاليفورنيا بتربية أصبعيات الأسماك في أحواض وتحريرها في الأنهار لإعادة التوازن للمجموعات الطبيعية التي تعرضت للصيد الجائر والتلوث البيئي وسد مناطق التفريخ الاعتيادية وبالطبع لا يمكن أن ننسى رعي سمك السلمون للبحار والمحيطات إذ تهاجر أسماك السلمون من أماكن التفريخ في المياه العذبة إلى المحيط حيث تتغذى على الغذاء الطبيعي المتوافر ثم تقفل عائدة إلى مواضع التفريخ.

وقبل سنوات عديدة دعا العلماء إلى استثمار غريزة

العودة إلى مواطن التفريخ لدى أسماك السلمون، بعد أن تصل إلى حجمها البالغ. إذ تنتقل أصبعيات السلمون من المفارخ إلى الساحل، حيث توضع أولا في بحيرات من مياه البحر وتنغرس فيها صورة عن محيطها. وبعد أن تتحرر في المحيط ترعى لمدة تتراوح ما بين سنة وأربع سنوات ثم تعود الأسماك المتبقية إلى البحيرات التي



انطلقت منها، حيث انغرست رائحتها في أدمغتها ويتم صيدها هناك.

وإذا عادت نسبة تتراوح ما بين ١ ـ ٢٪ من الأسماك المرسلة فإن ذلك يوفر هامش ربح مقبولا للمستثمر. ولا يخفى أن رعي السلمون للبحار يفيد الجميع، إذ إنه يزيد من أعداده التي تتوافر للصيادين ولكائنات بحرية أخرى ولكن البعض يرفع علامات تحذير. فمنهم من يقول إن الأصناف المولدة اصطناعيا قد تطغى على الأصناف الشائعة أو تتزاوج معها، ومنهم من يخشى أن السلمون المحرر قد يخفض من التنوع الوراثي الذي يمنح المجموعة حيويتها وربما استنفدت الأعداد الكبيرة من السلمون سلسلة الغذاءالطبيعية في المحيط.

## وتحت الماء

لا تكتفي الثورة الزرقاء باستثمار الحيوانات، ولكنها تتجه لاستغلال النباتات أيضا. ومن بين الخطط المستقبلية الواعدة اقتناص الطاقة الشمسية عبر مزارع غذاء وطاقة عملاقة. ففي السبعينيات ابتدع الدكتور هوارد ويلكوكس فكرة استزراع عشب البحر Kelp في مياه البحر وتحويله إلى علف للحيوانات وميثان للوقود. ويقول ويلكوكس إن مساحة ٤٥ ألف هكتار من عشب البحر أسفل السطح سوف توفر ما يكفي من الغذاء والمواد الكيماوية والوقود على شكل ميثانول وإيثانول لتلبية احتياجات مدينة يسكنها ٥٠ ألف نسمة، وبعكس النباتات الأرضية لا يتطلب عشب البحر جذورا لامتصاص «الغذيات» وبدلا من الجذور يمتلك عشب البحر شبكة من النموات الشبيهة بالسويقات التي تعرف بالمثبتات Holdfast التي تلتف حول أي سطح صلب، ويقوم النبات باستخلاص الغذيات في مياه البحر.

وقد تنمو جدائل العشب حتى طول ٧٠ مترا وتعكس أوراقها المطاطية الداكنة غطاء لتجميع أشعة الشمس، عبر شرائح واسعة من المحيط وتنتقل الطاقة الشمسية التي امتصها اليخضور إلى الساق عبر عملية لاتزال مبهمة تسمى الانتقال Translocation بينت مزرعة اختبارية صغيرة على هذه الشاكلة على خليج كاليفورنيا. وفي هذه المزرعة التي تبلغ مساحتها نصف هكتار يوفر بنيان بوزن ٢٥ طنا على هيئة مظلة مقلوبة رأسا على عقب الهيكل الذي تربط إليه نباتات عشب البحر. وعند المحور توجد وحدة ضخ وأنبوب طويل يغمر حتى عمق ٥٠٠ متر ليسحب الماء من

الطبقات الغنية بالغذاء ويرشها على نباتات عشب البحر. ويعتمد النجاح النهائي للمشروع على الناتج الممكن تحصيله من نباتات عشب البحر السريعة النمو. ويتساءل بعض العلماء عن إمكان زرع نباتات عشب البحر السريعة النمو في المياه المفتوحة بلا حماية. يقول الدكتور ويلر نورث من معهد كاليفورنيا للتقنية إن الفكرة تبدو واعدة من الناحية التقنية، ولكن الأمواج العاتية قد تجدل النبات في الهيكل وتعيق نموه. أما النتائج الأولية لإنتاج الميثان فتبدو مشجعة للغاية فعشب البحر هو الغذاء المفضل لبعض أنواع البكتيريا، وعندما يقطع ويطعم لمستعمرات من هذه الكائنات الدقيقة فإنها تحطم العشب وتحوله إلى غاز طبيعي. وفي البداية ظن العلماء أن المحتوى المرتفع من الملح والمياه سوف يعوق التحلل الناجع من قبل البكتيريا ولكن كمية الميثان



المنتجة فاقت التوقعات، إذ أمكن توليد ٥ أقدام مكعبة (١٤, ٠م٣) من الغاز الطبيعي من نصف كيلو جرام من العشب. ويقول بعض العلماء إن مزرعة لعشب البحر بطول ٧٥٠كم تستطيع إنتاج ما يكفي من الميثان لتلبية احتياجات الولايات المتحدة الأمريكية من الغاز الطبيعي، ولكن ويلكوكس يحذر من أن مثل ذلك المشروع ـ وإن كان ممكنا من الناحية النظرية ـ قد يكون ذا تأثيرات بيئية خطرة، لأنه يغطي مساحة واسعة بالطحالب.

يقوم الدكتور جون رايثر من معهد وودز هول بإجراء التجارب على السرجس Sargassum وهو العشب البحري العائم في بحر ساراجاسو وهي منطقة في وسط المحيط الأطلسي، وترتكز فكرته على إيجاد مزرعة دائرية عملاقة من خلال تغطية منطقة واسعة بالسرجس ويمكن ضخ العشب البحري عبر خطوط من الأنابيب إلى وحدة تحويل الميثان، ثم يعاد استخدام البقايا الناجمة من عملية تحويل وضخها لتسميد الأجزاء النامية من المزرعة. ومن النباتات المائية ما يمتلك مقدرات مذهلة حيث تزدهر على الملوثات بما في ذلك المواد السامة والمعادن الثقيلة. إذ استخدمت الياقوتية المائية Hyacinth لتنقية مياه الصرف في عدة مدن. يتألف نظام معالجة المياه الطبيعي من سلسلة من عدة أحواض مغطاة بالياقوتية العائمة ونوع آخر يسمى الطحلب البطي.



ويغطي هيكل ذو غطاء مزدوج السطح برقائق بلاستيكية تحتجز الحرارة، تقوم الياقوتية باستقلاب غذيات المياه الملوثة والمركبات السامة والمعادن وخلال ستة أيام يصبح الماء نقيا قابلا للشرب.

لقد كان حقل الزراعة المائية حتى عهد قريب فنا أكثر منه علما، ولكنه بدأ ينطلق ويقوى على الرغم من المصاعب والعواقب التي تعترض طريقه.

ومما لا شك فيه أن الزراعة المائية تقدم إسهاما مهما في موارد الأسماك خاصة أسماك المياه العذبة، أما بعض السيناريوهات المستقبلية فقد تبدو ضربا من الخيال اليوم، لكنها قد تصبح حقيقة مألوفة في يوم من الأيام.




## في معرض نبيل السنباطي

# إزاحة غبار الأساطير

بقلم : ناصرعراق*

إن الفنان نبيل السنباطي الذي قدم معرضه أخيراً في قلب القاهرة، تمكن من اصطياد موضوع ساكن ومهجور لم يقربه أحد من قبل، وراح يفتش بإصرار عن الإمكانات الجمالية التي تتيح له أن يلقي بحجر داخل البحيرة الراكدة للأجواء الفرعونية. ففي العصر الحديث، ومن باب مواكبة الرواج السياحي واستثمار مايمكن من كنوز مصرية لتحويلها إلى بضاعة براقة تستهدف جيوب السائحين، سادت فكرة الرسوم الفرعونية على ورق البردي المصنوع، وانحاز لها تجار محترفون وشباب كثيرون ينقلون ــ بمهارة أحياناً وركاكة أحياناً أخرى ـ تلك الرسوم التي عبرت عن المناخ الاجتماعي والديني في مصر القديمة، والتي زينت مقابر ومعابد الفراعنة قبل مئات السنين.

لكن الفنان نبيل السنباطي استطاع أن ينحرف بهذا المزاج «السوقي» ويصنع خليطاً سيريالياً آسراً قوامه البحث الدءوب عن قيم جمالية مخبوءة داخل صلادة الحجر الفرعوني وهشاشة المومياء المستكينة من خلال تفرده بخيال خصيب وفاتن.

هل يمكن لنا مثلاً مقاومة الانشداد الجميل للوحة يطل منها الوجه الفرعوني المألوف لتوت عنخ آمون، الذي أخذ وضع البروفيل وراحت عصاه الشهيرة تتحول إلى ثعبان أنتج عدة ثعابين أخرى متحفزة، ثم رسم في الخلفية ثلاث مسلات ذات أحجام وأطوال مختلفة.. لكنها متكتلة، ربما من باب حماية الفرعون وثعابينه، ذلك الذي يبدو كما لو كان يتحرك بعنفوان ومحاطاً بجبروت هذه الزواحف الفتاكة؟ إن القمر المضيء الذي توسط السماء أضفى على المشهد كله جلالاً مشهوداً.

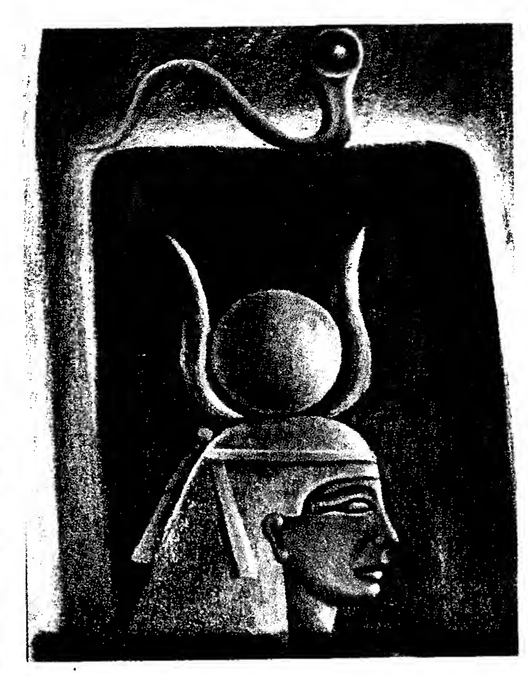
## القدرة على الإفصاح

لقد لاذ الفنان نبيل السنباطي بالألوان الزيتية وقدرتها اللامحدودة على الإفصاح، فقام بتطويعها لما أراد. منح الأزرق المسالم للسماء، أما الألوان العتيقة للحجر فقد فازت بها المسلات الثلاث.. ثم انحاز الفنان نحو الملمس الناعم، فصور به الوجه الفرعوني الذي يلوح كما لو كان خارجاً تواً من دراما عنيفة، برغم بقايا الإحساس بجمود الحجر الذي يغلف وجهه الذي تراكمت عليه بقع الضوء المشع.

لم تكن المدرسة السيريالية التي استقرت في عشرينيات هذا القرن، بعد ظهورها المدوي في أثناء الحرب العالمية الأولى، إلا فتحا مثيراً في عالم الفنون الجميلة. فبعد أن كانت الطبيعة هي المصدر الرئيسي لموضوعات الفنان، بما تحويه من مناظر، وعناصر، وكائنات حية.. إذا بعلم النفس واكتشافاته يعطي للعقل الباطن للإنسان مكاناً مرموقاً يسمح بتحليل أحلامه

* ناقد فني من مصر.

**أخيراً . . استطاع فنان أن يزيح غبار الأسطورة وتراب القرون عن الفراعنة، ويقدمهم لنا بعد أن هجروا توابيتهم، وزهقوا في الإقامة الجبرية داخل مقابر من ذهب.**





□ مفردات من الأساطير الفرعونية مثل الحية المقدسة ومفتاح الحياة استخدمها الفنان لإثراء لوحاته.

وكوابيسه، وخيالاته. ويفسح المجال لغزارة اللاشعور بالانهمار على اللوحات، مما منح الفنان فرصة نادرة لارتياد العوالم المدهشة والمغايرة لكل العوالم الفائتة.

لقد كتب «هيجل» مرة بحق: إن مهمة الفن هي الكشف عن الحقيقة بشكل حسي في صياغة فنية.. لذا يصبح من المقبول تماما أن يحوم الفنان في فضاء السيريالية الوافرة يلتقط عناصره من كهوف الواقع، ومن حلم غائم لا ينتهي أبداً. إن اللوحة التي تصور طائراً يجذب قطعة قماش منسدلة، أما جناحاه وذيله فقد تحورت أيضاً إلى قطعة أخرى من قماش.. تحتضن بيضتين.. لهي لوحة جديرة بالإدهاش. لقد صمم الفنان لوحته بإحكام فاختار وجه «أخناتون» الشهير ورسمه مرتين في يمين ويسار اللوحة، ووضع البيضتين بين هذين الوجهين، ثم وضع بيضة حائرة ووحيدة في أعلى قطعة القماش على اليسار.

إنه عالم مليء بالرموز والدلالات. إن البيضة تعبير عن المكنون، أو توحي بالانبثاق والميلاد، والطائر برغم انسيابيته، فإنه يلوح كما لو كان معلقاً في فضاء غير آمن. ويصبح الأمل يترصد هذا البيض الموزع بحكمة على سطح اللوحة. إن الوجه الأخناتوني جهة اليمين يحصد الإضاءة المنعشة عليه برغم حزنه البادي، أما أخناتون الآخر الكالح الألوان فمحروم من بريق الحياة في عروقه. إنها لحظة تأمل حذر لما سوف يئول إليه هذا الصراع بين الطائر المعافر والبيض المستكين والقماش اللانهائي ووجهي أخناتون!!

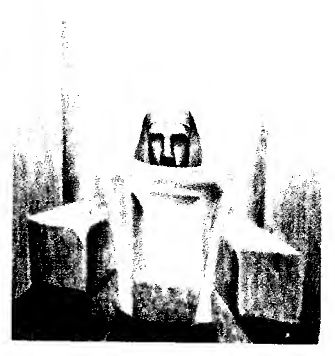
## ثقافة أسطورية

إن الفنان ذا النزعة السيريالية يستطيع أن ينتخب من الوجود العناصر التي تحقق للوحته أعلى كفاءة ممكنة،



شريطة أن يكون متسلحاً بثقافة غزيرة عن الأساطير والحكايا وعلم النفس والتاريخ وأحاجي الفلاسفة وغيرها، هذا غير خبرته الخاصة بالفنون الجميلة وتطورها وآخر المدارس والاتجاهات التي ابتكرها الفنانون في بلاده وفي العالم كله.

إن مفتاح الحياة الفرعوني الذي يستقر جهة اليمين في أعلى إحدى اللوحات يخاصم هذا الكائن الفرعوني المعتم مجهول الاسم الذي



أخناتون الحزين وهو يتأمل مصير دعوته. والكاهن يجلس القرفصاء مترصداً له.

يحتل مقدمة اللوحة بوجهه الكئيب وجسده الحجري، بينما عين كبيرة قابعة جهة اليمين مغطاة بثنيات من قماش أزرق يسطو على معظم فراغ اللوحة. وجاءت الرقعة الشطرنجية التي تستولي على ربع السطح الأسفل كترديد جمالي لعنصري الخير/ المفتاح، والشر/ الكائن، من خلال تناغم اللونين الأبيض والأسود. أما نن العين المنزوع من محجره وموضوع في مقدمة اللوحة ببياضه اللامع، فربما أفسح المجال للتفاؤل.

إن نعومة الملمس صفة ملازمة للسيرياليين بشكل عام منذ إبداعات كبيرهم «سلفادور دالي» إلى الآن، ربما لأن نعومة السطح تسمح للخيال بالانسياب السلس لتفسير الرموز التي تضج بها الأعمال من ناحية، وربما لتكثيف المتعة البصرية وعدم إزعاج حركة العين من ناحية أخرى.

لكن الفنان نبيل السنباطي ارتأى أن ينحاز نحو تكنيك مختلف في بعض لوحاته، من خلال استخدام الفرشاة الجافة بعد أن كسا لوحته بطانية لونية بواسطة هذه الفرشاة أيضاً، فقدم لنا إحدى الآلهات تحمل فوق رأسها قرنين بينهما قرص. لقد آثر الفنان أن يحيط هذه الآلهة بحجر ضخم غامق تعلوه موتيفة فرعونية مألوفة وهي الثعبان الشهير، لكن بتحور مقصود. إن معمار هذه اللوحة شديد الإحكام من خلال توزيع العناصر وحركة الضوء المنسال على الوجه في الأسفل. وعلى الثعبان ذي الأصفر

القرفصاء بتأمله التاريخي وحزنه الكهنوتي أمام بهو الأعمدة الفرعونية المألوفة، ومعلق فوق رأسه في الفراغ هرم صغير، بينما احتل الجزء العلوي من اللوحة هرم مقلوب. لقد وزع الفنان كتله المعمارية بحذق، فوازن الكاهن بالهرم المقلوب، كذلك وزع الأعمدة في اليمين واليسار بطريقة أبرزت قوة التصميم.

هذا عمل قصدي راعى فيه الفنان أصول حرفته مراعاة كاملة من أول استخدامه للكتل وظلالها سواء كان الكاهن أو الأحجار، حتى اللون الروحاني الذي يحيط بالهرم المقلوب.

## مؤثرات فرعونية

لم يبخل الفنان نبيل السنباطي على هذه التجربة الثرية، فاستفاد من معظم الكائنات والعناصر التي تركها لنا الفراعنة على جدرانهم ومعابدهم، من الحيوانات مثل الأسد والكلب والقط إلى الطيور بأنواعها المختلفة مروراً بالحروف الهيروغليفية ومفاتيح الحياة وأحجار المعابد. لذا لم يكن مستغرباً أن تجيء أعماله محيرة للعين، مثيرة للأسئلة، ممتعة للعقل.

هذا فنان مثقف، يعرف أصول صنعته ويعطيها حقها بالكامل. يبحث بشغف جلي عن الجديد في الفكر والمضمون، لا يتورع عن الولوج داخل الكهوف المعتمة مادام سيخرج منها بلحظة ضوء باهرة.. ينتزع الفراعنة من على جدرانهم ومعابدهم ويقدمهم لنا في معالجة تتصف بالعذوبة وجموح الخيال.

هذا فنان يمنحنا نعمة التأمل ومؤاخاة الألوان.. وهذا يكفي.



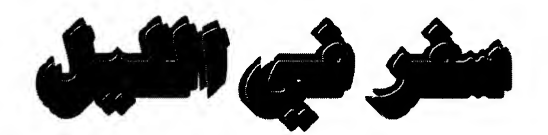
وجها أخناتون والصراع بين الطائر المعافر والبيض المستكين

الطازج أعلى اللوحة. إن العبارة التشكيلية الشجية التي تمنحنا إياها هذه اللوحة مع السطح الخشن الذي يشبه حبيبات الرمل، تؤكد أن وراءها فناناً مقتدراً، لا يكف عن البحث الشاق عن أساليب جديدة وعوالم مغايرة تمكنه من إبداع لوحات تثير الفضول وتشحن الوجدان بأنهار من المتعة الرفيعة.

لقد ظل الهرم محط أسرار الحضارة المصرية القديمة، لما يحوي من إعجاز في البناء أو غموض في طقوس الدفن بصفته مقبرة للعظماء. لذا لم يكن من المستغرب أن يقتحم الفنان هذا العالم المثير. فصور لنا كاهن المعبد جالساً




■ قصص عالمية ■




# سفر في الليل

للكاتب النيجيري: كين سارو - ويوا*

ترجمها عن الفرنسية: محمد الجندي

تسير السيارة بأقصى سرعتها، ويزمجر المحرك في صمت الغسق المنتشر. لقد سقط مطر خفيف. ثمة بقع من الماء على ذلك الطريق، الذي يخترق الدغل، ويمر بجسر خشبي مهترىء، وبأراض محروثة حديثا، ويحاذي عدة قرى مبنية بالطين، قبل أن يصل إلى المدينة.

في الخلف من السيارة كان الرجل والمرأة، وابنها كان يغفو على المقعد إلى جانب السائق. الرجل كان يحيط بيده أصابع المرأة. وكانت تتركه يداعب أصابعها بلطف دون تفكير.

من وقت إلى آخر، كانت ثمة صورة عابرة لامرأة، أو لامرأتين، تعودان من السوق مع سلتين صغيرتين على الرأس، تثير ذكريات وقت مضى. مرة مرتا بمجموعة صغيرة من الناس، تحمل رجلا على تخت. كان الرجل مغطى تماما بستارة. كان ميتا.

قالت:

ـ إنها الكوليرا.

كانت ترتجف، زوجها توفي أيضا في أثناء الحرب. بعد مسيرة طويلة مؤلمة تحت مطر عنيف، وفي ليلة كئيبة، وصل إلى البيت ـ غرفة صف مبنية بالطين، مفتوحة للرياح، في مكان ما في الريف. كان يسعل، رجلاه متورمتان. نظرة بسيطة إلى وجهه الجميل، وعرفت أن شيئا ما لم يعد سليما، يجب أن يذهب إلى المستشفى. ولكن كانت تعرف، أن لافائدة. لا توجد أدوية في المستشفى. الطائرات الليلية كانت تأتي بصورة خاصة بالذخيرة. بعض الأدوية، التي كانت تتلقاها، كانت تضيع في السوق السوداء. والقليل منها، الذي كان يرشح الى المستشفى، كان مخصصاً للضباط، وللرسميين-الذين كانوا يجلسون خلف مكاتبهم، ويبدون آذنا صماء. أمضى ثلاثة أيام على السرير في المستشفى. ثم وقف العالم.

• سوف تلد طفلا بعد موته، ولن يكون لديها وقت لدفنه: الطائرات دمرت المشرحة. وكان عليها أن ترحل إلى القرية المجاورة.

هو أيضا خاض الحرب، ولكن في المعسكر الآخر. كان دوره، أن ينقل الأوامر، والأغذية، والأدوية، والنجدة، وقد أتعبتهم الحرب وهدتهم، يعيشون في تلك القرى وسط السهول، المتعانقة الأشواك، التي تبصق آبارها البترول ليل نهار. تلك الآبار، التي كانت السبب الرئيسي للحرب، والتي لاتزال تشعل النار، هو أيضا كانت لديه طرف، يرويها عن تلك الأيام الصعبة، التي عاشها بين الجنود، بين اليائسين والفقراء، الذين عانى من أجلهم الكثير دون كلل خلال أشهر كاملة من الآلام.

* تحية لهذا الكاتب النيجيري الذي شنق هو وثمانية من رفاقه، على أثر محكمة هزلية بتهمة القتل. لقد نشر أكثر من ٢٦ كتابا للأطفال والبالغين. وكان رئيسا لحزب بقاء الشعب النيجيري ،الذي حارب احتكارات الشركات الغربية، وأحدث مقتله ثورة عالمية ضد النظام العسكري في نيجيريا مازالت أصداؤها مستمرة حتى الآن.

والآن، وقد انتهت الحرب، كانت مهمته دوما هي المساعدة على إعادة التكيف للذين هربوا منذ أول انفجار غير مألوف لطلقة مدفع، أو لقنبلة. كان همه الآن، أن يقنع البالغين، كي يعودوا إلى المزرعة، وإلى أعمالهم، وكي يرسلوا أولادهم من جديد إلى المدرسة. عمل صعب، مليء بخيبة الأمل.

كانا يريان الصور العابرة من المساحات المحروثة حديثا تضيع خلفهم في الغسق.

فكر: هذه الأراضي المحروثة سوف تقتلكم يا إخوتي، ويا أخواتي. ذلك الصباح بالذات خطب فيهم في ساحة قرية دوكانا، مطالبا إياهم بارسال بناتهم إلى المدرسة. ولكن من يساعدنا في المزرعة، أجابت النساء. من يحرس الأطفال، عندما نبذر الانيام igname؟ يئس. في كل بداية موسم تشترون الانيام للبذار. تشتغلون بشكل قاس من أول يناير حتى ٣١ ديسمبر، ثم تأكلون ما تجنونه، وفي الموسم التالي يجب عليكم أن تشتروا من جديد انيام البذار. ليس لديكم حساب في البنك، وربما تشترون وزرة pagne جديدة من سوق ايغوانغا، وسطحكم، الذي من القش، يهرب يائسا من سنة إلى أخرى. ثم أنتم مضطرون لتزويج ابنتكم البالغة خمس سنوات، وذلك لشراء إنيام البذار، كي تستطيعوا الزراعة من جديد. أمن أجل هذا خلقكم الله؟ لا، يا إخوتي. هذه الأراضي سوف تقتلكم (. . .).

كان من السهل دوما تحديد اللحظة، التي اقتربت فيها السيارة من بوري Bori. ظهر خزان الماء في الأفق، ثم السطوح المصنوعة من الصفائح المموجة، والتي تغطي الكوميساريا والثكنة، ثم الجدران القرميدية للبنايات الإدارية، وأعمدة التلغراف، ومولد الكهرباء في المستشفى، عندما لا يكون معطلا. الطريق الرئيسية تقسم المدينة نصفين. حل الليل تقريبا. أمر السائق بالوقوف.

ـ سأشتري اسبرين من هنا، بينما السائق يملأ البنزين بعد مسافة قصيرة. ألا تنزلين؟ يمكن أن نذهب ونتناول بعض الشراب الحلو.

لم تسمع سوى الكلمات الأخيرة. فتحت الباب بشكل آلي، وعيناها ساهمتان في الأفق، وخرجت. دخلا الدكان. خالية تقريبا. زجاجة أسبرين تكلف خمسة شلنات، أغلى بمرتين من قبل الحرب. دفع، وغمغم ببضع كلمات حول الغلاء والأرباح المفرطة. لم يكن ثمة شراب. الشاب كان يجر رجليه على إيقاع الموسيقى الخارجة من الترانزستور، الموضوع على أحد الرفوف الفارغة.

ترك المرأة تخرج أولا من الدكان، وتفحصها طويلا بعين ناقدة. منظرها العام لم يكن على ذوقه. لقد فقدت جمالها. يقول، إحداهن. لقد تغيرت كثيرا: لقد تركت

الحرب بصماتها. لم تبلغ الثلاثين بعد. ربما لو كان لديها رجل.. غير السائق الفيتيس (ناقل الحركة)، وأنار المصابيح. وبينما كانت السيارة تتسارع، كانت المصابيح تمسح البرية، وتظهر عرائس الإنيام، التي تخرج من التلة الصغيرة. في البعيد تنير السماء يمنة ويسرة شعلات مكامن البترول. للحظة قطب حاجبيه. قال

ـ أنت صامت تماما، وحاولت بذلك أن تطلق الحديث. تنهد.

ـ لماذا تتنهد؟

ـ بسبب الشعلات.

ـ تزعجك؟

ـ نعم.

ـ لا أفهم فعلا، لماذا؟

قال بنفاد صبر:

ـ هذا سياسة. وضرب برجله وأضاف: لننس كل ذلك.

ـ أوه، أنت تعلم، أنني لن أنسى.

ـ لكن يجب ذلك. انظري خلفك، هناك. أترين القمر الهلال؟

اتذكرين ليلة مثل هذه. كنا فيها على السياج، الذي كان يفصل بيتينا في بوري، وكنا نمسك بأيدي بعضنا؟

ابتسمت بحزن في العتمة. كان يخفف عنها، إنه لا يستطيع أن يرى وجهها.

ـ منذ زمن طويل جدا. تزوجت بعدئذ بوقت قصير.

ورد بقسوة:

ـ فسري لي، لماذا؟

قالت، وابتسمت بأسى في العتمة:

ـ ليس هذا من نوع القصص الذي يحكى. لا ضرورة لتعذيبي. لم يكن ذلك زواجا سعيدا.

قال بقسوة:

ـ تركتني أسقط.

ـ لعلك لا تقول هذا، لتؤذيني. أنا أرملة شابة ضعيفة.

ـ وأنا أعزب.

ـ إذن، ستجد يوما ما السعادة.

ـ سأجد يوما ما السعادة، نعم.

السخرية التي يحسها المرء في صوته، لا شك فيها. تفحصت وجهه، واعتقدت، أنها اكتشفت قسوة عميقة في ملامحه. بدا، وكأنه هرم دفعة واحدة (...).

ضحك ضحكة جوفاء وصفيقة، أصيبت منها برعشات في ظهرها. تتذكر الآن، كيف كبرا معا. وكيف كانت ببراءتها خلال عطلة الميلاد فريسة شاب، يعمل في الضرائب، وحملت منه. وكم بكت، عندما أدركت أبعاد ما جرى! وغضب الأبوين! وكيف جرح صديق طفولتها الجالس الآن في السيارة إلى جانبها بسبب ذلك، وكيف اضطرب، وجن جنونه! غضب عليها، وضحك، وسخر منها، لكي يخفي ألمه. لا يزال يتذكر الضحكة الساخرة، التي حياها بها، عندما تركت والديها، لتذهب، وتعيش مع الرجل، الذي لوثها.

أنارت المصابيح كلبا أجرب، كان يأكل الغائط على طرف الطريق. وذكره ذلك بتلك الليلة الكئيبة الممطرة أيام الحرب، التي عثر فيها على كلب وحيد في قرية أوغال المقفرة، يصطفي بهدوء أفضل القطع على رأس أحد الموتى. في ذلك اليوم لعن تفاهة الحرب (...)

تابع قائلا:

ـ بل لا يوجد مستشفى، يذهب إليه المرء. ولا يوجد أيضا ما يكفي من اللقاحات للجميع. اللقاحات، التي تأتي من القيادة تباع إلى أولئك الفقراء التعساء. ثمة أحد ما، استخدم المال المخصص لشراء الأدوية لاستعماله الشخصي، ولن يجد المرء حتما مذنبا، ليطرده.

ـ إذن؟

ـ إذن لا يوجد فعلا شيء يجعل المرء سعيدا.

ـ على كل حال، تحمل العالم على كتفيك. لست أطلس.

ـ لا. ولم أخلق لذلك أيضا.

ثمة شاحنة ضخمة تجاوزتهم بسرعة جنونية. مع رائحة السمك المجفف المألوفة.

لاحظت:

ـ ذلك السائق مستعجل.



ـ طبيعي. ثمة أحد ما على وشك تحقيق أرباح شاذة من آلام الفقراء.

تلك هي منح، آتية من النرويج، منقولة في مركبات قديمة، ولكنها صالحة، ومقدمة من شعب بريطانيا العظمى إلى الإفريقيين، الذين يموتون من الجوع، ومن سوء التغذية. ماذا تأخذين من كل ذلك، أنت؟

ـ أنت تسخر من المنح ومن المانحين؟

ـ أخاف اليونانيين، والمنح، التي يأتون بها معهم، في العمق، ليس سيئا، أن ينتهي المطاف بها إلى جيوب الأفراد.

ثم وضع في حسابه، أن أقواله لم تكن عادلة تماما، لأن حياتهم كانت أصعب بكثير، لو لم تصل تلك المنح. صمت.

اقتربوا الآن من شعلة، كانت القرية قربها تتربع في النور. بعض البيوت لم يعد لها سقف: سقط تحت القذائف إبان الحرب. القرية البشعة، السمينة القصيرة، غير المعتنى بها، كانت غافية.

قالت:

ـ لديهم حظ، أولئك القرويون. لديهم نور طوال الليل. لا حاجة للكهرباء.

ـ فعلا، لا حاجة. وضحك ضحكة قاسية، لا رحمة فيها.

بالكاد تجاوزوا القرية، وإذا بعدد من الرجال في حالة هياج أشاروا لهم بالوقوف. أمر السائق بإطاعتهم. ظنت، أن هؤلاء ق. يكونون عصابة مسلحة. قال، أن لا. ما إن اقتربت السيارة بشكل كاف من الرجال، حتى وقفت. أحدهم وضع أمامه امرأة قصيرة هزيلة.

قال:

ـ لديها الطاعون.

ـ حسنا ضعها على المقعد الخلفي. سآخذها إلى المستشفى. يجب أن يصحبها أحد ما.

جميعهم قاموا بحركة تراجع، مرتعبين (...).

ـ حسنا، سآخذها معي. واعتنوا بأنفسكم. اغلوا الماء جيدا قبل الشرب. لا تضعوا أي مصاب في الداخل. ولا تستدعوا الدجالين. حافظوا على ما حولكم نظيفا. ليلة سعيدة.

تابعت السيارة طريقها بصمت. كانت المريضة تلبس ثوبا باليا، مرقعا، وجلست بينهما. تقيأت مرتين، وفي المرتين قاما بما يلزم لجعلها تشعر بالتحسن. استخدم منديله ليمسح الأوساخ. وتوجب عليها أن تستخدم منديلها كخرقة. ورأت تلك الطيبة الراسخة، التي أعجبت بها، وأحبتها دوما، تنبثق لديه. لم يكن فظا، ربما كان مثاليا جدا في بلد لا مكان فيه للمثالية. سمعته في نفس الصباح يتكلم في دوكانا، استمعت لبضع الكلمات، التي قالها في السيارة، دهشت لضحكته الساخرة، التي اعتبرتها بغيضة جدا. لو ترك لنفسه، فإنه قادر على تدمير ذاته. ثمة فكرة سريعة مرت بذهنها، ولكن كبتتها بالسرعة، التي ولدت فيها. استمرت تمسح القيء بمنديلها.

هو أيضا تأثر للحنان، الذي كانت تمسح به القيء باستخدام منديلها. شعر، أنها تفعل ذلك لأجله. ومرت بسرعة لديه فكرة. كبت تلك الفكرة مباشرة، وترك روحه تسرح في المشكلات الاجتماعية. كيف يمكن للمرء، أن يمنع سرقة الغذاء والدواء المخصصين للجماعة؟ أن يمنع الناس من قبول الرشوة؟ رجل هبط من القدس إلى أريحا، ووقع في وسط لصوص. وضربوه إذا لم يصمد، يموت. ولا أحد يبكي عليه. لا أحد مطلقا. خفض زجاج النافذة، وقذف بمنديله الملوث من النافذة.

بدأت المريضة تئن، وتهمس بكلمات غير مسموعة. وفكر، لم أستطع التخلص من تلك الفكرة، هذا مستحيل تماما. الكلمات، التي نطقت بها تعود لها. أنت لست أطلس! لا، ولم أخلق من أجل ذلك أيضا. لقد تكيف العالم دوما مع علله. وإذن؟ إنها فتاة شجاعة. كان يجب أن أتزوجها. الآن هي أرملة، ولكن لديها ابن من زوجها الأول. لا أستطيع أن أتبناه. لم تعد جميلة، مثلما كانت في شبابها. تنهد.

نظرت في اتجاهه. ليس ثمة شيء سوى الظلمة بينهما، لكن كانت ترى أشعة الضوء، التي تنبثق عن البيوت البعيدة، وتضيء قليلا السيارة.

الآن برزت المدينة أمامهم.

أمر السائق:

ـ اذهب إلى المستشفى.

ماتت المريضة قبل الوصول إلى المستشفى. سلم الجثة للمشرحة. التي كانت مليئة، ولكنه ترك الجثة هنا برغم

ذلك . لم يكن ثمة أحد ، يأخذ إعلاما بالحادث . الممرضة المناوبة كانت مرهقة بالعمل ، وبدت متوترة . أغلق باب السيارة وأشعل سيجارة . كانت جالسة إلى جانبه ، تبكي . سألت :

- سترافقني إلى البيت ، آمل .

- نعم ، حتما .

بقيا صامتين حتى بيتها . كان الجيران نائمين عند وصولهما . أيقظت ولدها ، الذي نام ، وقبضاته مطبقة طيلة الرحلة . نزل من السيارة ، ودخل بسرعة راكضا إلى البيت .

فتحت باب السيارة من جهتها ، ذهبت إلى الجهة الأخرى للسيارة حيث ينتظرها - ومدت له يدها . عاد لها هدوؤها . لم يهتم بيدها ، وأخذها بين ذراعيه . قال :

- يجب أن تعلميني الحياة مع الموت .

تخلصت من ذراعيه ، وابتعدت بخطى ثابتة .

# إيسكي آراب

## للكاتب البلغاري : يوردان يوفكوف

## ترجمة : ميخائيل عيد

ثمة قرى عديدة حول مصب نهر ميستا يعيش فيها زنوج . تقول أسطورة غير قديمة العهد إن شخصا يدعى حسين باشا كان يملك مزارع واسعة هنا . لم يحتمل عماله وأجراؤه المسلمون البلغار الجبليون الذين في منطقة رودوبي القيظ والملاريا حول قره سو . مات بعضهم وهرب الآخرون فاستقدم الباشا زنوجا من مكان ما . ليس ثمة وجود للمزارع في أيامنا . لكن أحفاد الزنوج مازالوا مقيمين هنا . بيوتهم واطئة رمادية اللون ، تختفي بين أشجار التين . وتنمو أجفان الصبار ، إلى الأعلى عند الأسيجة الطينية بأزهارها الصفر والحمر . الجو قائظ إلى درجة لا تطاق صيفاً . لا نسمة تحرك قصب المستنقع . ثمة محاريث تجرها جواميس ضخمة ، يسير وراءها فلاحون سود في مثل لونها . وثمة شبان جميلون حقا : أجسام معافاة ممشوقة ، وأطراف مفتولة صلبة فكأنما هم من برونز أسود . إنهم أناس طيبون سذج بسطاء يتكلمون ويبتسمون من القلب كالأطفال ، ابتسامات تكشف عن أسنان بيض كالثلج .

مركز خفارة الحدود مقام في مزرعة مهجورة . كل تذكارات الشرق وغوامضه باقية في ذلك البناء القديم الضخم : الأطناف العريضة ، والنوافذ المشبكة ، والسرادقات ، والجدران المغطاة تماماً بحشيشة الدينار ، وعاشق الشجر ، وغيرها من النباتات المتسلقة . وتقوم حوله أسوار حجرية عالية كأسوار حصن .

المزرعة بعيدة جداً عن القرى ، وبالرغم من ذلك ، كان جيراننا السود يأتون لزيارتنا أحياناً . كان اثنان منهم يزوراننا أكثر مما يفعل الآخرون . . وهما إيسكي آراب ، وتاتا تيتا .

إيسكي آراب أكبر الزنوج سناً هو الوحيد الذي لم يولد هنا بل في السودان ، وقد حكى لي في أول لقاء بيننا : «هناك صيادون يصطادون على الجياد في نواحينا . وهم لا يخرجون للصيد البري بل لصيد الأطفال . يطوفون حول القرى ويخطفون الطفل الذي يبتعد ويبيعونه» وهكذا اقتيد إيسكي آراب . كان حينذاك في الرابعة عشرة من عمره . ولهذا يتذكر أشياء كثيرة من وطنه .

ليس ثمة ما يجمع بين تاتا تيتا وبين شخصيات برنارد شو . كان شاباً خلاسيا جميلاً وكان اسمه الحقيقي شوكت . خدم في الجيش التركي نافخ بوق . كان الجنود يتسلون معه ويرغمونه على أن يعزف لهم المارشات العسكرية التركية . ما كان تاتا تيتا يمانع بتاتاً . وكان يعزف تلك الإشارات بفمه بطريقة واحدة : تا - تا . تي - تا . فصار هذا لقبه . لم تكن له حرفة ، ولم يمارس أي عمل تقريباً . كان يعمل فيما مضى على إحدى العوامات التي

تنقل الناس والعربات عبر النهر لقاء مبلغ زهيد. ولهذا كان تاتا تيتا يعرف قره سو والغابات المجاورة أفضل مما يعرفها حيوان بري. كان ماكراً نشيطاً، يشرب الكثير من الخمر، ويمارس التهريب سراً.

يأتي إيسكي آراب إلى المركز دائماً ومعه طلب ما: راجياً إعفاء مواشيه من السخرة أو طالباً السماح له باقتطاع القليل من حطب من الغابة على مقربة من الحدود. لكنه ما كان أبداً يبدأ الحديث مباشرة. كنا نبدأ وإياه الحديث نفسه دائماً. يقول:

ـ يا رئيس أفندي! أنت دائماً تقرأ وتدخن، تقرأ وتدخن.

ـ أنت تحن إلى مملكتك دون ريب!

ـ طبعاً يا عبد الله، إنني أحن وأنت، ألا تحن إلى السودان؟

ـ أحن، كيف لا أحن.

ـ ألا تريد الذهاب إلى هناك؟

ـ إيه، أريد.. إنه الوطن. جذاب لكنه بعيد جداً يا رئيس أفندي. على بعد ستة أشهر، وعلي أن أحصل على سبع تذاكر، إذ يجب أن أجتاز سبع ممالك. وهي: اسطنبول. أزمير، مصر..

ويعد على أصابعه ويذكر بضعة أسماء أخرى. هي ليست ممالك بتاتاً، ولا معنى لها، على الأغلب. ولكونه واثقاً من أن هذا كله سوف يدهشني ويذهلني حتماً فإنه كان يبتسم في النهاية بطيبة وغبطة. وإيسكي آراب هرم جداً، ووجهه منفر مخيف: جلد أسود وشفتان سوداوان وحتى بياض عينيه أسود. أسنانه وحدها بيضاء وليس ثمة ما هو إنساني في هذا الوجه سوى الابتسامة.

ويردف:

ـ وهناك بحر، ثمة بحر يجب عبوره.

ثم يسألني بعد وهلة قصيرة بسذاجة تامة:

ـ أحقاً، يا رئيس أفندي، وأنت رجل متعلم، أنه توجد في البحر أفاع كبيرة تستطيع حتى إيقاف البواخر؟

ومن ثم نغير سريعاً مواضيع حديثنا.

ويذهب آخر الأمر سعيداً فرحاً، لأن الإذن الذي أعطيته له بقطع ما يريد من الحطب من منطقة الحدود يلمع أبيض في يده السوداء. لكن الجنود يستوقفونه طويلاً في الخارج ويمازحونه ويضحكون حوله.

هكذا كان يأتي إلى المخفر مراراً. وكان تاتا تيتا يأتي أيضا. لكن كثعلب يطوف بالخم حذراً ودون ضجة. كنت أراه على غير انتظار بين الجنود. دون أن أعرف متى جاء ودون أن أراه عندما يذهب. لاحظت مرة، صداقة حميمة بين معاوني المساعد وإيسكي آراب وتاتا تيتا. وخيل لي أنني لاحظت ذلك متأخراً جداً. كان تاتا تيتا يتحاشى الالتقاء بي، وإذا ما التقينا راح ينظر إلي بمكر وارتياب. وأدركت أن شيئاً يتم خفية عني.

كانت غرفة المساعد منتحية جانباً في مكان من الطبقة الأولى. مررت يوماً مساء قربها ونظرت عبر النافذة. كان الأصدقاء الثلاثة هناك.. المساعد، وإيسكي آراب، وتاتا تيتا. تضطرم نار في الموقد وثمة أقداح وزجاجة عرق (راكيا). كان ضابط الصف من بانديرما، وهو

شاب مثقف جداً، يجيد اللغة التركية أحسن من الأتراك أنفسهم. يتكلم عن إفريقيا. ويبدو أنه قرأ ليفنغستون، وبريم، وماين ريد. دار الحديث حول كل شيء: حول الغابات الاستوائية المتشابكة بالعرائش والمزدحمة بالضواري، والأفاعي، وحول الصحراء والسراب الذي يخدع القوافل الضالة، وحول نخيل الواحات وزئير الأسد المخيف حين تغيب الشمس. ومن ثم أسهب في وصف المساكن الصغيرة المقامة من عيدان الخيزران. الذين يعيشون هناك سود البشرة، لكنهم أحرار ودون هموم، متوقدون، شبقون في الحب، قساة عنيفون في الانتقام وفي المعارك. يعرفون كيف يفرحون: يشربون الخمر بقشور جوز الهند، موسيقاهم تنيم الأفاعي وتلهب دماء النساء، اللواتي يرقصن شبه عاريات. الخرز والنقود القديمة، وحدها، ترن على أذرعهن وصدورهن. صرخ تاتا تيتا لدى سماعه الكلمات الأخيرة ثم تناول كأسه، وصفر لحن شارة الهجوم. تلك هي الشارة التي تعلن أن وقت الشرب قد حان. وتاتا تيتا يصفر هذه الشارة كثيراً. إنه يشرب مستمتعاً، يرفع الزجاجة ليرى كم بقي فيها، ولا يأبه كثيراً بالحديث. أما العجوز إيسكي آراب فكان يستمع ذاهلاً عن كل شيء وهو يرتعش تأثراً. وكان يكتفي بأن يردد:

- هكذا، تماماً، ياشاويش أفندي. أذكر! إيهيه!

ومن ثم غنى بصوت أجش.

منعت هذه اللقاءات. لكن مرض الزنجي استفحل. كان، علاوة على ذلك، مصاباً بخرف الشيخوخة الطبيعي، لكنه صار الآن لا يتحدث إلا عن السودان وعن شبابه. كلامه لا معنى له تقريباً وغير مترابط. فكه يرتجف وكذلك يداه. عيناه ترسلان نظرات زائغة بلهاء. زوجته تشكوه لي، وهي عجوز حادة الطبع شريرة، رجتني أن أمنع المساعد وشوكت من الجلوس مع عجوزها. إنهما يفقدانه صوابه. كان فيما مضى فطناً وديعاً. وهو الآن يخاصمها دائماً. ويتوعدها بأنه سيبيع كل شيء ويذهب إلى السودان. يكاد لا يأكل شيئاً ولا يستطيع إلى النوم سبيلاً، وإذا ما أغفى راح يلغط في نومه بلغة غريبة غير مفهومة. وتبكي العجوز.

دعوت إيسكي آراب إلى المخفر. صادف هذه المرة أنه كان ثائباً إلى رشده. جهدت كي أقنعه بالنكوص. قال بإذعان أسيان:

- يا رئيس أفندي، مات أطفالي، وأنا هرم، ويخاصمونني في البيت دائماً. لا أستطيع، سوف أذهب، المكان الذي يولد فيه الإنسان هو المكان الذي يناسبه.

وروى لي هذه الطرفة:

- في قديم الزمان رأى الملك سليمان طائراً صغيراً. كان تغريد الطائر فائق العذوبة. أمرهم أن يمسكوه ويضعوه في قفص من ذهب.

ولأنه ملك، تحقق ما أمر به. لكن الطائر صمت حينئذ. أحنى رأسه وما عاد يردد سوى: «وطن! وطن!» أشفق الملك وأمر بإطلاقه. انطلق الطائر من القفص وحط على جفنة شوك قمئة وعاود التغريد. لكن، هناك، في وكنه.

رجعت ذاك المساء نفسه متأخراً من جولتي عند الحدود. كانت القرية ساكنة، والمساكن تختفي تحت قباب أشجار التين، ثمة نافذة واحدة مستديرة تضيء في الظلام كعين صفراء. تناهت إلى سمعي أصوات متفرقة باهتة تشبه وقع قطرات المطر فوق حوض.

هناك بيت إيسكي آراب. دنوت وأوقفت جوادي، ثمة في الداخل من ينقر على الطبلة ويغني، الصوت موهن أجش. إنه رنات صماء غليظة. إنه إيسكي آراب يغني. سمعت في البداية لحناً هادئاً مفخماً يتكرر طويلاً، لكن فيه الكثير من الحب والدموع والذكريات. ثم تسارعت النقرات على الطبلة وتسارعت الأغنية واستحال اللحن إلى إيقاع مرقص ممراح. ورنت الصنوج بدلاً من الطبلة.

وتعالى صوت نسوي زاعق حقود:

- اسكت، اسكت، أيها الخرف الملعون! ياي، ياالله، ياالله! صمتت الأغنية. رد إيسكي آراب بشيء لم أسمع فحواه. وعادت المرأة إلى الصياح بقنوط:

- وطن! وطن! هذا الوطن دوماً! أضعت صوابك أيها الرجل، فلتخجل!

ومضى بعض الوقت، ثم بدأ نقر الطبلة وبدأت الأغنية من جديد. اللحن المفخم البطيء في البداية، أصوات غليظة صماء من الخلف، لكنها مفعمة بالرقة والحب والأسى القانط.

إنه إيسكي آراب يحن إلى السودان. □

● قصص عالمية.

# وسيطة الأرواح

## للكاتب الإسباني: بيو باروخا

## ترجمة: الدكتور جمال يوسف زكي

أنا رجل هادىء، ومتوتر الأعصاب، متوتر الأعصاب جدا، لكنني لست مجنونا كما يقول الأطباء الذين شخصوا حالتي. لقد حللت كل شيء وتعمقت فيه وأعيش قلقا. لماذا؟ لا أعلم حتى الآن.

منذ وقت طويل أنام نوما عميقا بلا أحلام، وعلى الأقل عندما أستيقظ، لا أتذكر إن كنت قد حلمت، ولكن يتحتم علي النوم، ولا أفهم لماذا يخيل لي أنه ينبغي أن أحلم. وربما أنني أحلم عندما أتكلم الآن، ولكنني أنام كثيرا وهذا دليل على أنني لست مصابا بالجنون.

ولكن عقلي لا يفكر، وعلى الرغم من ذلك فهو متوتر، باستطاعته التفكير ولكنه لا يفكر.. آه! إنكم تبتسمون، هل تشكون في كلمتي؟ إذن، أقول نعم. لقد تكهنتم به. هناك شبح يهتز داخل نفسي.

سأروي لكم الحكاية:

إن الطفولة رائعة، هل هذه حقيقة؟ بالنسبة لي هي أفزع فترة في الحياة. عندما كنت طفلا، كان لي صديق يسمى رومان هودسون، كان أبوه إنجليزيا وأمه إسبانية.

تعرفت به في المدرسة. كان صبيا طيبا، نعم، بالتأكيد كان صبيا طيبا، ولطيفا جدا، وطيبا جدا، وكنت أنا نفورا وفظا. وعلى الرغم من هذه المفارقات جمعتنا الصداقة وكنا نسير دائما معا. كان هو تلميذا نشيطا، وكنت أنا عاصيا وكسولا. ولأن رومان كان ولدا طيبا فلم يكن لديه مانع من أن يصحبني إلى منزله ويجعلني أرى مجموعات الطوابع التذكارية الخاصة به. كان منزل رومان كبيرا جدا وكان يقع بجوار ميدان لاس باركاس، في عطفة ضيقة بالقرب من منزل تم فيه ارتكاب جريمة قيل عنها الكثير في فالنثيا.

لم أقل إنني قضيت طفولتي في فالنثيا. كان المنزل حزينا، حزينا جدا، كل ما هو حزين ومن الممكن أن يكون منزلا، وبجزئه الخلفي كانت تقع حديقة كبيرة جدا تكسو حوائطها النباتات المتسلقة لأزهار الجرس البيضاء والبنفسجية.

كنا نلعب أنا وصديقي في الحديقة، في حديقة النباتات المتسلقة، وفي سطح المنزل الفسيح بالبلاط الذي كان به، على مقربة من إصيصات الصبر الأمريكي.

وفي يوم خطر لنا أن نقوم بمغامرة عبر الأسطح وأن نقترب من منزل الجريمة الذي كان يجذبنا بسبب سريته. وعند عودتنا إلى السطح قالت لنا فتاة إن والدة رومان تنادينا.

وهبطنا سطح المنزل وجعلونا ندخل في ردهة كبيرة وحزينة. بالقرب من الشرفة كانت تجلس والدة صديقي وأخته. كانت الأم



تقرأ، والابنة تطرز، ولا أعلم لماذا كانت تخيفني.

وأنّبتنا الأم بلهجة عنيفة بسبب مغامرتنا، وبعد ذلك شرعت في توجيه أسئلة لا تحصى عن أسرتي وعن دراستي. بينما كانت الأم تتكلم، كانت الابنة تبتسم، ولكن بطريقة غريبة جدا، غريبة جدا.

وقالت الأم في ختام حديثها: لا بد من مذاكرة الدروس.

وخرجنا من الغرفة وذهبت إلى المنزل ولم أفعل شيئا طوال المساء والليل سوى التفكير في المرأتين.

منذ ذلك اليوم تجنبت بقدر المستطاع الذهاب إلى منزل رومان، وذات يوم رأيت والدته وأخته تخرجان من الكنيسة مرتديتين ملابس الحداد، ونظرتا لي وشعرت بقشعريرة عند النظر إليهما.

وبعدما أنهينا الفصل الدراسي، لم أعد أرى رومان، وكنت هادئا، ولكن أبلغوني ذات يوم من منزله بأن صديقي مريض. وذهبت ووجدته يبكي في الفراش، وقال لي بصوت هامس إنه يكره أخته.

ومع ذلك، كانت أخته التي كانت تسمى أنخليس، ترعاه بدقة وتحنو عليه كثيرا، ولكن ابتسامتها كانت غريبة جدا.. غريبة جدا

وذات مرة عند الإمساك بساعد رومان جعلته يصرخ من الألم. وسألته: ماذا بك؟ فأراني بقعة داكنة كبيرة تحيط بساعده وكأنها ختم.

وبعد ذلك، قال بصوت هامس: لقد كان هذا من عمل أختي.

ـ آه! هي..

ـ لا تعلم القوة التي لديها، إنها تكسر لوحا زجاجيا بإصبعها، وهناك شيء آخر أكثر غرابة: إنها تحرك أي شيء من مكان إلى مكان آخر دون أن تلمسه.

وبعد مضي عدة أيام روى لي مرتجفا من الفزع أنه منذ حوالي أسبوع وفي الساعة الثانية عشرة ليلا كان يدق جرس الباب وعند فتحه لم يكن هناك أحد.

قمنا أنا ورومان بعمل العديد من التجارب. كنا نتربص بجوار الباب.. وكان يدق الجرس.. وكنا نفتح.. ولا نجد أحدا. وتركنا الباب مواربا حتى نستطيع أن نفتحه في الحال.. وكان يدق الجرس.. ولا نجد أحدا.

وأخيرا خلعنا زر الجرس الكهربائي. وكان يدق الجرس، ويدق.. وينظر كل منا إلى الآخر مرتجفا من الخوف.

وقال رومان: إنها أختي.

ومقتنعين بذلك، شرع كلانا في البحث عن تمائم في كل مكان، ووضعنا في غرفتها حدوة ومدرجا موسيقيا ونقوشا مثلثة وبها التعويذة: «أبرا كادبرا». وبلا جدوى، ودون أدنى جدوى، كانت الأشياء تثب من أماكنها، وكانت ترسم على الحوائط ظلالا ناقصة لأشكال دون وجه.

وضعف رومان، ومن أجل تسليته، اشترت له أمه آلة تصوير رائعة، وكنا نذهب لنتنزه معا كل يوم، وكنا نحمل الآلة في جولاتنا.

وفي يوم أرادت أمه أن تلتقط صورة لثلاثتهم معا، لكي ترسل الصورة إلى أقربائها في إنجلترا. وعلّقنا أنا ورومان مظلة من النسيج الغليظ في سطح المنزل، ووقفت تحتها الأم وبجانبها ابناها. وركزت على البؤرة، وافتراضا لأي عامل يجعل الصورة غير جيدة، التقطت منظرين.

وذهبنا في الحال أنا ورومان لتحميض الفيلم. وكان في حالة طيبة، ولكن كانت ترى بقعة داكنة فوق رأس أخت صديقي.

تركنا الفيلم ليجف، وفي اليوم التالي وضعناه على صحيفة تحت أشعة الشمس لكي نطبع منه صورتين.

وجاءت أنخليس، أخت رومان، معا إلى السطح. وعند النظر إلى الصورة الأولى، تبادلنا أنا ورومان النظرات دون أن ننطق كلمة واحدة. وكان يظهر فوق رأس أنخليس ظل أبيض يشبه ملامحها.

وفي الصورة الثانية كان يظهر الظل نفسه، ولكن في وضع مختلف: مائل عليها وكأنه يحادثها في أذنها. تملكنا فزع شديد حتى أنني ورومان وجدنا أنفسنا مشلولين أخرسين. ونظرت أنخليس إلى الصورتين وابتسمت، وابتسمت. وكان هذا أخطر ما في الأمر.

وخرجت من سطح المنزل وهبطت السلم متعثرا، وعند وصولي إلى الشارع شرعت في العدو تطاردني ذكرى ابتسامة أنخليس. وعند دخولي المنزل، وعند مروري أمام المرآة رأيتها في أعماق اللوحة الزجاجية تبتسم وتبتسم دائما.

من قال إنني مصاب بالجنون؟ إنه يكذب! لأن المجانين لا ينامون، وأنا أنام.

ومنذ مولدي لم أستيقظ حتى الآن.

# أرتور يضايق كل الناس

للكاتب الألماني: إريش كستنر
ترجمة: الدكتور محسن الدمرداش

يؤيد صديقي أرتور فكرة أن العالم يدعو إلى نقد غير معتاد ذي قدر ضئيل من الجدية، كما كان من المؤكد دائما على وجهه البريء أنه لا يأتي بمكروه، مما جعله هو ورفاقه لا يلفتون نظر المحيطين بهم. وقد تمرد باستمرار على القوانين المألوفة عند الناس وعلى أوضاع الرخاء القائمة، إلا أن تمرداته قد خلت من كل جدية، مما يجعلني أرشحه لاحتلال منصب البلياتشو إن وجد.

ليس من السهل دائما أن يسيطر المرء على هدوئه، فغالبا ما يوقع أرتور كل من يرافقه من أصدقائه في ظروف حرجة، فأسوأ ما في الأمر أن ليس لأي شخص هيبة لديه، وكان الصمت السلبي للمحيطين به يضايقه حيث لا يتكلم أحدهم على الرغم مما يجده مقلا للاحترام في الآخرين. فلم ينل نابليون من إعجاب أرتور ما ناله الماجن تل، ومن المحال معارضته.

لقد اضطررنا أخيرا إلى أن نقف في الأتوبيس الذي امتلأ عن آخره، وفجأة سألني أرتور بصوت عال: «ما هذا المبنى يا يوناتان»؟ وأشار إلى الكنيسة متعجبا. وهل يجوز أنه لا يعرف أنها الكنيسة؟ ثم غمز بعينه فقلت باقتضاب: «هذا هو مركز المطافىء». فسأل مرة أخرى واضعا يده خلف أذنه: «ماذا؟». أي أنه أظهر نفسه وكأن سمعه ضعيف. فقلت بصوت عال: «مركز المطافىء!» فأشار برأسه مبتسما وقال: «نعم، نعم كما تصورت». وما كان



هذا حتى نظر الركاب من الشبابيك مدهوشين وتفحصونا بأعينهم المليئة بالشك ثم توقف الأتوبيس وسار مرة أخرى فسألني أرتور مشيرا للجامعة: «ما هذا؟» فرددت عليه قائلا: «هذه دار للأطفال البلهاء!» فأومأ برأسه شاكرا وقال: «جميل إنه للمخبولين الصغار». وكست البسمات الذهبية أساريره على حين بدأ القلق يسيطر على الركاب شيئا فشيئا، ثم أضاف: «إنه مبنى عملاق يا ناتان». فأجبته بصوت عال: نعم، «فالهراء منتشر جدا هنا! أما الآن فسوف تظهر دار البلدية» فقال: «آه، إنه مبنى هادىء، أليس كذلك»؟ فأجبته: «ليس فيه الكثيرون، فبعض الناس يستجم في سويسرا، وبعضهم الآخر تجرى له عملية جراحية، وغالبيتهم في إجازاتهم الرسمية»! وهنا ظهر استياء الركاب كلهم، بل وضحك أحدهم متهكما. فقال أرتور: «إننا نقلق السادة هنا ويجب عليك أن تخفض من صوتك»! فقلت: «تمام يا أفندم! ولكني أخشى ألا تفهمني»! فابتسم بسعادة قائلا: «إني أتبعك كما تشاء، فأنت تعرف المدينة أفضل مني بكثير، والمهم أني أسمع منك موسيقى، ألم تلاحظ أن سمعي قد تحسن»؟ فقلت: «تحسن بدرجة كبيرة». فقال: «نعم، إن أكل اللحوم لا يضرني ولكن الطبيب نصحني بالعدول عنها، لأنها تسبب الروماتيزم». وهنا ظهر الذهول على الركاب في جلستهم مما أعطاني الانطباع بأن استياءهم كاد يدفعهم لترك مقاعدهم. ولكن الأتوبيس واصل المسير عبر بوابة براندبورج، فسأل أرتور مشيرا لها ولأعمدتها المتآكلة: «من يسكن هنا»؟ فأجبته: «هذا موقف المواصلات»! قال: «والأحصنة التي في أعلى»؟ قلت: «هي تذكار لآخر أحصنة عربات الحنطور». قال: «جميل، ولكن هذه الحوذية (سائقة الحنطور) شبه عارية». قلت: «هذا رمز لتأثير دفع الضرائب».

وهنا أصاب السعال راكبا وقورا ذا نظارة أنفية فازرق لونه، وتقلقلت امرأة بدينة في مقعدها كأنها تتشوى، وقالت لأرتور: «بوابة براندبورج» فابتسم لها قائلا: «معذرة يا سيدتي المحترمة، هل آلمك الجلوس»؟ فصرخت المرأة البدينة وقد انهارت الدموع من عينيها قائلة: «بوابة براندبورج» فقال لي أرتور: «هل دست على قدمها»؟ وهنا رأيت أنه من الأفضل أن ننزل من الأتوبيس، فقلت له: «لقد وصلنا» فأشار أرتور إلى حديقة الحيوان سائلا: «وماذا تعرض هذه الحديقة»؟ هنا وقف أحدهم وتحرك بسرعة موجها مظلته أمام وجهي وصاح: «إذا قلت له إن هذا هو معرض أبناء الوطن فسوف أعطيك ضربة خلف أذنك تجعلك أصم»! فانحنى أرتور احتراما لهذا الصارخ في وجهي قائلا له: «شكرا جزيلا». فقلت أنا: «اهدأ يا سيدي فأنا أعرف جيدا أن هذا هو ميناء تمبلهوف الجوي» وسرعان ما ترك كل الركاب مقاعدهم وانتفضوا واقفين، وتعالت أصواتهم بغضب، فجلس أرتور وصرخت فتاة شاحبة اللون قائلة: «لقد بدأ هذا الجنون عند الكنيسة»! ثم ولولت المرأة البدينة وقالت: «بل وأصبحت الجامعة دارا للأطفال البلهاء»! فردت الفتاة: «كما جعل المكتبة العامة بلدية»! فقالت السيدة وهي تجفف دموعها: «ثم صارت بوابة براندبورج موقفا للمواصلات»! وهنا تقدمت بسرعة لمدخل الأتوبيس وقلت للكمساري: «حاول من فضلك أن تسيطر على الركاب» ثم قفزت.

وما كان من أرتور إلا أن انتظرني على محطة الأتوبيس التالية حتى لحقت به فقال لي: «كانوا لطافا جدا، وإن كانوا بحق ذوي حمية، إلا أنهم أكثر إحاطة»! وفي أحد شوارع قلب برلين اقترب من سيارة منتظرة وسأل المرأة الجالسة فيها وبين يديها كلب صغير: «كم الساعة الآن»؟ فأجابت بصرامة: «ليس معي ساعة». فقال أرتور: «يا خسارة»! وظل واقفا بجوارها حتى مررت أنا من أمامه فرفعت قبعتي احتراما وسألته: «كم الساعة»؟ فأخرج أرتور الساعة من جيبه وقال: «الساعة الآن الثامنة إلا سبع دقائق يا سيدي»! فقلت له: «شكرا جزيلا»! ثم اتجه إلى ميدان بوتسدام، وتبعته ببطء، فكادت المرأة أن تمزق غطاء رأسها من الغيظ! . □

# البيت




## ■ انتهاك الطفولة

## ■ الخرس الاختياري

## ■ العلاج الهرموني لسن اليأس

# الخرس الاختياري

## الولد الذي اختار الصمت

بقلم: الدكتور خليل فاضل

الخرس الاختياري حالة مرضية نفسية يعرفها أكثر أطباء النفس المختصين بالأطفال. يشخصونها على أنها الرفض الكامل للكلام خارج البيت، أو في غير محيط الأسرة أو الأقرباء.

تعد حالة الخرس الاختياري من حالات الاضطراب العاطفي والانفعالي، وهي من أهم خصائص الأطفال الذين يصابون بالخجل والحساسية الفائقة، وعدم القدرة على إقامة علاقات عادية مع الآخرين سواء كانوا أطفالا أم كبارا، ويظل العلاج يعتمد على التجربة والتقويم السلوكي أساسا. وفي الحالة التالية نوضح من خلال الواقع أبعاد هذا الاضطراب النفسي:

كان عمره يقترب من الثانية عشرة، نحيلا، أبيض البشرة، غائر العينين، كان يرقد على ظهره فوق سريره مستلقيا في هدوء مرضي، بجانبه جلست أخته تتشح بالسواد، يعيش بالمحاليل المغذية عن طريق الوريد، كان شاحبا شحوبا خاصا وغريبا، وكان أيضا يرفض الكلام.

جلس الطبيب النفسي على الكرسي المقابل له في غرفته بالمستشفى العام، قسم الأطفال، أمسك بالملف وقرأه بسرعة حتى تمكن من تكوين فكرة عن - الولد، المرض - التاريخ المرضي. كانت تلك هي المرة الثانية والثلاثين.. نعم.. الثانية والثلاثون التي يدخل فيها إلى طوارىء الأطفال، ومنها إلى القسم الداخلي بالمستشفى بعد إصابته بالقيء المستمر الذي أدى في النهاية إلى تمزق جدار المعدة، الأمر الذي وضح وتأكد بالمنظار، والذي أدى إلى إدخال عقار (الزنتاك) في المحلول لكي يساعد على التحام أنسجة المعدة الممزقة. بدأ الطبيب يسأل الأخت عن التاريخ المرضي فقالت: إن الولد عاود طبيب الصحة المدرسية منذ حوالي عامين، ومنذ عام كان الطبيب النفسي في المستشفى العام قد شخص مرضه بأنه حالة «خرس اختياري» و«اكتئاب نفسي» ووصف له عقارا مضادا للاكتئاب، بعدئذ حول الولد مرة أخرى إلى الطبيب النفسي وشخص على أنه يعاني اضطرابا نفسيا جسديا، ووقتها وصف له عقارا مطمئنا آخر مع جلسات للعلاج الأسري والعلاج النفسي الفردي بالحوار.

وضع الطبيب النفسي يده، أو كاد، على العوامل الاجتماعية الأساسية الضاغطة على الولد، والتي لها باع أكثر من غيرها في تشكيل أساسيات المرض، لقد فقد الولد والده بالوفاة منذ أن كان عمره ثلاث سنوات، وبعدها قام باقي أفراد الأسرة بتكثيف جرعات حبهم للولد بشدة مما أدى إلى إرباكه عاطفيا، بل، وربما إفساده نفسيا. فلقد صار الولد معتمدا على الآخرين في كل شيء تقريبا، إلى درجة عجز فيها عن أداء أبسط الأشياء التي كان يقوم بها عادة من هم أصغر منه في السن بمراحل.



الخرس الاختياري يفقد الطفل التواصل مع الآخرين ويدفعه للعزلة.

كانت الأم مريضة (بالشيزوفرينيا)، أو (فصام العقل) الذي من علاماته وأعراضه: الهلوسات السمعية: أي أن تسمع المريضة أصوات أناس وهي بمفردها، كما تختل وظائف التفكير والإدراك، وتفقد ترابط الشخصية والعزيمة، تنزوي وتهمل في نفسها، وكانت الأخت تعاني مرض القولون العصبي، والأخت الأخرى تشكو من الصداع النصفي، كانت الأسرة تكاد أن ينطبق عليها اصطلاح (الأسرة العصابية)، أي أسرة لها صفات التوتر واستخدام الدفاعات والحيل العقلية المريضة للدفاع عن ذاتها.

دخلت إلى غرفة الولد طبيبة أطفال حديثة التخرج سألت الطبيب النفسي:

ـ مرض الأم العقلي (الانفصام) لم يظهر إلا من فترة، فهل يا ترى أثرت شخصيتها في تربيتها لابنها؟!.

ابتسم الطبيب النفسي وقال موضحا:

ـ نعم المرضى بالشيزوفرينيا أي الفصام وليس ـ الانفصام ـ كما قد ذكرت، تكون لديهم نواة قبل ظهور أعراض المرض، وفي حالة الأم هنا كانت ـ كما قال أولادها ـ قلقة أكثر من اللازم عليهم، معادية لهم أحيانا، مما خلق جوا من التضاد الغريب في المشاعر، كما أنها كانت تتلقى رسائل وإشارات متناقضة مع الواقع وغير متوافقة معه، كما أنها كانت بحركتها وسلوكها وتصرفاتها غير متصالحة مع ذاتها وغير قادرة على التناغم مع الآخرين.

هنا تدخلت أخت الولد وكانت تدرس في جامعة عاصمة عربية معروفة:

ـ الشخصية مصطلح هلامي، لم أفهم شيئا مما درسناه عنها في علم النفس، ترى هل للشخصية ـ شخصية الإنسان ـ جذور بيولوجية (حيوية).. يعني؟!

أعجب الطبيب النفسي بالسؤال، حاول قبل أن يجيب أن يحفز الولد على الكلام، أن يشجعه، أو أن ينبهه، أو أن

يستثيره، لكن كل محاولاته باءت بالفشل:

- نعم هناك جذور بيولوجية لشخصية كل منا تتكون من ثلاثة عناصر رئيسية: الوراثة وهي بشكل عام الجينات التي تحمل الصفات الوراثية وتأثيرات الأبوين في الشخصية.

سألت طبيبة الأطفال:

- ما معنى الوراثة بالتحديد؟!

قال الطبيب النفسي:

- معناها الوراثة بشكلها الشمولي: وراثة الشكل والسلوك، العواطف، طريقة المشي، حتى البخل والكرم والاهتمامات. أما الجينات فهي (المورثات)، العوامل الخاصة التي يحملها كل إنسان حتى من سابع جد وبها الصفات المرضية، والصحية، القوية والضعيفة، النقاط المحددة لكل شيء.

أما تأثير الوالدين في الشخصية فيتحدد داخل رحم الأم وهي تحمل الإنسان منذ بدايته كنطفة وهو ينمو ليكون جنينا، بجانب كل العوامل البيئية المحيطة مثل التربية، الحب، التعاطف، الاهتمام، والرعاية.

تململ الولد في سريره، حرك يده فتحركت الإبرة بما تحمل من محاليل مغذية، هدأ الطبيب من روعه، كاد الولد يبتسم لكنه أشاح بوجهه بسرعة، هنا تدخلت أخته وسألت بالتحديد:

- لكن لماذا يتقيأ أخي بهذا الشكل المفزع، وكأنه يتقيأ ما بداخله من طعام ومشاعر مريضة؟ كأنه يلفظ ما هو في العمق؟

هز الطبيب النفسي رأسه معقبا:

- نعم إنها لغة الجسد في التعبير عن النفس، وفي نفس الوقت مرض واضطراب شديد يصعب تشخيصه في مرحلة الطفولة، ويحدث أساسا لأن الصراعات النفسية لا يتحملها الطفل فتتحول إلى أعراض جسدية تظهر هنا في صورة شديدة كالقيء.

تدخلت طبيبة الأطفال وقالت:

- لكن القيء شديد جدا إلى درجة النزيف من المعدة وتمزق جدارها؟!

رد الطبيب النفسي مجيبا:

- نعم برغم قسوة الأعراض على المستوى العضوي، فإنها تحمي العقل الواعي من الألم النفسي الحاد، وكأنها تشكل صمام أمان ضد الانهيار التام أو الجنون الحقيقي، والعلاج لا يكون إلا بحل الصراعات الكامنة داخل النفس.

هنا سألت الأخت في لهفة عن تصور الطبيب لمستقبل الولد، فقال إنه بصراحة غير متفائل، لاعتبارات كثيرة أهمها التكوين النفسي الفصامي للولد، مرض الأم العقلي، عصابية الأسرة ككل، وتدهور تحصيله الأكاديمي بجانب أنه مازال ينعي والده الذي فقده منذ زمن على المستوى اللاشعوري وبلغة جسدية.

## اضطراب نادر الحدوث

التشخيص الأولي هنا هو ما يعرف عادة في طب الأطفال النفسي بالخرس الاختياري، الذي من أهم علاماته الطبية عدم القدرة على الكلام، وعدم القدرة على التخاطب مع الآخرين في البيئة المحيطة، وهو يعد اضطرابا نادر الحدوث، أهم أعراضه رفض الطفل الكلام في المدرسة أو التحدث مع الآخرين خارج محيط البيت، هذا على الرغم من أنه يتحدث بشكل طبيعي تماما مع أقرانه وأخواته في البيت، وربما مع أحد الوالدين، وفي حالة الولد الموصوفة هنا كان يحدث العكس، فلقد كان يتحدث بطلاقة في المدرسة، بينما يمتنع عن الكلام في البيت، ربما لرفضه للبيت وجوه العام، وكنوع من الاعتراض

على شكله الحالي، وخلوه من الأب الذي توفي منذ فترة طويلة ولم يحل محله أحد، لا في الشخصية ولا في الحضور ولا في العطاء.

وكلمة الخرس هنا غير دقيقة لأن الطفل يرفض الكلام في حين أنه بالفعل قادر عليه، وعادة ما يكون متوسط الذكاء، مهتما بالتواصل مع الآخرين لكنه في نفس الوقت غير قادر على تحقيق ذلك لوجود «عطل نفسي»، لهذا فهو قد يعبر عن نفسه بالإيماءة، الحركة الصامتة، الرسم، هز الرأس، الهمس، أو حتى الكتابة أحيانا. وعادة ما يبدأ المرض في سن ٣ ـ ٨ سنوات، وفي حالات نادرة مثل حالة الولد المشروحة هنا تظهر في سن ١٢ سنة، ولا يظهر إلى حيز اهتمام الأهل إلا بعد دخول الطفل المدرسة، مع هذا نجد مظاهر التوتر والقلق والعدوانية، الاعتراض على البيئة والآخرين مع عدم قدرة على التأقلم مع الواقع المعيش.

الاضطراب الثاني الظاهر هنا في حالة الولد هو اضطراب الشخصية الفصامية، هو أمر صعب التحديد والتشخيص، خاصة في مرحلة الطفولة، لكن إذا تأملنا ما تعنيه الشخصية الفصامية، لوجدنا أنها حساسة وفي نفس الوقت جامدة عاطفيا، ودائما ما يكون الشخص عنيدا حساسا كتوما كثير الشك في الآخرين، وغالبا ما يصفه الأهل بأنه «ملاك». وعلى الرغم من أهمية ودلالة مرض الأم بالفصام فإنه ليس بالضرورة أن يكون أحد الوالدين مصابا بالشيزوفرينيا، حتى يكون أحد الأبناء ذا شخصية فصامية، والعكس أيضا صحيح، المهم هنا توضيح أن ما يورث هو الاستعداد للإصابة، كما أنه من المعروف أيضا أن اضطرابات الفصام في الكبار والصغار غالبا ـ إن لم يكن دائما ـ ما تكون مصاحبة باضطرابات في الكلام والقدرة على التعبير والتواصل مع الآخرين.

أما التشخيص الثالث ـ الذي ذكر هنا في هذه الحالة ـ فهو الاكتئاب، وهو في مرحلة الطفولة يتخذ له مظاهر جسمانية بحتة مثلما شرحنا سابقا، غير أنه في حالتنا هنا يتميز بما يسمى حالة الحزن المرضي لفقدان الوالد ونعيه لسنوات، وللاكتئاب أعراض أخرى غير جسمانية مثل: اكتئاب المزاج. اضمحلال الرغبة أو فقدانها للاستمتاع بأي من النشاطات الحياتية المعتادة. اضطرابات النوم. تغيرات في وزن الجسم. فقدان الشهية. صعوبة التركيز. وعدم القدرة على إبداء الرأي أو اتخاذ القرارات بسهولة. وأحيانا ما تكون هناك أفكار انتحارية مع توتر نفسي جسدي عام، والإحساس بالإرهاق والتعب دون بذل أي مجهود مع إحساس عام بعدم القيمة والذنب دونما سبب واضح.

## الحل والعلاج

الحل هنا يواجه بمشكلة صعوبة فهم الطفل نفسيا، لأن الطفل عادة ما يكون غير قادر على التعبير عما يدور داخل أعماقه، وإذا أخذ أطباء وعلماء النفس وأسرة الطفل المريض سلوكه كمقياس، فإنه يصعب الاعتماد على ذلك بشكل نهائي، كما أن واقع الطفل النفسي عادة ما يمر بمراحل تتداخل في بعضها البعض، وتنمو بسرعة، ومن ثم فإن الإلمام بها وتقويمها أمر غاية في الصعوبة، في مثل تلك الحالات تكون (المطمئنات) ذات دور مهم جدا نظرا لأنها تعمل على تعديل الخلل الكيماوي العصبي الحادث، كذلك فإن عقارا مثل (التريبزول) المضاد للاكتئاب له صفة مسكنة لجدار الجهاز الهضمي ككل. كما أن العلاج الأسري، بمعنى جمع أفراد الأسرة المقيمين معا ومناقشتهم في أمورهم الدنيوية، وإزاحة الستار عما يعتمل داخل صدورهم مع ضرورة متابعتهم في البيت بواسطة أخصائية اجتماعية يعد عاملا أساسيا في العلاج.

# انتهاك الطفولة

إعداد: عدنان محرز

بعد الحادث البشع الذي ارتكبه مجرم شاذ في اسكتلندا أخيراً، وراح ضحيته ستة عشر طفلاً بريئاً حصدتهم رصاصاته، يبدو واجباً أن نفتح ملف هذا الانتهاك الذميم.

آلاف الأطفال في العالم يعتدى عليهم وتنتهك حرماتهم يومياً، فنادراً ما يمر يوم إلا ونسمع أو نقرأ عن طفل أو عدد من الأطفال تعرضوا للاعتداء أو الانتهاك. فما هو مفهوم انتهاك حرمة الطفل؟ وما هي أشكاله وأنواعه ودوافعه؟، وكيف تتجلى مظاهره في مختلف الدول والمجتمعات..؟!

إن المقصود بانتهاك حرمة الطفل هو قيام الوالدين أو من يقوم على تربية الطفل، أو أحد الأشخاص البالغين أيا كان بممارسة أي نوع من أنواع العنف أو القسوة الشديدة التي تتسبب في إصابة الطفل أو المراهق بالألم والضرر والمعاناة، جسدية كانت أم نفسية أم عقلية أم اجتماعية.. ويشمل الانتهاك الجسدي الضرب المبرح وتعريض الطفل للكسور والرضوض والكدمات والجروح والحروق والتسمم والإغراق والقتل والتوريط في نشاطات جسدية وممارسات لا أخلاقية. ويشمل الانتهاك النفسي التسلط والإرهاب والإهانة والازدراء واللوم المبالغ فيه. ويشترك مع الانتهاك الجسدي حرمان الطفل أيضاً من الضروريات الجسدية والنفسية مثل التغذية والملبس والمأوى المناسب والرعاية الطبية الضرورية. أما الانتهاك العقلي فيشمل حرمان الطفل من التعلم والحصول على الثقافة والمعرفة.. في حين يشمل الانتهاك الاجتماعي عزل الطفل وإبعاده عن الآخرين وحرمانه من الاتصال الاجتماعي بشتى أنواعه.

## ظاهرة عامة

إن هذه الممارسات وعمليات الانتهاك التي يتعرض لها الأطفال لا تقتصر على بلد معين من بلاد العالم، ولا على سن معينة من عمر الأطفال، وهي تحدث يومياً لآلاف الأطفال وبطرق وأساليب مختلفة.

ففي البلاد العربية لا توجد إحصاءات دقيقة ورسمية في هذا المجال إلا أن المتتبع يمكن أن يلمس هذه الظاهرة بشكل واضح وجلي بدءاً من الأسرة وتصرفات ومواقف الوالدين، التي تؤثر في حاجات الطفل الأساسية وتأمين استمراره في الوجود، وتمتعه بالاطمئنان والاستقرار النفسي والعاطفي والفسيولوجي، امتداداً إلى التغيرات التي تطرأ على تربيته، وتجارب الطفولة التي تنبع قبل كل شيء من موضع الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الطفل ومستواها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي.

فكثير من الأسر تدفع بأطفالها إلى العمل تحت وطأة الحاجة الاقتصادية، ليس ذلك فحسب بل تغرس في أذهانهم أن عليهم أن يكسبوا وأن ينتجوا بأي شكل وبأية وسيلة حتى ولو كانت النهب أو السرقة: «المهم أن تعود إلى المنزل ببعض المال والطعام وإلا فالعقوبة بانتظارك». وبالفعل كثيراً ما يكون

الضرب والتجويع والإهانة بانتظار هذا الطفل في حال إخفاقه. فهل بعد هذا الانتهاك الجسدي والعقلي والاجتماعي والنفسي من انتهاك..؟!.

## انتهاكات مختلفة

وهكذا انتشرت ظاهرة تشغيل الأطفال واستغلالهم من قبل أرباب العمل أيضاً في أعمال شاقة وصعبة تضيف إلى معاناتهم وآلامهم المنزلية آلاماً ومعاناة اجتماعية إضافية، تتمثل في تحميلهم ما فوق طاقتهم وقدرتهم من جهة، والاعتداء عليهم وضربهم من جهة ثانية. ويؤكد المعلمون أن بعض الأطفال يأتون إلى المدرسة بعد غياب وتبدو عليهم آثار الكدمات والجروح أو الكسور، وعند سؤالهم عنها يتبين أنها ناتجة عن إصابات في العمل أو آثار لاعتداء الأهل. أما الأهل فيتذرعون بأنها ناتجة عن شقاوة الأولاد أو أنها إصابات عرضية بسبب السقوط أو اللعب أو الشجار مع الأولاد الآخرين، وكثيراً ما يحضرون تقارير طبية مزيفة لإثبات ذلك.



بكاء أب وطفله عند نصب الأطفال الضحايا.

وتتزايد معدلات انتهاك أجساد الأطفال يوما بعد يوم لدرجة أن الدول الأوربية وأمريكا بدأت الآن وببطء تستيقظ على رعب الاعتداء الجنسي على الأطفال. ومنذ فترة بدأت وسائل الإعلام وبرامج المدارس بالعمل على كسر جدار الخوف والخجل من مناقشة الانتهاكات الجنسية وافتتحت عيادات خاصة وخصصت خطوطا هاتفية لتقديم المساعدة للضحايا.

كما سنت قوانين جديدة تشدد عقوبة الاعتداء على الأطفال ويقول أحد المسئولين في أوربا: «بدأنا الآن الاهتمام بالمشكلة ومازلنا في الضباب». وهذا الضباب يسيطر على جانبي الأطلنطي، لكن بعض المشاكل التي تواجه الولايات المتحدة أخف بكثير من تلك التي تواجه أوربا، التي تسود فيها عوامل ثقافية

واجتماعية مختلفة تؤدي إلى غشيان المحارم لمن هم في سن الطفولة والمراهقة. ويعزو بعض المتخصصين مثل هذه الممارسات إلى الشعور المتزايد بالعزلة لدى سكان المدن وإلى عمل الأم خارج المنزل الذي يستلزم قيام البنات بالأعمال المنزلية عوضاً عنها وهو ما يشوش الأب ويجعله يلتفت إلى بناته اللاتي اتخذن مكان والدتهن. ويرجعون العامل الآخر إلى ازدياد نسب الطلاق في أوربا حيث يفسح زواج تلك المطلقات من جديد، المجال أمام الأزواج للاعتداء على بنات زوجاتهم. لذلك يرغب الكثيرون في أوربا في تغيير القوانين المتعلقة بالمحرمات، وتوسيع تعريف المحرمات ليشمل التبني. هذا بالإضافة إلى أن الطريقة الأمريكية في معالجة الاعتداء على الأطفال وانتهاكهم الجسدي أخذت تنتشر بسرعة في أوربا، حيث تم فتح مراكز استشارة، ويجري تعليم الأطباء والمدرسين مراقبة هذه الظواهر، كما تم تطوير وسائل التدريس لمساعدة الأطفال على التحدث عن الانتهاكات التي قد يتعرضون لها بالإضافة لتشديد العقوبة ضد المعتدين.

## المعتدون

يعتقد الباحثون أن المعتدين يؤلفون مركباً دقيقاً لمنتهكي حرمة الأطفال. فهم يرون أن الأطفال قادرون على أن يسلكوا سلوك الكبار، ويؤمنون بأن الأطفال موجودون لإرضاء حاجاتهم.. وإذا لم يحصل ذلك يجب معاقبتهم.. وهم يطالبون الأطفال بالطاعة الفورية ويرفضون الفشل رفضاً تاماً باستخدام أساليب ضاغطة مثل السخرية والوعيد والعقوبات الجسدية كحبس الطفل في غرفة مظلمة أو منع الطعام عنه.

إن معظم المنتهكين يشكون من القلق والكآبة والميل الشديد نحو التملك والتسلط والبرود والجمود، بحيث لا يمكنهم تقبل أخطاء الطفل وهم يعيشون في شبكة من المشاكل وفي بيئة عائلية غير مهيأة لنمو وتربية الأطفال.

إن الشخص المنتهك هو في الحقيقة طفل جائع للرعاية، غير قادر على العطاء وتربى على الشعور



المختل المجرم «هاملتون».

بخيبة الأمل وعدم الكفاءة. وعاش في بيئة فيها الكثير من الصراخ والضرب وبعضهم فقد الأب والأم والراعي عندما كان صغيراً.

ويقسم بعض الباحثين المعتدين جنسياً إلى نوعين أساسيين: «عاشقي الأطفال» الذي يدعون أنهم على حب شديد مع الأطفال ويؤكدون أنهم هم أنفسهم تعرضوا للاغتصاب عندما كانوا صغاراً. ويرثي الكثيرون منهم لأنفسهم ويبرر أحدهم قائلاً: «كلما أشعر بعدم الأمان والمرض وفقدان السيطرة على الذات.. تقع الجريمة». وعلى النقيض فإن النوع الثاني «الحساسين أو أصحاب ردود الأفعال» فيرجعون تورطهم إلى الضغوط المفاجئة مثل محنات منتصف العمر أو فقدان الزوجة أو وجود بنات بالتبني.

وتشير الإحصاءات إلى أن حوالي ٩٠٪ من مغتصبي الأطفال هم الرجال. إلا أنه توجد معلومات تفيد بأن النساء أكثر نشاطاً أيضاً في هذا المجال مما يتوقع معظم الناس.. ولكن للمجتمع معايير مختلفة، فإذا تعرضت فتاة للاعتداء من قبل رجل فإن ذلك يحزنها ويتعسها، ويقلق المجتمع ويثير حفيظته.. في حين لو تعرض ولد للاعتداء من قبل امرأة فإن الأمر يفرحه ويسره ولا يشكل مسألة خطيرة بالنسبة للمجتمع.

إن أكثر أشكال الانتهاك قسوة

تقع على الأطفال دون سن المدرسة. وأكثرها تكراراً يقع في سن المدرسة. وقد لوحظ أن النسبة الكبيرة من الأطفال المعتدى عليهم من الذكور. وتزداد بين الأطفال غير الشرعيين وذوي العاهات التكوينية، وأطفال العائلات التي تعاني من ضغوط عمل عالية أو التي لديها ما يزيد على أربعة أطفال، والذين كانت فترة حملهم غير مرضية للأم، إضافة إلى ولادة غير طبيعية وفراق مبكر في مرحلة الرضاعة وربما الإصابة بمرض خلال السنة الأولى.

## أسباب الظاهرة

إن مواجهة ظاهرة الانتهاك تبدأ بالتقصي عن الدافع الذي يقود بعض المنحرفين إلى الاعتداء وممارسة هذه الظاهرة. وفي مجال البحث عن مصادر هذا السلوك المنحرف يمكن تمييز عدة مصادر للانحراف منها:

١ ـ الانحراف الفردي وهو الذي ينشأ عن صراعات نفسية داخلية وليست وظيفية ناتجة عن الضغوط الظرفية.

٢ ـ الانحراف الظرفي وهو الذي لا يتصل بصراعات نفسية داخلية بل يتطور كوظيفة لضغوط ظرفية معينة، حيث إن جميع الأفراد يمكن أن يتعرضوا لمثل هذه الضغوط الظرفية، ولذلك فهم يسلكون سلوكاً متشابهاً كرد فعل لها.



إنها مأساة تعتصر قلوب الكبار.

وبالتالي فإن مثل هذه الضغوط الظرفية تكون مستقلة عن الانفعالات والصراعات النفسية الداخلية التي يعانيها الشخص.

لكن العالم النفسي «أدوين لمرت» (Lemert) يرى أنه من الصعوبة الانفراد بالقول بأن انحرافاً معيناً ينشأ عن أسباب داخلية صرفة، وآخر عن أسباب ظرفية، ذلك أن معظم الانحرافات الظرفية في الحياة الواقعية لا تخلو من صلتها بعناصر تتصل بالحياة الداخلية للفرد. إن بعض الانحرافات الجنسية الظاهرة يمكن أن تكون نتيجة

حساسية جنسية مفرطة تنتاب الفاعل. . كما أن هناك ظروفا اقتصادية حادة ملحة قد تدفع البعض إلى استغلال الأطفال وتشغيلهم في أعمال شاقة وصعبة أو أعمال خارجة عن القانون مثل ترويج المخدرات وتعاطي الممنوعات. وحتى الاعتداء عليهم وإزهاق أرواحهم أحياناً كما في حالة «توماس هاملتون» مرتكب مجزرة اسكتلندا. ففي معرض تحليلهم لشخصية هذا المجرم المنحرف أجمع المختصون النفسيون على أن توماس لابد أنه عاش في بيئة شاذة وتعرض لضغوط طرفية ولدت لديه صراعات نفسية داخلية، حيث إنه حرم من عاطفة الأبوة وتولى الإشراف عليه وتربيته جده وجدته اللذان اعتقد توماس لسنوات طويلة أنهما أباه وأمه، وأن والدته التي تعيش معهم في المنزل ليست سوى أخته. ولا أحد حتى الآن يعرف التاريخ الصحيح الذي استطاع فيه توماس إدراك حقيقة الأمر. لكن التقارير التي ظهرت في الآونة الأخيرة تؤكد حصول عدة نزاعات حادة بينه وبين جده وأمه بعد أن عرف الحقيقة. وعلى صعيد الضغوط الظرفية أيضاً التي تعرض لها توماس تشير مصادر أمنية إلى أنه كان قد وجه عدة رسائل إلى رجال الشرطة ورجال السياسة والمحامين وأولياء أمور الصبية المنتسبين إلى ناديه وحتى إلى الملكة نفسها. وفي جميع هذه الرسائل تذمر توماس من قيام بعض المدرسات بتشويه سمعته وصورته أمام جميع فئات المجتمع وطبقاته. وفي رسالته إلى الملكة ذكر أنه ومنذ أكثر من عشرين عاماً قام بإنشاء ناد رياضي للصبية والأولاد إلا أن الشائعات التي أطلقها رجال الشرطة المركزية في اسكتلندا أفسدت عليه كل شيء وجعلته غير قادر على تأمين لقمة العيش. ولابد هنا من نقطة مهمة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار وهي أن جميع رسائل توماس لم تلق ترحيباً عند من أرسلت إليهم. ويقول المحللون إن فشله في إسماع صوته الى العالم من حوله هو السبب في شعوره باليأس الشديد، ومن المحتمل أن يكون ذلك الشعور بالإحباط الذي سيطر عليه سيطرة تامة هو الذي دفع به إلى خاتمته الإجرامية هذه التي ربما وجدها خير وسيلة لإسماع صوته للعالم.

٣ - بالإضافة إلى الانحراف الفردي والانحراف الظرفي يمكن أيضاً ذكر الانحراف المنظم وهو الذي يكون من فعل الثقافة الفرعية أو تلك الأنظمة السلوكية ذاتها، حيث ينشأ الانحراف نتيجة عوامل ثقافية أهمها عامل التواصل بين الأشخاص المنحرفين وتبادل مفردات المحتويات الخاصة بالانحراف، وقيام حالة وجدانية صحيحة بين الأشخاص المنحرفين وكيفية إدراكهم للأفعال المنحرفة. فالأنماط المنظمة للانحراف هي التي تنشأ عن حالات سلوكية كانت في الواقع إما حالات فردية أو حالات ظرفية بيئية في بداية نشأته. ولعل الثقافة الفرعية لمجتمع الشواذ جنسيا في أمريكا المعاصرة خير مثال على ذلك، حيث إن ثقافة هؤلاء غالباً ما تسير وراء مجموعة من القيم المنحرفة التي لا تختلف في محتواها عن تلك القيم التي يدين بها أفراد المجتمع السوي.

## الانتهاك وأثره في الطفل

إن الانتهاك سلوك غير معقول ولا يتفق مع سلوك الإنسان الطبيعي، فهو حالة مرضية عصابية أو ذهانية يتم من خلالها تطوير الغضب والمعاناة التي تعرض لها المنتهكون «المعتدون» في أثناء طفولتهم إلى الطفل فيعتبرونه راشداً، ويتوقعون منه أن يتصرف على هذا الأساس. ويرجعه البعض إلى الظروف الاقتصادية المتدنية، خاصة إذا رافق ذلك مشكلات في العمل وزيادة عدد الأطفال وضعف الدخل والفقر. . بالإضافة إلى سمات شخصية معينة مثل ضعف السيطرة على الانفعالات والاضطرابات العصبية وغيرهما. .

أما أثر الانتهاك في الطفل فله مردود سلبي للغاية يتمثل في

الإحباط وعدم الشعور بالانتماء واحتقار الذات وزيادة الاعتماد على الآخرين. وتشير الدراسات والتحليلات إلى أن هؤلاء الأطفال تبدو عليهم نظرة خائفة ومترقبة لمن يقترب منهم من الكبار، والسكوت وعدم الرغبة في الحديث معهم. وتظهر لديهم حساسية مفرطة وتنبه شديد وحذر للمنبهات التي تحيط بهم مثل الأصوات والضجيج وغيرهما. كما قد تنمو لديهم حالات انطواء وانغلاق نحو الذات وعدم الرغبة في الاتصال مع الآخرين. لذا تراهم غير اجتماعيين. يحبون الوحدة وبعضهم لديه تبلد وجداني وجمود وقصور في النشاط الحركي وتخلف في اللغة والمهارات الشخصية إضافة إلى مشاكل تعلم في المدرسة ومشاكل سلوكية مثل السرقة والكذب وعدوانية نحو الأطفال الآخرين وفقدان السيطرة وضبط الانفعالات مع نوبات غضب حادة.

## مواجهة ظاهرة الانتهاك

المعالجة الوقائية لحالات الانتهاك الجسدي للأطفال التي بدأت وسائل الإعلام وبرامج المدارس اعتمادها من خلال كسر جدار الخوف والخجل ومناقشة الحالات الخاصة، وفتح عيادات ومراكز تخصصية وتخصيص خطوط هاتفية لتقديم المساعدة للضحايا، هي بالطبع إجراءات جيدة وناجحة على صعيد تفادي حصول الاعتداء والانتهاك الجسدي للطفل، غير أنه لابد من قوانين وأنظمة تشدد عقوبة الاعتداء على الأطفال وانتهاكهم الجسدي من جهة أخرى، ومعالجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تقود إلى مثل هذه المشكلات.



أي شذوذ يغتال هذه البراءة؟!

فعلى صعيد الأنظمة والقوانين لابد من تشديد العقوبات الجزائية بوجه عام، حيث يلاحظ أن الإجراءات العقابية المنشودة ساعدت على تقليل نسبة المخالفات والجرائم. أما على صعيد تشغيل الأحداث فلابد من تطبيق قوانين العمل الخاصة بمنع تشغيل الأحداث ورعاية القاصرين منهم وشملهم بالتشريعات العامة للطفولة وقوانين رعاية الأحداث التي تهدف إلى الحد من ظاهرة جنوحهم وتكيفهم اجتماعياً وفق القيم والقواعد الأخلاقية لمجتمعاتهم، ويتحقق ذلك من خلال توسيع إطار مساهمة ومسئولية المؤسسات والمنظمات التربوية والجماهيرية والمهنية والإدارية، بما فيها إدارات المدارس، بالإضافة إلى بث الوعي الجماهيري الهادف إلى بناء علاقات إنسانية ثابتة وأخلاقية ترعى الأطفال وتحميهم وتحافظ على حرمتهم من الانتهاك والتعدي. لأن من حق الطفل على الجنس البشري أن يمنحه خير ما عنده ويرعاه وهو ما أبرزه الإعلان العالمي لحقوق الطفل الصادر في ٢٠/١٢/١٩٥٩.

البيت

# العلاج الهرموني لسن اليأس

بقلم: الدكتور لؤي خدام*

حثت الاختلاطات التي ترافق سن اليأس العلماء والأطباء على مدى العقدين الماضيين على تطوير العلاجات الهرمونية بغية تعويض المرأة عن الهرمونات التي حرمت منها، وفيما يخص الآثار الجلدية للعلاج الهرموني المعوض، فمن المعروف أن المرأة بعد سن اليأس تعاني نقصا في إنتاج مادة الكولاجين فيفقد جلدها بشكل تدريجي نعومته ويصبح رقيقا ويتجعد، وثبت أن العلاج الهرموني المعوض يتمتع بآثار إيجابية على محتوى الجلد من الكولاجين فيحافظ على سماكة جيدة، مما يؤخر من حدوث ظاهرة التجعد ويسمح للجلد بأن يحافظ على نضارته لفترة أطول.

أما فيما يخص آثار العلاج الهرموني المعوض على العظام والمفاصل فلا شك أن الأستروجين وهو أحد مقومات هذا العلاج، يشكل العلاج الوقائي الأساسي من تخلخل العظام الناجم عن فقدانها لمادة الكالسيوم الذي تعاني منه النساء بعد سن اليأس والذي يسبب الآلام العظمية والكسور التي يستحيل التحامها. كما أن عددا كبيرا من الأدوية الحاوية على البروجسترون والذي يشكل المقومة الأخرى لهذا العلاج له دور متمم وأساسي في الوقاية من فقدان العظام لأساسها المعتمد على مادة الكالسيوم. هذه الفائدة العلاجية يمكن الحصول عليها عند النساء المعمرات وحتى لو استقرت عندهن ظاهرة تخلخل العظام. من الوسائل الأخرى التي تفيد أيضا بالوقاية من هذه الظاهرة، الإكثار من تناول الأغذية الحاوية على منتجات الحليب، ولكن العلاج الهرموني المعوض يبقى في المرتبة الأولى في فعاليته. كما أشار قسم من الباحثين إلى آثار هذا العلاج في تسكين الآلام العضلية والمفصلية المرافقة للروماتيزم الذي تعانيه النساء في سن اليأس.

## القلب والأورام

يوجد حاليا ما يكفي من الأدلة حتى يعتبر العلاج الهرموني إحدى الوسائل الأساسية للوقاية من الإصابات القلبية الشريانية، هذه الأمراض تعود بشكل أساسي للتغيرات الاستقلابية التي تظهر بعد سن اليأس والتي تخص الشحوم والأنسولين في الدم، فسوء استقلاب هذه الشحوم يؤدي لتراكمها في جدار الشرايين وخاصة شرايين القلب مما يؤدي لانسدادها، وبإمكان العلاج الهرموني المعوض أن يصحح هذه التغيرات الاستقلابية مقللا من احتمال ظهور هذه الحوادث إلى النصف. حتى أن بعض الفرق الطبية تقوم بدراسة الأستروجين كمادة مساعدة على فتح الشرايين القلبية المسدودة.

أما السرطانات النسائية، فيحفل الأدب الطبي بعديد من الدراسات الوبائية حول سرطان الثدي، الهدف الرئيسي لهذه الدراسات، هو تحديد مختلف العوامل التي تلعب دورا مؤهبا لظهور هذا السرطان، ولم يخف على هذه الدراسات أن العلاج الهرموني المعوض قد يكون عاملا مسببا لهذا المرض، لكونه ذا منشأ هرموني، وتوصلت إحدى هذه الدراسات إلى نتيجة مفادها أن احتمال ظهوره عند النساء اللواتي خضعن لهذا العلاج

* طبيب سوري يعمل بدار التوليد بمستشفى بيتيه - باريس.

ولفترة تفوق السنوات العشر يزيد بشكل طفيف على احتمال ظهوره عند النساء اللواتي لم يتمتعن بالعلاج، علما بأن معدل الوفيات بسبب كسور العظام المحرومة من العلاج الهرموني وبسبب انسداد شرايين القلب يفوق معدل الوفيات من سرطان الثدي، وبذلك تبقى المحصلة النهائية لصالح العلاج الهرموني المعوض. وبما أن الأمر يخص مرض السرطان فقد أعطيت هذه الدراسة من الأهمية أكثر مما تستحق وأثارت الكثير من الاستفسارات وتعرضت للكثير من الانتقادات أولها أن هذه الزيادة ليست سوى زيادة طفيفة، وحتى يتفهم القراء حقيقة الأمر لا بد من أن نشرح كيف أجريت هذه الدراسة. فقد قام فريق من الباحثين من ولاية مدينة بوسطن الأمريكية باستجواب عدة آلاف من النساء، بواسطة المراسلة البريدية، وقارن عدد حالات سرطان الثدي بين فئتين من النساء، الأولى استفادت من العلاج الهرموني المعوض بينما الثانية لم تستفد منه، فلوحظ أن عدد حالات هذا المرض هي أكثر بقليل عند فئة النساء اللواتي استعملن العلاج.

وفيما يخص سرطانات باطن الرحم، فإن حدوثها يترافق مع العلاج الذي يتألف فقط من الأستروجين، وينعدم خطر حدوث هذا المرض عندما يضاف دواء البروجسترون إلى الأستروجين، ومن هنا نستخلص أهمية إعطاء علاج متوازن وتحت إشراف طبي.

ومن السرطانات الأخرى المرتبطة بالنشاط الهرموني، سرطان المبيض، ولا يتوافر حاليا ما يكفي من الدراسات بما يسمح باستخلاص أي نتيجة عنه. أما فيما يخص سرطان الأمعاء الغليظة فبإمكان العلاج الهرموني المعوض أن يحمي منه.

## النفس والجسد

وفيما يخص الناحية النفسانية والجنسية فإن الاضطرابات العاطفية والقلق النفسي لا تنجم بشكل مباشر عن نقص الهرمونات، ولهذا فهي تحدث قبل وبعد سن اليأس، ولكن الأستروجين يتمتع بآثار مباشرة في الأعصاب، فقد ظهر أنه يحرض العناصر المسئولة عن نمو الخلايا العصبية، مما يزيد من درجة الوعي وبذلك فقد يؤخر من تراجع القوة العقلية الشيخوخي أو ما يسمى مرض الزهايمر.

أما عن الجهاز البولي والتناسلي فتساعد الأستروجينات — حتى لو أعطيت بجرعات ضئيلة — على تحسين حالات سلس البول وتخفف من الاضطرابات التناسلية الناجمة عن الضمور الذي يرافق سن اليأس، حتى أنها تقلل من احتمال حدوث الأنتانات الجرثومية في جهاز البول، كما يمكن الحصول على هذه الفائدة لدى تناول الأستروجين بشكل موضعي.

هذه الفوائد الثابتة علميا تفوق بكثير الأخطار النظرية والتي تبقى نادرة إن احترمت شروط إعطاء هذا الدواء، مما يبرز أهمية المراقبة الطبية المنتظمة الواجب اتباعها لدى تناول هذا العلاج، مثله مثل أي دواء آخر.

العلاج الهرموني المعوض، كما ذكرنا يتألف من عنصرين أساسيين بحيث يشابه إلى حد ما الإفرازات الهرمونية الطبيعية — أي الأستروجين والبروجسترون — ويتوافر في الأسواق الصيدلانية عدد لا يحصى من المركبات الدوائية الهادفة لتأمين الآثار الفسيولوجية لهذين الهرمونين. ونعيد تأكيد أهمية مشاركة المقومين الأساسيين لهذا العلاج مع احترام مضادات الاستطباب المعروفة من قبل الأطباء.




# مساحة ود

## أخيرا.. انتصرت على هذا الرجل!

دخلت مسرعة إلى أبي وهجمت عليه قائلة، «أبي.. لقد حصلت على الليسانس اليوم.» قام أبي يصافحني ويضمني إلى صدره قائلا، «ألف مبروك» ثم توجه إلى أمي سائلا إياها عن إمكان دعوتي مع زوجي وأولادي إلى الغداء. أجابته أمي بابتسامة عريضة محببة إلينا: «طبعا». قام أبي واتصل بزوجي في المكتب وطلب منه المرور على أبنائي في المنزل لإحضارهم لتناول الغداء بمناسبة نجاحي في السنة النهائية بكلية الآداب قسم الاجتماع. كان يوما لطيفا للغاية، تخففت فيه من أعباء البيت وفرحت فيه لتحقيق هدفي الكبير. وهو أن أنهي دراستي الجامعية وانتصر على والدي الذي وقف دون ذلك منذ عشر سنوات. منذ عشر سنوات حصلت على الشهادة الثانوية وكنت مصممة على دراسة علم الاجتماع وإنهاء دراستي الجامعية. كنت مقتنعة بأن دراستي لهذا العلم ستقودني إلى التخصص فيه، وربما إلى الصعود إلى مرحلة الدراسات العليا. لكن جاء إلي والدي ليخبرني أن مهندسا مجتهدا في عمله، أمامه مستقبل معقول ويتمتع بصفات متزنة تقدم للزواج مني. رفضت، وعبرت له عن تخطيطي لمستقبلي. في الحقيقة لم يكن اعتراضي على الشخص ذاته بقدر ما كان على فكرة الزواج في هذه المرحلة. صمم والدي وأجبرني على القبول، بمنطق أن فرصة الزواج من رجل يملك هذه الصفات قد لا تتوافر مرتين وأن بإمكاني إكمال دراستي بعد الزواج. بعد ضغوط قوية، وافقت وفي قناعاتي أن أبي قد وقف ضد ابسط حقوقي الإنسانية، الحق في أن أكمل تعليمي وأن يكون لي كيان مهني مستقل. تزوجت وأنجبت طفلين، بعد ذلك فاتحت زوجي في أمر التحاقي بالجامعة. سألني، «هل تستطيعين القيام بالمهمتين معا؟» أجبته بإصرار: «نعم». فلم يمانع. فطلبت منه عدم إخبار والدي بالأمر. فربما حرض زوجي على منعي من تحقيق هذا الهدف. بدأت الدراسة، ربة بيت وأما وطالبة. لم يكن الأمر سهلا. كنت أحاول أن أعطي كل مهمة حقها الكامل، بحيث لا يقدم زوجي أي نقد، أو يبدي أي تذمر. تعبت وأجهدت، لكني كنت أشعر بسعادة داخلية عارمة، خاصة عندما تظهر نتائج آخر العام الدراسي ويسجل اسمي على قائمة الناجحين. مرت السنوات الأربع علي كأني أعبر في كل عام حاجزا عاليا في سباق دولي تتجه إليه أنظار العالم كله. لم يكن يعنيني منها إلا نظرات ذلك الرجل الذي استمر يعاملني بهدوء تام. كأن الأمور أكثر من طبيعية أو عادية، والدي. هذا الرجل! واليوم أذهب إليه وقد انتصرت عليه. فلم يستطع حرماني من تحقيق هذا الهدف وتلك الرغبة الملحة التي عايشتني طوال هذه السنوات الطويلة. وكعادته قابلني بهدوء تام. كل الذي.. فعله أنه قام ليصافحني ويضمني إلى صدره، ثم يقدم دعوة الغداء التي خصني بها مع أسرتي.

غادرت شقة والدي وبدأت أهبط درجات السلم بنفس القفزات التي تعودت عليها في طفولتي. هرول ورائي ابني الأكبر طالبا مني انتظاره. وعندما دخلنا السيارة، أمسك زوجي بعجلة القيادة وقال: «طلب مني والدك ألا أعترض على إكمال دراساتك العليا. إذا رغبت في ذلك». سألته بتعجب، «والدي. أنا!»؟ أجاب، «نعم والدك أنت، لقد كان يتصل بي ليطمئن عليك بين كل حين وآخر».

فور وصولي إلى منزلي اتصلت به. سمعت صوته، قلت على الفور: «لقد قررت أن أتقدم للدراسات العليا». قال: «ألف مبروك مقدما، أنا متأكد من أنك ستحصلين على درجة الدكتوراة.» سألته: «هل تحبني؟» أجاب: «يا ساذجة.. أكثر من الدنيا كلها».

**أمينة شفيق**




يهدف هذا اللغز إلى تسليتك وإمتاعك بالإضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع المهمة . والمطلوب منك الإجابة عن أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم

| ١٠ | ٩ | ٨ | ٧ | ٦ | ٥ | ٤ | ٣ | ٢ | ١ | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| | | | ■ | | | | | | | ١ |
| | | | | | | | | ■ | | ٢ |
| | | | | ■ | ■ | | | | | ٣ |
| ■ | | | | ■ | | ■ | | | | ٤ |
| | ■ | ■ | | | | | ■ | | | ٥ |
| | | | ■ | | | | ■ | | | ٦ |
| | | | | | ■ | | | | ■ | ٧ |
| | | | ■ | | | | ■ | | | ٨ |
| | | | ■ | ■ | | | | | | ٩ |
| | | ■ | | | | ■ | | ■ | | ١٠ |

## كلمات أفقية :

١ـ الموضوع الأساسي العام للشعر العربي القديم ، إحدى القبيلتين المشتركتين في حرب داحس والغبراء

٢ـ ما يعتبر خير مثل للشعر العربي القديم .

٣ـ خادم في مطعم ، نموذج .

٤ـ زوّد بالسلاح ، كبرت .

٥ـ تجدها في آخر كلمة ريش ، نسْل .

٦ـ قهوة ، بشر ومدّ ، يدل غير مرتبة .

٧ـ شاب ، براول .

٨ـ أمر يحاط بالكتمان ، ما يستخدم للخياطة ، من أولاد سيدنا نوح عليه السلام .

٩ـ منسوب للرؤية بالعيان ، أسد معثرة .

١٠ـ شغف حبًا ، عف «معكوسة» .

## كلمات عمودية :

١ـ ضرب من الشعر القديم في الشكوى ، اتساع .

٢ـ شاعر قديم من الصعاليك اشتهر بحماسياته .

٣ـ قائل المديح ، شقيق .

٤ـ عامل (الطفل خاصة) بتسامح زائد ، القبيلة الثانية التي اشتركت في حرب داحس والغبراء .

٥ـ بحر ، امحت آثاره ، منزل .

٦ـ حرْفان لا يجتمعان في أوائل الكلمات العربية تجدهما في ناحَ وباعَ ، يصعد في الجو .

٧ـ شتيمة .

٨ـ غير مثمر أو منتج ، إحدى فرسين كانتا سببا في حرب طويلة في الجاهلية .

٩ـ ظهرت ، (كلام) يحمل نفس المعنى تقريبا .

١٠ـ عدد زوجي ، الطريقة التي كان يتناقل بها الشعر قديما .

| ١٠ | ٩ | ٨ | ٧ | ٦ | ٥ | ٤ | ٣ | ٢ | ١ | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ■ | ر | ن | ج | د | ر | ا | و | ذ | ا | ١ |
| ج | ■ | د | و | ي | ■ | م | ك | ا | ل | ٢ |
| د | ر | ■ | خ | و | ك | ■ | س | ء | ب | ٣ |
| ر | ق | ع | ■ | ا | ■ | م | هـ | ا | س | ٤ |
| ي | ■ | س | ا | ن | س | ن | ■ | ل | ت | ٥ |
| ا | ن | ■ | م | ي | ■ | هـ | ل | ك | ر | ٦ |
| ل | ع | ب | ■ | ■ | ■ | ا | م | ل | هـ | ٧ |
| ب | ر | ا | و | ش | ■ | ر | س | ب | ■ | ٨ |
| ق | ■ | هـ | ر | م | ج | ■ | ن | ■ | س | ٩ |
| ر | ى | ت | س | ا | ب | س | ى | و | ل | ١٠ |

## حل مسابقة

## العدد ٤٥١ يونيو ١٩٩٦م

مسابقة العربي الثقافية

العدد ٤٥٢
يوليو ١٩٩٦

# كتب.. لها بصمات




الجائزة الأولى ٥٠ دينارا

الجائزة الثانية ٣٠ دينارا

الجائزة الثالثة ٢٠ دينارا

بالإضافة إلى
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

**١**

كتاب «الأمير» استغرق تأليفه الشهور الأخيرة من عام ١٥١٣، ونشر عام ١٥٣٢ بعد وفاة صاحبه بخمس سنوات. مؤلفه المفكر الشهير الذي يقول: إن الغاية تبرر الوسيلة. وعلت صيحات العداء ضده، ووقف معه كثيرون. إنه المؤلف الإيطالي:

ـ ماكيا فللي. ـ هوميروس. ـ ألبرتو مورافيا.

**٢**

توماس بين.. هاجر إلى أمريكا ليلتقي حظه الحسن، وكان يحمل من إنجلترا ذل الفقر، قرأ كثيرا عن حقوق الإنسان، فكتب مندداً باستخدام الرقيق ودعا إلى تحريره، وكان يدعو المستعمرات للانفصال عن إنجلترا، فكان كتابه المهم:

ـ تحرير الإنسان. ـ حقوق الإنسان. ـ العقل السليم.

**٣**

أفلاطون.. الفيلسوف الأثيني، كان كتابه «الجمهورية» تعبيرا صادقا عن الخير والعدالة، خطط للدولة المثالية التي لم تتحقق أبدا، وكشف عن القواعد الأساسية للأخلاق، وتوفي سنة:

ـ ٣٤٧ ق.م. ـ ٢٢١ ق.م. ـ ١٢٦ م.

**٤**

رجال العلم يعتبرون «نيوتن» من أعظم شخصيات المفكرين في كل الأزمان. كان ساحر عصره في الرياضيات، أهم كشوفه: حساب التفاضل، وتركيب الضوء، وقانون الجاذبية. وكان كتابه الفذ:

ـ الجزء الذي لا يتجزأ. ـ القواعد الرياضية في الفلسفة الطبيعية. ـ المكعبات.

**٥**

في كتابه «تفسير الأحلام» صاغ مصطلحات مهمة تستخدم حتى اليوم مثل: اللاشعور، عقدة أوديب، الكبت.



ألبيرت أينشتاين

**٦**

وظيفة الحلم. ونشر تفسير الأحلام في العام ١٩٠٠م، وكان لكتابه أكبر الأثر في العلاج النفسي، وحتى في الآداب والفنون.. إنه مؤسس علم الأمراض العقلية الحديثة:

- فرويد. - ابن سيرين. - سلفادور دالي.

«كوخ العم توم».. قصة الكاتبة: هارييت بيتشر استو.. المولودة في العام ١٨٠١م، فجرت قضية تحريم الرقيق، حققت نجاحا لا يعدله نجاح أي كتاب في تاريخ النشر الحديث، كما أن بطل الرواية كان من السود. وكان الكتاب سببا في:

- قيام الثورة الاشتراكية. - نشوب حرب المائة عام.
- نشوب الحرب الأهلية الأمريكية.

**٧**

إن الفكرتين الرئيسيتين في نظرية «أينشتاين» هي النسبية في الحركة، وأن الضوء هو الكمية الثابتة في الكون. وبنظرية النسبية قضي على الكثير من القواعد القديمة الراسخة. وما أحدثه «أينشتاين» في العلوم بدأ بمقال عنوانه: عن الديناميكا الكهربائية للأجسام المتحركة. ونشر في مجلة ألمانية عام:

- ١٨٢١. - ١٨٩٠. - ١٩٠٥.

**٨**

باللغة الإيطالية الدارجة كتب «دانتي»: الكوميديا. وكانت حدثا جديدا في الأدب، وكان موضوعها تاريخ الحياة الدنيوية في عصره، وحفل بالأخلاق والتهذيب. وكتب «الكوميديا» في السنين السبع الأخيرة من حياته، وكتابه هذا:

- رواية ذات فصلين عن الجحيم والنعيم.
- ملحمة طويلة من الشعر عن الثواب والعقاب.
- قصص قصيرة أخلاقية كوميدية.

**٩**

في الإلفة والإلاف.. للكاتب الأندلسي: ابن حزم، وكان قمة الفكر الإنساني في مطلع القرن الحادي عشر. في الإلفة والإلاف كان: «رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة». والكتاب معروف باسمه الشهير:

- رسائل في الوجد. - كتاب الهجر والحب والغدر.
- طوق الحمامة.

**١٠**

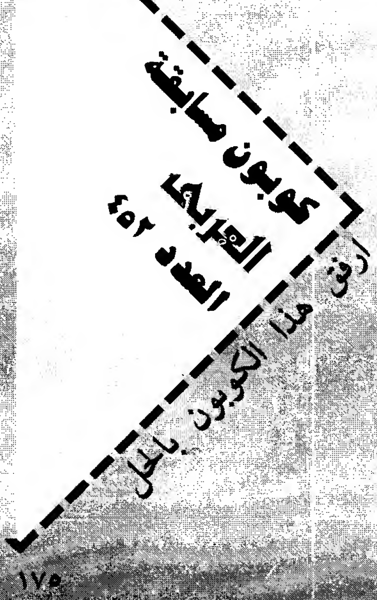
كتاب «بحث في طبيعة ثروة الأمم وأسبابها» لكاتبه «آدم سمث» صدر في مارس عام ١٧٧٦م، ناقش فيه تقسيم العمل وأجور العمال وأرباح الأسهم، والنقد، والمستعمرات.. و«آدم سمث» من أصل:

- أسكتلندي. - إنجليزي. - ألماني.




الإجابة عن تسعة أسئلة من الأسئلة المنشورة، ترسل الإجابات على العنوان التالي: مجلة العربي «مسابقة العربي العدد ٤٥٢» وآخر موعد لوصول الإجابات إلينا هو أول أكتوبر ١٩٩٦م والرجاء كتابة الاسم الثلاثي والعنوان البريدي واضحين، ورقم الهاتف إن وجد.

**ترسل الإجابات على العنوان التالي:**
**العربي: ص. ب ٧٤٨ رمز بريدي 13008 الصفاة - الكويت**



مسابقة العربي الثقافية

حل مسابقة

العدد ٤٤٩

أبريل ١٩٩٦

**١**

عالم النبات الأول «ثيوفراستس» قسّم النباتات إلى زهرية وغير زهرية وأشجار وأعشاب، وفرق بين النباتات الحولية والنباتات المعمرة وغيرها، والنباتات الحولية أي التي تعيش سنة واحدة أو أقل.

**٢**

النارنج. . واسمه العلمي الليمون النارنجي، أشجاره شائكة صغيرة، وثماره شديدة الحموضة ولا يمكن أكلها، ومن قشوره تصنع المربات؟

**٣**

أساس التركيب الضوئي هو امتصاص الأشعة الشمسية في النبات الأخضر بالإضافة إلى ثاني أكسيد الكربون الذي تمتصه مسام الورقة، والماء الذي تمتصه الجذور من التراب.

**٤**

الطباق اسم لنبات يسمى علميا «نيكوتيانا» نسبة إلى «جان نيكوت» سفير فرنسا في حوالي القرن السادس عشر، وقد أرسل هذا النبات إلى ملكة فرنسا «كاترين دي مدسيس» فكان أول من عرّف به أوربا.






٥

الشاي. تشغل مناطق زراعته في الهند وأندونيسيا مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية في مناطق التلال المنحدرة لملاءمة مناخها لزراعته، فهو يحتاج إلى مناطق لا تعرف البرد، وفيها رطوبة عالية.



أبو العلاء المعري

٦

يعتبر التزهير عند الخيزران بداية لاضمحلال وموت النبتة، لأنه عند التزهير تفقد خصوبتها في أجزائها السفلى التي تنتقل إلى الأجزاء العليا، فتموت بعد حين.

٧

القطن نبات من رتبة ذات الفلقتين أو «الجو سيبيوم» «Gossypium» وهو اسم شجرة القطن، ويتبع الفصيلة الخبازية.

٨

لينيس.. هو العالم السويدي المشهور الذي بدأ بحوثه المهمة في علم النبات في أوائل القرن الثامن عشر، وقد خلص علم النبات من التشويه العلمي والاضطراب.

٩

الأطعمة النباتية تحتوي بوجه عام على نسبة ضئيلة من البروتينات والمواد الدهنية، ولكنها غنية بالنشويات والأملاح المعدنية والفيتامينات. كما أن نسبة الماء فيها تتراوح بين ٩٠ و ٩٥٪.

١٠

أبو العلاء المعري.. هو الشاعر العربي الذي أخذ بمبدأ المذهب النباتي، هذا المذهب الذي تأسست جمعياته، ثم تأسس له الاتحاد الفيدرالي للنباتيين سنة ١٨٨٩م.

# أسماء الفائزين في المسابقة الثقافية العدد ٤٤٩ أبريل ١٩٩٦م

الفائز الأول:

**لبنى عمري**

الجزائر / برج كيفان

الفائز الثاني:

**علوية جعفر محمد أبو بكر الباز**

جيبوتي/ جيبوتي

الفائز الثالث:

**محمد هيثم بن محمد بن علي**

تونس/ تونس

# الفائزون بالجوائز التشجيعية

**١- زين العابدين اكريم**
المغرب/ الرباط

**٢ - ماجدة سمير شعراوي**
مصر/ دمنهور

**٣ - محمود شاكر محمد الرواجيح**
الأردن/ عمان

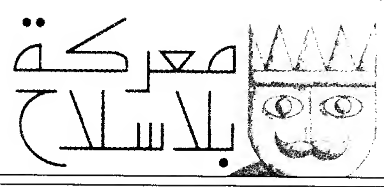
**٤ - رزق أحمد أبا زيد**
سوريا/ حلب

**٥ - رضا أحمد أحمد محمد**
البحرين/ القضيبة

**٦ - رضا محمد عبد الخالق**
الكويت/ الجهراء

**٧ - عبد المحسن أحمد الغامدي**
السعودية/ الطائف

**٨ - إيمان حسني الرومي**
الإمارات/ أبو ظبي




غادر حلبة الصراع الدولي في أواخر العام المنصرم أحد كبار المنافسين على عرش الشطرنج لسنوات طويلة وهو اللاعب الروسي ليف بولوجايفسكي عن عمر يناهز الستين عاما. حقق بولوجايفسكي أول انتصاراته الكبرى في عام ١٩٦١ عند فوزه ببطولة بلاده في ذلك العام وحاز على لقب أستاذ دولي وما لبث أن فاز بلقب أستاذ كبير في العام الذي تلاه. ويعتبر بولوجايفسكي واحدا من كبار الأبطال الهجوميين في العالم وكان يحرص على تبني الافتتاحات العنيفة الحافلة بالإثارة كما كان يعرف بتحليلاته العميقة المبدعة وهو من عشاق الدفاع الصقلي الذي كان يلعبه باللون الأسود باستمرار وكان من أنصار التفريع المعروف بذي الحدين من الدفاع الصقلي: ١. هـ٤ جـ٥ ٢. حص ـ و٣ د٦ ٣, د٤ جـ× د٤ ٤. حص × د٤ حص ـ و٦ ٥. حص ـ جـ٣ أ٦ ٦. فل ـ ز٥ هـ٦ ٧, و٤ ب ٥ (الشكل ١) استعدادا لمواجهة ٨. هـ٥ د×هـ٥ ٩. و× هـ بالنقلة البديعة ٩. ....... و ـ جـ٧!

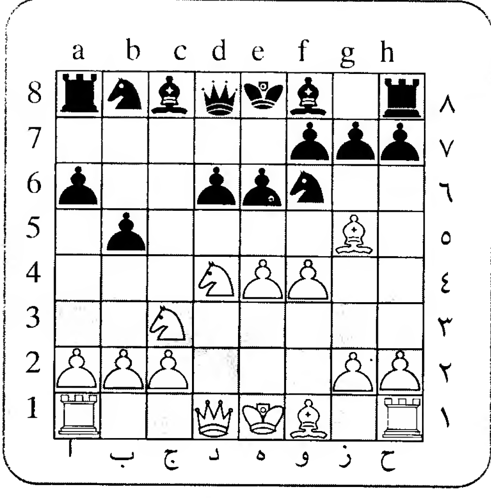
كان بولوجايفسكي في مطلع حياته مهندسا ناجحا غير أنه ما لبث أن هجر ميدان الهندسة ليصبح واحدا من كبار أبطال الشطرنج المحترفين الذين حفلت حياتهم بالانتصارات الفذة، ويذكر الكتاب الذي ألفه صديقه ياكوب دامسكي أكثر من ١٣٨ حدثا شطرنجيا مهما كان له في معظمها قصب السبق في الفترة ما بين ١٩٥٣ ـ ١٩٨١ من أهمها فوزه ببطولة الاتحاد السوفييتي في ١٩٦٧ بالاشتراك مع مايكل تال (بطل العالم عام ١٩٦٠ وبطولة عام ١٩٦٩ بالاشتراك مع بتروسيان (بطل العالم ١٩٦٣ ـ ١٩٦٩) وفوزه بالبطولة المطلقة في مباراة ماردل بلاتا ١٩٦٢ و١٩٧١ وبطولة سوتشي ١٩٦٣، وبفروجك ١٩٦٦، وسكوبجي ١٩٧١ وكلافودسك ١٩٧٢ وبطولة وجك أن زي ١٩٧٩.

ومن الجدير بالذكر أن بولوجايفسكي التقى مع البطل الأمريكي الأعجوبة بوبي فيشر (بطل العالم ١٩٧٢ ـ ١٩٧٥) مرة واحدة في ماجوركا ١٩٧٠ وانتهى الدور بينهما بالتعادل. بدأ بولوجايفسكي صراعه للحصول على بطولة العالم عام ١٩٧٤ حيث خسر أمام كاربوف ومرة أخرى عام ١٩٧٧ حيث خسر أمام كورشنوي ومرة ثالثة في عام ١٩٨٠ حيث نجح في الفوز على تال (٥, ٥ ـ ٥, ٢) ولكنه عاد فخسر ثانية أمام كورشنوي.

ويعتبر بولوجايفسكي من أهم المؤلفين الشطرنجيين المحدثين وكتابه «إنجازات الأساتذة الكبار» من الكتب الشطرنجية المميزة، وتركز الكثير من مؤلفاته حول الدفاع الصقلي وكتابه «عشق الصقلي» من المعالم البارزة في هذا المجال.

وفيما يلي أحد الأدوار الخالدة التي لعبها ضد أحد كبار أساتذة الشطرنج الأرجنتيني ميجل ناجدورف.

| □ ناجدورف | ■ بولوجايفسكي |
|---|---|
| ١ • د٤ | حص ـ و٦ |
| ٢. جـ٤ | هـ٦ |
| ٣. حص ـ جـ٣ | فل ـ ب ٤ |
| ٤. هـ٣ | ت ت |
| ٥. فل ـ د٣ | جـ٥ |
| ٦. حص ـ و٣ | د ٥ |
| ٧. ت ت | د × جـ ٤ |
| ٨. فل × جـ ٤ | حص ـ جـ٦ |




الشكل (١)

| | |
|---|---|
| ٩ . فل ـ د٣ | جـ×د٤ |
| ٠١٠ هـ × د٤ | فل ـ هـ ٧ |
| ٠١١ أ٣ | أ٦ |

أفضل من ب ٦ الشائعة

| | |
|---|---|
| ١٢ . فل ـ جـ ٢ | ب ٥ |
| ٣ . و ـ د٣ | فل ـ ب ٧ |
| ١٤ . ر ـ هـ ١ | ز٦ |

١٥ . فل ـ ب ٣؟ طموح لا مبرر له ر (١) ـ د١ أفضل بكثير

| | |
|---|---|
| ١٥ . ........ | ر (أ) ـ جـ ٨ |
| ١٦ . فل ـ ح ٦ | ر ـ هـ ٨ |
| ١٧ . فل ـ أ٢ | ب ٤ |

٠١٨ حص ـ هـ ٢؟!

(الأبيض يعتقد أن الأفضلية في صالحه وتوقع أن تتم تضحية الأفراس في هـ ٦ حص ـ أ٤ أفضل لاحتلال جـ ٥ فيما بعد)

| | |
|---|---|
| ١٨ . ..... | حص ـ أ٥ |
| ١٩ . حص ـ و٤ | ب٣! |
| ٢٠ . فل × ب٣ | فل ـ هـ ٤ |
| ٢١ . و ـ د١ | حص × ب٣ |
| ٢٢ . و× ب٣ | فل ـ جـ٢ |
| ٢٣ . و ـ أ٢ | حص ـ ز٤ رائعة |

أصبحت قطع الأبيض ضعيفة بعد خسارة الفيل الأبيض

| | |
|---|---|
| ٢٤ . حص × هـ ٦ | و ـ ب ٦! |
| ٢٥ . حص ـ ز٧ | فل ـ ب٣ |
| ٢٦ . و ـ ب١ | ر (هـ) ـ د٨ |
| ٢٧ . حص ـ و٥ | ز × و٥ |
| ٢٨ . ر× هـ ٧ | حص ×ح٦ |
| ٢٩ . و ـ د٣ | و ـ و٦ |
| ٣٠ . ر ـ أ٧ | فل ـ جـ٤ |
| ٣١ . و ـ د٢ | فل ـ د٥ |
| ٣٢ . حص ـ هـ ٥ | حص ـ ز٤ |
| ٣٣ . و ـ و٤ | حص × هـ٥ |
| ٣٤ . د× هـ٥ | و ـ ز٦ |
| ٠٣٥ ز٣ | فل ـ هـ ٤ |
| ٣٦ . ر ـ هـ١ | ر ـ د٣ |
| ٣٧ . هـ ٦ | و ×هـ ٦ |

وهنا يستسلم الأبيض لأنه لو لعب ٠٣٨ و٣؟ فإن ذلك سيؤدي إلى خسارة المزيد من المادة بسبب ٠٠٠٠٠٠٣٨ و ـ ب ٦+ ...

## الفائزون في مسابقة الشطرنج
## العدد ٤٤٩ أبريل ١٩٩٦م

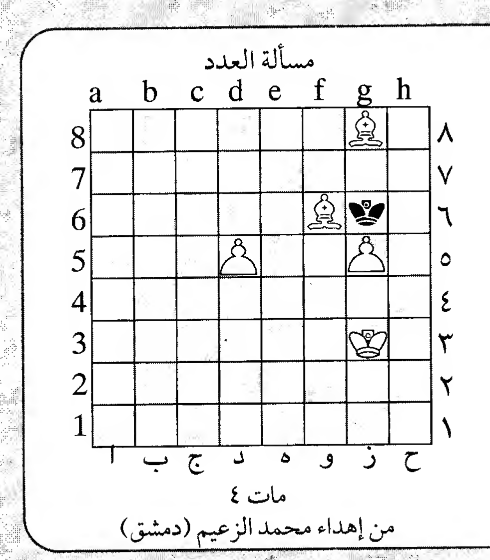
**الفائزون باشتراك سنة كاملة**

١ـ أحمد بن محمد بن سلطان الصوافي ـ سلطنة عمان/ عبرى
٢ـ عماد الدين السعيد خورشيد ـ مصر/ القاهرة
٣ـ عبدالله أمين أبو رمان ـ الأردن/ عمان
٤ـ الأحمر عبد الحمد ـ المغرب/ الجديدة
٥ـ قادري تامر بن محمد بلقاسم ـ الجزائر/ ولاية المسيلة

**الفائزون باشتراك ستة أشهر**

١ـ خديجة سالم راشد مبارك ـ الكويت/ وزارة العدل
٢ـ علي محسن عبدالله البصري ـ السعودية/ الإحساء
٣ـ أسامة أحمد عبدالحليم أحمد ـ مصر/ الفيوم
٤ـ أمير تادرس عزيز ـ مصر/ الشرقية
٥ـ علي علوي ـ الجزائر/ سيدي خالد

مسألة العدد




مات ٤

من إهداء محمد الزعيم (دمشق)

**حل مسألة العدد**

٤٤٩ـأبريل ١٩٩٦

٠١ و ـ د ٤ ومات في النقلة الثانية مها لعب .




جمال العربية

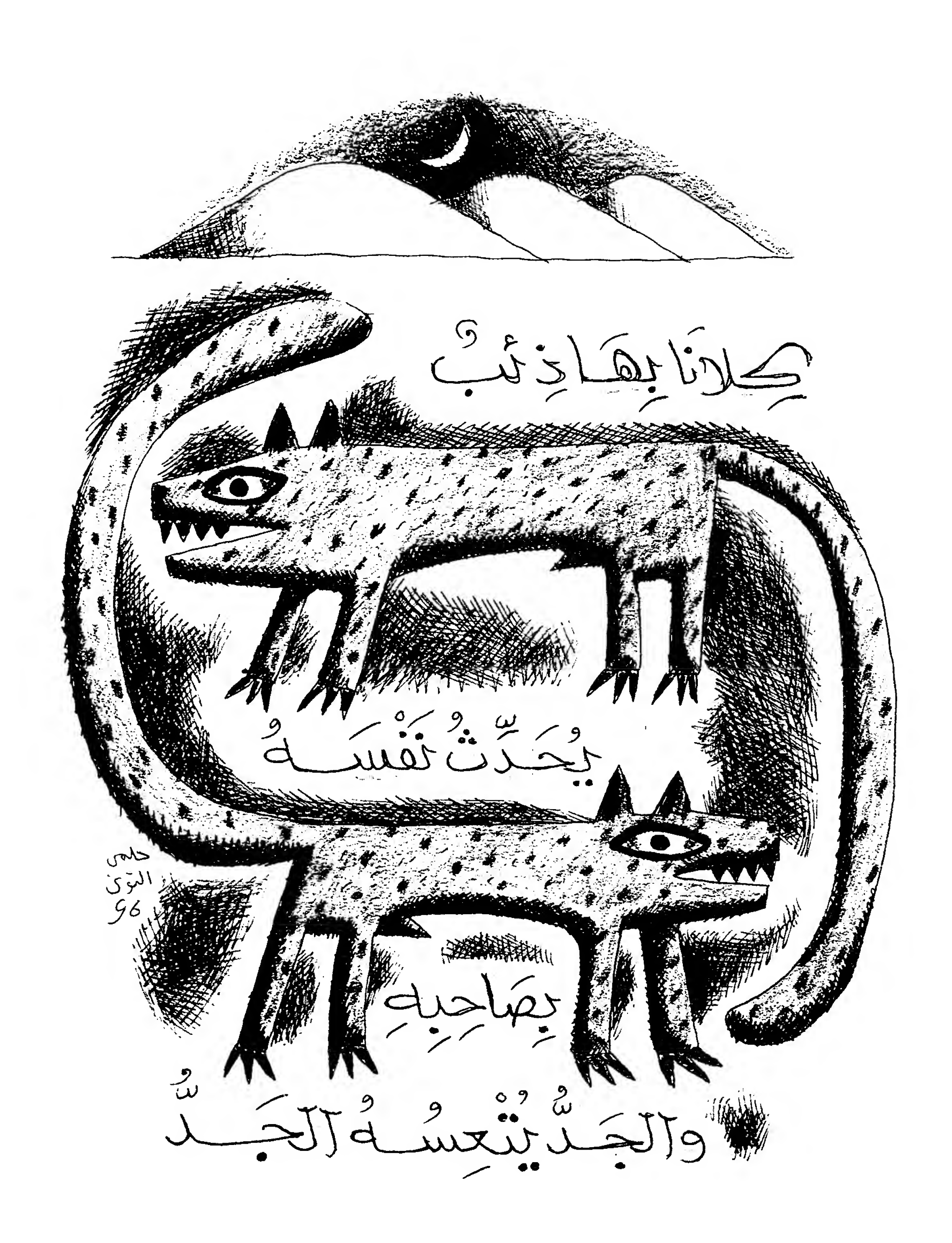
فاروق شوشة

# قصيدة «الذئب» للبحتري

لم يرتبط اسم شاعر عربي قديم بفكرة الشعر وحقيقة الشاعر كما ارتبط اسم البحتري. وتجلى هذا المعنى في المقولة التي ترددت طويلا: أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري. ولا بد أنه كان وراء هذا التعبير الشديد التركيز في صياغته ومدلوله ما يشبه الاتفاق العام على سمات للشاعرية ومواصفات محددة لها انطبقت على البحتري، وتمثلت في شعره بأكثر من سواه. ويبدو أن ما استوقف نظر القدماء في نسيج شعر البحتري من خصائص فنية، في مقدمتها قدرته الفذة على الصياغة المحكمة في يسر وطواعية، ودون عنت أو مشقة، وانسياب شعره في موسيقية جياشة بالإيقاعات والفواصل وحسن التقطيع، وامتلاء شعره بمشاهد التلوين والتفويف والافتنان في التصوير، وغلبة الشعرية على المعنى، والتعبير على الفكرة، هو الذي حفظ للبحتري تلك المكانة البارزة والمتقدمة التي كانت موضع حسد معاصريه، ومجال تأمل باحثي شعره ودارسيه على تعاقب الأزمان والعصور.

والبحتري - كما تقول لنا أخباره الموثقة - مدين باكتشافه ثم بذيوع صيته لأستاذه أبي تمام. لكنه - على الرغم من هذه العلاقة الحميمة وهذه التلمذة الشعرية - نجا من أن يكون تكرارا أو امتدادا لمدرسة أبي تمام الشعرية، وهي مدرسة الصنعة أو البديع. بل لقد استطاع - بفضل موهبته الشعرية، وإنصاته لصوته الشعري الخاص - أن يمثل النقيض بالنسبة لشعرية أبي تمام. فأبو تمام مضى وراء احتفاله بالمعنى والفكرة، وعمق النظر، والتأمل، إلى حد تشكيل اللغة الشعرية على غير ما ألف الناس واعتادوا، واستطاع أن يفرض سيطرته على بنية القصيدة ومعمارها الفني وقيمها التعبيرية في صلابة وتحكم. وإن يكن هذا الموقف قد جنى - فيما جنى - على قدر من ماء شعره، وانسياب قصائده وتدفقها، ودفع بقارئه إلى معاودة النظر والاستبصار مرة بعد مرة بسبب غموض الدلالة وعمق منافذ الصيد الشعري وعُسْر الصياغة الشعرية وتعقدها.

أما البحتري، فقد نجح في أن يكون صنّاجة العصر العباسي كله، كما كان الأعشى في نظر سابقيه صناجة العصر الجاهلي. ولم يبال البحتري كثيرا بأن تكون مراميه قريبة التأتي سهلة المتناول غير عميقة الغور. ولم يدّعِ لنفسه شيئا أبعد من طبيعة الشعر وحقيقته كما فهمها هو في بساطة ويسر. وأسلم نفسه لشعر الطبع يواتيه في غزارة وانثيال، وفي موجات متتابعة جعلت ديوانه واحدا من أكبر الدواوين في مكتبة الشعر العربي لا يفوقه غير ديوان غريمه وخصمه اللدود «ابن الرومي». ومن شأن هذا الشعر الغزير المواتي والمتدفق أن يهدر كالسيل، وأن يجرف في طريقه - وعبر ثناياه - أوشابا وصخورا ومعادن غير نفيسة. وهو أمر لا يستوقف البحتري ولا يعنيه. إنه ماض لغايته في عزم ومثابرة. يصاحب خلفاء بني العباس واحدا بعد الآخر، ويرقى إلى أن يكون شاعر



كِلانا بِها ذِئْبٌ
يُحَدِّثُ نَفْسَهُ
بِصاحِبِهِ
والجَدُّ يُتْعِسُهُ الجَدُّ
حلمي التوني 96

البلاط الرسمي لهم على اختلافهم وتباينهم في الطباع والأهواء والميول. وحين يُصرع المتوكل - الخليفة الأثير لديه - ومعه وزيره الفتح بن خلقان، يغادر البحتري بغداد، ويودع القصر وصاحبه المقتول ببكائيات فريدة، ويجد في «المدائن» صورة لنفسه المزعزعة اليائسة - المتماسكة في تجلد ومجاهدة - في إيوان كسرى الذي تهدمت شرفاته وتهاوت أركانه، ها هو ذا طلل مثله، حي يحاول أن يستعصم بما حوله ويتماسك، وكلاهما رمز لمجد غارب، وفخار ذاهب، ويبدع البحتري سينيته الشهيرة، شهادة على عصر، وبكاء على الذات وافتقادا لمعنى الوجود.

لقد لمع نجم البحتري في بغداد منذ عهد الخليفة الواثق، وازداد تألقه في عهد المتوكل، ثم هو يعود إلى بغداد - بعد مصرع المتوكل ووزيره - في عهد الخليفة المنتصر، ويظل متصلا بعد ذلك بالمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد حتى كانت وفاته سنة مائتين وأربع وثمانين هجرية عن ثمانين عاما.

هذا الاتصال الطويل بالخلفاء، هو الذي جعل قصيدة المديح تحتل مساحة بارزة من شعر البحتري، وإن كانت مداخل هذه القصيدة تظل وحدها شاهدة على إبداع البحتري وروعة تفننه في الشعر قبل أن يصل إلى موضوع قصيدته الأساسي وهو المديح.

والقصيدة التي نعرض لها الآن قصيدة فريدة في شعر البحتري كله، وفيها يعرض لموقف لم يتكرر هو لقاؤه مع الذئب، وكعادته يبدع البحتري في تقديم صورة شعرية تعرض للذئب عرضا شاملا لا يترك صغيرة ولا كبيرة. وهنا تتجلى قدرات البحتري الشاعر الرسام بالكلمات في إبداع لوحة من عيون الشعر العربي، لا يفوته لون ولا حركة ولا انقباضة ولا توتر. وترتجف لغته مصدرة صوتا يحاكي صوت المقرور تصر أسنانه من شدة البرد. ويصل البحتري إلى قمة تألقه في إبداع هذه اللوحة حين يصوغ الأمر بينه وبين الذئب على هذه الصورة الشديدة الكثافة والتركيز والإيحاء ويقول: كلانا بها ذئب. لقد تم التشخيص والحلول الشعري، وضاقت المسافة حتى أوشكت تنعدم بينه وبين الذئب الذي يصوره، بل لقد حل فيه من «الذئبية» ما يجعلنا نتأمل أبياته في ضوء إحساس جديد وهو يمزج بين وعي الإنسان وقدرة الوحش الفاتك الجسور فيه.

يقول البحتري:

**سما لي وبي من شدة الجوع ما به**
**ببيداء لم تُحسسْ بها عيشة رغد**
**كلانا بها ذئب يحدث نفسه**
**بصاحبه، والجد يتعسه الجد**
**عوى ثم أقعى، وارتجزت فهجته**
**فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد**

حتى نصل إلى قوله:

**ونلت خسيسا منه ثم تركته**
**وأقلعت عنه وهو منعفر فرد**

إن جمال هذه اللوحة الشعرية يأتي في إطار العلاقة بين الشاعر والليل، الليل مغامرة وأنس بوحوش الفلاة ورداء نرتديه ونخلعه حين تدعو الرغبة وحيث تقود الجرأة والجسارة:

**وليل كأن الصبح في أخرياته**
**حشاشة نصل ضم إفرنده غمدُ**
**تسربلته والذئب وسنان هاجع**
**بعين ابن ليل ما له بالكرى عهد**

والحديث عن الليل ووحوش الفلاة في الليل يسبقه حديث عن السيف المرهف القاطع، لا صاحب للشاعر سواه، هو أنيسه ومرافقه كما كان الصعاليك القدامى يعتزون بأن جلّ ما لهم حسام كلون الملح أبيض صارم، يقول البحتري:

**ولي صاحب عضب المضارب صارم**
**طويل النجاد ما يفل له حد**

ويسبق كل هذا الحديث في القصيدة وقفة مشهودة للبحتري، ورسالة يسوقها لبني الضحّاك ولبني واصل، خشية أن يفهمه البعض على غير حقيقته التي يعلن عنها في غير مواربة، إنه الأفعوان المخيف والأسد الجريء والموت المداهم.

وهكذا يصبح للنص الشعري قوام واضح متماسك، وبنية فنية متآزرة، وموقف شعوري يمزج بين ما هو واقعي محتمل ورمزي متصور.

والآن إلى قصيدة البحتري:

**سلامٌ عليكُم لا وفاء ولا عهدُ!**
**أما لكم من هجرٍ أحبابكم بدُّ؟**

● قصيدة الذئب للبحتري.

أأحبابنا قد أنجز البين وعده
وشيكا، ولم يُنجز لنا منكم وعد(١)

أأطلال دار «العامرية» باللوى
سقت ربعك الأنواء! ما فعلت هند؟(٢)

أدار اللوى بين الصريمة والحمى!
أما للهوى إلا رسيس الجوى قصد؟(٣)

بنفسي من عذبت نفسي بحُبه
وإن لم يكن منه وصالٌ ولا ودُّ

حبيبٌ من الأحباب شطت به النوى
وأي حبيب ما أتى دونه البُعدُ!

إذا جُزْتَ «صحراء الغُوير» مغرِّبا
وجازتك بطحاء «السواجير» يا «سعد»(٤)

فقل لبني الضحّاك مهلا! فإنني
أنا الأفعوان الصِّل والضيغمُ الوردُ(٥)

«بني واصلٍ» مهلا! فإن ابن أختكم
له عزمات هزل آرائها جِدُّ

متى هجتموه لا تهيجوا سوى الردى
وإن كان خرقا ما يُحلُّ له عقدُ(٦)

مهيبا كنصل السيف لو قُذفت به
ذُرى «أجأ» ظَلّت وأعلامه وهد(٧)

يودُّ رجالٌ أنني كنت بعض من
طوته المنايا لا أروح ولا أغدو

ولولا احتمالي ثقل كل ملمة
تسوء الأعادي لم يودوا الذي ودُّوا

ذريني وإياهم فحسبي صريمتي
إذا الحرب لم يُقدح لمُخمدِها زَندُ

ولي صاحب عَضْبُ المضارب صارمٌ
طويلُ النجاد ما يُفل له حد(٨)

وباكية تشكو الفراق بأدمع
تُبادرُها سحا كما انتشر العِقد

رشادك لا يحرنك بين ابن همة
يتوق إلى العلياء ليس له ندُّ

فمن كان حرا فهو للعزم والسُّرى
وللليل من أفعاله والكرى عبدُ

وليلٍ كأن الصبح في أخرياته
حُشاشةُ نصل ضمَ إفرنده غمْد(٩)

تسَرْبلْتُهُ والذئبُ وسنانُ هاجع
بعين ابن ليل ماله بالكرى عهدُ(١٠)

أثير القطا الكدري عن جثماته
وتألَفُني فيه الثعالبُ والرُّبدُ(١١)

وأطلس ملء العين يحملُ زَوْرهُ
وأضلاعهُ مَن جانبيه شوى نهدُ(١٢)

له ذَنَبٌ مثل الرِّشاء يجرُّهُ
ومتنٌ كمتْن القوس أعوج منأدُ(١٣)

---

١- وشيكا: سريعا.

٢- العامرية: نسبة إلى قبيلة بني عامر وفيهم ليلى العامرية. اللوى: ما التوى من الرمل. الأنواء جمع نوء وهي (النجم والمطر) ومعناه سقوط نجم وطلوع آخر وكان العرب في الجاهلية يقولون إذا سقط نجم وطلع آخر لا بد من أن يكون عند ذلك المطر.

٣- الرسيس: الحرقة وثباتها. اللّوى والصريمة والحمى: أسماء مواضع في بلاد نجد.

٤- البطحاء: مسيل واسع فيه رمل وحصى. الغوير: ماء لبنى كلب، السواجير: نهر مشهور في منبج بالشام.

٥- بنو الضحاك: قوم الحسن بن رجاء بن أبي الضحاك. الأفعوان: ذكر الأفعى. الصل: الداهية من الحيات. الضيغم: الأسد. الورد: الشجاع الجريء.

٦- الخرق من الفتيان: الظريف في سماحة ونجدة.

٧- الأعلام: الأعالي والجبال. وهد: منخفضة. أجأ: أحد جبلى طيء.

٨- العضب: القاطع، وهو وصف لسيفه. النجاد: حمائل السيف.

٩- افرند السيف: جوهره ووشيه. ويقصد بحشاشة نصل: بقيته.

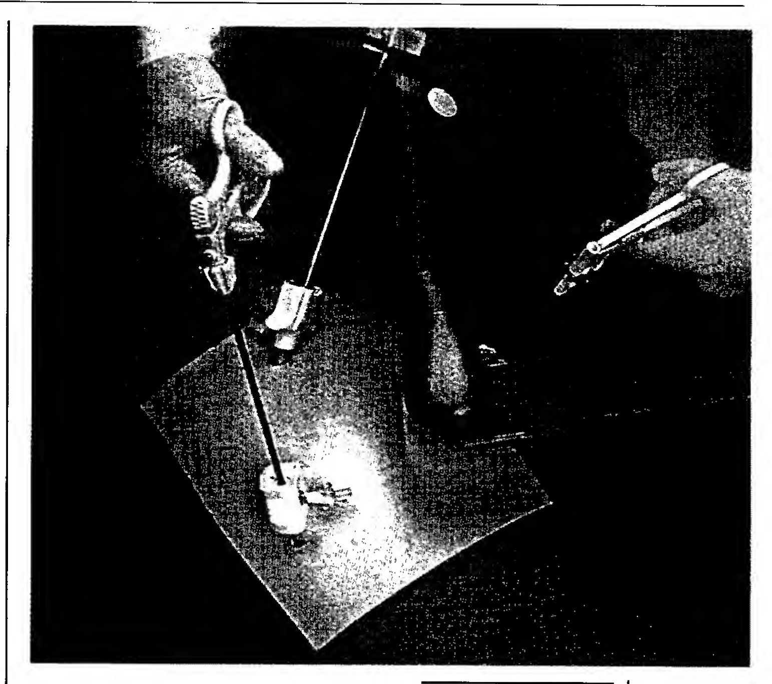
١٠- ابن الليل: اللص الفاتك وقاطع الطريق والكثير السفر.

١١- القطا: جمع القطاة، طائر يشبه الحمام. الكدري: المائل إلى السواد والغبرة. جثماته: مراقده، الربد: جمع أربد، وهو الأسد، وحية خبيثة، والأسود المنقط بحمرة.

١٢- أطلس: أي أغبر إلى سواد يصف لون الذئب. الزور: أعلى وسط الصدر أو ملتقى عظام الصدر. الشوى: اليدان والرجلان والأطراف، أي ما كان غير مقتل من الأعضاء، نهد: بارز، ناتىء: مرتفع.

١٣- الرشاء: الحبل. المتن: الظهر. المنأد: المعوج.

من شهر إلى شهر



إيسوب بين يدي الجراح.. أول صورة تنشر لروبرت في حجرة جراحة.

طب

# إيسوب.. روبوت في حجرة الجراحة

○ إيسوب.. كلمة مركبة من حروف تختصر اسماً طويلاً، ترجمته: (نظام المنظار الباطني الآلي من أجل أفضل تشغيل)!

إن لإيسوب وقع أسماء أبطال الخرافات الشعبية وحكايات الأطفال الباهرة، وهو - كروبوت - يثير الدهشة فعلاً، فما الذي يمكن أن تفعله آلة ذكية داخل حجرة الجراحة؟ إن إيسوب - المتواضع - لا يطمع في احتلال موقع الجرَّاح - ليس بعد! - فهو لم يتعلم كيف يشق العضلات والعظام، ولكن الوظيفة التي صمم ليقوم بها هي حمل جهاز مركّب من آلة تصوير ومصدر ضوئى، وهي وظيفة كان يؤديها آدمي، فجاء إيسوب ليوفر فرداً من طاقم حجرة الجراحة. إنه بمكانة يد ثالثة للجراح في بعض جراحات البطن الحديثة نسبياً، وفيها يكتفي الجراح بعمل ثلاثة شقوق صغيرة، بدلاً من فتح البطن، اثنان منها لدخول وخروج أدوات الجراحة، أما الثالث، فمن أجل إيسوب: الكاميرا الدقيقة ومصدر الضوء، ليتاح للجراح أن يرى بوضوح حركة أدواته داخل البطن المغلقة.

إن إيسوب لم ينشر بعد في معظم حجرات الجراحة، ربما بسبب ارتفاع ثمنه (٢٠ ألف دولار أمريكي)، ولا يزال الجراحون يعتمدون على الفنيين في تشغيل نظام الإضاءة والرؤية داخل بطن المريض، وهم يقابلون بعض الصعوبات في ذلك، وقد تنشأ حالة ارتباك عندما يعجز الفني العامل على ذلك النظام عن الاستجابة الدقيقة لتوجيهات الجراح. هنا، تبرز قيمة إيسوب، فهو سريع الاستجابة، ولا يخطىء، إنه تحت السيطرة الكاملة لإرادة الجراح!. بالإضافة إلى ذلك، ثبت أن إيسوب يخفض الوقت الذي تستغرقه العملية الجراحية بواقع ٢٠ دقيقة، ويمكن ترجمة ذلك إلى خفض في تكاليف الجراحة. بقي أن نذكر أن صاحب فكرة إيسوب هو جراح أمريكي من جامعة كاليفورنيا، وقد نفذها بالتعاون

مع إحدى شركات الحاسوب الأمريكية، وأجازت استخدامه هيئة الرقابة على الطعام والعقاقير الأمريكية، وثمة تطلعات لإنتاج نماذج مختلفة من إيسوب تصلح للمعاونة في جراحات الأذن والأنف والحنجرة، وفي حالات العلاج بالإشعاع.

بيئة

# اتفاقية سلام المرجان



المرجان الرخو، تخطى عقبة المنافسة على الغذاء مع المرجان الصلب فعاشا معاً في سلام!

اتفاقية سلام حيوي تم الكشف عنها أخيراً بين نوعين مختلفين من المرجان. والمرجان كائن حي عجيب.. حيوان يأخذ ـ في الغالب ـ مظهر النبات. يعيش مثبتاً إلى القاع وسطح الأشياء. يتغذى على الحيوانات البحرية الدقيقة، ويعتمد ـ في الوقت نفسه ـ على عملية البناء الضوئي في الحصول على قدر من السكريات، وإن كان هو نفسه لا يقوم بتلك العملية، وإنما (يفعلها) من أجله أنواع من الطحالب الدقيقة يحتويها داخل بنيانه، ويوفر لها مساحة كبيرة من الإضاءة بأشعة الشمس، كما يجلب لها الأملاح المغذية.

وتنتمي المراجين ـ ومعها شقائق وقناديل البحر أو الأسماك الهلامية ـ إلى طائفة من الحيوانات تسمى اللواسع.. فهي تمتلك لوامس لاسعة تستخدمها في شل حركة فرائسها الضئيلة قبل التهامها. وقد استقر لدى دارسي البيولوجيا البحرية أن كل المراجين آكلات لحوم، حتى جاءت الباحثة الألمانية كاثارينا فابريشيوس لتكسر هذه القاعدة الراسخة. لقد اكتشفت نوعاً من المراجين الرخوة، لا يبني شعاباً، ويزدهر نموه فوق الشعاب التي تشيدها الأنواع الصلبة من المرجان في شمال البحر الأحمر، واسمه العلمي (دندرونيفثيا هيمبريش). وقد توقفت الباحثة أمام هذا المرجان الرخو طويلاً.. فالمعروف عنه أنه لا يصادق أي نوع من الطحالب المنتجة للسكر، كما أن لوامسه أقل فعالية من لوامس المرجان الصلب، فكيف يوفر لنفسه سبل العيش؟

وكان على الباحثة أن تحتضن المرجان دندرونيفثيا، وتوفر له مكاناً مناسباً في مختبرها، لتراقبه عن قرب، فاكتشفت أنه يستخدم لوامسه في القبض على الحيوانات الهائمة الدقيقة (البلانكتون الحيواني)، ولكن دون أن يصيبها بالشلل، فلا تلبث أن تتسلل هاربة. وازدادت حيرة الباحثة، فاتجهت إلى فحص جوف المرجان، وفوجئت به

ممتلئا بالطحالب وحيدة الخلية! لقد فشل المرجان في أن يسلك كبقية أفراد عائلته: آكلاً للحوم، فكان عليه أن يرضى بالطحالب الدقيقة، لا ليتعايش معها - في مقابل بعض من سكرها - ولكن كغذاء دائم له. ويبدو كما لو أن ذلك المرجان الرخو البسيط قد (درس) الموقف جيدا.. فكل أفراد عائلته من المراجين الصلبة لا ترضى ببديل عن البلانكتون الحيواني كغذاء لها.. لا منافسة - إذن - على البلانكتون النباتي (الطحالب الدقيقة) الموجودة بوفرة في المياه المحيطة به. وتقول الباحثة: لعل ذلك يفسر سر الازدهار والتعايش السلمي لكل من الأنواع الصلبة والرخوة من المرجان.. لقد اقتسما الغذاء!



قطعة من معروضات قسم الكهرمان بالمتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي

## علوم

# الكهرمان.. نافذة على الماضي السحيق!

○ فتتح المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي بنيويورك هذا العام قسماً جديداً يحمل عنوان: (الكهرمان، نافذة على الماضي السحيق!)، نجح في منافسة الأقسام الأخرى، وجذب رواد المتحف إلى معروضاته العجيبة والنادرة التي تم جمعها من مختلف أنحاء العالم.

والكهرمان هو أحافير من مادة الراتينج، أفرزتها أجسام الأشجار منذ ملايين السنين، وظلت لزمن طويل، وقبل أن يعرف الإنسان اختراع البطاريات، أفضل الطرق للحصول على الكهرباء الساكنة، حتى أن العرب واليونان نحتوا لهذه المادة اسمين يدلان على ارتباطها الوثيق بالكهرباء: (الكهرمان) بالعربية، و (الإلكترون) في اليونانية القديمة.

وقد اكتسب الكهرمان - حديثاً - قيمة علمية كبيرة بصفته (مصيدة)، إذ إن المادة الراتينجية اللزجة السائلة من قلف الأشجار في العصور الجيولوجية القديمة كانت تكتسح في طريقها الحشرات الزاحفة المتسلقة وبعض الأزهار وبذور وفتات النباتات، فإذا تجمدت تلك المادة، بقيت المادة الحية، على هيئتها وقت اصطيادها -

داخلها، كفقاعة. وبهذه الطريقة، وفر الكهرمان للعلماء في العصر الحديث مئات الأنواع من حشرات العصور القديمة، محفوظة جيداً، ومتاحة للدراسات التصنيفية والبيئية، وأيضاً لكتاب الخيال العلمي. وقد سمح بعض هؤلاء الكتاب لخيالهم بأن ينطلق إلى أبعد الحدود، مأخوذين بقيمة الكهرمان كمادة وسيطة نقلت إلينا جانباً من صور الحياة على الأرض في العصور الجيولوجية البعيدة. كما في قصة الفيلم الشهير «الحديقة الجوراسية»، حيث يتخيل المؤلف أن بعض نماذج من الحشرات الماصة للدماء في العصر الجوراسي قد استخلصت سليمة من بللورات الكهرمان، وأن علماء الوراثة في أيامنا هذه قد توصلوا عن طريقها إلى تركيب حمض الـ (د. ن. أ) حامل الشفرات الوراثية لعدد من الكائنات الحية التي سادت في ذلك العصر، والتي كانت تلك الحشرات تتغذى على دمائها، وبينها للديناصور. وقد تمكن هؤلاء العلماء من تصور الهيئة العامة للديناصور بعد أن فضوا أسرار شفرته الوراثية. وهذه حكاية مغرقة في الخيال، إذ إن ذلك الحمض النووي على درجة من الهشاشة يستحيل معها تخيله عبر مصاصي دماء الديناصورات، وفي حمى الكهرمان، ليبقى سليماً إلى وقتنا هذا، يدلنا على أسرار كروموسومات الديناصورات، ومن ثم، نستطيع رسم صورتها.

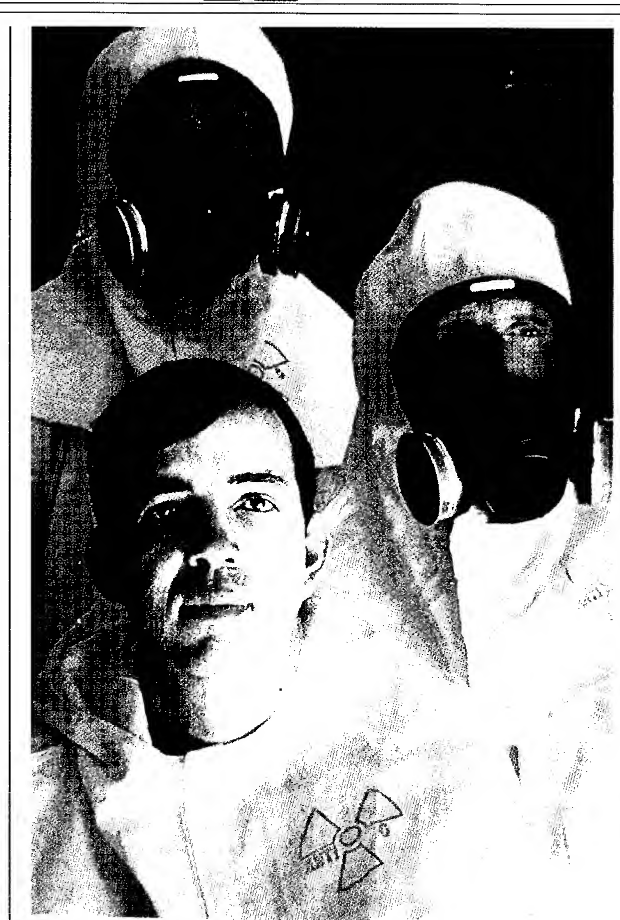
نعود إلى المتحف ومعروضاته المائتين من قطع الكهرمان الفريدة، التي يسجن بعضها عدداً من الكائنات الحية عاشت في الأزمنة السحيقة، مثل أنواع من النمل والضفادع والعقارب والأزهار الكاملة والبذور. بالإضافة إلى ذلك، فثمة قطع من مقتنيات المعرض تشير إلى قيمته الفنية والثقافية التي اكتسبها عبر العصور، فقد تعامل معه الإنسان منذ العصر الحجري، وصنع منه أشكالاً رمزية، كما جرى استخدامه كعملات نقدية. وقد راجت تجارة الكهرمان قبل ألفي سنة من الزمان، وكان ينقل من منطقة البلطيق، عبر أوربا، إلى بلدان البحر المتوسط.

تقنية

## إبطال مفعول قنابل نووية

○ تنفق هيئة الطاقة الأمريكية ٧٠ مليون دولار سنوياً على أعمال تأمين المجتمع الأمريكي ضد احتمالات استخدام الإرهابيين والمخربين لأسلحة ومواد نووية، وأبرز أنشطتها في هذا المجال تكوين فريق الطوارىء النووية، ومهمته تلبية أي بلاغ عن وجود خطر نووي إرهابي في أي مكان بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد تكون ذلك الفريق في عام ١٩٩٥، بعد أن هدد أحد المختلين عقلياً. بتفجير مدينة بوسطن بسلاح نووي يملكه، ما لم يحصل على مائتي ألف دولار!. ومنذ تكوينه، تلقى الفريق ١١٠ بلاغات بتهديد نووي، ثبت عدم جديتها كلها. غير أن الفريق ـ خلال تأمينه لبعض البلاغات ـ كشف عن بعض القنابل التقليدية. وفي إحدى المرات، اكتشف أفراد الفريق في كارولينا الشمالية مواد مشعة كان أحد العاملين بمؤسسة نووية أمريكية قد سرقها وهدد بنشرها في المدينة ما لم تتحقق بعض مطالبه.



أفراد من فريق الطوارىء النووية الأمريكي في ملابس العمل.

إن احتمالات لجوء الجماعات الإرهابية - والأفراد - في الولايات المتحدة الأمريكية إلى استخدام المواد النووية في تزايد، بل لقد تحقق ذلك في قصص الخيال العلمي وأفلام الإثارة، ويراه البعض وشيكا، بعد أن تزايدت حدة النشاط الإرهابي في الداخل والخارج، والدلائل التي تشير إلى تطور أفكار الإرهابيين ووسائلهم المخربة. ويجب ألا نغفل عن الجاذبية الشديدة للمواد النووية لدى الإرهابيين الذين يسعون إلى زعزعة استقرار المجتمع وتحقيق أهداف سياسية، فإن سحابة نووية ناتجة عن انفجار نووي محدود تكون أشد وقعاً من السيارات المفخخة.

وليس في ذلك أي درجة من التهويل، فقد ثبت أن طلاب المدارس الثانوية (خبراء) في تكنولوجيا السلاح النووي. وبالرغم من تعقد عملية صنع هذا السلاح، فإنه ممكن نظرياً، مع توافر التمويل. وتزداد احتمالات تمكن الإرهابيين من الحصول على مواد أو أسلحة نووية إذا علمنا أنه، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، ضعف نظام السيطرة والتحكم في حركة المواد المشعة مثل اليورانيوم والبلوتونيوم، فإذا تمكن (أحدهم) من شراء ٢٥ كجم - فقط - من اليورانيوم المخصب، فإن ذلك كفيل بأن يحيل تراب قلب مدينة كبيرة كنيوأورليانز إلى مصدر إشعاعي نشيط. ويعترف رجال المخابرات الأمريكية بأن تهريب (جهاز) نووي إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن يتم بنفس السهولة التي يتمكن بها مهربو المخدرات من تهريب كل هذه الأحمال الضخمة من الكوكايين، بالرغم من جهود المراقبة والمطاردة!

ويتكون فريق الطوارىء النووية الأمريكي من ألف رجل وسيدة، بينهم عدد كبير من العلماء الذين أسهموا في بناء الترسانة النووية الأمريكية، ينقسمون إلى مجموعات متخصصة، منها مجموعة تعرف السلاح النووي والتحقق من فعاليته،

ومجموعة التعطيل، ولها وسائلها الخاصة لإفساد عملية تفجير السلاح النووي في حوزة الإرهابي، وبينها مدفع عيار ٣٠مم، تم تصميمه لنسف القنابل وتحويلها إلى شظايا غير مؤذية. ولديهم وسيلة أخرى لإفساد السلاح النووي بإغراقه في النيتروجين السائل، فتتجمد دوائره الإلكترونية. فإذا كان التهديد بقنبلة تقليدية تنفجر فتنشر المواد المشعة، فإنه يواجه باستخدام خيمة من النايلون قطرها ١٥ متراً، تنصب فوق موقع القنبلة، ويضخ بها ٣ آلاف قدم مكعبة من محلول رغوي كثيف، فإذا انفجرت القنبلة مزقت الخيمة، ولكن الرغوة الكثيفة تمسك بالمواد المشعة وتقلل مساحة انتشارها.

فـن

# لوحات بالديناميت!

○ يحكى عن الفنان العالمي الشهير (سلفادور دالي) أنه لجأ إلى تفجير قنبلة محشوة بالمسامير في مواجهة لوح من النحاس، فحصل على تكوين فني عشوائي رائع!. ويقال أيضا إن عدداً آخر من الفنانين استخدموا أسلوب التفجير لإنتاج (أعمال فنية) غير مقصودة. ولم يفكر أحد في طريقة (لترويض) هذا الأسلوب التفجيري في النحت على المعادن، حتى جاءت النحاتة الأمريكية (إيفلين روزنبرج) التي تعمل بمعهد نيومكسيكو للتعدين والتكنولوجيا، وقررت أن تسخر طاقة التفجير في إنتاج أعمال فنية محددة التفاصيل مسبقاً، من النحاس والصلب. وبعد أكثر من ٨٠ محاولة، استطاعت (الفنانة) أن تضبط الظروف والعوامل المناسبة لينجح التفجير في إنتاج ما تريده من ملامح في اللوحة، فلا يكون شديداً. بحيث يمزقها ويطيح بها. ومن هذه العوامل، سمك اللوحة المعدنية الخام، وكمية الطاقة اللازمة




(قوى وإيحاءات).. عنوان هذه اللوحة التفجيرية!

لإنجاز (الرسومات التفجيرية). وتفخر النحاتة روز نبرج بأعمالها السبعين التي أنتجتها بالطريقة التي توصلت إليها، ومنها سبعة أعمال يقتنيها متحف نيو مكسيكو للتاريخ الطبيعي.

ولمن يريد تجريب طريقتها، تروي الفنانة تفاصيل عمل لوحاتها، فهي تبدأ بإعداد قالب من الجبس تحفر عليه تفاصيل اللوحة التي تريد للتفجير أن يصنعها، ثم تغطي هذا القالب بلوح من النحاس أو الصلب، وتلصق باللوح المعدني قطعاً من الرقائق المعدنية الملونة، وأحياناً رقعاً من الملابس المهملة وقطعاً من السلاسل والأسلاك المعدنية، ثم تلجأ إلى أحد المساعدين ذوي الخبرة في التعامل مع المفرقعات، فيغطي اللوح المعدني بطبقة من مادة بلاستيكية متفجرة.

وينتج عن الانفجار كرة من النيران يصل طولها إلى ٢٠ قدماً، ويؤدي الانفجار إلى اصطدام اللوح المعدني بالقالب الجبس بشدة، وينتج عن ذلك انتقال خطوط تفاصيل اللوحة المنحوتة مسبقاً على الجبس إلى سطح المعدن، قبل أن يتفتت القالب تماماً من شدة الانفجار. كما أن قوة الضغط الهائلة التي يولدها الانفجار، مع الحرارة، تغطيان تفاصيل اللوحة بالرقائق المعدنية الملونة، كما تترك السلاسل والأسلاك وقطع القماش آثارها في اللوحة بتأثير القوة الدافعة للانفجار، ثم لا تلبث الأشياء القابلة للاحتراق أن تتلاشى في كرة النيران. وفي النهاية، تقوم الفنانة بوضع اللمسات النهائية لعملها، فتنظف اللوحة من آثار التفجير، وتلمعها، لتأخذ مكانها اللائق في المعرض القادم!

## لمحات سريعة

### مؤتمر علمي

# الكوارث الطبيعية في المحيط الهادي

● يتزايد اهتمام العالم بالدراسات المتعلقة بالكوارث الطبيعية وكيفية مواجهتها والتخفيف من آثارها المدمرة. وثمة مؤتمرات علمية عديدة تعقدها هيئات ومؤسسات علمية عالمية، ومنها المؤتمر الذي يعقد بمدينة فانكوفر الكندية في الفترة من ٢٩ يوليو إلى ٢ أغسطس ١٩٩٦، وتنظمه جامعة كولومبيا البريطانية، ويدور حول عنوان رئيسي هو: الكوارث الطبيعية حول منطقة المحيط الهادي. وتكاد المراحل النهائية للإعداد لهذا المؤتمر أن تنتهي، فقد تأكد مشاركة أكثر من خمسين عالماً بارزاً في مختلف المجالات، كما تم قبول أكثر من أربعمائة بحث وورقة علمية، وأعدت مختصراتها، وسوف تكون متاحة للاطلاع عليها عبر شبكة معلومات عالمية، ابتداء من



دعوة المؤتمر علمي حول «الكوارث» الطبيعية. تتضمن منافع للمشاركين والمنظمين

أول مارس ١٩٩٦، وقبل بداية المؤتمر. بقيت إشارة إلى أن العنوان الكامل للمؤتمر يشمل أيضاً (معرضا تجاريا). . إذ يتضمن برنامج المؤتمر جولات سياحية وأنشطة تجارية لمن يحب من المشاركين. . فلم تعد المؤتمرات العلمية مقصورة على إلقاء الأبحاث ومناقشتها، فهناك مصادر للمتعة توفرها الهيئات المنظمة للمشاركين. . للسياحة، وأيضاً للتجارة!

## جوائز

● أعلنت نتيجة جائزة أبحاث ودراسات آثار العدوان العراقي على دولة الكويت لعام ١٩٩٥م والتي اعتمدها مجلس إدارة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي وقد فاز بها:

١ ـ في مجال العلوم البيئية الأستاذ الدكتور سمير رضوان (الجنسية: مصري) والسيد الدكتور ناصر عبد العزيز صرخوه (الجنسية: كويتي) ويعملان بقسم النبات والميكروبيولوجيا بكلية العلوم بجامعة الكويت، وذلك عن مجموعة أبحاث عن موضوع «دور الطحالب الخضراء المزرقة في تحليل النفط واستعادة صحة البيئة».

٢ ـ في مجال القصة والرواية: السيدة عفاف عوض ساتي (الجنسية: سودانية) والسيدة جون نيوباور (الجنسية: أمريكية)، وذلك عن كتابهما «A Cry in the Desert صرخة في الصحراء». كما حجبت الجائزة في مجالات العلوم الاقتصادية والعلوم التاريخية والعلوم الاجتماعية والنفسية.




احتفال توزيع جوائز دار سعاد الصباح في دمشق.

● برعاية الدكتور علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب أقامت دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع حفلاً تكريمياً في قاعة الأمويين بفندق الشام بدمشق للشبان السوريين الفائزين بجوائز الإبداع العلمي والفكري حضره سفراء دولة الكويت، والمملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، وعدد من الكتاب الصحفيين والشعراء، وجمهور من المهتمين بالشئون العلمية والإبداع الفكري.

## آفاق علمية

● لاتزال مجلة «آفاق العلم والمجتمع» التي صدرت في البحرين في أغسطس ١٩٩٥ تواصل مسيرتها المتميزة بشكلها الراقي المنجز بأتمتة كاملة، ومحتواها الذي يجعل منها ناقلاً عربياً جذاباً لآخر منجزات العلوم والتقنية من منظور مجتمعي وإنساني. تصدر المجلة عن دار آفاق للنشر بالمنامة ويرأس تحريرها عبيدلي العبيدلي. ■




غلاف المجلة

طرائف عربية

# فصاحة عربية

## ثأر بنصف بيت

يحكى - والله أعلم - أن شاعراً كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم في طريق إذ خرج عليه عدوه وصرخ في وجهه: أنا قاتلك، لا مفر لك. فلما تأكد الشاعر أنه مقتول لا محالة قال: يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا قتلتني، فامض إلى داري وقف بالباب وقل: ألا أيها البنتان إن أباكما.. فقال القاتل: إليك هذا ثم جز رأسه، وعندما فرغ أتى إلى داره ووقف بالباب وقال: ألا أيها البنتان إن أباكما.. وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل: ألا أيها البنتان إن أباكما.. أجابتاه بفم واحد: قتيلٌ خُذا بالثأر ممن أتاكما.. ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره، فأقر بقتله فنفذ فيه شرع الله.

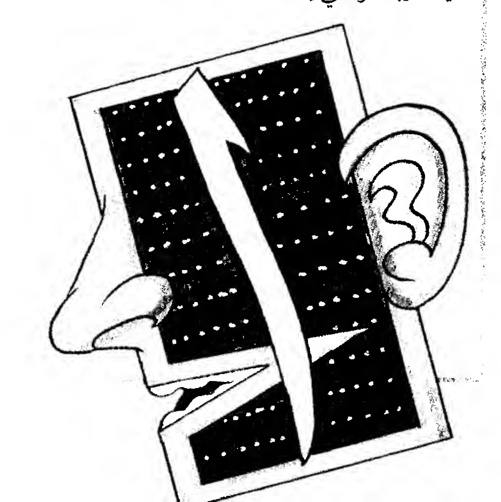
## القحط والغلام

قحطت البادية أيام «هشام» فقدمت عليه العرب. فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم «درواس بن حبيب» وهو ابن ست عشرة سنة، له جدائل وعليه شملتان، وعلى وجهه نجابة. قال «هشام» لحاجبه: حتى الصبيان يدخلون عليّ! فوثب «درواس» حتى وقف بين يديه قائلا: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشرا وطياً، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته. فأعجبه كلامه وقال له: انشره لله درك. فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث. سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدقين. فقال «هشام»: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذرا فأمر للبوادي بمائة ألف دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: مالي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين. فخرج من عنده وهو من أجل القوم.

## أية بلاغة؟!! وأية لغة؟!!

من نوادر البلغاء أن عبد الملك بن مروان قال في مجلسه: من يأتيني بحروف المعجم في بدنه (يقصد الأبجدية)؟. نهض سويد بن غفلة وقال: أنا لها يا أمير المؤمنين قال: هات. فقال (أنف. بطن. ترقوه. ثغر. جمجمة. حلق. خد. دماغ. رقبة. زند. ساق. شفة. صدر. ضلع. طحال. ظهر. عين. غبب. فم. قفا. كف. لسان. منخر. نغنوغ. هامة. وجه. يد).

وهذه آخر حروف المعجم. قام رجل وقال: أنا أقولها مرتين من جسد الإنسان. قال الأمير: أسمعت يا سويدي. قال السويدي: أنا أقولها ثلاثا: قال الأمير: هات ولك ما تتمناه. قال السويدي: أنف، أسنان، أذن، بطن، بنصر، بزة، ترقوة، تمرة، تينة، ثغر، ثنايا، ثدي. جمجمة، جنب، جبهة. حلق، حنك، حاجب. خد، خنصر، خاصرة. دبر، دماغ، درادير. ذقن، ذكر، ذراع. رقبة، رأس، ركب. زند، زردمة، زبيبة. ساق، سرة، سبابة. شفة، شعر، شارب. صدر، صدغ، صلعة. ضلع، ضفيرة، ضرس. طحال، طرة، طف. ظهر، ظفر، ظلم. عين، عنق، عاتق. غبب، غلصمة، غنة. فم، فك، فؤاد. قلب، قفا، قدم. كف، كتف، كعب. لسان، لحية، لوح. منخر، مرفق، منكب. نغنوغ، ناب، نن. هامة، هيئة، هيف. وجه، وجنة، ورك. يمين، يسار، يافوخ. ضحك الأمير وقال: انعموا عليه، وبالغوا في إحسانه.

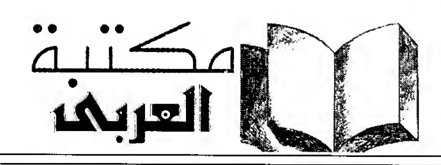


## الصبي فصيح اللسان



لما جاءت الخلافة لخامس الخلفاء «عمر بن عبد العزيز» أتته الوفود مباركة، فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صبي صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال «عمر»: ليتكلم من هو أسن منك (أي أكبر منك عمرا وخبرة)، فإنه أحق بالكلام منك. فقال الصبي: يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق بالأمر منك، قال «عمر» صدقت فتكلم، فقال الصبي: يا أمير المؤمنين إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي منّ علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا، ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له «عمر» رضي الله عنه: عظني يا غلام، فقال: يا أمير المؤمنين إن أناسا غرّهم حلم الله، وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك، وتكون من الذين قال الله فيهم ﴿**ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون**﴾. فنظر «عمر» في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة فأنشدهم «عمر» رضي الله تعالى عنه:

تعلم فليس المرء يولد عالما
وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن كبير القوم لا علم عنده
صغير إذا التفتْ عليه المحافل




■ من المكتبة العربية ■

# البنك الدولي

## دراسة نقدية

تأليف: شيريل بيار

ترجمة: أحمد فؤاد بلبع

عرض: إيناس حسني

البنك الدولي هو أقوى وكالات التنمية الدولية، كما أنه أكبر مؤسسة في مجاله، سواء من حيث ميزانيته الإدارية الضخمة أو كمية الأموال التي تتداول بين يديه، وقد استطاع البنك الوصول بفعاليته إلى ذراها عن طريق التنسيق مع الوكالات الأخرى وإخضاعها لسيطرته، والتركيز على «التمويل المشترك» بإغراء هذه الوكالات بالإسهام بأموالها في مشروعاته.

وقد أكد البنك الدولي، في كل مطبوعاته ودراساته عن الإقراض الموجه لمكافحة الفقر، أنه لا سبيل لمساعدة الفقراء إلا عن طريق المعونة التي تزيد من مستوى إنتاجيتهم، وأن عملية إعادة توزيع الثروة والدخل لا يمكن أن تساعد في تحسين أحوال الفقراء، إلا أن شيريل بيار تعتقد أن «تزايد الإنتاجية ليس حلا لمشكلات العمالة والفقر في المجتمع الرأسمالي الحديث»، فالإنتاجية التي هي عبارة عن كمية السلع التي ينتجها العامل في فترة زمنية، يمكن زيادتها بوسائل مختلفة، مثل أيام عمل أكثر وجهد أكثر من جانب العامل، أو عن طريق تنظيم سير العمل بكفاءة إدارية أعلى، أو بإدخال الآلات الحديثة التي تضاعف نتائج العمل.. إلى آخره.

إخضاع البلاد النامية وإعادة احتوائها وتطويعها لمطالب النمو في المراكز الرأسمالية الصناعية، حتى ولو أدى ذلك إلى فقدانها لاستقلالها الوطني وتزايدت فيها أحوال الركود والبطالة والفقر وتدهورت أحوال المعيشة للغالبية العظمى من سكانها، عبر مشروطية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي.

إن نشر هذا الكتاب باللغة العربية بالتأكيد ساهم في تعميق فهمنا للبنك الدولي من حيث سياساته وشروط قروضه ونتائج أعماله في البلاد النامية وبخاصة في حقبة السبعينيات.

البنك الدولي هو أول بنك من نوعه، إذ تأسس في عام ١٩٤٥، ففي العام المالي ١٩٨١ قدمت عناصره الثلاثة - البنك الدولي للإنشاء والتعمير، المؤسسة الإنمائية الدولية، المؤسسة المالية الدولية - قروضا والتزامات استثمارية تتجاوز ١٣٠ مليار دولار إلى ستة وسبعين بلدا.

وهناك مصدر آخر للتمويل المشترك لمشروعات البنك الدولي هو البنوك التجارية والمؤسسات المالية، ففي عام ١٩٨٠ قدمت مصادر القطاع الخاص ١,٨ مليار دولار في صورة تمويل مشترك لواحد وعشرين من مشروعات البنك.

**هو أقوى وكالات التنمية وأشدها تأثيرا. يقول البعض إنه أفضلها، ويجزم الآخرون أنه أسوؤها.. وهو البنك صاحب السمعة السيئة الأولى في العالم الثالث.**

والبنك الدولي ليس فقط أكبر وأغنى مؤسسة للتمويل الإنمائي في العالم الرأسمالي الغربي، بل هو يعتبر أيضا «أفضل» مؤسساته جميعا، كما أنه النموذج المسيطر الذي تسعى مؤسسات المعونة والتمويل الأخرى إلى محاكاته أو التعاون معه أو الوقوف ضده. ويسخر البنك قوته المالية لتشجيع رأس المال الدولي الخاص، وذلك بطرق شتى منها: العمل كوسيط لتدفق الأموال إلى الخارج، وتقديم مساعدات مباشرة إلى شركات معينة متعددة الجنسيات، والضغط من أجل زيادة الإعفاءات الضريبية للاستثمارات الأجنبية، ورفض إقراض الحكومات التي تؤمم الممتلكات الأجنبية، ومعارضة إقرار حد أدنى للأجور أو ممارسة النشاط النقابي أو تحسين حصة العمال في الدخل القومي، والإصرار على أن يتم الشراء من خلال العطاءات الدولية المفتوحة التي تكون عادة لصالح كبرى الشركات المتعددة الجنسية، ومعارضة الحماية التي تمنح للمشروعات الوطنية.

البنك الدولي للإنشاء والتعمير هو المؤسسة الأصلية لما يعرف الآن بمجموعة البنك الدولي، وقد تأسس في عام ١٩٤٤، وكانت وظيفة البنك الدولي للإنشاء والتعمير هي توفير الاعتمادات الأطول أجلا للاستثمار في المشروعات الإنتاجية.

أول رئيس للبنك هو يوجين مايرز، ولم يمض على توليه منصبه ستة أشهر واستقال ثم جاء جون ماكلوي واستقال ماكلوي من رئاسة البنك في عام ١٩٤٩، ثم يوجين بلاك (١٩٤٩ ـ ١٩٦٣)، جورج وودز (١٩٦٣ ـ ١٩٦٨) ثم روبرت ماكنمارا وهو الرئيس الذي نال أكبر قدر من الشهرة وذيوع الصيت، وخلال أعوام ماكنمارا قرر البنك التوسع في الإقراض لاستخراج الموارد الطبيعية عن طريق توسيع برنامجه المتواضع لتمويل تنمية التنقيب عن المعادن، وتحطيم المحظورات التقليدية التي كانت تحول دون تقديم قروض من أجل إنتاج النفط والغاز، وفيما بعد من أجل التنقيب عنها.

وهناك مستويات عدة يمس فيها نفوذ البنك حياة الفقراء، من بينها المشروعات التي تمولها قروضه، والأرقام التي يقدمها عن عدد الفقراء المستفيدين منها مبالغ فيها، حتى وإن استطاعت قلة منها صعود سلم الثروة، ويعترف البنك بأن تأثير مشروعاته لا يمكن أن يصل إلى أفقر الفقراء، أو التوجه العام للسياسات الوطنية وباستطاعة البنك دائما إجبار الحكومات المقترضة على تنفيذ برامج تقشفية تعد كارثة للفقراء.

مجموعة البنك الدولي تشمل البنك الدولي للإنشاء والتعمير الذي أنشىء في عام ١٩٤٦، والمؤسسة الإنمائية الدولية التي تأسست في عام ١٩٦٠، والمؤسسة المالية الدولية التي ترجع إلى عام ١٩٥٦. فالكيان الأصلي ـ البنك الدولي للإنشاء والتعمير ـ يقدم القروض بشروط تقليدية نسبيا، «ويمتلكه» حملة أسهمه، أي البلدان الأعضاء المائة وتسعة وثلاثون الذين يتمتعون بحقوق في التصويت تتناسب مع ما يمتلكون من أسهم، وقد بلغ مجموع رأس المال المكتتب للبنك الدولي للإنشاء والتعمير قرابة ٣٧ مليار دولار في عام ١٩٨١.

يتولى إدارة البنك من الناحية الرسمية مجلس للمحافظين، وكل دولة عضو لها محافظ في هذا المجلس يكون عادة وزير المالية أو من يشغل منصبا متكافئا في هذه الدولة. ويوجد بالبنك اثنان وعشرون مديرا تنفيذيا يتولى تعيين خمسة منهم الأعضاء الخمسة الذين يمتلكون أكبر عدد من الأسهم (هم الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وألمانيا وفرنسا واليابان)، أما الباقون فينتخبهم الأعضاء الآخرون الأقل شأنا والمديرون التنفيذيون هم الذين يعينون الرئيس أو يعفونه من منصبه. وفي الممارسة كان الرئيس دائما من مواطني الولايات المتحدة، ولذا كان المديرون التنفيذيون يكتفون بالموافقة على مرشح يختاره رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

ولاتزال الولايات المتحدة هي أكبر حملة أسهم البنك الدولي، والمدير التنفيذي الأمريكي ليس مطلق اليد في التصويت على هواه في اجتماعات البنك الدولي، بل

هو خاضع لتعليمات وزير الخزانة ـ الأمريكي الذي يتلقى بدوره المشورة من المجلس الاستشاري القومي بشأن أمور السياسة المرتبطة بصندوق النقد الدولي والبنك الدولي والبنوك الإنمائية الإقليمية التي تكون الولايات المتحدة عضوا فيها، كما أن الولايات المتحدة بوصفها أكبر حامل أسهم في البنك كان باستطاعتها دائما السيطرة على اتجاه الإقراض.

يتوقف استمرار نجاح البنك على عاملين: أولهما ثقة الأسواق المالية التي يقترض البنك منها، وثانيهما استمرار الدعم الذي تقدمه حكومات الدول الأعضاء، وفي مقدمتها الولايات المتحدة.

## قروض البنك

القروض التي يقدمها البنك إلى المشروعات الصغيرة تؤدي إلى زيادة إنتاجية عملها (وهذا كما يبدو هو هدفها الوحيد)، فهذه المشروعات «الصغيرة» تستطيع أن تتفوق على المشروعات الأصغر منها، مثل الإنتاج اليدوي للأحذية والملابس والخيوط القطنية والطوب والدقيق والسكر والبيرة والجلود.. إلخ. وتستطيع أن تتغلب عليها في التنافس على المواد الأولية والأسواق، وعلى ذلك فإن الطلب على اليد العاملة سيستمر في التناقص بالنسبة لمجموع الناتج.

ويمر كل قرض من قروض البنك من خلال سلسلة من ست مراحل يسميها البنك «دورة المشروع»، وهي كما يلي:

١ـ التحديد: اختيار البنك والمقترضين للمشروعات المناسبة التي تدعم استراتيجيات التنمية الوطنية والقطاعية، وتكون عملية مجدية طبقا لمعايير البنك.

٢ـ الإعداد: يقوم البلد المقترض أو الوكالة المقترضة بدراسة المساعدة التقنية والمؤسسية والاقتصادية والمالية المتاحة للإعداد أو التي تكون عونا للمقترض في الحصول على المساعدة من مصادر أخرى. ويتطلب ذلك وقتا، يبلغ ما بين عام وعامين.

٣ـ التقدير: يقوم موظفو البنك باستعراض شامل ومنتظم لجميع جوانب المشروع، وقد يستغرق ذلك ما بين ثلاثة وخمسة أسابيع في الميدان، ويغطي أربعة جوانب رئيسية: تقنية ومؤسسية واقتصادية ومالية، ويجري إعداد تقرير التقدير لدى عودة الموظفين إلى مقر البنك، ويعد هذا التقرير الأساس للمفاوضات مع المقترض.

٤ـ المفاوضات: تشتمل هذه المرحلة على مناقشات مع المقترضين حول التدابير اللازمة لضمان نجاح المشروع، وتدوين الاتفاقات التي يتم التوصل إليها في وثائق القرض. وعندئذ يعرض المشروع على المديرين التنفيذيين للبنك للموافقة عليه، وبعد الموافقة يجري التوقيع على اتفاق القرض، ويكون باستطاعة المشروع أن ينتقل إلى مرحلة التنفيذ.

٥ـ التنفيذ والإشراف: يكون المقترض هو المسئول عن تنفيذ المشروع الذي اتفق عليه مع البنك ويكون البنك هو المسئول عن الإشراف على التنفيذ، من خلال تقارير سير العمل التي يقدمها المقترض والزيارات الميدانية الدورية، ويجري استعراض سنوي لخبرة البنك في الإشراف على جميع المشروعات الجاري تنفيذها، وهو يفيد في التحسين المستمر للسياسات والإجراءات، ويشترط في الإجراءات الخاصة بشراء البضائع للمشروع وبالأشغال الخاصة به أن تتبع المبادىء التوجيهية الرسمية التي يضعها البنك ضمانا للكفاءة والتدبير.

٦ـ التقويم: وتلك هي المرحلة الأخيرة، وهي تعقب آخر دفعة من أموال البنك للمشروع، وتقوم إدارة مستقلة في البنك، هي «إدارة تقويم العمليات»، باستعراض تقرير الإتمام الذي يعده موظفو المشروعات بالبنك، وبإجراء مراجعتها الخاصة للمشروع، ويتم ذلك في أغلب الأحوال بالحصول على المواد في المقر، وإن كان الأمر لا يخلو من رحلات ميدانية إذا دعت الحاجة، ويوفر هذا التقويم البعدي الدروس المستخلصة التي تراعى في الأعمال اللاحقة المتعلقة بالتحديد أو الإعداد أو التقدير.

تعتبر مشروعات البنية الأساسية ـ النقل والاتصالات والطاقة الكهربائية ـ المجالات الرئيسية لقروض البنك، وقد ساد هذه المشروعات نمط الإقراض من الخمسينيات، وحتى بعد التوسع في إقراض الزراعة وما يسمى مشروعات البنية الأساسية الاجتماعية في العقدين الماضيين ظلت ضمن أكبر القطاعات من حيث حجم

الأموال التي يتم إقراضها، وكان الأساس المنطقي لهذا التركيز هو دائما تقديم المعونة إلى الصناعة في القطاع الخاص .

## مشاريع صناعية

من بين المشروعات الصناعية التي مولها البنك مباشرة يتضح من المجاميع التراكمية التي نشرت حتى العام المالي ١٩٨١ أن غالبية القروض وجهت إلى إنتاج الأسمدة والحديد والصلب (٤١ في المائة و١٩ في المائة على التوالي من جميع المشروعات التي مولت تمويلا مباشرا) . وكان التركيز الشديد على إنتاج الأسمدة ملحوظا بدرجة أكبر في الأعوام الأخيرة . ففي العام المالي ١٩٧٩ تم توجيه ٧٠ في المائة من مجموع القروض للمشروعات الصناعية إلى مشروعات الأسمدة، سواء لاستخراج خاماتها أو لتصنيعها .

بنوك التنمية وشركات تمويل التنمية هي مؤسسات ترمي إلى توفير التمويل المتوسط والطويل الأجل للمشروعات




غلاف الكتاب

التنمية، وفي مقدمتها قطاع الصناعات التحويلية، ومن سمات بنوك التنمية أنها تمثل تماما مبدأ الدعم والتمويل الحكوميين لمؤسسات القطاع الخاص .

وجاء في إحدى نشرات البنك الدولي أن الحكومة تسيطر على ١٥ في المائة من تمويل أفغانستان للتنمية الصناعية .

وحتى عام ١٩٧٢ كانت موارد بنك إيران من العملات الأجنبية تأتي كلها تقريبا من البنك الدولي، ولكن أدخل في ذلك العام تعديل تشريعي سمح للحكومة الإيرانية بأن تضمن عمليات الاقتراض من البنوك التجارية الأجنبية، وقد تم آخر قرض من البنك الدولي لبنك إيران في عام ١٩٧٤، عندما أصبح في مقدور إيران، بفضل الارتفاع في سعر النفط، الاستغناء عن المعونة المالية التي يقدمها البنك الدولي .

إن بنك ساحل العاج للتنمية الصناعية هو دون شك أكثر مؤسسات تمويل التنمية كفاءة في إفريقيا المتحدثة بالفرنسية جنوبي الصحراء الكبرى . . وشركات تمويل التنمية التي يرعاها البنك الدولي لا تمول التنمية الوطنية، وإنما تمول التغلغل الأجنبي في الأراضي الوطنية .

أصبح البنك في الأعوام الأخيرة أكثر عدوانية في الضغط من أجل إعادة تشكيل الصناعة في بعض البلدان المقترضة، والإدارة المستخدمة لإعادة تشكيل الهياكل هذه هي الإقراض من أجل التكييف الهيكلي الذي لم يبدأ إلا في باكورة عام ١٩٨٠، وذلك أن قروض التكييف الهيكلي إنما هي قروض للبرامج : عمليات حقن سريعة لمسحوبات من ائتمانات غير مقيدة يمكن استخدامها وقد قدم البنك بطبيعة الحال، قبل عام ١٩٨٢، عددا من «قروض البرامج» الصحيحة منها والمقنعة .

على الرغم من أن الإقراض للتكييف الهيكلي يعتبر شكلا جديدا من أشكال المساعدة التي يقدمها البنك، فإن هذه المساعدة هي تطور طبيعي في برنامج المساعدة التقليدي الذي كان دائما ومازال جزءا من عمليات الإقراض التي يقوم بها البنك .

وتعتبر قروض التكييف الهيكلي من حيث الجوهر

محاولة للجمع بين كميات كبيرة من المعونة غير المقيدة التي ستكون هناك حاجة ماسة إليها في أزمات الديون التي تلوح في الأفق في الثمانينيات، مع درجة لم يسبق لها مثيل من التدخل في صياغة سياسات القطاعات الصناعية، ونظرا لأن هذه القروض يمكن سحبها بسرعة أكبر كثيرا من سرعة سحب القروض العادية للمشروعات، فإنه يمكن المحافظة على قدرة البنك على التحكم في ذلك البلد.

كان البنك الدولي في الفترة قبل عام ١٩٧٣ يجمع بين رفض تمويل عمليات التنقيب والإنتاج المحلية، وبين التشجيع المنتظم للتوسع في استخدام النفط المستورد، بعد الزيادات المتهورة في أسعار النفط في أعقاب عام ١٩٧٣، شرع البنك في إعادة تقويم داخلية لرفضه الإقراض في قطاع النفط.

وقد أعلن البنك رسميا سياسته الجديدة في تقديم القروض لإنتاج النفط والغاز في يوليو ١٩٧٧، بعد وقت قصير من بيان اجتماع «القمة الاقتصادية» الذي عقد في لندن في مايو، وحضره رؤساء حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية وفرنسا وإيطاليا واليابان وكندا.

## للاستهلاك لا للاكتشاف

وعندما أعلن البنك اتجاه سياسته الجديدة أكد بوجه خاص نقطتين، كانت أولاهما أن البنك لن يمول إلا جزءا صغيرا من الاحتياجات المالية للقطاع.

وكانت النقطة المهمة الأخرى هي أن البنك يخطط لأن يمول أساسا إنتاج النفط والغاز، بدلا من التنقيب، ودور البنك في هذا المجال سيكون ضئيلا، عند أدنى حد، وفقط في حالات خاصة: للاستطلاع الجيولوجي والجيوكيميائي والجيوفيزيائي، وللتقدير الأفضل للاكتشافات الواعدة.

وفي الستينيات كان البنك الدولي قد رفض التماسات الهند لتمويل التنقيب عن النفط، وفي بداية السبعينيات قامت اللجنة الهندية للنفط والغاز الطبيعي، من جانبها وحدها باستخدام تكنولوجيتها الخاصة في أعمال التنقيب في المناطق المغمورة، وتمكنت من اكتشاف حقول أعالي بومباي الغنية للغاية، وقدم البنك الدولي قرضين لتنمية هذه الحقول، كان أحدهما - وهو الأول من نوعه - في عام ١٩٧٧، والثاني قرض مقداره ٤٠٠ مليون دولار في ديسمبر ١٩٨٠، وقد تزامن القرض الثاني مع انقلاب في السياسة.

كان الإقراض الذي يستهدف على وجه التحديد التنمية الزراعية يحتل مكانا هامشيا في برنامج البنك خلال أعوامه الخمسة عشر الأولى. فعلى امتداد الأعوام ١٩٤٨ إلى ١٩٦٣ لم يتجاوز إقراض البنك للزراعة ٦٢٨ مليون دولار، أي ٨,٥ في المائة من مجموع إقراضه، وقد ذهب الجانب الأكبر من هذه الأموال للسدود وشبكات الري.

في عام ١٩٦٣ قرر البنك الدولي، بتشجيع من الولايات المتحدة، زيادة دعمه للزراعة وتنويع إقراضه، بحيث يشمل الخدمات التقنية وتشييد الطرق وصناعات التجهيز والتخزين والتسويق وصيد الأسماك، وقرب نهاية الستينيات كانت حصة الزراعة في مجموع الإقراض قد ارتفعت إلى قرابة ١٩ في المائة.

وفي عام ١٩٦٤ بدأت المؤسسة المالية الدولية تمويل مشروعات القطاع الخاص في حيازة أسهم في شركات مملوكة للقطاع الخاص، ومن بينها مشروعات الصناعات الزراعية. وفي الفترة ما بين عامي ١٩٦٤ و ١٩٧٦ التزمت المؤسسة المالية الدولية بمبلغ ٤٦ مليون دولار في شكل قروض ورأسمال سهمي في «مؤسسات كبيرة وتتخذ بوجه عام شكل الشركات وتقوم بإنتاج أو تجهيز المنتجات الزراعية للاستهلاك المحلي أو للتصدير».

الإقراض لعمليات تربية الماشية مازال أهم نوع في النشاط الائتماني. وكانت قروض تربية الماشية تشكل ما يقرب من ثلث مشروعات البنك الائتمانية في ذلك الوقت.

إن البنك الدولي، بتشجيعه للزراعة التجارية وإدماج المزارع الصغيرة في السوق العالمية إنما يتبع خطى الحكومات الاستعمارية التي رسمت مجموعة منوعة من السياسات لإلزام مستعمراتها بتحمل تكاليف حكمها الاستعماري. ففي إفريقيا، على سبيل المثال،

سعت تلك الحكومات إلى جذب الفلاحين إلى الزراعة التجارية منذ بداية الحكم الاستعماري. ويقوم البنك الدولي بتمويل مشروعات تشييد السدود مثل مشروعات كاريبا للطاقة الأيدروليكية، الذي موله البنك الدولي بادىء الأمر في عام ١٩٥٦، وهو أكبر قرض لمشروع واحد في ذلك الوقت، وكذلك مشروع نهر فولتا في غانا، والفكرة الأساسية في مشروع نهر فولتا هي تسخير طاقة هذا النهر لتوفير الطاقة اللازمة لمصهر يقوم بتجهيز خامات البوكسيت المحلية، وترجع هذه الفكرة إلى عام ١٩١٥. عندما كانت أراضي ساحل العاج تحت الحكم البريطاني.

كان البنك الدولي في البداية مترددا في مساندة اتفاق استغلالي سافر إلى هذا الحد، ولكنه في مواجهة النفوذ السوفييتي المتزايد في غانا وربما رغبة منه في مساندة السياسة الخارجية للولايات المتحدة، تراجع في نهاية الأمر ووافق على دعم المشروع.

وقد نص البنك الدولي، في اتفاقه الخاص بقرض مشروع نهر فولتا، على أن يكون السعر الذي تحدده الهيئة لكهربائها كافيا لتغطية التشغيل واستهلاك الأصول.

حاول البنك أن يتمسك بمطالبة المستفيدين من مشروعات الري بسداد تكاليفها، سواء عن طريق فرض رسوم مباشرة على المياه أو فرض ضرائب على الأرض تستأثر بجزء من الزيادة في الإنتاجية. ولكن البنك كان في الممارسة يضطر عادة إلى أن يقنع بأن تغطي الرسوم على الأقل مصاريف التشغيل والصيانة، وإن كان يفضل أيضا أن تشمل مقابل استهلاك التكاليف الرأسمالية.

وقد تعرض البنك الدولي للنقد من جانب كثيرين من المراقبين ذوي التفكير العميق في ميدان موارد المياه لكونه لا يمول إلا المشروعات الضخمة والمعقدة تقنيا والباهظة التكلفة، متجاهلا الأشغال الصغيرة القليلة التكلفة والكثيفة الاستخدام للأيدي العاملة والتي تتولى الأيدي العاملة المحلية تشييدها وصيانتها.

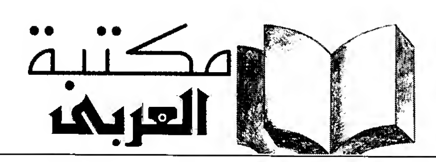
قدم البنك خمسة عشر قرضا منذ عام ١٩٦٨ يبلغ مجموعها ٦,٧٣٢ مليون دولار لإعادة تأهيل شبكات الري القائمة، التي شيدتها في الأصل الحكومة الاستعمارية الهولندية. وتختلف الترتيبات المالية لمشروعات البنك الدولي اختلافا شديدا، فتكاليف المياه وغيرها من المرافق تتم استعادتها في بعض الأحيان من خلال الرسوم التي تفرض على المستفيدين، ولكنها كثيرا ما تضاف إلى الرسوم الأخرى وتدرج في مدفوعات المشروع الإيجارية، وهكذا يفترض البنك أن سكانه المستهدفين يستطيعون أن يتحملوا تكاليف الخدمات التي يمولها.

## أبواب مفتوحة

وتكمن مصالح البنك الدولي في الإبقاء على البلدان المقترضة مفتوحة الأبواب أمام الاستثمار الأجنبي، وفي أن تظل الأحوال داخل تلك البلدان جذابة للمستثمرين الأجانب، والهدف المعلن للبنك كما يرد في كتيبات العلاقات العامة والنشرات الصحفية، هو الحرص على تحسين حياة الفقراء، أما مقاصده الحقيقية التي تمليها البيروقراطية تحت قيادة الدول المسيطرة فهي الإبقاء على أراضي البلدان المقترضة مفتوحة أمام التغلغل الرأسمالي، وعلى جاذبية سياساتها للشركات المتعددة الجنسية، أو تقديم المعونة لمخططات الحكومات الأعضاء ذات الأهمية، وتتكشف الحقيقة حول النظام عندما يكون هناك تضارب صريح بين أهدافه المعلنة وجدول أعماله الحقيقي.

وبيروقراطية البنك الدولي يهيمن عليها الرئيس، ومن المؤكد أن كل رئيس جديد يجلب معه تغييرات في كل من الأسلوب والجوهر.

وهذا الكتاب يعتبر أكثر من نقد لجهاز بيروقراطي يتمتع بقوة هائلة، كما أنه يطرح بعض المسائل الأساسية حول طبيعة التطور الرأسمالي. ومن أخطر الاتهامات التي توجه للبنك الدولي ـ ولحكومات البلدان الرأسمالية المتقدمة التي تدعمه وتسيطر عليه ـ أنه يستخدم موارده المالية الهائلة باستمرار لسد الطريق أمام قوى التغيير التقدمي، سواء كانت محاولات جزئية لتحسين الأجور وظروف العمل ولزيادة السيطرة القومية على الاقتصاد، أو تغييرا راديكاليا يتحدى بقاء الحكومات التي تتلقى المساعدة من البنك. ا




■ كتاب الشهر ■

# مختارات
# الشعر الإفريقي في جنوب الصحراء

## عرض وتقديم: شربل داغر

تصدر هذه المختارات الجديدة، «الشعر الإفريقي في جنوب الصحراء»، عن «دار أكت سود» الفرنسية، وعن منشورات الأونيسكو في آن ضمن مسعى معروف عند الجهتين: فالدار هي التي تعنى بنشر وترجمة أعمال أدبية غير أوربية، ومنها العربية، وهي التي اشترت أيضا سائر العناوين التي أصدرتها «دار سندباد»، المتخصصة في التعريف بالثقافة العربية والإسلامية، بعد وفاة صاحبها ومؤسسها ومديرها، بيار برنار.

ضمن هذا المسعى تصدر المنظمة سلسلة جديدة بعد سلسلتها الأدبية الشهيرة، «آداب الشعوب»، وتختص بالتعريف بالشعر. ولقد اختارت للمختارات الجديدة تقسيما جديدا غير التقسيم الكولونيالي (المعتمد في عمليات «فرز» الشعوب والثقافات إلى «مجموعات»)، أي غير التقسيمات السابقة: الشعر الإفريقي المكتوب بالفرنسية، أو بالإنجليزية، أو بالبرتغالية أو بالإسبانية وغيرها. تعتمد تقسيما جديدا، وهو قسمة إفريقيا تبعا للصحراء، بين جنوبها وشمالها. وهي قسمة ثقافية في المقام الأول، تستند - بالإضافة إلى الجغرافيا - إلى حسابات ضمنية، فتميز بين مصر والسودان والمغرب العربي الكبير من جهة، أي الكتابة بالعربية، وغيرها من البلدان واللغات، من جهة ثانية. ضمت المختارات بالتالي قصائد مترجمة من لغاتها الأصلية إلى الفرنسية من البلدان التالية: كينيا، نيجيريا، ساحل العاج، غانا، الجابون، الكاميرون، مالي، إفريقيا الوسطى، موزامبيق، انجولا، بوركينا فاسو، زائير، تشاد، جنوب إفريقيا، سيراليون، مالاوي، غينيا، جامبيا، توجو، إثيوبيا، الصومال، موريتانيا، السنغال، جيبوتي، الرأس الأخضر، تنزانيا، النيجر، زيمبابوي، غينيا الاستوائية، بنين، رواندا، بوروندي، ناميبيا، الكونغو، زامبيا، أوغندا وغينيا بيساو. وعادت القصائد إلى الشعراء: عبد اللطيف عبدالله، شينوا أشيبا، جان - ماري أديافي، كريستينا آما آتا آيدو، بيار آكندينغويه، أوزرالدو ألكنتارا، فرنندو ديلمايدا، دان آناس، جاريد انغيرا، كوفي آنيدوفو، كوفي نيديفو آوونور، أمادو همباتيه بآ، بيار ماكومبو بموته، هيليودورو باتيستا، أرليندو برباتوس، خورخي بربوزو، جاك - بروسبير بازيه، فرنسيس بيبيه، أنطوان - روجيه بولمبا، تانيلا بوني، دانييل بوردانيه، كويزي برو، بريتين برايتنباخ وغيرهم مما يزيد عددهم على ١٦٧ شاعرا.

لن نطيل التوقف حول هذا الخيار في التقسيم، مدركين أن كل التقسيمات مجحفة لهذه أو تلك من الثقافات أو الجماعات أو المجموعات في إفريقيا. هذا ما واجهه واضعو المختارات دوما، منذ محاولة سنجور الأولى (التي قدم لها جان-بول سارتر) في العام ١٩٤٨، والتي سماها «مختارات الشعر الزنجي والملجاشي».

## يأتي صدور هذه المختارات باللغة الفرنسية في إطار المسعى من أجل إيصال ثقافات الجنوب للشمال.. بلغة أهل الشمال.

فهذه السمة التعيينية الأخيرة، أي «الملجاشية»، سقطت لاحقا من الحسابات، فما وجدناها في أي من المختارات التالية. هذا ما أصاب بدوره السمة الأخرى، أي «الزنجية»، حيث إن بعض واضعي المختارات احتفظوا بها ولكن بعد أن زادوا عليها السمة الأخرى، «الإفريقية»، فصارت «الشعر الزنجي - الإفريقي». كما أن بعضهم الآخر أسقطها مفضلا الكلام عن «الشعر الأسود». إلى هذا فإننا نعرف أن بعض واضعي المختارات قصروا الشعر المقصود بالتعريف والتقديم والترجمة على إفريقيا «الحالية» إذا جاز القول، في دولها المعروفة، فيما سعى غيرهم إلى الكلام عن الشعر الإفريقي في «الشتات» أيضا، أي عن شعراء يتحدرون من أصول إفريقية، أو منادين بهذه الأصول ضمن دعوة «الزنوجة» المعروفة، مما يعني أن «إفريقيا» (وكانت تعني فيما مضى في الكتابات العربية.. تونس الحالية وحسب) مشكلة خلافية في التعيين والفرز: فكم من واضع مختارات ضم شعراء مثل إدوار مونيك (جزيرة موريس)، وإيميه سيزير (جزيرة «الأنتيل» الفرنسية)، ورينيه ديبستر (هاييتي) مع شعراء أفارقة الأصل والإقامة.

لهذا نقول إن واضعي المختارات الإفريقية انقسموا عموما إلى ثلاث فئات:

- فئة اعتمدت التقسيم اللغوي، فأقامت مختاراتها على أساس الشعر المكتوب بالفرنسية أو الإنجليزية أو البرتغالية أو غيرها.
- وفئة اعتمدت التقسيم الجغرافي في الفرز، فقسمت إفريقيا على أساس الصحراء، أو الشمال والجنوب.
- وفئة ثالثة وأخيرة اعتمدت، مع أحد التقسيمين

POÉSIE D'AFRIQUE AU SUD DU SAHARA 1945-1995

غلاف الكتاب

المذكورين، تقسيما ثالثا، وهو إلحاق شعراء من أصول إفريقية، ولو بعيدة، بهم.

نكتفي بهذا القدر من الكلام عن المختارات، مدركين سلفا أن أي عملية تقسيم لن تشكو من صعوبات، ولا من نقد الناقدين. وما يعنينا في المقام الأول في عجالتنا هذه، هو التعريف بالمختارات الجديدة. وما يشد انتباهنا في أمرها هو أنها، بخلاف العديد من المختارات قبلها، اعتمدت اختيار قصائد من غير لغة إفريقية أو من غير لغة معتمدة فيها. فواضعها، الكاتب الفرنسي برنار مانييه، لم يكتف باختيار أشعار مكتوبة بالفرنسية، أو بالإنجليزية، أو بالبرتغالية، أو الإسبانية، أي من اللغات الاستعمارية المستمرة في بلدان إفريقيا، وإنما عمد إلى تقديم أشعار مكتوبة في لغات إفريقيا المحلية، مثل لغات: السواحيلي، والهوسا، واليوروبا، والولوف وغيرها. ولهذا نقول إن وضع هذه المختارات لافت، حيث إن واضعها واحد، فيما ترجمها العديدون. فما هي السياسة التي اعتمدها الكاتب مانييه في ترتيب واختيار الشعراء؟

اختار مانييه لمختاراته فترة زمنية تقيد بها، وهي السنوات ١٩٤٥ - ١٩٩٥، مما يجعلنا نتعرف، لا القصائد البارزة والتأسيسية في بعض الأحوال في هذا الشعر، بل نتاج بعض الشعراء الأخير، وهو ما يعطي هذه المختارات طابعا تاريخيا مفتوحا طالما تجنبته مثل هذه الأعمال عادة: فواضع المختارات يتهرب عادة من اختيار قصائد «طازجة»، صادرة للتو، خشية سقوطها أو فقدان قيمتها مع الوقت.

اخترنا تعريف قارىء «العربي». والعربية عموما، بعض الشعر الماثل في المختارات، فعمدنا إلى ترجمة بعضه، وهي قصائد للشعراء: بيراغو ديوب (١٩٠٦ - ١٩٨٩) من السنغال، كيتا فوديبا (١٩٢١ - ١٩٦٩) من غينيا، تشيكايا أوتامسي (١٩٣١ - ١٩٨٨)، من مواليد مبيلي، ومكسيم ندبيبكا (١٩٤٤) من مواليد برازافيل، في الكونغو.

بيراغو ديوب، من مواليد ١٩٠٦ في السنغال: عضو نشيط وبارز في مجلة «الطالب الأسود» التي أسسها سنجور في باريس في الثلاثينيات، وأدت دورا لافتا في نهضة إفريقيا الأدبية. اشتهر بحكاياته الإفريقية التي كان ينقلها عن ألسنة الرواة في بلده، ثم يكتبها بالفرنسية، وقد نشرها في ثلاثة مجلدات. من أعماله الشعرية: «أفخاخ وأضواء»، التي اختارت منها المختارات هذه القصيدة، وهي بعنوان: «أنفاس»:

«استمع أكثر
إلى الأشياء منها إلى الكائنات
يمكننا سماع صوت النار
استمع إلى صوت الماء
استمع في الريح
إلى الدغل دامعا:
إنه نفَس الأسلاف.
الذين ماتوا لم يرحلوا أبدا:
هم في العتمة التي تضيء
وفي العتمة التي تتضخم.
الموتى ليسوا تحت الأرض:
هم في الشجرة التي ترتجف
هم في الغابة التي تتأوه
هم في الماء الذي ينام
هم في الكوخ، هم في الحشود:
الموتى ليسوا موتى
استمع أكثر
إلى الأشياء منها إلى الكائنات
يمكننا سماع صوت النار
استمع لصوت الماء
استمع في الريح
إلى الدغل دامعا:
إنه نفس الأسلاف الموتى،
الذين لم يرحلوا أبدا
الذين ليسوا تحت الأرض
الذين ليسوا موتى.
الذين ماتوا لم يرحلوا أبدا:
هم في ثدي المرأة،
هم في الطفل الذي يستهل

وفي الجذوة التي تحترق
الموتى ليسوا تحت الأرض:
هم في النار التي تنطفيء
هم في الأعشاب التي تبكي،
هم في الصخرة التي تنوح،
هم في الغابة، هم في الإقامة،
الموتى ليسوا موتى.
استمع أكثر
إلى الأشياء منها إلى الكائنات،
يمكننا سماع صوت النار
استمع إلى صوت الماء.
استمع في الريح
إلى الدغل دامعا:
إنه نفس الأسلاف.
إنه يعيد كل يوم قول الميثاق،
الميثاق الكبير الذي يوثق،
الذي يوثق مصيرنا
بالقانون،



بأفعال الأنفاس القوية
مصير موتانا الذين ليسوا موتى،
الميثاق الثقيل الذي يوثقنا بالحياة.
القانون الثقيل الذي يوثقنا بأفعال
الأنفاس التي تتلاشى
في سرير النهر وعلى ضفافه،
الأنفاس التي تتأوه
في الصخرة التي تتأوه وفي الأعشاب التي تبكي
أنفاس باقية
في العتمة التي تضيء والتي تتضخم
في الشجرة التي ترتجف، في الغابة التي تتأوه
وفي الماء الذي يجري، وفي الماء الذي ينام،
أنفاس أقوى أخذت
نفس الموتى الذين ليسوا موتى،
الموتى الذين لم يرحلوا،
الموتى الذين ليسوا تحت الأرض.
استمع أكثر
إلى الأشياء منها إلى الكائنات،
يمكننا سماع صوت النار
استمع إلى صوت الماء.
استمع في الريح
إلى الدغل دامعا:
إنه نَفَس الأسلاف».

***

كيتا فوديبا، من مواليد ١٩٢١ في غينيا: معروف خصوصا بتصاميم الرقص الإفريقي التي ابتكرها في نطاق «الباليه»، والتي عرضها في غير بلد من العالم. نشر في العام ١٩٥٨ ديوانا بعنوان «قصائد إفريقية»، يستجمع فيه أطراف الشعر والنثر، موسيقى الآلة الإفريقية والأغنيات، المونولوجات والجوق، وهي من مميزات الأدب الشفوي الإفريقي. توفي في العام ١٩٦٩. اختارت له المختارات هذه القصيدة، وهي بعنوان: «فجر إفريقي».

«كان هذا عند الفجر: الضيعة الصغيرة تستيقظ رويدا رويدا بعد أن رقصت طوال الليل على أصوات الطام - الطام. الرعاة يقودون قطعانهم إلى الوادي وهم ينفخون في شباباتهم. الصبايا، بقدورهن الفخارية، يهربن واحدة تلو الأخرى باتجاه ممر النبع المتعرج، وفي باحة مقام الوالي الصالح تنشد مجموعة من الأطفال آيات قرآنية.

كان هذا عند الفجر. معركة النهار والليل. إلا أن الليل خارت قواه وانطفأ ببطء. أشعة شمس قليلة مثل إشارات مبكرة تتجرجر خجولة وصفراء عند الأفق. أشعتها الأخيرة تنزلق بنعومة بين أكوام الغيوم مثل أزهار العندم الهندي.

كان هذا عند الفجر. وهناك في البعيد، في عمق السهل الشاسع ذي الحدود القرمزية، شبح إنسان منحن يستصلح أرضا: شبح نامان، المزارع. إثر كل ضربة من مجرفته، تطير العصافير المذعورة وتلتحق بخفق الجناح بضفاف «دجوليبا» الهانئة. بنطاله القطني الرمادي، يضرب العشب المبلل بالندى. لا يبالي بالتعب، يستعمل أدواته بمهارة: إذ كان عليه أن يطمر حبوبه قبل هطول الأمطار الأولى».

مكسيم نديبيكا من مواليد العام ١٩٤٤، في برازافيل بالكونغو. له مسرحيتان: «الرئيس»، و«الغد المغني»، ومجموعات شعرية عدة، منها: «شموس جديدة» (١٩٦٩)، «الحميض والليمون» (١٩٧٥)، «علامات الصمت» (١٩٧٨). اختارت المختارات هذه القصيدة من ديوانه الأخير، وهي بعنوان: «٩٨٠٠٠٠».

«سنة أخرى
تحترق تحت شمس البيض الفارغ
سنة مفرغة
سنة غير مُوشومة
بأية لطخة زمنية
سنة ليست بسنة
سنة مهملة
كانت تعرج بالأمس
واليوم تميل إلى القِصَر
سنة أخيرة
مغيرة بحجم ذرة
استولت عليها الأشباح وقضمتها
قصرت الأيام
ويكاد القمر أن يخترق الليل.
هل سنجرؤ على سؤال الشمس
عن قِصَر طريقها غير المعتاد
إذا كانت ممرات الليل مقفرة
هل سنقوى على طرح الأسئلة
لماذا أثداء النساء مجدبة
لماذا جفت الأنهار
لماذا ترشح إهراءات الأرض
لماذا تفرغ خزانات السماء
لماذا تنقص الحياة
لماذا تنقص الحياة هناك
وتزداد هناك
هل تغذي الجهة هذه الجهة الأخرى
من يقوى من يقوى من يقوى؟
نحن نقوى على ذلك
نحن الـ ٩٨٠٠٠٠
الـ ٩٨٠٠٠٠ مجوع
ومكسور
ومخبول».

***

تشيكايا أوتامسي (١٩٣١ - ١٩٨٨)، من مواليد مبيلي في الكونغو، والده، جان - فيليكس تشيكايا (١٩٠٢ - ١٩٥٩)، زعيم كونغولي مرموق: أول نائب عن الكونغو في الجمعية الوطنية التأسيسية بفرنسا في العام ١٩٥٤، ثم مرة ثانية في العام ١٩٥٦، كما جرى انتخابه نائبا في الجمعية الوطنية الفرنسية، وهو مؤسس «الحزب التقدمي الكونغولي».

أما ابنه الشاعر فأقام في فرنسا منذ العام ١٩٤٦، وما لبث أن عاد إلى بلده، ورأس تحرير جريدة «الكونغو»، واقفا إلى جانب الزعيم الكونغولي

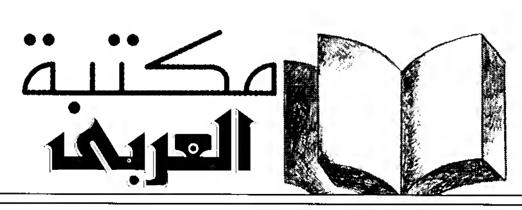
الراحل باتريس لومومبا في نضاله التحرري. عاد إلى باريس مرة ثانية وأقام فيها بصورة مستمرة، عاملا في منظمة اليونسكو، حتى وفاته في العام ١٩٨٨. كرمه بعد وفاته «موسم أصيلة الثقافي» في المغرب (ومنه «المنتدى الثقافي العربي ـ الإفريقي») بأن خصص جائزة شعرية للشعر الإفريقي تحمل اسمه مرة كل سنتين. صدرت له، بالإضافة إلى الروايات والمسرحيات، عدة دواوين شعرية: «الدم الفاسد» (١٩٥٥)، «نار الأدغال» (١٩٥٧)، «خداعا للقلب» (١٩٦٠)، «موجز: مداخل فهرست العشق» (١٩٦٢)، «البطن، متبوعا بـ: الخبز والرماد» (١٩٦٤)، «القوس الموسيقي» (١٩٧٠)، و«السترة المنزلية متبوعا بـ: فقرات السهر» (١٩٧٧). اختارت له المختارات قصيدتين: «ضفيرة للنسج» من ديوان «نار الأدغال»، و«احتضار» من ديوان «خداعا للقلب»:

القصيدة: «ضفيرة للنسج»:

«بعد أن أفشى سر الشمس
رغب في كتابة قصيدة حياته
لماذا البلوريات في دمه
لماذا الكريات في ضحكاته
كانت روحه يانعة
حين صرخ أحدهم في وجهه
أيها العبد الأسود
احتفظ بضحكته العذبة
وبشجرة ضخمة من تمزقه العنيف
الذي هو وطنه
يسكن فيه مثل المتوحش
خلف المتوحشين أمام المتوحشين
نهره كان القصعة المأمونة
لأنها كانت من برونز
لأنها كانت لحمه الحي
عندها قال لنفسه
لا حياتي ليست قصيدة
ها هي الشجرة ها هي المياه ها هي الأحجار
ثم قراءة الأيام القادمة».

القصيدة «احتضار»:

«اسمي أفضل مفتاح للأحلام
كل عصفور يغني
في بركة من الدم
كان البحر بجانبنا يرقص
بالجينز.
جداف أسود
عارف بالنجوم
يقول إنه قادر على شفاء البُرص من البَرص
بوحل عيونه الحزينة
إذا حرر حبٌ قويٌ ذراعيه
اسمي مفتاح الأحلام
لست برصاء
اعطني هذا النهر قبل أن أتفوه باسمي
وتنحل ذراعاك
عندي مجداف مغن
أين هو النهر للعبور
أهي بركة الدم هذه
اتبعني
أغمض عينيك
افتكر بالقمر
تأمل نهري
لنعبر
أنشد الرجل والعصفور
قضيا ثلاثة نهارات وثلاث ليال
في عبور
السرير الملوث لأحد الأنهار
اسمعوا
الموج يهدهد الجداف
إنه ينام
إنه يحلم
ركام من الجثث يبسط وليمة
يتم فيها أكل الأحشاء ليلا
ثم السواعد ثم ذاكرته».




# مختارات



مركز دراسات الوحدة العربية

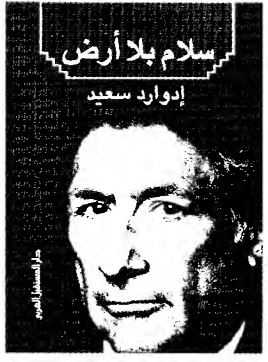
تنمية للضياع !
أم ضياع لفرص التنمية ؟

الدكتور علي خليفة الكواري

## تنمية للضياع أم ضياع لفرص التنمية؟

د. علي خليفة الكواري
مركز دراسات الوحدة العربية/ بيروت ـ ١٩٩٦

يدرس د. الكواري في كتابه هذا آفاق التنمية في بلدان مجلس التعاون لدول الخليج العربية ولاسيما قطر.. وفي دراسته يتعرض لمسألة الخلل السكاني في هذه البلدان واعتمادها على العمالة غير العربية، ويتطرق لظاهرة تآكل ريع النفط، ويؤكد أن آفاق التنمية في دول الخليج لاتزال رحبة إذا توافرت الإرادة السياسية.




## أوسلو ٢ سلام بلا أرض

إدوارد سعيد
دار المستقبل العربي/ بيروت ـ ١٩٩٥.

إنه الجزء الثاني من كتاب «غزة ـ أريحا: سلام أمريكي» والذي تضمن مقالات عن عملية السلام في الشرق الأوسط. يأتي هذا الكتاب بجزأيه مواكبا لفترة من أشد فترات التاريخ العربي المعاصر درامية ومأساوية.




## حكايات المدندش/ رواية

أحمد الشيخ
دار الهلال/ القاهرة - ١٩٩٦

يستأنف الروائي القاص أحمد الشيخ غوصه في حكايا كفرعسكر، فتجيء (حكايات المدندش) جزءا ثالثا، و(كفرعسكر) هي القرية التي اتخذها المؤلف خلفية للأحداث، وبطل هذا الجزء هو المدندش طبّال الكفر، وهو الراوي الذي يكشف المخبوء ويزيح الستار عن المحجوب من أسرار.




## كل على حدة «شعر»

دنيا الأمل إسماعيل
الفرسان للنشر والتوزيع/ القاهرة ـ ١٩٩٦

للرمزية مكانها الأول في شعر دنيا الأمل إسماعيل.. وتزداد الرمزية في شعر دنيا الأمل إسماعيل فعالية حينما تغلفها الرومانسية، ومن يقرأ قصائد هذا الديوان الذي يعد باكورة نتاج الشاعرة يحس بشفافيتها ورقتها وأفكارها الجميلة، التي تبشر بشاعرة فياضة المشاعر وعذبة الألفاظ.

**عادات وتقاليد الحارات الدمشقية القديمة**
**إلفة الإدلبي**
**إشبيلية للدراسات والنشر/ دمشق - ١٩٩٦**

من قصصها تفوح رائحة الياسمين والكباد الشامي.. وفي كتاباتها تتجلى دمشق بأسواقها وحواريها وغوطتها وبقاسيونها الشامخ، وتسمع عبر أحاديثها أجمل الحكايات الدمشقية.. تأثرت بمن حولها وأثرت فيهم، ويظهر ذلك واضحا في كتابها هذا الذي يحوي فصولا في الأدب، استحضرتها الأديبة الكبيرة من الماضي القريب والتاريخ البعيد.

**اللاشعور.. بحث في خفايا النفس الإنسانية**
**جان كلود فيلو**
**ترجمة علي أسعد وطفة**
**دار معد للطباعة والنشر/ دمشق - ١٩٩٦**

معرفة النفس الإنسانية من أشرف المعارف وأطهرها، لذلك عني بها الفلاسفة وعلماء النفس منذ القديم، ويأتي هذا الكتاب مكملا النسق نفسه إذ يحاول اكتناه خفايا وخبايا النفس، وهو في سياق ذلك يستعرض معطيات علم النفس التي كرست لدراسة مجاهل النفس الإنسانية وإدراك هويتها.

**أصدقاء**
**سعيد الصبّاح**
**دار العلم للملايين/ بيروت - ١٩٩٥**

منها الهازل والساخر والعابث والمداعب، ومنها الحكيم والرزين والهادف والأنيس. تلك هي المقالات التي تضمنها هذا الكتاب، لذا يجد قراؤه المتعة، وما يزيد في متعتهم أسلوب الكاتب المتميز بنداوته ودعابته المستمدة من طبيعته، لذلك استأنس بالناس وأنسوا به، واستمد مما حوله مروياته هذه.

**الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية**
**نجدة فتحي صفوة**
**دار الساقي/ لندن-١٩٩٦**

يبحث الكتاب أغزر مجموعة وثائقية في العالم، حيث اهتمت بريطانيا منذ عام ١٨٣٨ بتأسيس دار لحفظ أوراق الدولة، حيث تضم هذه الوثائق، أوراق مجلس الوزراء البريطاني ومداولاته ومراسلاته، والمؤلف الذي بين أيدينا يبحث في شأن منطقةعربية مهمة منذ عام ١٩١٤ إلى ١٩٣٢ في حوالي ١٢ جزءا، صدر حتى الآن الجزآن الأول والثاني منها.



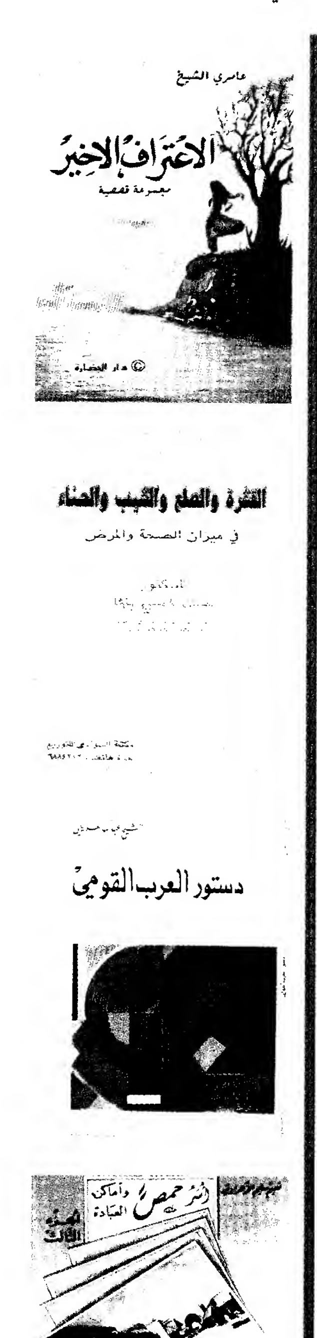











**الاعتراف الأخير «قصص»**
**عامر الشيخ**
**دار الحضارة/ الجزائر - ١٩٩٤**

باكورة الأعمال لقلم منبثق من ثنايا الواقع الاجتماعي، تنبض قصصه بصورة فنية في مواطن متعددة، وتحفل بالمواقف الإنسانية النبيلة الشاهدة على الصراع الأزلي بين الفضيلة والرذيلة.. وقد يشعر القارىء لنتاج هذا القاص الشاب بعبق الأرض الطيبة في الجزائر.

**القشرة والصلع والشيب والحناء**
**د. حسان شمسي باشا**
**مكتبة السوادي/ جدة - الطبعة الأولى ١٩٩٥**

قال (ص): «من كان له شعر فليكرمه».. فالشعر النظيف البراق يجعل الإنسان يبدو أنيقا وجميلا ويدخل في نفسه السعادة والسرور، وهو يساعد في حماية الرأس من الشمس ويمنع فقدان الحرارة من الجسم.

من هذه النقاط ينطلق المؤلف في بحثه الذي يهم الكثيرين، لاسيما ممن يعانون من تساقط الشعر أو إصابته بمرض، مبيناً أن الشعر لا ينتهي عمره في لحظة واحدة، فقد تسقط الشعرة لتبزغ جارتها مطلة في بداية عمرها.. تأتي أهمية الكتاب من أهمية الشعر بالنسبة للإنسان صحيا وجماليا.

**دستور العرب القومي**
**الشيخ عبدالله العلايلي**
**دار الجديد - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٩٦**

يعزو الكاتب اهتمامه بهذا الموضوع إلى أن العرب لم يزودوا بفكرة منسقة عن القومية، بحيث تصنف لهم كتعليم، وإنما شعروا بهبوب ريحها فأخذتهم نشوة مبهمة استحالت إلى نشاط فحركات سطحية، لكنها انفصالية لم تتشابك بحيث تدير البناء الآلي للمحيط العربي.

يحاول هذا الكتاب دراسة هذا الموضوع باهتمام وبجدية مميزة.

**أسر حمص وأماكن العبادة**
**نعيم سليم الزهراوي**
**المرساة/ سوريا - ١٩٩٦**

بينما يدفع إيقاع عصرنا اللاهث الناس للابتعاد عن جذورهم، يتوجه هذا العمل التأريخي الوثائقي للَم الشمل في مدينة حمص واستكمال تفرعات أشجار عائلاتها. وبيان نقاط اتصالها، وهو في هذا التأريخ الخاص يتصل أشد الاتصال بالتأريخ العام للمدينة الثرية بمواقعها ومواقفها ومزاراتها التاريخية جميعاً، وعبر الوثائق القديمة وحجج النسب ولقاءات الاستقصاء يضع المؤلف، موسوعة حميمة لمدينة عربية تعج بتميز التقاليد والعادات.

### لماذا غزا صدام الكويت؟
د. مسلم بن علي مسلّم
دار الساقي/ بيروت-١٩٩٥

ما هو الدور الذي لعبه كل من القائد والنظام السياسي العراقي والنظام الدولي في قيام حرب الخليج (١٩٩٠ ـ ١٩٩١)، التي أثارها الغزو العراقي الغاشم لدولة الكويت في أغسطس ١٩٩٠؟

يحاول المؤلف الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال التدقيق في إطار يشمل صدام حسين ودولة العراق والفوضى التي أعقبت الحرب الباردة وانعكست على الخليج.

### مطلقات صغيرات في المجتمع الكويتي
د. عبد الرءوف الجرداوي وعبدالله غلوم الصالح
شركة الربيعان للنشر/ الكويت ـ ١٩٩٦.

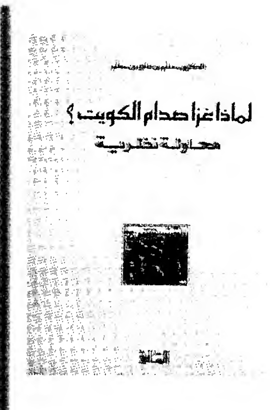
الطلاق أبغض الحلال إلى الله.. ويلقي هذا الكتاب الضوء على هذه الظاهرة ونتائجها، حيث ارتفعت معدلات الطلاق في السنوات الأخيرة عن ذي قبل لأسباب عديدة. كما يتتبع المؤلفان آثار الطلاق ومشاكله على مصير النساء والأبناء، ويحاولان إيجاد معالجة إيجابية لها من خلال الدراسة الميدانية التي اعتمدا عليها.

### ليلى العثمان رحلة في أعمالها غير الكاملة
عبداللطيف الأرناؤوط
إشبيلية للدراسات والنشر/ دمشق ـ ١٩٩٦

يرتحل الناقد الأرناؤوط عبر الطبيعة والمجتمعات التي صورتها هذه القاصة الكويتية في أعمالها، لا يألو جهدا في تعرف شخوص وأبطال قصصها وانتماءاتهم وماذا يريدون.. يرتحل وزاده عين الناقد وقلم الأديب وفي نهاية المطاف يقدم هذا الكتاب الذي يضمنه خلاصة رحلته في ذلك النتاج الغزير.

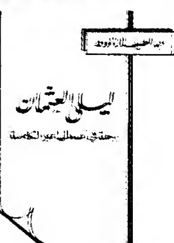
### مذكرات المرأة المصرية
د. محمد الجوادي
دار الشروق/ القاهرة ـ ١٩٩٥

دراسة تحليلية نقدية لمذكرات مجموعة من الشخصيات والكاتبات المصريات أمثال: د. بنت الشاطىء، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، واعتدال ممتاز، ونوال السعداوي وغيرهن. وهو كتاب عن المرأة المصرية يعيد المؤلف فيه قراءة عشرة كتب مهمة صدرت خلال العقدين الأخيرين بأقلام نسائية تراوحت أدوارها بين الإبداع الفني والعمل السياسي ويتقصى الكتاب التجارب الخاصة لهذه الشخصيات، مركزا على الأبعاد الإنسانية والشخصية.

















# القردة تعترض!

انهال القرد بالعصا فوق ظهر الرجل الذي دخل الغابة ليجمع الحطب. ثم أخذ يبادله اللكمات بعد ذلك بينما بقية القرود الأخرى جالسة على أغصان الأشجار وهي تصفق كأنها تشاهد مباراة ممتعة. وفي النهاية هرب الرجل مذعوراً من الغابة، ومن المؤكد أنه كان يقسم إنه لن يعود إليها مرة أخرى.

حدث هذا في إحدى غابات نيجيريا حيث بدأت الحيوانات تدافع عن بيتها الذي لم يعد آمنا في مواجهة انتهاكات الإنسان المتكررة. لقد اختارت القرود هذه المرة ضحية عزلاء لا تملك بندقية أو منشاراً أو جرافة تكتسح ما أمامها من أشجار الغابة، ولكن من يدري ماذا تختار غدا؟! . ولقد جاء الدور على بقية الحيوانات كي تمارس كل ما تستطيعه من أجل الدفاع عن ملاذها الأخير. . عليها أن تبرز أنيابها ومخالبها وأن تقوم بهجمات انتحارية ضد كل من يحاول إصابة خضرتها بالموت. فلم تشاهد البشرية في تاريخها الطويل مثل هذا الاعتداء على البيئة التي تعيش عليها. ففي هذا القرن أتلفنا آلاف الغابات التي تكونت على مدى مليارات السنين، وكأننا بذلك نضيع كل المخزون التاريخي لهذا الكوكب الذي وجدنا عليه. فقد تسببت إزالة الغابات الاستوائية في انقراض ١٧٥٠٠ نوع حيواني ونباتي بشكل سنوي، أي أن معدل الانقراض قد وصل إلى ١٠ آلاف ضعف ما كان عليه الوضع قبل ظهور الإنسان. وإذا استمر الحال بنفس هذا المعدل فسوف تختفي ربع الأنواع في حوالي ٣٠ إلى ٥٠ عاما. أي أنه في خلال ٢٠٠ عام سوف تنقرض كل أشكال الحياة على الأرض. أليس هذا أمراً مفزعاً؟، وهل نبالغ إذا قلنا إن سكان العالم الذين سوف يصل عددهم إلى عشرة بلايين نسمة في بداية القرن القادم سوف يفاجأون بالأرض وقد قبضت يدها وقلصت غلتها؟. لقد تراجع الإنتاج الزراعي في ٩٤ دولة وانخفض صيد السمك بمقدار ٤ ملايين طن سنويا. . وهذه الكارثة ليست بعيدة عنا كما نتصور - نحن أهالي الصحراوات الوادعة. ففي الخليج وخلال حرب تحرير الكويت تم إلقاء حوالي ٨ ملايين برميل من النفط في تلك الرقعة الضيقة من المياه ومازالت السواحل الكويتية تعاني من هذا الأمر، وفي بعض مناطق الصحراء انخفض عدد الحيوانات التي كانت تقدر بالآلاف إلى بضع مئات فقط، ومازالت برك النفط تغطي مساحات كبيرة من الرمل. . أليست القرود على حق إذن عندما تهوي على الإنسان ضربا لعله يفيق من الحماقات التي يصنعها بيديه؟.

إننا نود لو نحضر مجموعة القرود العاقلة هذه كي تعطي علقة ساخنة لكل المجانين الذي سببوا هذه الكوارث في الخليج. . وفي بقية العالم.

